د. حنان لاشين

سقطرى

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو / 2021م
رقم الإيداع: 2021/09713م
الترقيم الدولي: 6-168-992-977-978

المؤلف: حنان لاشين
تدقيق لغوي: وسام محمد نبيل
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

د. حنان لاشين

سُقُطرى

عصير الكتب

إهداء

إلى العَنَادِل.

عائلة «أبادول» .

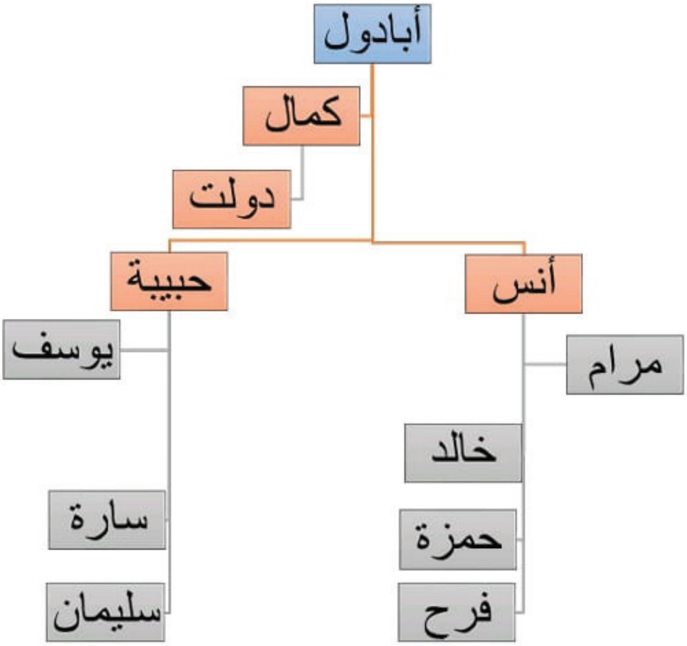
أبادول
كمال
دولت
حبيبة
أنس
يوسف
مرام
خالد
سارة
حمزة
سليمان
فرح

***

لا تظنّ أنّك تعرف كلّ شيء عن مملكة البلاغة،
هناك المزيد من الأسرار.

***

في طيّ النّسيان!

الرّياح المِهداج[1] تطوف بالجزيرة، كان صفيرها المَهيب يدوّي في الأرجاء، هرب أهل «سُقُطْرى»[2] للبيوت، وسكنت الكهوف في أحضان الجبال وأصبحت كالقبور المفتوحة، لفحت الرّياحُ الجروفَ الصّخرية، وكانت الوديانُ مُقفرةً موحشةً وخاليةً من الأصوات والأنفاس. شَحب ضوء الشّمس عندما حجبته غيوم السّماء، هاج المحيط وفار ماؤه، وألقى بأمواجه على الشّاطئ في غضب. كان «المُعلّم النّبيل» يسير وحده، هكذا يُنادونه، ما عاد أحد يناديه باسمه الحقيقيّ، وكان هذا لنُبل أخلاقه؛ ولأنّه كان أكثر المعلّمين رفقًا بتلاميذه في مدرسة الحكمة، كما أنّه أكثرهم تواضعًا. كان ينقل ساقيه ببطء، والرّياح الذّاريات[3] تذروها بحبّات الرّمال فتلسعه فيها، لكنّه لا يبالي. كان يروق له أن ينفرد بالمحيط، وكثيرًا ما كان يقف ليتأمّل زُرقة مائه اللازورديّة وهو يتفكّر في هذا العالم العجيب الّذي يقبع تحت سطحه، فيُطيل الصّمت ويُطرق طويلًا، يُنصت لأمواجه وما تحمله من همس وبوح وحكايات، ويستلذّ بحبّات مائه الباردة الّتي ينثرها الموج على ثوبه. وقف أمامه وعقد ذراعيه

(1) ريحٌ مهداجٌ: شديدةُ الصوت.

(2) ترجع شهرتها وأهميتها التاريخية إلى بداية العصر الحجري، سميت عند قدماء اليونان والرومان بجزيرة السعادة. ويعتقد أن اسمها محرف عن الكلمة السنسكريتية (سكهادارا) وتعني جزيرة السعادة.

(3) ريحٌ ذاريات: تحرّك التراب والرّمال والماء لتحملها من مكان لآخر.

خلف ظهره، فضربت الرّياح بطرف جلبابه فرفرف كالراية البيضاء، ثَبت كالوتد في مكانه، وظلّ الموج يروح ويجيء حتّى غاصت قدماه في الرّمال، داهمته موجة عالية فأغرقته وبللت وجهه ولحيته الّتي شعثتها الرّياح منذ لحظات، فمسح وجهه وأغمض عينيه واستراحت نفسه، فهنا يغسل همومه، وتصفو روحه. عندما فتح عينيه، انتفض وكأنّ صاعقة من السّماء أصابت جسده، كان مُحاطًا بطائفة من الجنّ؛ أجسادهم تموج وكأنّها قوارير من زجاج مُلِئَتْ بماء المحيط الأزرق، شهق عندما رآهم وتواثبت دقّات قلبه، وسقط على ظهره وهو يُحاول الزّحف للخلف مُبتعدًا عنهم، لكنّهم أقاموه وأحاطوا به، ودنوا منه فرأى على رؤوسهم قلانيسَ بزُرقة ماء المُحيط، وكان لحضورهم وَقْعٌ في النفس مَهيبٌ. تصفّح وجوههم المُستديرة في وجوم، ألقوا عليه السّلام فتلعثم وهو يُجيبهم، وكأنّه لم يكن يومًا مُعلّما أو حكيمًا مفوّهًا من حكماء الجزيرة، داروا حوله، وبرز زعيمهم من بينهم فجأة، ووقف قبالته وغرز صولجانه في الرّمال أمامه، وكانت تلك علامة التّوقير له، لكنّه لم يكن يعلم! تعلّقت عيناه بتاج العقيق الأزرق الّذي كان فوق رأس هذا الزّعيم، ثُمّ رنا للجوهرة على طرف صولجانه وهي تضوي وتبرق، ثُمّ نقل نظراته بجفنين مرتعشين نحو فمه، ووقف ليُنصت إلى حديثه، فاتّسعت عيناه من فرط الاندهاش، ونُقشت كلّ كلمة باح له بها في ذاكرته، وعندما شقّ البرق صفحة السّماء، وتلاه الرّعد الّذي ارتجّ بدنه مع صوته، انــحنوا أمامه برؤوسهم في خشوع، وانسحبوا في هدوء ونظام كما تُسحب الأمواج وهي تملّس على حبّات الرّمال، وابتلعهم المحيط الرّحيب بزُرقته، فركض المُعلّم النّبيل نحو قريته.

1

عائلة أبادول

كان يومًا مُشرقًا مُترفًا بالضياء، السُّحب الهشّة تنساب بجلال في السّماء، انسكب ضوء الصباح من النّوافذ فأضاء ممرّات الطّابق العلويّ بانعكاسات بديعة رسمها الزجاج الملّون لترتعش فوق الأرضيّة الخشبية، وتنساب من زاوية أخرى لتداعب في رقّة تلك النّجود[1] ذات الزّهور المطرّزة على خلفية من نسيج الحرير الأسود المعلّقة على الجدران، هبّت نسمات عليلة حملت رائحة الرّيحان لأركان البيت لتُهدهد بها جنباته، لا يزال الغموض يكتنف بيت عائلة «أبادول»، والجيران يتساءلون لماذا حتّى الآن لم تهدم تلك العائلة هذا البيت ليقيموا على أرضه عمارة فارهة؟ أو حتى يبيعوا أرضه بمبلغ خياليّ ليتقاسموه بينهم! كانوا يُراقبونه من النّوافذ بفضول، لكنّ «حبيبة» و«مرام» مَوَّهَتا النّوافذ المواجهة للعمارتين المقابلتين بسُجوفٍ[2] عمياء من قطيفة زرقاء لا ينفذُ منها شعاعُ ضوءٍ، أما النوافذ الأخرى الّتي كانت على طول

(1) النّجود: سُتُورٌ تُعَلَّقُ عَلَى جُدْرَانِ الْبَيْتِ لِيُزَيَّنَ بِهَا.

(2) السُّجوف: جمع السِّجْف وهو أَحدُ السِّتْرَين المقرونَين، بينهما فُرْجَةٌ.

الممر بالطابق العلوي فاستبدل «أنس» بزجاجها الشفّاف زجاجًا ملوّنًا، يسرّبُ الضوءَ ولا يكشِفُ سِتْرَ البيت.

هناك في الجهة الخلفيّة والتي كانت تشمل السّاحة التي بُنيت على أرضها المكتبة العتيقة والحديقة الواسعة كان الطريق الرئيسيّ يقبع خلف السّور المحيط بالبيت، حيث يسبح نهرٌ جارفٌ من السيّارات باستمرار، وكانت قمم أشجار الحديقة السّامقة تتكاثف وتتعانق بأغصانها وفروعها مُشكِّلَةً مظلّةً سُندسيّةً فوقَ البيتِ وأهلِهِ، لوّنَتْ أشعة الشّمس المتسربة من خلالها بلونٍ أخضرَ خلّابٍ، فباتت الحديقةُ مصدرَ راحةٍ لهم بعيدًا عن أعين الجيران، فاجتمعوا فيها كثيرًا، وطُبعت في أرواحهم الذّكرياتُ الجميلةُ.

ظلّ الجيران يرددون أنّ هذا البيت العتيق لا يزال متينًا، وأنيقًا، وغامضًا! وكان صامدًا بالفعل على الرّغم من مرور الكثير من الأحداث بالحيّ، تغيّرات كثيرة طرأت على المنطقة، هدم وبناء في العمائر حوله، ونزوح بعض سكّان الحيّ لأماكن أخرى، وعلى الرّغم من مرور عشرة أعوام على ظهور ذلك الشّاب الّذي همس لأفراد تلك العائلة وعيناه تسبحان في حيرة إنّه من «المستكشفين»، ورغم الزّلزال العاصف الّذي تعرّضت له العائلة، ظلّوا قابعين بهذا البيت، وكانت الأيّام إبان تلك الفترة ثقيلة عليهم جميعًا، بيد أنّ السنوات بعدها تسارعت وتطايرت كالدّخان. كانت تلك القطّة الّتي أهدتها الأميرة الفاتنة من بنات «سَرمد» لـ «مرام» لا تزال هناك، ولا تكفّ عن المواء، وتطوف بالبيت بعينيها الزّمرّدتين في يقظة وتنمّر لكل غريب يقترب من باب بيت «أبادول».

بعد انتقال «أبادول» لمملكة البلاغة، وتلك الأحداث الأخيرة التي غيّرت خارطة حياتهم للأبد، وبعد أن اجتمع كلّ أفراد الأسرة ليعيشوا

جميعًا تحت سقف هذا البيت، انقسم البيت لجناح علوي وآخر سفلي، للحفاظ على الخصوصية.

ما زال القبو والغرفة السفلية الغامضة المخصصة للتخزين أسفل البيت غَارقين في الغموض، ما عادوا يخافونهما بعد معرفة سرّهما، لكن بقيت لهما هيبة!

سَكن البيت، وتوجّه الجميع لغُرفهم للاستعداد للنّوم، وبقيت «فرح» وحيدة. كان رداء زفافها الأبيض معلّقًا على الخزانة، بدا ساحرًا تحت أضواء مصابيح الغرفة، أحاطته هالة من الشفافية وكأنّ قماشه يُشع ضوءًا حانيًا كهالة القمر، بينما انعكست ألوان الطيف من الكريستالات المتناثرة على الأكمام واللآلئ الموشّى بها الذّيل على عينيها البُندقيّتين، وقد استقرّ تحت الرّداء حذاؤها الأنيق، وعُلّق وشاح من التلّ الأبيض على كتفه. كانت «فرح» تتحسس الرّداء بكفّيها وهي تتخبّط في حيرة، ولا تدري هل تبوح بسرّها لعريسها أم لا؟

ويا لها من حيرة..

نـحتاج أحيانًا للبوح بأسرارنا لمن نثق بهم، لنطمئن أنّ بوحنا في صندوق مغلق، لن تُفتح أقفاله مرّة أخرى، لنُخفف الحِمل عن صدورنا الّتي امتلأت لحافّتها، وحتّى لا تنسكب أرواحنا مع انسكاب عبراتنا عندما توشك أن تفيض، ولكن ماذا لو كان بوحنا هذا سيُبعدهم عنّا وسيدفعهم للرّحيل!

جرّت قدميها وجلست على طرف فراشها، لماذا تشعر الآن وكأنّها عجوز على الرّغم من كونها في الواحد والعشرين من عمرها! تناهى إلى مسامعها صوت خطوات تقترب، اعتدلت في جلستها وتواثبت دقّات قلبها وهي تشرد نـحو الباب، وكلّما اقتربت تلك الخطوات من باب غُرفتها كانت دقّات قلبها تتسارع بوتيرة أكبر ، تأرجحت الثّريا المُعلّقة

في السّقف بجنون، ارتعشت الإضاءة وكأنّها ستخفت، ثُمّ اشتدّت وغمرت المكان بقوّة من جديدٍ وكأنّ يدًا خفيّة تتلاعب بها، طرق أحدهم على الباب ثلاث طرقات بقوّة، ثُمّ انتظر قليلًا وأعاد الطّرق مرّة أخرى بتصميم شديدٍ عندما لم تُجبه، كانت ترجو من الله أن ينصرف هذا الطّارق، فهي تخشى أن ينفرط عقد لسانها وتبوح بكلّ شيء، فُتح الباب ببطء وكان له أزيز مُخيف، ودلف ضيفها، واقترب وعيناه تُشعّان شغفًا وفضولًا، وجلس في سكون ينتظر منها أن تبوح له بكلّ الأسرار، ظلّت تحدق إلى وجهه حتّى ظنّ أنّها لن تتكلّم، وأخيرًا ازدردت ريقها، وعادت بذاكرتها لعشر سنوات مضت، وبدأت تُخرج ما بجُعبتها من أسرار.

ثمّة حكايا غريبة ستروى هنا!

******

قبل عشر سنوات

المُستكشفون

«فرح»

كانت ليلة غريبة من ليالي الشّتاء القارس، كُنت أرزح تحت موجة من المشاعر المختلطة، رهبةٍ، وخوفٍ، وفضولٍ. غموضٌ يكتنف البيت ومن فيه، بدت لي غرفة المعيشة مهيبة بأثاثها العتيق الدّاكن، وظلال الشمعدانات البرونزيّة تمتد على الجدار وتتراقص مع ارتعاش لهب المدفأة، جوخ[1] السّتائر الثّقيل لم يُفلح في حجب تيّار الهواء البارد الّذي تسلل من النّوافذ، سَرتْ في جسدي قشعريرة فقبضتُ أصابع قدمي وتحسّست بأطرافها البساط الصّوفي الّذي كُنت أجلس فوقه، فجأة خُيّل إليّ أنّ كلّ نقشة على البساط تُشكّل وجهًا ينظر إليّ ويُطالعني،

(1) الجُوخُ: نسيجٌ صفيق وكثيف من القماش.

برزت العيون فجأة من كلّ حدب وصوب، أغمضتُ عيني لأتخلّص من هذا الوهم، ارتعشت الإضاءة لوهلة وكأنّها ستنطفئ فرفعت رأسي تجاه الثّريّا[1] الثّمينة الّتي تتدلّى من السّقف، وعندما عادت لقوّتها وغمرت المكان من جديد بضوئها كانت اللوحات الزيتيّة الّتي تُعدّ كلّ واحدة منها لغزًا محيّرًا استوقفنا كثيرًا تُطلّ علينا من جدران الغرفة الأربعة، كنّا قد تحلّقنا حول جدّي «كمال» وهو يُعدّ لنا الكستناء على نار المدفأة كعادته، كُنت وقتها في الحادية عشرة من عُمري عندما كان قد مرّ أكثر من عامٍ على عودتنا من «كويكول»، أجلس متنمّرة لـ «سُليمان»، فقد كُنتُ أغار منه بشدّة، فالجميع يُثنون عليه لذكائه وتفوّقه الدّراسي، بينما كنت أجدُ صعوبة في الرّياضيّات التي يُكرر دائمًا أنّه يعشقها، والأسوأ أنّ قامته استطالت فجأة على الرّغم من كونه يكبرني بعشرة أشهر فقط! كما أنّه صار يلازم أخي «خالدًا» باستمرار ونشأت بينهما صداقة وطيدة، فهو يُشجّعه على القراءة ويتبادلان الحديث أمامي عن معلومات وكتب لا أعرف عنها شيئًا.

كُنت أشعر بحرارة تجتاح رأسي عندما يمدحه أبي أو يقبّله، وكان أبي يُلاحظ غيرتي فيُسرع بمناداتي ليطيّب خاطري بعناق طويل، وددتُ لو عُدنا لبيتنا بالإسكندريّة حتى لا أرى «سُليمان» مرّة أخرى، ولكنّ هذا الأمر أصبح لا يُطرح ولا يُناقش منذ انتقال جدّي «أبادول» للمكتبة العُظمى.

كدت ألتقط حبّة الكستناء من يد جدّي «كمال» عندما تناهى إلى مسامعنا صوت جلبة من الطّابق العلوي حيث تقبع غرفة الأشباح، تسابقنا على الدّرج لنستقبل جدّي «أبادول»، ظننا أنّه قد وصل في زيارة جديدة لنا، لكننا فوجئنا بشابٍّ ثلاثينيٍّ، قمحيِّ البشرةِ، له أنفُ

(1) الثُّرَيَّا: منارة متعددة المصابيح تُنار بها البيوت الكبيرة والقصور.

شامخٌ، وعينانِ نابهتانِ، وشاربٌ خفيفٌ، وشعرٌ فحميٌّ وناعمٌ، يبدو اللُّطْفُ على مُحيّاه، وكان خطُّ الدّماءِ يسيلُ من جرحِ رأسه حتّى أنّه غمر ياقة قميصه. كان جسَدُهُ كلُّه يختلج وينتفض وهو ينقل عينيه بين وجوهنا، عندما سأله أبي إن كان من «المحاربين» أجابه قائلًا إنّه من «المستكشفين»، فسقطت الكلمة على رؤوسنا جميعًا كالصّاعقة!

- من المستكشفون؟

قالها أبي وهو يقترب منه محدقًا إلى جرحه، كان الشّاب قلقًا وهو يراقب ردود أفعالنا، فباغته أبي بسؤال آخر:

- ما اسمك؟

- «مَيسرة».

ثُمّ أضاف مضطربًا:

- جئت مع «الرّماديّ».

اقترب أبي منه بشكلٍ أكبر وقال وهو يتمعّن في ملامحه:

- جرحُكَ عميقٌ ويحتاج للتقطيب[1]، لا بدّ أن تذهب لطبيب جرّاح ليهتمّ بأمره.

قال له «مَيسرة» وقد بدأ يستعيد رباطة جأشه:

- لا بدّ أنّك السّيد «أنس»، تبدو تمامًا كما وصفك لي «الرّماديّ» وهو ينقلني الآن.

عقد أبي حاجبيه وكرر السؤال وقد ارتسمت علامات الارتياب على وجهه:

- من المستكشفون؟

تأرجح في مكانه لوهلة وأجابه:

- «المستكشفون» رتبة أرقى من رتبة «المحاربين».

---

(1) التّقطيب أي الخياطة الجراحيّة.

أخرج أبي منديلًا من جيب بنطاله وضغط به على جرح «ميسرة» وسأله:

- عن أيّ شيء يبحثون ويستكشفون في أرجاء مملكة البلاغة؟
- لكنّهم لا يفعلون هذا في مملكة البلاغة!
- أين؟
- هنا في عالمنا هذا يا سيّد «أنس».

ألقى الصّمت عباءته علينا، كُنّا جميعًا نطالعه بترقب وفضول، ننتظر الكثير من التوضيح، قال أبي بصوت تحمل نبراته الكثير من الجديّة:

- أخبرني بالتّفصيل عن حقيقتهم وما يفعلونه.
- نحن ننقّب في عالمنا هنا عن البيوت التي تصلح كبوابات للانتقال لمملكة البلاغة، فهُناك ممرّاتٌ بينهما مُغلقةٌ على أثرِ حَدَثٍ عظيمٍ لشعبٍ قديمٍ من «الشّعوب المنسيّة»، تسبَّبَ في حَبْسِ تلك البُيُوتِ وأسْرِهَا وحَجْبِ قُوَاهَا، فنحن نحرِّرُ تلك البيوتَ من هذا الأَسْرِ ونثبِّتَ أركانَها الأربعة، ثُمّ نسلِّمُ المفاتيح للمسئولين هنا، لتبدأ الصّقور في التحليق فوقها، ثُمّ تصل الكتب إلى تلك البيوت بطريقتها الغامضة، أو تباع هنا وهناك في مزادٍ أو حتّى في متاجر الكُتب العتيقة، فيملكها أحد سُكّان البيت، وتبدأ في استدعاء المحاربين، وتتولّى الصّقور حَمْلَ هؤلاء المحاربين من إحدى غرف ذاك البيت، تُشبه تلك الغُرفة التي نقف على أرضها الآن.

ودار بعينيه في غرفة الأشباح وأكمل:

- وقد نعثر على بعض الكهوف خلال التنقيب في الجبال وبعض الفجوات بالبقاع المختلفة، الّتي تصلح كبوّابات لممرّات تخصّ مملكة البلاغة، ونغلقها للأبد لخطورتها بمُساعدة حُرّاس المكتبة العُظمى هناك، وبمساعدة المسئولين هنا.

كُنّا جميعًا نحدّق تجاهه والفضول يقتات على رؤوسنا، قال أبي وعيناه ترجفان في توتّر:

- مهلًا مهلًا، هل لهذه البُيوت قوى خفيّة؟ وماذا تقصد بالشّعوب المنسيّة؟ ومن المسؤولون هنا؟ ولماذا لم يخبرنا «أبادول» عن هذا الأمر؟

قال جدي «كمال» الّذي وصل متأخّرًا عنّا، فقد كان يصعد الدّرج بتؤدة خلفنا فهو يُعاني من آلام ظهره وركبته، وكان ينصت لــ «مَيسرة» وهو يقترب:

- أخفى «أبادول» عنّا هذا الأمر حتّى لا نهاب البقاء هنا بالبيت، لو علمنا من البداية لرفضنا البقاء ولخِفنا جميعًا، حتّى أنا لم أعلم بالحقيقة إلّا بعد عودتنا من «كويكول».

التفت «خالد» نحوه وسأله بفضول:

- أيّ حقيقة يا جدّي؟

بدا وجه جدّي «كمال» كصورة مُطابقة لوجه جدّي «أبادول» وهو يقول:

- تلك البُيُوتُ حيَّةٌ يا ولدي!

طوّقنا بنظرة قبل أن يُكمل قائلًا:

- البيوت كالنفوس، منها الخبيثة المُخيفة، ومنها الآمنة المطمئنّة، ومنها الحزينة والمُتعَبة، وأفضلها على الإطلاق البيوت الّتي تمتلئ بالحبّ كبيتنا هذا.

ران علينا سكون مهيب، أخذنا نتلفّت في حيرة، بدأت أعيننا تجوس في الأركان وفي سقف الغرفة، أضاف جدّي وهو يمسك بذراع «مَيسرة»:

- أخبرني «أبادول» باحتمال وصولك غدًا، فلنعالج جرح رأسك أوّلًا، ثُمّ نُكمل حوارنا.

خرج جدّي «كمال» ومعه «مَيسرة» وسرنا جميعًا خلفهما، وسحابة ثخينة من الفضول تحلّق فوقنا، سبقهما «حمزة» ووثب على الدّرج ثُمّ توقّف أمامهما وسأل جدي:

- كيف أخبرك «أبادول» بأمر وصول «مَيسرة»؟ وأين التقيت به؟

- أتواصل مع أبي من آن لآخر في رؤى بين الحلم واليقظة، الأمر يُشبه التواصل بالهواتف النقّالة.

- لماذا لم تُخبرنا؟

- طلب منّي أبي أن أخفي الأمر عنكم.. كما طلب منّي إخفاء أسرار البيت عنكم، ويبدو أنّه سيزورنا الليلة ليكشف لكم تلك الحقائق كلّها.

دلفنا لغرفة المعيشة، وأسرعت أمّي وجلبت القطن والمطهّر لأبي ليطهّر جرح رأس «مَيسرة»، كان أبي يغضّن حاجبيه وكأنّ رتلًا من الهمّ هبط على منكبيه في لحظة، سأل «ميسرة» وهو يثقب عينيه بنظرة تشي بالكثير من القلق:

- أخبرني كيف أُصبت بجرح رأسك هذا؟

- في نهاية مهمّتي قفزتُ من فوق جبل تجاه فجوة لأفرّ من جنديّ كان يُطاردني، وأثناء سقوطي أُصبت في رأسي، لولا أنّ «الرّمادي» التقطني لكُنت الآن في عداد الأموات.

سأله «حمزة»:

- كيف تُلقي بنفسك هكذا في فجوة لا تُدرك كنهها؟

هزّ كتفيه قائلًا:

- أُحبّ أن أُجرّب كلّ شيء، حتّى لو اضطررت للقفز في ظُلمة حالكة سأقفز!

قال جدّي «كمال» وهو يُحرّك سبّابته:

- هناك شعرة تفصل بين الإقدام والتّهور، لا بدّ أن تتروّى قليلًا في المرّات القادمة، فالقفز في أتون المجهول قد يؤدي لهلاكك يا بنيّ.

- إنّها فجوة كتلك الفجوات الّتي سقط فيها السّيد «هشام».

صاح «حمزة» في اندهاش:

- أوتعلمُ عن السيّد «هشام»؟

- أعرف عنكم كلّ شيء، أنا مُغرم بعائلة «أبادول» وكلّ ما يخصّها.

- ما أعرفه أن جميع الممرات أغلقت، وعليها حرّاس، وما دمت تعرف عنّا كلّ شيء فبالتّأكيد أنت تعلم عن قصّة ممر «أمانوس».

تمعّن في وجهه برهة وقال له:

- لا بدّ أنّك «حمزة»!

- نعم أنا.

- أعرف بقصّة ممر «أمانوس» وغيره، ولا تزال هناك ممرّات وفجوات تُفتح من حين لآخر، وذلك مصدر القلق، أمّا الفجوات والممرّات القديمة فهي تحت السّيطرة، فعالم مملكة البلاغة لا يأتي لنا بوحوش أو ما يشبه «الدّواسر»[1]، و«المجاهيم»[2]، وما حدث من ساحرات «ماذريون»[3] بعد مرورهم لعالمنا كان حدثًا نادرًا. ومن الجهة الأخرى؛ فقط من آنٍ لآخر يُعْثَرُ على طفلٍ ضالٍّ أو فتاة تائهة بالمملكة هناك، وأحيانًا على نساء ورجال راشدين، كان قَدَرُهُمْ أن وُجِدُوا في بقاع مهجورة على أرض بها فجوات خفيّة، أو سقطوا من مكان مرتفع في أتونها، يظن النّاس هنا أنّهم اختُطِفوا أو اختفوا في ظروف غامضة، أو اختطفتهم الكائنات

(1) الدّواسر: من شخصيّات رواية أمانوس.

(2) المجاهيم: من شخصيّات رواية إيكادولي.

(3) ساحرات ماذريون: من شخصيّات رواية أمانوس.

الفضائيّة! وينجح «المغاتير» في إعادتهم لعالمنا بسهولة وبشكلٍ سريّ وسريع، فهؤلاء الساقطون رغمًا عنهم في رحاب مملكة البلاغة ليسوا من المحاربين، يعودون وهم لا يُصدّقون ما رأوه، وأظنّهم لو حكوا ما رأوه لاتُّهِموا بالجنون، أو بأثر ما بعد الصدمة، أو بمسّ الجنّ وما يُردد هنا وهناك.

قال «خالد» ساخرًا:

- ومن يُصدّق بوجود مملكة البلاغة؟

فرك أبي جبهته وقال بثقة:

- يكفي أننا نُصدّق.

قال «ميسرة»:

- ما حدث مع السّيد «هشام»[1] هو الغريب! ولم يتكرر مع غيره! فقد سقط بفجوة وظلّ بالمملكة لفترة طويلة، لم يتمكّن أحد من إعادته، وظلّ رحّالة يُساعد الآخرين، يترك بصماته هنا وهناك، ولا يعرف أحد شيئًا عن ماضيه، كان لغزًا محيّرًا، ولقد أسر قلوب كلّ من التقى بهم.

لاح شبح ابتسامة على شفتي «مَيسرة» وهو يضيف قائلًا:

- أعجبني ما مرّ به بطريقة ما، وددت لو مررت بنفس تجربته.

غضّن «حمزة» جبينه وهو يسأله مستنكرًا:

- أتتمنى أن تنسى كلّ شيء وتعيش غريبًا ووحيدًا في عالم لا يعرفك فيه أحد؟

- نعم؛ وأُجرّب كلّ شيء.. فالحياة تجارب!

- أنت لا تُدرك كيف كانت معاناة السيّد «هشام» هُناك.. إنّه..

---

(1) السيّد هشام: من شخصيّات رواية أمانوس.

قاطعه أبي بنظرة كانت كافية لتبتر الكلمات على لسانه، لم يُحبّ أن يُضيّق «حمزة» على «ميسرة» في حواره. هزّ «ميسرة» رأسه وقال:

- لا يزال بمملكة البلاغة أسرار أكبر من أن يعرفها حرّاس المكتبة العظمى، وما زلنا لا نعرف الكثير عن الحروف والكتب والبيوت والممرات والفجوات، مثلًا: كيف تبحث تلك الكتب العجيبة عن المُحاربين وتُلقي بدفّتيها وأوراقها بين أياديهم؟ وكيف يجتمع البيت والمُحارب الأوّل في العائلة والكتاب؟ أليس هذا لُغزًا مُحيّرًا؟

- بلى.. ولكن لا تنسى أنّها حيّة، تتنفّس وتعيش وتشعر بنا!

- على أيّ حال نـحن نـحاول فكّ رموز تلك الأُحجية خلال استكشافنا للبيوت.

رنا أبي إلى «مَيسرة» قائلًا:

- تتحدّث بصيغة الجمع، وكأنّكم كوكبة أو فريق.

- بالفعل نـحن كذلك، وعملنا يحتاج للتواصل باستمرار، ونـحن نجتمع وندعم بعضنا بعضًا، أخبرني السيّد «أحمد» وهو قائد «المستكشفين» أنّه التقى بك في شبابك فور عودتك من أرض مملكة البلاغة.

فغر أبي فاه قائلًا:

- أنا!

- نعم، في دار النشر الّتي ذهبت إليها لتسأله عن عنوان بيت السيّد «شهاب»[1].

- يا إلهي، ذاك الشّاب الّذي التقيت به في المصعد، والّذي يُلقّب نفسه بـ «الزّاجل الأزرق»[2] على الإنترنت.

---

(1) شهاب، الرّماديّ.

(2) أحمد، الزّاجل الأزرق.

- لم يعد شابًا، صار كهلًا يا سيّدي.

أمسك أبي برأسه ودار حول نفسه، خلجات القلق أخذت تنقر صدره، تذكّر كيف خُيّل إليه أنّه الزّاجل الأزرق بنفسه، وأنّ مديرة الدّار بدت له وكأنّها تُشبه «الحوراء» تمامًا في ملامحها، وكيف ألحّ عليها لتعطيه رقم السيّد «شهاب»، وكيف رفضت وتعاملت معه بجفاء! وكيف كان يُسقطُ كلّ ما رآه بمملكة البلاغة على وجوه من يراهم، لأنّهم اتخذوا أسماء أحبائهم بمملكة البلاغة ألقابًا لهم. كانت المفاجآت أكبر من أن يستوعبها في دقائق، بات الأمر أكبر مما دار في رأسه منذ سنوات، هؤلاء كانوا «مُحاربين» مثله تمامًا في يوم من الأيّام، ضحك بعفويّة، وتلاقت عيناه مع عيني أُمّي، ودار بينهما حوار صامت غابت عنه الكلمات، وكان للمشاعر حضور كثيف، وبدورنا تبادلنا النّظرات في تعجّب، كان جدّي «كمال» يجلس هادئًا كعادته، يجلله صمت أنيق عامر بالأفكار، يبدو أنّه يعرف ما لا نعرفه، وشعرت أنّ هذا الأمر ضايق أبي قليلًا، لكنّه لم يعلّق أو يُجادل حتى لا يحزن والده، فلو طلب هو منه أن يحفظ سرًّا سيفعل بالتأكيد، وهكذا فعل جدّي «كمال» مع «أبادول» برًّا به.

عاد أبي لمقعده وسأله وهو يحدق إلى سقف الغرفة:

- ما سرّ تلك البيوت؟

شعرنا بزلزال خفيف، وتناهى إلى مسامعنا صوت خفقان جناحي «الرّمادي»، أدركتُ حينها أنّ «أبادول» قد وصل للتوّ، هبط على الدّرج مجللًا بشيخوخته، وبعد احتفائنا بوصوله والسّلام الحارّ حيث أمطرنا يده وجبهته بالقبلات، تأمّلته وهو يقف بلحيته البيضاء الطويلة أمام عينيّ، زال عنّي الخوف، واطمأننتُ لحضوره، وقررت أن أُخبره عن تلك الأصوات الّتي كُنت قد بدأت أسمعها بقبو البيت.

كان من الضروري أن يخرج «مَيسرة» للمستشفى، فجرح رأسه يحتاج للتقطيب، انزعج «أبادول» عندما رأى الدّماء وقد أغرقت ياقة

قميصه، وطلب من «حمزة» أن يقلّه بالسيّارة لأقرب مستشفى. بدا لي أنّهما يعرفان بعضهما جيّدًا، وكانت النظرات بين «ميسرة» و«أبادول» تشي بالكثير. قال «أبادول» وهو يضغط على كتفه قبل أن ينصرف:

- سأنتظرُك.

أومأ «ميسرة» برأسه ومضى مع أخي «حمزة» للمستشفى القريب من بيتنا، وبقينا حول «أبادول» ننتظر منه كلمة تروي ظمأ فضولنا.

*****

مملكة الدّيجور

البرق المُعقرب يلمع في السّماء، حفنة من الغيوم السّوداء كانت ترسل ماءها ثجاجًا لتغرق كلّ شيء، المطر يجلد القصور، والقلاع، وظهور الخيول، والأشجار تنــحني وأغصانها ترتعش، والرّياح تزأر في غضب وتضرب بوشاح الملك «غُدفان»[1] الغارق بالمطر وهو يشقّ طريقه وسط الغابات الكثيفة بجواده الأدهم الرّاكض كالبرق، كان يتميّز من الغيظ، فقد حملت له الرّياح خبرًا جديدًا زاد من حنقه على «مملكة البلاغة» ومن فيها.

حتّام سيظلّ المُحاربون يُنقذون الكتب؟ وحتّام ستستمرّ صقور «مملكة البلاغة» في حمل المُحاربين من أركان الأرض الأربعة إلى عالمهم لأداء تلك المهمّات؟ مات أبوه الملك الأكبر «القَلْقَديس» عندما غُرز الخنجر في كتابه الخاصّ بيد ذلك المُحارب، وماتت أُمّه الملكة «القُلْقطار» عندما تكرر الأمر بكتابها، بعد وقوعهما في يد حفيد من أحفاد «أبادول»، ولا يزال ملوك «مملكة البلاغة» يُطرمسون على أسماء ملوك مملكة «الدّيجور» ولا يذكرون قصصهم على أرض المملكة هناك.

(1) غُدفان: جمع الغُداف وهو الغُرابُ الضخْمُ الوافِرُ الجناحين.

لم يُفلح محو الأحبار عن صفحات الكُتب العتيقة في القضاء على «مملكة البلاغة»، ولم يُفلح حرق الكُتب وبعثرة رمادها فوق قمم الجبال الغرابيب[1] السّود، ولم يُفلح كتابا «القلْقَديس» و«القُلْقْطار» في تحقيق غاية الملك وزوجته في بسط نفوذهما عن طريق السّحر الأسود، لكنّ ابنهما «غُدفان» لا يزال على قيد الحياة، وسيُكمل المسيرة.

ماذا سيفعل؟ كان الغضب يعصف به ويرجّ كيانه. فعشائر الجنّ في مملكته عجزت عن كسر شوكة «المجاهيم» هُناك. ما عاد يثق بساحرات «ماذريون» الخائنات لأزواجهنّ من عشيرة «المجاهيم»، فحتّى هؤلاء فشلن في السّيطرة على المُحاربين. ظنّ أبوه منذ سنوات أنّ «أوبالس» سيكون وليّه هناك، ووجد فيه بصيصًا من الأمل، لكنّه هلك. وظنّ أبوه أيضًا أنّ «قلب العقرب» زعيم «الدّواسر» سيُساعده، لكنّه أيضًا هلك، ودائمًا هلاك هؤلاء الكبار يكون على يد فرد من أفراد عائلة «أبادول» الّذي يُبغضه من صميم قلبه كما يُبغض كلّ حُرّاس المكتبة، ويحلم باليوم الّذي سيقتل فيه «أبادول»، ويطعن «الزّاجل الأزرق» بيده، ويشقّ صدره بخنجره، ليلوك قطعة من قلبه بين أسنانه.

كان جيش «مملكة الدّيجور» دائمًا ومنذ قديم الأزل يقوم بسدّ الممرّات على بعض الشّعوب لتغرق في جهلها وعتمتها، ولمنع وصول المُحاربين إليها، وحتّى لا تُستردّ الكُتب بالتّاريخ الّذي تحويه، وحتّى يسدل «الدّيجور» عباءته السّوداء فيبتلع الجميع. فتلك الشّعوب لا تستحق المعرفة، وكلّما كثرت معرفتها ستزيد مطامعها، وسيصعب السّيطرة عليها. كان هذا شعار ملوك الدّيجور بتلك المملكة، أن تفنى الكتب، وليُكتب التّاريخ من جديد كما يُريدون، ويرغبون، ويُحبّون!

(1) الغرابيب: جمع الغِربيب وهو الشّيء شديدُ السواد.

كان «غُدفان» يسير على منهاج آبائه وأجداده، سَلسَلَتْ جيوشُهُ من الجنّ بعضَ عشائرِ الجنّ الأُخرى هُناك، وبنى أتباعُه السّدودَ بين تلك الشّعوب وبين مملكة البلاغة، وغلّق فرسانُهُ الفجواتِ بينها وبين عالم المُحاربين، حاصروها لتظلّ مُعتمةً للأبد، وتُنسى، وتختفي أخبارها في طيّ النّسيان.

صرخ صرخة مجلجلة دوّت في أرجاء الغابة عندما تذكّر «المستكشفين» وما يفعلونه، فما يفتأ يتخلّص من عدوٍ فيبرز له آخر، حتّام سيتحمّل كلّ هذا!

كان هناك فيلق من فرسانه المتلحّفين بالسّواد يتبعونه، لم يجرؤ أحد منهم على موازاته، فقد كان تخطيهم له يعني قطع رقابهم بسيفه البرّاق، حتّى في الحروب كان جسورًا يتقدّمهم بقلب ميّت! ليت جسارته تلك كانت في الحقّ ولم تذهب سُدى!

توقّف المطر ولم تتوقّف الرّياح، وصل أخيرًا لقصره حيث كان أكبر سحرة «مملكة الدّيجور» يقبع في سكون في ساحته، والحُرّاس يُحيطونه وهم يحملون حرابهم في حالة تأهّب، فقد ظهر فجأة بينهم بخيمته وأمامه النّار تلتهم اليُراعات الّتي تطوف حولها، وقد وقف خلفه ذئبان ضخمان يسيل اللّعاب من فميهما وعيونهما تضيء وسط الظّلام كجمرتين مشتعلتين، بينما صوت لهاثهما يتصاعد كلّما اقترب الملك «غُدفان»، اقشعرّ بدن زوجته الّتي كانت تُراقب ما يحدث من شرفة القصر، أمّا هو فترجّل عن جواده بوثبة واحدة، وشعره الأسود الطّويل ينسدل مبللا بماء المطر على ظهره، استلّ خنجرين من حزامه الذّهبيّ الّذي يتمنطق به، فدعاه السّاحر بصوته الأجشّ:

- جلالة الملك «غُدفان»!

- اصرفهما!

رفع السّاحر يده فأخفى الذّئبين في لمح البصر، ثُمّ قال بصوت رتيب:

- أقبل فأنت في أمان يا مولاي.

سار «غُدفان» تجاه السّاحر وهو يحدق إلى وجهه الأكلف[1]، وقد ابتلّ شعر رأسه الأصهب والتصق برأسه ووجنتيه فبرزت ملامحه وكان يُشبه كرمة العنب الذّابلة، وقد أطلّ ثُؤلول[2] بين عينيه فبدا وكأنّه عين ثالثة مُغمضة. جلس «غُدفان» أمامه وقال وهو يُحدّق تجاه الحلقة الّتي يُعلّقها في أنفه الذّابل:

- لماذا تأخّرت؟

- أرسلت الغربان لتطوف بأرض «مملكة البلاغة» لعلّها تأتيني بخبر جديد.

- وهل هناك جديد؟

هزّ رأسه ببرود وكان الملك «غُدفان» يغلي كالقدر أمامه، قال وهو يتفرّس في وجهه:

- أظهر «القُدموس» علامة جديدة يا جلالة الملك!

- لمن؟

صمت السّاحر هُنيهة ثُمّ قال برعونة وهو يلوي شفتيه:

- «أبادول»!

صرخ «غُدفان» صرخة غاضبة شقّت جلباب الظّلام وهتكت سكونه، وكان كلّ من بالقصر يخشى فوران بُركان غضبه، حتّى السّاحر، وحتّى زوجته.

*****

---

(1) أكلف: تعلوه حُمرة وكدرة.

(2) الثّؤلول: بَثْر صغير صُلب مستدير، يظهر على الجلد كالحِمَّصة أَو دونَها والجمع ثآليل.

«فرح»

كان «أبادول» يعلّق عينيه بوجه أبي فلاحظ شبح القلق وهو يمر بملامحه فقال له:

- لا بدّ أنّك غاضب منّي يا «أنس»، تظنني أخفيت عنك سرًا، وأنت العزيز على قلبي.

- لست غاضبًا، أثق بحكمتك يا جدّي، فقط الفضول يقتات على رأسي! ما قصّة الشعوب المنسيّة؟ وما الّذي يرقى بالمحارب ليكون مستكشفًا؟

- الشّعوب المنسيّة شعوب عريقة وغريبة، قصصها تُشبه الأساطير القديمة، بصورة ما وبشكل يصعب تفسيره هم يعيشون في بُعدٍ موازٍ كهذا الّذي يكتنف مملكة البلاغة، وهم هناك معزولون عن باقي الشّعوب، وعن مملكة البلاغة الّتي رأيناها جميعًا وذلك بسبب حدث عظيم أدّى لهذا، قد يكون خطأً جسيمًا منهم.

ثُمّ رفع يديه وحرّكهما في الهواء وأضاف:

- طبقات يا «أنس»، أتدري كيف هي بيوت النّمل؟ ممرّات ضيقة تفتح على بعضها بعضًا، وتنقلك من بقعة إلى أخرى، وجميعها متّصلة بالأصل.. بمملكة البلاغة.

- وما علاقتهم بالمستكشفين، وما سبب وصفهم بالنسيان؟

- كلّ شعب من تلك الشُعوب له قصّة أسطوريّة مأساويّة، قد يكون فيها القتل، والخيانة، والانتقام، والحروب، والكثير من الأحداث الصّادمة، ولبشاعة ما يحدث يكفّ أهل المملكة عن الحديث عنها، وبمرور الأعوام يُنسى أمرها، وتُسدّ الممرّات، ولم يُشكّل هذا أي ضغط على مهامّ المحاربين ولا على اتزان عالم مملكة البلاغة.

- وأين الحورائيّات؟ أليس لتلك الشّعوب قصص، والقصص في الكُتب، والكُتب لمؤلفين، والحورائيّات تسمع وتهمس لهم لأنّها بنات أفكارهم، ويُدوِّنَّ كلّ شيء!

- تموت الحورائيّات الخاصّة بهؤلاء الكُتّاب، وتختفي الكتب، ولا يُعرف لتلك الكُتب مؤلفون، الأسماء تُطمس للأبد، وتبهت أخبارهم ثُمّ تتلاشى، النّسيان يا بني.. النّسيان أحيانًا يُشبه القتل!

أطرق أبي قائلًا:

- لطالما حيّرني هذا الأمر يا جدّي، أيّهما يحدث قبل الآخر؟ همس الحورائيّات أم نقش أقلام المؤلفين؟

تذكّر «أبادول» حديثه مع «حيدرة» في «كويكول» عن هذا السرّ الغامض فقال وعيناه تسبحان في حيرة:

- ستظلُ هذه الأُحجية الغامضة الّتي عجزنا عن فهمها وحلّها يا «أنس»، نحن لا نعرف من يسبق الآخر! إنّهما خطان متوازيان، وسهمان ينطلقان بنفس السّرعة، وتقع الأحداث في ذات اللحظة، وإنمّا الأمر هو كيفيّة إدراكنا وإدراكهم للوقت وللحدث.

ران علينا صمت خفيف، قال أخي «خالد» وهو يحدق إلى لهب المدفأة:

- وربّما لا وجود للوقت!

- ماذا تعني؟

- ماذا لو تسارع كلّ شيء حولنا يا أبي، وكانت لحظات حياتنا بسرعة البرق، أو أسرع من البرق نفسه، وأسرع، وأسرع...

- وماذا بعد؟

- السّرعة الشّديدة الّتي تطمس معنى الثّانية والدّقيقة، كما تطير السيّارات بسرعة جنونيّة وتخفّ كالرّيشة، وترتفع عن سطح الأرض عندما تُقاد بأقصى سرعتها، وتطير.. سيختفي الشعور بالزّمن يا أبي؟ لن تكون هناك دقيقة ولا ثانية ولا...

قاطعه أبي بحزم قائلًا:

- لا تطل التفكير فقد تُصاب بلوثة في عقلك، هناك أمور أكبر من أن تستوعبها عقولنا الفقيرة يا بنيّ.

ثُمّ استدار أبي تجاه «أبادول» وسأله:

- حسنًا، تموت الحورائيّات، وتختفي الكُتب، وينساهم النّاس، وتُسدّ السُّبل إلى أرضهم، ما علاقة هذا بالبيوت القديمة هنا!

- من آن لآخر يُهدم بيت، أو تتعرض الممرّات الّتي بيننا وبين مملكة البلاغة لكارثة بيئيّة هنا، أو تختفي بشكل غامض! فلا يُتاح للصقور التحليق لحمل المحاربين، ولا بدّ من العثور على فجوات وممرّات جديدة باستمرار.

- إذًا تلك البيوت مرتبطة بتلك الشّعوب، وكُتُبها الّتي اختفت، وكان بيتنا هذا كذلك منذ سنوات طويلة.. طويلة جدًا.

هزّ «أبادول» رأسه موافقًا وقال:

- طوبوغرافيّة[1] المكان، كلّ بيت من تلك البيوت مبنيّ على بقعة في الأرض متّصلة بما فوقها وحتّى السّماء، ومتّصلة بما تحتها لأعماق الأرض، البيت يُمثّل بوّابة لشعب من تلك الشّعوب المنسيّة، وعلى المستكشف أن ينقّب عن تلك البيوت على أرضنا هنا، ويقوم

---

(1) عِلْمُ الطُّوبُوغْرَافِيَّة: عِلْمٌ مُخْتَصٌّ بِوَصْفِ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الأَرْضِ وَرَسْمِهَا وَإِظْهَارِ مَا عَلَيْهَا مِن تَضارِيسَ وَمَا يُحِيطُ بِهَا.

بشرائها مهما كان الثّمن، ويبدأ رحلة البحث والمغامرة من هناك، عندما يدخل البيت وحده.

- يبحث عن الكتاب الّذي يستدعيه ويختاره؟

- «المستكشف» لا يختاره كتاب يا «أنس»، بل يتطوّع من تلقاء نفسه، حرّاس المكتبة يعرضون الأمر على مُحارب من المُحاربين المُميّزين، وهو يحمل على عاتقه إتمام المهمّة، وقد يكون كتابًا من جزأين، أو ثلاثة، أو أربعة، وهذا يحتاج جهدًا منه، ولن تساعده الصّقور، والبعض يرفض وهذا حقّه.

- يا إلهي!

- ألم أخبرك أنّها قصص لم يُعرف لها مؤلّف، وأنّ أمرها قد نُسي للأبد، حتّى الصّقور لا تعرف الطريق لتلك البيوت.. وأيضًا...

- ماذا؟

- قد ينقطع اتصاله بنا كما أننا لا نعرف كيف ستسير أموره هناك، فلا وجود لحورائيّات تهمس، والرّياح لا تنقل أخبارهم! وعلى الرّغم من كلّ هذا قد تحدث مُعجزات له.

ارتعش طيف ابتسامة ساخرة على فم أبي وهو يقول:

- مهمّة خطرة فيها مُجازفة وقد يكون فيها هلاك!

- تستطيع وصف المهمّة بهذا، فالأمر يحتاج للتضحية.

- كيف تختارون من تعرضون عليهم الأمر؟

- «خرائط القُدْمُوس»[1].

- ماذا؟

---

(1) قُدْموسُ: القديمُ، والمَلِكُ الضخمُ، والعظيمُ من الإبِلِ، والجمع قَداميسُ.

- كتاب من أهمّ وأخطر كُتب المكتبة العظمى، وأقدمها وأعرقها، يحتوي على الكثير من الخرائط، بعضها مخطوط بالحِنطة، وبعضها مخطوط بالدّماء، وبعضها مخطوط بالفحم الأسود، وموادَّ أخرى لا نعرف كنهها.

- من كتبه ومن رسم هذه الخرائط؟

- المُحاربون القدامى منذ قديم الأزل، وحرّاس المكتبة يضيفون كلّ جديد، والكتاب يحتوي على خرائط لأرض مملكة البلاغة بقصورها وجبالها، ولأرضنا هنا بكل التفاصيل وحتّى بيتنا هذا، والبيوت الأُخرى، ومخطوطات للكواكب وأقمارها، وللنّجوم لتحديد المواقع والأبعاد وقياسها بدقّة شديدة، فالصّقور لا تُحلّق إلّا بتحديد تلك المواقع، ويهتّم بهذا الكتاب كوكبة من حرّاس المكتبة ويراجعونه عدّة مرّات يوميًا بالتناوب، للاطلاع على كلّ جديد. ومن آن لآخر تضيء حروف الأسماء إيذانا بوجود محارب جديد، وأحيانًا أخرى تظهر رايات بجوار أسماء بعض العائلات إعلانًا عن وجود مستكشف بها.

- ماذا تُريد أن تقول يا جدّي؟

-لقد أظهر الكتاب راية بجوار شجرة عائلتنا المنقوشة على صفحات «القُدْمُوس».

ثُمّ رفع «أبادول» حاجبيه وعقد يديه خلف ظهره وقال:

- لقد ظهر بيننا مستكشف.

- ماذا!

- لهذا طلبتُ من الرّمادي حمل «ميسرة» إلى هنا ليلتقي بكم، فنحن نحتاج لخبرته، هو شابٌ شجاعٌ ومقدام ولديه جرأة

ويُحبّ أن يُجرّب كلّ شيء. قد يكون «حمزة» أو «خالد».. لا بدّ أنّه واحد منهما، ولا بدّ أن يتطوّع، فنــحن نــحتاج إليه.

شحب وجه أبي، وانتفضت أمّي، وانتقل جدّي «كمال» من مكانه لجوار «أبادول»، ثُمّ عاد لمكانه مرّة أخرى دون أن ينبس ببنت شفة، كنّا جميعًا في حالة ارتباك، وكان أبي يتحدّث بلا توقّف، أخبر «أبادول» أنّه يريد أن يذهب هو بنفسه، وأنّه لا يرغب في تعريض حياتيهما للخطر، ويكفي ما مرّا به، وأن... وأن...

كان «أبادول» يعلم أنّ أبي يخشى علينا بشدّة، وأننا نقطة ضعفه، أصيبت أُمّي برعشة شديدة في يديها، هل سيتكرر الأمر؟ وسينهش الخوف والقلق قلبها على أخويّ مرّة أخرى؟ قام «أبادول» وسار نــحوها وأمسك بيديها وقال بصوته الحاني ليُطمئنها:

- لا تخافي، الأمر ليس إجبارًا وقهرًا، وله أن يرفض. وعلى كلّ حال لا بدّ أن تظهر على أحدهما العلامة أوّلًا.

همست أُمّي بفمٍ يرتعش:

- أيّ علامة.

- أن يشعر بتلك البيوت، ويسمعها، ويتحدّث إليها.

ثُم حانت منه التفاتة تجاه «خالد» وسأله:

- هل شعرت أنّ هذا البيت كائن حيّ يا «خالد»؟ هل سمعت أصواتًا وكأنّه يُحدّثك؟ هل شعرت للحظة أنّه غاضب منك مثلا أو يحنو عليك أو يتنفّس؟

- ماذا! لا.. لا!

وأضافت أمّي:

- ولا أظنّ «حمزة» شعر بهذا! لو أحسّ بهذا لأخبرني في الحال.

في تلك اللحظة داهمني خوف شديد، وسرت قشعريرة في جسدي كلّه، انعقد لساني ولم أتمكّن من التقاط أنفاسي، وارتجّ قلبي في صدري، وشعرت بسقف البيت وكأنّه يهوي فوق رأسي، وأحسست بساقيّ وكأنّهما من عجين، نظرت إلى أبي باحثة عن عينيه لأستمدّ منهما الأمان، وسقطتُ على أرض الغرفة، وكأنني غرقت في بئر مظلمة، ودوّى صفير طويل في أذنيّ.

****

أفقتُ لأجد نفسي على ذراع أبي، وأمي تتحسس وجهي بكفّها الحاني، وعمّتي بجوارنا وبيدها زجاجة عطر كان يغرق أنفي حتّى أنني عطِستُ وسعلتُ من قوّته، سقوني ماء مُحلّى بالعسل، وحُزتُ اهتمام الجميع لفترة حتّى استرد وجهي الشّاحب لونه، أدركتُ هذا من تعليق جدّتي وهي تمسّ جبهتي، بقيت ساكنة في حضن أبي، كان «ميسرة» قد وصل للتوّ مع «حمزة»، وقد قُطّب جرح رأسه وضُمّد جيّدًا، بدأ «حمزة» يسأل «خالدًا» عمّا قاله «أبادول» في غيابه، وبدأ «ميسرة» يصف لنا كيف يبدأ الأمر فقال:

- عندما انتهيت من أوّل مهامّي كمحارب وعُدت للبيت، مرّت أعوام فقدتُ فيها أُمّي ثُمّ أبي! أنهيت دراستي، وانخرطت في العمل، وكنت في أواخر العشرينيات عندما بدأتُ أشعر بما لم أشعر به من قبل، شعور بأنني لست وحدي وأنّ هناك من يُراقبني، كُنت أستيقظ على أصوات تُناديني وكُنت أتبعها، دائمًا كانت تتصاعد من قبو البيت، كُنت أضيء المصابيح وأدور بالمكان، أتفحّص كل شبر فيه، ولا أجد أحدًا هناك.

ثُمّ بدأت أشعر أنّ تلك الغرفة تُحبّني، وهذه تكرهني، وهذه لا أستطيع النّوم فيها أبدًا، وتلك هي الأكثر هدوءًا، وهكذا حتى أتتني مكالمة من

أحد المسئولين بدار النّشر الّتي أخبرتكم عنها ويعرفها السيّد «أنس»، فهمت منهم ماهيّة «المستكشفين»، وأخبروني أنّ ما أشعر به علامة على كوني منهم، وأنّ الأمر شرف تطوّعيّ لا إجبار فيه، وكُنت أشعر بالوحدة والضّياع بعد موت والديّ، وخاصّة أنني وحيد وليس لي أشقّاء، فأحببت أن أُجرّب، ورأيت أنّ تلك المهمّة ستعيد إلى حياتي روحها الغائبة، فأمدّوني بعنوان البيت الجديد الّذي تم شراؤه، وذهبت لأتسلم المفتاح من صاحبه، وبدأت رحلتي من هُناك، وبدأتُ أتواصل مع كيان هذا البيت أيضًا، أسمعه، وأتحسس جدرانه، و..

قاطعه «حمزة» قائلًا:

- كيف تعرفون أنّه بيت من تلك البيوت المقصودة؟

شرح أبي لـ «حمزة» ما هي خرائط «القُدْمُوس» فقد كان مع «ميسرة» بالخارج عندما أخبرنا «أبادول» عنها، أضاف «مَيْسرة» بعد أن أنهى أبي كلماته:

- هناك أيضًا من يتتبعون الإعلانات والأخبار هنا وهناك، وربّما يلجئون أحيانًا للترحال بين المحافظات، وكلّما يعرض أحدهم بيتًا قديمًا للبيع، أو يُشتهر بأنّه بيت مسكون بالأشباح ويُشاع هذا بين النّاس، يزوره بعض «المستكشفين» للتنقيب، والواحد منهم الّذي يشعر بالبيت منذ اللحظة الأولى وفور أن يطأ أرضه بقدميه يُخبر البقيّة، عندها يتمّ الشراء فورًا، وتتولى مؤسسة دار النشر تلك المهمّة، ويرحل المستكشف الّذي شعر بالبيت ليخوض المغامرة لاستكمال رحلة التّنقيب عن الكتب المرتبطة بالبيت لدى الشّعوب المنسيّة، وذلك عندما ينفرد هناك، ويغلق على نفسه بابه.

سأله «حمزة»:

- ألم تتردد؟ ألم تخف من خوض هذه الرّحلات وحدك؟

- ترددتُ في البداية، ولكن عشقي لمملكة البلاغة دفعني لخوض التجربة أكثر من مرّة.

ثُمّ أضاف وهو يرمي بنظره نــحو «حمزة»:

- هناك نداء داخليّ يدفعني لكي أستمرّ، وأستمرّ، فأنا أُحبّ ما أفعله، وإلّا ما فعلته!

كانت تلك كلمات السيّد «هشام» لـ «حمزة» في غابة «البيلسان»، وكان «ميسرة» قد سمعها من «أبادول» وكررها عن قصد، وحتّى نــحن كُنّا نُرددها عندما نتحدّث عن مملكة البلاغة، وكان لتكرارها في تلك اللحظة أثر بليغ في نفس «حمزة»، وقد لاحظ تأثّره بهذا، عاد يسأله:

- وهل تلك المهامّ تُضاهي مهام المحاربين في خطورتها؟

- أحيانًا، وأحيانًا تكون أشدّ خطورة، فقط بعض الحذر مطلوب، فنــحن نتعامل مع شعوب لها ثقافات مختلفة.

انتهى «ميسرة» من كلامه، كانت دقّات قلبي تتواثب، لاحظت أُمّي فأجفلت وسألتني:

- ما بك يا «فرح»؟

- أنا أتحسس الجدران وأشعر أنّها تصافحني.

- اهدئي يا حبيبتي ولا تخافي.

- صدّقيني يا أُمّي، حتّى ملمس الجُدران مختلف، بعضها دافئ، وبعضها بارد كالثّلج.

قال أخي «حمزة» وهو يُقلّب يديه في الهواء:

- الجدران المواجهة للشرق دافئة على الدّوام بسبب أشعة الشّمس السّاقطة عليها طوال النّهار، والأخرى باردة بسبب الرّطوبة وإمدادات المياه المدفونة بالجُدران.

- لا.. لا.. حتّى الجدران البعيدة عن هذين الجدارين.. صدّقوني.

- لا ريب أنّك تتخيّلين.

- غرفة المكتب تُضاء من تلقاء نفسها عندما أدلُفها للبحث عن كتب لأقرأها.

قال جدّي «كمال»:

- مصباحها كان فيه خلل بالفعل يا «فرح»، وأبوك بدّله بمصباح سليم.

- لا يا جدّي أرجوك لا تقل هذا! حتّى الجديد، صدّقوني! والثّريا المعلّقة بغرفتي أيضًا.

- ما بها؟

- كانت تتأرجح الجمعة الماضية عندما كُنت أشعر بالأرق، تخشّب لساني في فمي ولم أتمكّن من مناداة أُمّي، فظللتُ أتبعها بعيني وأنا عاجزة عن الكلام حتّى غلبني النّعاس.

ضحك أخي «خالد» وقال:

- هذا بسبب الزلزال الّذي أصاب مصر حينها، كُنت بجواري عندما ذُكر هذا الأمر بنشرة الأخبار.

هزّ أبي رأسه موافقًا، فحزنت، فقد نقلت عينيّ لوجهه وظننت أنّه الوحيد الّذي سيُصدّقني، قُلت وقد أصابني الحرج من إنكارهم:

- أسمع أصواتًا تصدر من قبو البيت، تُناديني باسمي.

قال «سُليمان» ساخرًا:

- هذا أنا وكُنت أُخيفك!

ضحكوا جميعًا، وأصابني ضيقٌ شديد منه، والتصق الخوف بأضلعي، فلا أحد هُنا يُصدّقني، وأخشى أن أرحل للقاء شعب غريب منسيّ له قصّة عجيبة وحدي، وأنقطعُ تمامًا عن أصدقاء عائلتنا بمملكة البلاغة،

وحتّى «أبادول» لن يعرف عنّي أبدًا! لا أُريد أن أكون من المستكشفين، كما أنني ما زلت في الحادية عشرة من عُمري، قال «أبادول» إنّ هذا لا يحدث للأطفال، فتقوقعتُ في حضن أبي، ولم أُخبرهم أنّ الثّريا تتأرجح كلّ ليلة، وأنني على يقينٍ أنّ الصّوت الّذي يُناديني من قبو البيت ليس صوت «سُليمان».

وجّه جدي «أبادول» سؤاله مرّة أخرى مُباشرة لـ «حمزة» و«خالد» وسألهما هل شعرا بأيّ مما وصفه «ميسرة»؟ ولمّا نفيا هذا أخبرنا أنّ الأمر سيبقى معلّقا حتى تظهر عليهما العلامات، فارتخت ملامح أبي وأمّي وزال عنهما القلق.

سهرنا معًا، وتناولنا الطّعام الّذي أعدّته جدّتي خِصِّيصَى لحماها العزيز «أبادول»، وأحضرت عمّتي «حبيبة» كعك الزّنجبيل، وأعدّت أُمّي مشروب الشوكولاتة السّاخنة، وكُنت أرتدي قميص الصّمت وأطوي خلف أزراره خوفي الشّديد، غلبني النّعاس على الأريكة، دثّرتني جدّتي بشالها الصّوفي، وغرقت في نوم عميق، وهم يتسامرون حولي.

***

الضّيفةُ الثّقيلة

اختفى «أبادول» فجأة كما ظهر فجأة قبل أن نستيقظ من نومنا، وغادرنا «ميسرة» على وعد بزيارة أخرى وترك لنا رقم هاتفه الجوّال، كنت أشعر بالطمأنينة تسري في أوصالي بعد رحيلهما، وظننت أنّ الأمر قد انتهى، جلست أداعب قطّتنا التي بدأت تموء بشكل غريب فجأة عندما ارتفع رنين جرس الباب وكان مستمرًّا ومُزعجًا حتّى أنني ظننت أنّ من يقف خلف الباب لن يرفع أصبعه عن الزرّ للأبد، هرول «حمزة» غاضبًا ليفتح الباب، وإذا بامرأة أربعينية تدلف وتجرّ خلفها حقيبة سفر، كان عطرها النّفّاذ يسبقها وسريعًا ما عبقت به الأجواء، وقفتُ أمامها أتأمّل

قوامها الممشوق، كانت ترتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا حريريًا ناعمًا، ومعطفًا أحمر مزيّنًا بالفراء، وحذاء له كعب عال ومدبب، ودلفت خلفها فتاتان تشبهان الدّمى اليابانيّة، صاحت المرأة فور أن رأت أبي:

- أوووه.. «أنس»! كم تغيّرت!

امتعضت ملامح أمّي وبدا الضّيق عليها عندما اقتربت تلك المرأة من أبي تكاد تعانقه، لولا أنّه وثب للخلف وكأنّه أصيب بصاعقة كهربائيّة وكان يصيح بعصبيّة:

- «ليلى»! متى رجعتم إلى مصر؟

لاحظت المرأة أنّ أبي لا يرغب في السّلام عليها بطريقتها الجريئة تلك، فتراجعت، وسارع بالتّرحيب بهن بتحفّظٍ وهو يخشى أن تعاود محاولة عناقه، وأشار للمقاعد ليجلسن، ثُمّ التفتَ نـحو أمّي التي ضاقت عيناها وبدت وجنتاها وكأنّهما صُبغتا للتوّ بلون التوت الأحمر، أدركَ حينها أنّها غاضبة، غاضبة جدًا، غاضبة للغاية، فأحاط كتفيها بذراعه وهو يُقدّمها لهنّ فخفف هذا من حدّة التوتّر عندما قال:

- هذه زوجتي «مَرام»، وهذان ولداي «حمزة» و«خالد»، وتلك صغيرتي «فرح»، حمدًا لله على سلامتكنّ.

صاحت ذات المعطف الأحمر:

- توْءَمان! ما أروعهما، يُشبهانك كثيرًا يا «أنس».

ثُمّ نادتني فاقتربتُ لأصافحها فقرصتني في وجنتي وقبلتني.

بدا لي صوت ضحكتها كصوت حشرجة علب المياه الغازيّة الصفيح عندما تدهسها عربة القمامة الّتي تمرّ من شارعنا كلّ يوم، قال أبي وهو يُشير إلى تلك المرأة الحمقاء الجميلة:

- هذه «ليلى» من أبناء عمومتنا.

رفع «خالد» حاجبيه متعجبًا فزاد أبي توضيحًا عندما رأى الفضول يُطلّ من عينيه وأعيننا، فنــحن لم نعرف له عمّ ولا أبناء عمّ من قبل، وقال وهو يرسم ابتسامة مقتضبة:

- جدّها هو ابن عمّ جدّي «توفيق»، ووالدها بمنزلة أخ لأبي، لكنّه سافر للخليج ونــحن في المرحلة الثّانويّة، وقاطع مصر منذ ذلك الحين.

قهقهت السيّدة «ليلى» كسيّارة كسيحة تبصق الدّخان، وحرّكت خصلات شعرها الطويل بدلال، ووضعت ساقًا على ساقٍ وهي تقول بنزق:

- لم يُحب أبي نمط الحياة هنا!

ثُمّ أخذت تتمعّن في ملامح أبي وأضافت:

- شَابَ شعرك مُبكّرًا يا «أنس»، أليس هذا غريبًا!

كنتُ أعرف أنّ مناداتها لأبي هكذا بلا كُلفة ستُضايق أمّي، تبادلتُ النّظرات مع أخي «حمزة»، واستدرنا في آن واحد تجاه وجه أُمّي التي رسمت على شفتيها ابتسامة مقتضبة، قام «خالد» مُسرعًا نــحو غرفة جدّي وجدّتي ليخبرهما بوصولهن، تنــحنــح أبي وقال:

- رحم الله عمّي «جلال»، وصلنا خبر وفاته العام الماضي، أرسل «سعيد» بريدًا إلكترونيًّا لي وأبلغني فحزنت للغاية كما حزن أبي وجدّي، لكنّه لم يُجب على رسائلي بعدها أبدًا.

- هكذا أخي «سعيد» دائمًا مُهمل!

- لا.. لا هو لا يقصد بالتّأكيد.

صمتت برهة وقالت:

- أرأيت يا «أنس»، مات أبي ولا يزال جدّك «توفيق» على قيد الحياة!

شعرنا بالضيق الشديد من جملتها الأخيرة، ستحسد تلك المرأة جدّي «أبادول» أطال الله عمره! حاول أبي تغيير دفّة الحديث وسألها:

- كم ستطول زيارتكم لمصر؟

- سأبقى لفترة، فقد انفصلت عن زوجي، وأرغب مضطرّة في الاستقرار بمصر لأبدأ نشاطي التّجاريّ هنا، فابنتي الكبرى ستلتحق بالجامعة هذا العام.

ازداد الجوّ توترًا، أقبل جدّي وجدّتي، وتبعتهما عمّتي «حبيبة» وعانقت تلك الـ «ليلى» -الّتي لم أحبّها قط- ورحّبت بها بودّ شديد، بدا لي أنّ بينهما ذكريات ولحظات حلوة، تذكرتا معًا أيّام الطفولة، اقترب «سُليمان» منهما فأغرقته بالقبلات على وجنتيه حتى لوَّثتهما بأحمر الشّفاه، وأخبرتها عمّتي عن «سارة»، فتعجبت من زواجها من شابٍ بالجزائر، لكنّ عمّتي عللت لها الأمر بسفرها مع عمي «يُوسف» لهناك ولقائهما بـ«طارق» وأسرته. سألتْ السيّدة «ليلى» عن «أبادول» أكثر من مرّة، وكان أبي يُخبرها أنّه خرج مع رفاقه، كان ردّها سخيفًا عندما قالت:

- كيف يخرج شيخ في هذا العُمر وحده؟

ثُمّ شنّجت رقبتها وحرّكتها كإنسانٍ آلي وأضافت وهي شاخصة العينين:

- معقول! لا تخبرونني أنّه في دار للمسنين! يا للعار! تخجلون من مصارحتي بالأمر؟ عيب عليكم!

جمجم أبي غاضبًا ونفى هذا، كما أحزن هذا الكلام جدّي «كمال» الّذي لامها على كلماتها الجارحة والمهينة، لكنّ جدّتي بحكمتها تجاوزت تلك الجملة الحمقاء، وبدأت تسألها عن ابنتيها وأظهرت فضولًا نسويًّا جعل

المرأة تعتدل في جلستها لتتحدث عن ابنتيها بالتفصيل، وكانت تلتفت من آن لآخر تجاه «حمزة» و«خالد» وهي تتحدّث عنهما. كان الوقت يمرّ ثقيلًا، غرقت أُمّي في صمت طويل، ثُمّ توجّهت مع عمّتي للمطبخ لتعدّا معًا طعام الغداء، وبقيت أراقب الأجواء، هرب «حمزة» و«خالد» من الغرفة، لم يعجبهما تدخين السيّدة «ليلى» للتبغ أمام أبي وجدّي، كما لم يُعجبهما حديثها مع جدّتي عن «ريم» و«روان»، أدركتُ الآن سبب تحشرج صوتها، لا بدّ أنّها آثار التدخين.

بقيتُ مع «سليمان»، كنّا ننصت للحوار بفضول والقطّة السوداء تجلس في هدوء بيننا، وتهزّ ذيلها باستمرار، قالت السيّدة «ليلى» وقد انتفش شعرها المصبوغ فبدت رأسها كرأس «ميدوسا»[1] بعد أن أطلقت من فمها حلقات متتابعة من الدّخان الخانق:

- أخبرني أخي أنّ البيت هنا وخاصّة أنّه يقع في أرقى مناطق الفيّوم، ويطلّ من الجهة الخلفيّة على الطريق الرّئيسي صار ذا سعر مرتفع.

هزّ جدّي «كمال» رأسه وغمغم قائلًا:

- نعم.
- في الحقيقة؛ لم أتوقّع أنّكم تعيشون جميعًا هنا، ولم أتوقّع أنّه لا يزال قائمًا وصامدًا، وأراه ازداد أصالة وأناقة عن ذي قبل.

رفعت عينيها فالتصقت رموشها الصناعية بحاجبيها وتأمّلت النّقوش الّتي تُزيّن السقف وأضافت:

- لم أر جمالًا في حياتي يُضاهي تلك النّقوش! ومن أين أتيتم بتلك الثُّريّات؟

---

(1) ميدوسا: شخصيّة خياليّة من الميثولوجيا الإغريقيّة لامرأة تحوّل شعرها إلى ثعابين وكان كل من ينظر إلى عينيها يتحول إلى حجر.

ثُمّ أطلقت تنهيدة وقالت:

- في الحقيقة؛ جئت أقترح عليكم أن يُهدم هذا البيت وتُباع أرضه لننتفع جميعًا بثمنها.

كانت تلك الجملة كافية لاستثارة غضب أبي الّذي قال في الحال:

- مستحيل! لن نفعل طبعًا!

قالت ببرود:

- توقّعت قولك هذا، على العموم خذوا وقتكم وفكروا جيّدًا.

- هذا هراء، كما أنّ كلّ ما يتعلق بهذا البيت أمر عائليّ يخصّنا فقط!

- ويخصّني! أنسيت أنّ لنا نصيبًا في هذا البيت يا «أنس»؟ ولنا حصّة في أرضه الّتي صارت الآن تُساوي الملايين!

كاد أبي يضيف شيئًا لولا أنّ جدي «كمال» استوقفه بيده وقال:

- أخبرني أبي أنّه قد دفع لجدّك ثمن حصّته بالبيت منذ سنوات طويلة، وتسلّم جدّك قيمة نصيبه نقدًا بالتمام والكمال، وكان أبوك يعرف هذا! ليس لكم أيّ حق في هذا البيت يا «ليلى».

أطفأت لفافة التّبغ أخيرًا وقالت وهي تهزّ كتفيها:

- لم نعثر على أيّ أوراق تُثبت تسلّمه لِملّيم(1) واحد!

- ولا يعني هذا أنّه لم يتسلّم المال، كانت الأمور بينهما واضحة، لم يحتج لورقة لإثبات هذا قط، كما أنّ «جلال» كان يكره البقاء في مصر بسبب القضايا الّتي رفعها المستثمرون على شركته، فقد ضيّع المال وبعثره، وغرق في الدّيون بسبب قراراته الطائشة، وكان يُخطط للهجرة من الخليج إلى أمريكا، وكره البيت هنا حتى إنكِ وأخوكِ كرهتماه، أنسيت يا بنتي؟

(1) المِلِّيمُ: عُمْلَةٌ نقديَّة عربيّة مُستعملة في تونس والسودان وكانت في مصر قديمًا، وتختلف قيمتها من مكان إلى آخر. وتدل على قلّة المال.

رفعت عينيها نــحو الدّرج الّذي كان ظاهرًا من فرجة باب غرفة المعيشة وقالت:

- كُنّا نخاف من تلك الغرفة الفارغة بالطّابق العلوي، لم ننس قط ما أخبرنا به «أنس» وكذلك «حبيبة» عن سماعهما لتلك الهسهسات والأصوات التي..

قاطعتُها وارتفع صوتي دون قصدٍ منّي وقلت:

- لا تزال تصدر منها تلك الأصوات المخيفة.

رماني أبي بنظرة لوم وعتاب، فليس من اللائق مقاطعة حديث الكبار، وهو لم يعهد منّي هذا، لكنني أردتُ إخافتها، هربتُ من عينيه والتفتُّ نــحو «سليمان»، فهمس لي قائلًا:

- أرأيتِ الحلقة الّتي تثقب بها «روان» أنفها.

همستُ وأنا أحدق إلى طلاء أظافرها الفسفوري وقلت له:

- أتظنها من المحاربين؟

خمشت «روان» شعر رأسها بأظافرها الصّناعية فانخلع أظفر منهم وسقط على الأرض، فأسرعت القطّة والتقطته وهربت به تحت المنضدة، فالتفت «سُليمان» نــحوي وقلب شفتيه قائلًا:

- من المستحيل أن تكون مُحاربة!

تصاعدت وتيرة الحوار سريعًا، كانت السيّدة «ليلى» مستفِزّة، حتّى لغة جسدها وهي تتكلّم كانت نَزقة ورَعناء، وقد أساءت كثيرًا لرمز الوقار في بيتنا، وجرحت جدّي «كمال».

بدأ صوت أبي يرتفع وهو يجادلها، أقبلت أمّي وعمّتي من المطبخ على أصواتهما، تبعهما «خالد» ثُمّ «حمزة»، ووقفنا جميعًا نراقب تلك المرأة الّتي كشّرت عن أنيابها وكشفت غرضها من الزّيارة، انتهى الحوار بتلويح منها أنّها ستلجأ للقضاء، وهي هنا بتوكيل من أخيها للتواصل مع محامٍ ليستكمل

الإجراءات، وسيطالبان بحقوقهما في أرض هذا البيت، الّذي كررتْ أكثر من مرّة أنّه لا بدّ أن يُهدم ويُسوّى بالأرض لتُباع، وذكرتْ أنّ هناك رجل أعمالٍ من الخليج بالفعل يُريد شراءها بسعر خيالي. لم تتوقف عن الجدال، ولم يتوقف أبي عن الرّد، خرجت السيّدة «ليلى» من بيتنا غاضبة وهي تجرّ حقيبتها مصدرة صريرًا مُزعجًا وخلفها ابنتاها، لم تستجب لنداء جدّي «كمال» الّذي أصر على استضافتهنّ بالبيت، فمهما حدث هي في مقام ابنته، لكنّ تلك المومياء أخبرته أنّها ستقيم بأحد الفنادق، وأنّها لا تطيق هذا البيت المسكون، أغلقت عمّتي «حبيبة» الباب خلفهنّ، وجلسنا وكأنّنا تماثيل من شمع قد وُزّعت على المقاعد، بعد قليل وصل عمّي «يوسف» وفزع عندما رأى وجوهنا الواجمة، خلع عويناته وسألنا بهدوء:

- حسنًا.. ما الّذي حدث أثناء غيابي؟

*****

كانت تلك الزّيارة كافية لقلب موازين العائلة، وكأنّ زلزالًا ضرب أساس بيتنا فجأة!

دار نقاش طويل بين جدّي «كمال» وأبي وعمّي «يُوسف»، الثلاثة يعرفون قيمة الأرض بالفعل، كلامها صحيح، الأرض صارت ثروة وبيعها سيجلب مالًا وفيرًا، ولا يوجد ما يُثبت أنّ جدّها تسلّم المال، وكان لا بدّ من توثيق هذا لحفظ الحقوق! والوضع القانونيّ حرج للغاية، ولا بدّ من ترضية السيّدة «ليلى» وشقيقها بمبلغ كبير ومحاولة حلّ الأمور بشكل ودّي بالاتفاق مع محام وتسجيل هذا بالوثائق حتّى يتوقفا عن إزعاجنا للأبد وقبل أن يصل الأمر للمحاكم. قرر أبي بيع شقّتنا بالإسكندرية، كما قرر عمّي «يُوسف» بيع شقّته هو الآخر، واتفق كلاهما على بيع سيّارتيهما. قدّمت جدّتي ذهبها ليتمّ بيعه، وكذلك فعلت أُمّي وعمّتي «حبيبة»، ولكن كلّ هذا لن يكفي ليسُد الملايين الّتي تطمح إليها السيّدة

«ليلى»، فقد واصلت نفث سمومها عبر الهاتف وكأنّها تعلم أننا كنّا نتحدّث عنها للتوّ، وأبلغت جدّي «كمال» أنّ المحامي سيتواصل مع أبي، سألها عن المبلغ الّذي يرضيها فطرحت عليه رقمًا دفعه لإغلاق الهاتف وهي تتحدّث، أعادت محاولة الاتصال فأغلق هاتفه تمامًا، حتّى جدّي «كمال» الّذي عُرف بهدوئه الشديد وثباته الانفعاليّ نجحت تلك الـ «ليلى» في استفزازه!

اقترح أخي «حمزة» أن نتواصل مع «ميسرة»، فالمستكشفون يستطيعون توفير المال، وخاصّة أنّ البيت يُعتبر بوّابة من بوابات الولوج لمملكة البلاغة، وأبدى أبي استعداده للتوقيع على ما يثبت أنّ هذا دَيْنٌ وليسدده لاحقًا على دفعات. تم الاتصال بالفعل، وكان لأبي حديث طويل مع السيّد «أحمد» ذلك الشّاب الّذي التقاه منذ سنوات بعد عودته من رحلته الأولى لمملكة البلاغة، والّذي صار الآن كهلًا لطيفًا يجيد الحديث ويطيله، فقد ظلّ يتحدّث مع أبي قرابة السّاعة، أخبر أبي أنّه سيُرسل المال غدًا مع «ميسرة»، فهم يتجنّبون التّعامل عن طريق البنوك للحفاظ على سرّية الأمور قدر المستطاع، فهذا أقلّ ما يجب فعله من أجل بيت «أبادول». سعدنا جميعًا بما آلت إليه الأمور، واستطاع أبي أن يتواصل مع السيّدة «ليلى» مرّة أخرى، والتي صرّت على أسنانها وهي تردد على الهاتف:

- كيف ستوفّرون هذا المبلغ الكبير خلال يومين! لم يَخِب ظنّي قط، أنتم أثرياء، تُرى ماذا تُخفون عنّا؟ لا بدّ أنّ هناك أراضيَ وعقاراتٍ أخرى ولنا فيها نصيب وورث كبير.

رد أبي باقتضاب:

- في انتظارك بعد يومين.

زالت الغُمّة، وحلّت السّكينة لفترة وجيزة على بيتنا العجيب، وتوالت علينا المفاجآت تباعًا.

****

البيت المهجور

في اليوم التّالي، كان الطّقس باردًا وغائمًا، وصل «ميسرة» وقت الأصيل، كان يحمل على ظهره حقيبة فيها المال الّذي طلبه أبي من السيّد «أحمد». ظنّ أبي أنّه سيُوقّع على أوراق تُثبت أنّه اقترض هذا المبلغ الكبير من «المستكشفين» فسأله:

- أين إيصال الاستلام لأُوقّع عليه؟
- لم يكلّفني السيّد «أحمد» بهذا!

لزم أبي الصّمت للحظات قصيرة، شردت عيناه، قطع جدّي «كمال» الصّمت الّذي حلّ علينا عندما سأل «ميسرة»:

- كيف تسير بهذا المبلغ في حقيبة بسيطة على ظهرك وتتجوّل هكذا وحدك؟ ألا يوجد سيّارة خاصّة لتقلّك ما دُمتم لا تتعاملون مع البنوك؟
- اعتدتُ المخاطرة، لا بدّ من هذا يا سيّدي، كما أنني هكذا لن ألفت الأنظار.

ثُمّ أضاف سائلًا:

صحيح.. أين «حمزة»؟

- خرج مبكّرًا.

قال وهو يتمعّن في ملامح «خالد»:

- أنتما متطابقان للغاية، لا بدّ أنّ هذا شيء لطيف، من الجميل أن يكون لك أخ، والأجمل أن يُشبهك.

سألته جدّتي بفضول:

- لماذا لم تتزوّج حتّى الآن يا «ميسرة»؟

برقت عيناه بغموض وقال:

- تزوّجتُ بالفعل، لكنني مُنفصل الآن عن زوجتي، وحاليًا في طريقنا للطّلاق، فقد رأتني غريبَ الأطوار ومُندفعًا، وتزعم أنني مريضٌ نفسيّ وأحتاج إلى العلاج.

ابتسم جدّي قائلًا وهو يُشير لجدّتي:

- يومًا ما ستجد من تُحبّك حتّى لو كُنت غريب الأطوار.

- من حُسن حظّ السيّد «أنس» والسيّدة «حبيبة» أنّهما تزوّجا من شخصين شاهدا مملكة البلاغة بالفعل ويعرفان أسرارها.

قالت جدّتي لتُخفف عنه:

- كانت الثّقة الشديدة الّتي زرعها زوجي في نفسي تجاهه هي الوتد الّذي أتكئ عليه، وثقتُ به طوال عشر سنوات بعد الزّواج، وفي ليلة من الليالي وبعد نوم «أنس» و«حبيبة»، أخبرني بكلّ شيء، كان يتحدّث بسرعة وبانفعالٍ شديد وهو يروي التّفاصيل، دون أن يتوقّف عن الكلام حتّى ليلتقط أنفاسه، وعندما انتهى سألني:

- هل تصدقينني؟

نظرتُ في عينيه طويلًا، لم يكن «كمال» زوجًا كذوبًا ولا خبيثًا، وكان دائمًا عاقلًا وحكيمًا، لهذا رددتُ بكلّ ثقة:

- نعم أُصدّقك.

أرسل تنهيدة اطمئنان بعدها وكأنّ حملًا ثقيلًا كان يجثم فوق صدره، وتكوّر بجانبي ونام كطفل صغير، ظللتُ ساهرة حتّى الصّباح أجترّ كلّ كلمة رواها لي، داهمني خوف وشكّ بالفعل وقُلت لعلّه مرض فجأة! في اليوم التّالي زارنا «أبادول» الّذي كان انضمامه لحوارنا سببًا في انقشاع

سحابات القلق الّتي راودتني، لو وثقتْ بك زوجتك يا «ميسرة» كانت لا ريب ستصدّقك.

ظهرت علامات الانزعاج على وجه «ميسرة»، لم يُصارحها يومًا بكلّ شيء، لم يفتح قلبه كما فعل «كمال» مع زوجته، شعر بالارتباك واستأذن لينصرف، فسأله أبي:

- إلى أين؟
- إلى مهمّتي الجديدة.
- لم تسترح بعد من مهمّتك السّابقة، وجرح رأسك حديث ولا شكّ أنّه يؤلمك.
- لا بدّ من هذا، الأمر جدّ خطير، الكثير من البوّابات يتمّ إغلاقها ولا نعرف السّبب، وهذا سيؤثّر بالتّدريج على وصول المحاربين لمملكة البلاغة.

عقّب جدّي على كلماته قائلًا:

- وستكون الكتب، والحقائق، والتّاريخ، والقيم، والمبادئ، وقوى الخير في خطر، امض يا بنيّ، حفظك الله وسدد خُطاك.

صمم أبي على توصيله بسيّارته، وقام «خالد» ليرافقهما، وبالتّأكيد «سُليمان» الّذي صار يتبعه كظلّه، وقفتُ أُودّعهم مع أمّي خلف زجاج النّافذة وأنا أتميّز من الغيظ، لماذا دائمًا «سُليمان» يسبقني؟ أوقف أبي سيّارته فجأة، وأشار إليّ لأنضمّ إليهم، لم أُفكّر للحظة وركضْتُ للتوّ نــحو الباب، لاحقتني أمّي بمعطف يقيني من البرد، وألبستني على رأسي قلنسوة صوفية، ولفّت حول عُنقي وشاحًا ليُدفّئني، وقبّلتني بين عيني بحنانٍ شديد، وددت لو قبّلتها أنا الأُخرى، لكنّني تعجلت الخروج وخفتُ أن يتركوني، وندمت بعد هذا كثيرًا لأنني لم أفعل.

كان «ميسرة» يجلس بجوار أبي ليدلّه على الطريق، وكان «خالد» يجلس بجواري هو و«سُليمان» الّذي كان يقبض على كُرته المطّاطيّة الّتي لا تُفارق يده طوال النّهار، وكثيرًا ما كان يجعل ساقيّ هدفًا له وهو يرميني بها.

سرنا طويلًا حتى وصلنا لشارع ساكن على أطراف «الفيّوم»، دلفه أبي بهدوء، بدا وكأنّ المنطقة مهجورة، هذه مدرسة، وهذا مصنع للملابس، وانشغلتُ بتفاصيل هذا الشّارع الهادئ، كان هناك الكثير من الكلاب الضّالة هنا وهناك، ركضوا خلف سيّارتنا ولازمونا لفترة، يبدو أنّ حرّاس العقارات يستبقونهم للحراسة، وليخيفوا بهم أي غريب يقترب. هناك عمارتان فارهتان لا يزال العمل على بنائهما مستمرًّا، وإن كان يبدو أنّ العمّال الآن غائبون عن الحضور، فأدوات البناء وشكائر الأسمنت كانت أمام البوابات، قال أخي «خالد» وهو يتفحّص المكان:

- أين سُكّان الحي؟ وأين العُمّال؟

أجابه أبي:

- لا بدّ أنّ العُمّال انصرفوا مبّكرًا فغدًا الأربعاء عُطلة رسميّة بإذن الله، ولا شكّ أنّهم ضمّوا الخميس معها، فالجمعة إجازة على كلّ حال، وأغلب هؤلاء العمّال من القرى وهذه فرصتهم لزيارة الأهل.

دار أبي بسيّارته خلف العمارتين، ليُطلّ علينا بيت قديم كلّ نوافذه مُغلقة وكأنّها جفون مُسدلة، لا تزوره أشعة الشّمس غالبًا، فقد حجبتها عنه العمارتان الفارهتان، فصار المكان معتمًا وباردًا تفوح منه رائحة الرّطوبة، كان البيت مُكونا من طابقين، خرجت مغاليق النّوافذ من مفصّلاتها، القرميد(1) المزيّن لواجهة البيت يتفتت، ماتت النباتات على

(1) القرميد: حجارة مصنوعة تُنْضَجُ بالنَّار يُبْنَى بها، أو يُغطّى بها وجه البناء.

حافّة الشُرفات، الحديقة حوله كانت ممتلئة بأغصان الأشجار الجافّة، وباتت وكأنّها مقبرة، وحولها سور ممتلئ بالفجوات وقد تساقطت قوالب الطوب الّتي اقتات عليها الزّمن.

ترجّل «ميسرة» من السيّارة، وحيّانا قائلًا:

- شرفتُ بلقائكم، كُنت قد سمعتُ عنكم الكثير، ووددتُ دائمًا لو التقيت بكم، وتمنّيت أن لو كُنت فردًا من عائلة «أبادول».

شدّ أبي على يده، وعانقه «خالد»، ووقفنا نراقبه وهو يبتعد، سار على الممرّ المرصوف بالحجارة والمؤدي للباب الرئيسي، ثُمّ التفت فجأة وقال:

- ألا تُحبّون رؤية البيت من الدّاخل؟

قال أبي بتحفّظ:

- لا داعي لهذا.. في أمان الله.

قال «ميسرة» موجهًا كلامه لـ «خالد»:

- ظننتك سترغب في رؤيته!

ابتسم «خالد» ولوّح له، فاستدار «ميسرة» وعاد لسيره. شعرت بقلبي يهوي، هُناك شيء ما يجول في صدري، كُنا نـحدّق جميعًا تجاهه، لحظات تفصل بيننا وبين مملكة البلاغة، وربّما سيبتلع هذا البيت «ميسرة» الآن، وسيلتقمه التقامًا لتبدأ رحلته الجديدة، في تلك اللحظة، قال «خالد» وهو يسير خلفه:

- أُريد أن أرى البيت من الدّاخل قبل أن يرحل «ميسرة».

هرول أبي خلفه وأمسكه من ذراعه وصاح:

- لا تقترب من البيت يا «خالد».

- دقائق فقط يا أبي وسأعود.

- قُلت لك لا تقترب!

- لماذا يا أبي؟ لم نتعلّم منك الخوف والتّردد! ألسنا محاربين؟

- لا أقصد.. أنا فقط أشعر..

فتح «ميسرة» باب البيت، أصرّ «خالد» على الدّخول، أراد أن يرى البيت من الدّاخل، تبعه «سليمان»، ودلف أبي خلفهما في توتّر، ودخلتُ البيت خلفهم جميعًا، وفور أن وضعتُ قدمي داخل البيت وخطوت أوّل خطوة على أرضه شعرت برجفة تجتاح جسدي، وشيء يقبض على قلبي بقوّة ويعتصره، تأوّهت ووضعت كفّي على صدري، أجفل أبي واقترب مني، صُفق الباب خلفي بقوّة شديدة، بدأت الثّريّا الوحيدة المتدلّية من سقف صالة البيت تتأرجح، ثُمّ أضاءت وحدها، صاح «ميسرة»:

- يبدو أنّك المقصود يا «خالد»، ها هو البيت يُرحّب بك!

قال «خالد» وهو يحدق إلى الثّريا:

- لم أشعر بأيّ شيء!

- هل تسمع صوتًا ما؟

- لا.

كان البيت كئيبًا، بقع الرّطوبة تظهر كالخرائط على الجدران، انفصلت السُّجوف عن الكلّابات، بليت أقمشة المقاعد، أغبرت الأبسطة على الأرضيّة الخشبية الباهتة الّتي فقدت لمعانها، هناك درج يقود للطابق العلوي، حافّته الجانبيّة مُحطّمة وكأنّ شيئًا ما سقط من فوقها فحطّمها..

رفعتُ رأسي وغابت أصواتهم جميعًا عنّي، وشعرت بالانعزال عنهم، وبقي صوت واحد فقط يتردد في أُذنيّ، وكأنّها أنفاس شخص ما، سرتُ

وكأنّ هناك من يقودني، وضعتُ يدي على الجدار، شعرتُ به، شعرتُ بالبيت، بدأ الخوف يغادرني وحلّ محلّه شعور آخر، لم أُحسن وصفه أبدًا لأبي بعدها، لكنّه شعور يشوبه الفضول، والرّغبة في استكشاف سرّ غامض تحت سقف هذا البيت، يداي اللتان بدأتُ أتحسس بهما الجدران نقلتا لي الكثير من المشاعر، لقد مرّ هذا البيت بالكثير من الأحزان، موت، وفراق، وصدمات تترى، ومرّ أيضًا بالكثير من الأفراح، ضحكات صغار، أهازيج وغناء! تداخلت عدّة أصوات وبدأت تناديني «فرح».. «فرح»، تسارعتْ أنفاسي، ثُمّ انخفض الصّوت الّذي كان يصمّ أذنيّ، والتقطني أبي قبل أن أنهار على أرض الغرفة، وسمعت صوته الحاني وكأنّه يأتيني من بئر عميقة وهو يسألني:

- «فرح» هل أنت بخير؟

مرّت لحظات ثَقُل فيها لساني، سألني وهو يمسح جبهتي بكفّه:

- أخبريني يا صغيرتي ما الّذي حدث؟

قُلتُ بصعوبة بعد انحلال عقدة لساني:

- سمعت أصواتًا مثل تلك الّتي تناديني في قبو بيتنا، واهتزّت الثريّا كما تهتزّ تلك الّتي في غرفتي كلّ ليلة، والجدران! أشعر عندما ألمسها أنني أصافح صديقًا أعرفه!

قال «ميسرة» وعيناه تسبحان في حيرة:

- يا إلهي! ما زلتِ طفلة!

ثُمّ أضاف وهو يحدّق تجاهي:

- يبدو أنّ «فرح» من المستكشفين!

****

أدرك أبي الآن أنّهم قد أخطأوا عندما استهانوا بما وصفته لهم في حضور «أبادول»، وأنني بالفعل أشعر بالبيت، وقد ظهرت عليّ العلامات الّتي أخبرنا عنها، سأل أبي «ميسرة»:

- هل حدث من قبل أن كان هناك مُستكشفٌ من عمر «فرح»؟

- لا.. ولا حتّى مُحارب، ولكن على أيّ حال لم يزر مملكة البلاغة في إطار المُحاربين من الأطفال سوى «فرح» و«سليمان»، ولم تنتقل عائلة بأكملها إلى هناك إلّا عائلتكم، ولم ينتقل بيت بأكمله لأرض «الكَنهْوَر» إلّا بيتكم، أنتم دائمًا تتصدّرون الأحداث الفريدة الّتي لم تدُر على أرض المملكة من قبل، هُناك رابط خفيٌّ بينكم وبين مملكة البلاغة.

قال أبي بصوت يشوبه القلق:

- على العموم هو اختيار تطوعي كما قال «أبادول»، و«فرح» لن تقبل بتلك المهمّة.

رنا أبي إليّ فهززتُ رأسي موافقة، وهرعت لحضنه أتشبّث به، فاحتواني بين ذراعيه وقال وعيناه تمشّطان أركان البيت:

- هيّا بنا لنخرج من هذا المكان.

هممنا بالخروج، لكنّ البيت لم يسمح لنا! اهتزّت الأرض تحت أقدامنا، وشعرتُ وكأنّ الجدران تقترب وتكاد تعصرنا، تشتتنا بفعل قوى خفيّة دفعتنا تجاه أركان غرفة الاستقبال الأربعة، وتباعدنا، انشقّت الأرض تحت أقدامنا، وأطلّت وسط الغرفة فتحة أرضيّة مستطيلة ظلّت تتّسع وتتعمّق، وكأنّها غرفة سريّة تقبع تحت أساس البيت والآن تُفتح لنا، توقفت الأرض عن الارتجاج، كان هُناك صندوقٌ عتيقٌ عليه نقوش مُذهّبة بديعة وبارزة، أطلّ بتفاصيله وكأنّ هناك أياديَ خفيّةً تنقّب عنه،

وترفعه أمامنا بالتّدريج، وتنفض الغبار عن سطحه، قال «ميسرة» وهو يقترب من حافّة الفتحة تلك:

- غرفة الكنز.

همهم «خالد» سائلًا وهو يقترب منه:

- أيّ كنز؟

- يوجد تحت كلّ بيت من تلك البيوت صندوق كهذا، وللمستكشف أن يأخذ شيئًا واحدًا فقط من هُناك، ولا يُسمح له بأخذ غيره، لا تخرج قبضته ممتلئة إلّا في المرّة الأولى فقط، دائمًا أُغمض عيني وأسحب شيئًا ما، وكان هذا الشّيء يُفيدني في رحلتي.

قفز «ميسرة» دون تفكير داخل غرفة الكنز، وحاول فتح الصّندوق، لم يُفلح في فتحه، رفع رأسه تجاهنا، فخلع «خالد» سُترته وقفز وحاول هو الآخر ولم ينجح، رفعا رأسيهما تجاه أبي الّذي أغمض عينيه بانزعاج وقال لهما:

- لا تُفكّرا ولو للحظة، لن تنزل أختك يا «خالد»! وليس هُناك داعٍ لفتح الصّندوق، سنرحل من هُنا في الحال!

قُلت بتلعثم:

- أُريدُ أن أخرج من هنا بسرعة.

تسلّق «ميسرة» و«خالد» ليصعدا من غرفة الكنز، وهممنا بالخروج مرّة أخرى، كان «سليمان» أقربنا للباب، حاول فتحه لكنّه فشل، حاول «ميسرة» وبعده «خالد»، وكان أبي يمسك بي وكأنّه يخشى أن أطير من بين يديه، من خلفنا علا صوتٌ مدوّى فالتفتنا وقلوبنا تخفق، فُتح الصندوق وحده، وسمعتُ صوتًا وكأنّ الصّندوق يسعل سحابة من غبار تلاعبت في الهواء فوقه، ثُمّ تبعثرت منه عدّة أشياء وكأنّها قذائف في

مُختلف الاتجاهات، وفجأة! طارت منه لفافة من الجلد وكأنّها رسالة مطويّة، وقُذفت بقوّة نـحو صدري، فاصطدمت بي ثُمّ سقطت أمامي على الأرض، تسمّرت قدماي تحتي وتشنّجتا، انـحنيتُ والتقطتُها بأنامل مُرتعشة، وفور أن اعتدلتُ ورفعتُ رأسي، كانت جدران البيت قد انقشعت كالدّخان من حولي، وتلاشى سقف البيت، وتبدّل بسقفٍ آخرَ أكثر ارتفاعًا تتوسّطه فتحة واحدة مستديرة وبعيدة يتسلل منها بصيصٌ ضئيلٌ من أشعة الشّمس، ظلّت عيناي معلّقتين بها وكُنت أخشى أن أخفضهما وأرى ما لا أرغب في رؤيته، سحبت نظراتي ببطء تجاه الجدران وأنا أنتفض من شدّة الخوف فوجدتها جدرانًا حجريّة لزنزانة خانقة لا يوجد بها نافذة واحدة، والسلاسل والقيود معلّقة هنا وهناك، واستحالت الأرض تحت أقدامي لأرض ملساء تكسوها العفونة والطحالب، تلفّتُّ حولي فلم أجد أبي ولم أجدهم جميعًا فهوى قلبي بين أضلعي وأصابني الهلع، أدركتُ حينها أنني في بقعة من تلك البقاع المنسيّة، وأنني حُمّلت بما لا أُطيقه وما لا يحتَمله عمري، وعليّ إتمام مهمّة أجهل كنهها رغم أنفي، حيث انقطع اتصالي بالجميع، فانهرتُ باكية وكلّ خليّة في جسدي تختلج، التقمني هذا البيت فسقطتُ في ظُلمات ثلاث؛ غربتي، ووحدتي، وقلّة خبرتي في الحياة، وكُنت مجرّد طفلة في الحادية عشرة من عُمرها!

أغمضتُ عينيّ وظللت أُردد الجملة الّتي كان أبي حريصًا على تلقينها لي دائمًا، وعلّمني أن أُرددها كلّما شعرت بالخطر:

«لا إله إلّا أنت سُبحانك إنّي كُنت من الظّالمين».

****

2

الجزيرة الأولى
الجزيرة الخضراء

فرح

كُنت أقبض على اللفافة الجلديّة التي قذفها الصّندوق تجاهي بقوّة حتّى أنّ أصابع يدي تشنّجت من شدّة الضغط عليها، وغرقتُ في بُكائيَ المتواصل، انتبهتُ لها فأسرعت أفتحها، فوجدتُ خريطة مرسومة بخط أحمر كرزيّ على تلك الرّقعة من جلد الماعز، متاهات عدّة كانت تدور حول بيوت أو غُرف أو طُرُقات.. لا أدري! لم أفهمها في البداية مما زاد من توتّري، خطوت خطوتين على حذر لأقترب من الضّوء السّاقط من الفتحة البعيدة بأعلى السّقف، فتحت الخريطة، وإذا بها تطير من يدي، وتتحرّك في الهواء وكأنّ إعصارًا يدور بها، ظللت أتبعها بعيني وقلبي يكاد يخترق صدري من شدّة ضرباته، ارتفعت حتّى ظننتُ أنّها ستخرج من فتحة السّقف، ثُمّ توقّفت في مكانها فجأة، وهوت بسرعة شديدة ورجف قلبي معها وهي تدور حولي ثُمّ تطرق الأرض محدثة دويًّا مهيبًا صانعة حولها سحابة من الغبار المُلوّن، قبل أن تُبسط بيد

خفيّة أمام ناظريّ وتُعلّق في الهواء أمام وجهي، فانتظرت لحظات ثُمّ اقتربت بحذر، خطوة خطوة وقلبي يخفق بشدّة، وأمسكتُها.

اخترق مسامعي صوت همس وهسهسات، كانت أصواتًا أُنثويّة، تسارعت أنفاسي وكنت أرتجف كورقة شجر في مهبّ الرّياح، وفجأة! ظهر أمامي ثلاث شابّات أجسادهنّ الأثيريّة مُعلّقة في الهواء، وكانت ضحكاتهن تُشبه الزّقْزَقة، صرختُ في هلعٍ وانطلقتُ راكضة في الممرّات، أتخبّط وأسقط وهنّ يطاردنني ويضحكن بهستيريّة، وكُنت كلّما دلفت ممرًّا أجدهنّ أمامي، دخلت عدّة زنازين وفي كلّ مرّة كُنّ يظهرن لي فيها! كُنت ألتقط أنفاسي بصعوبة عندما صاحت إحداهنّ:

- توقفي!

توقّفت وكُنت أشعر أنّ ساقيّ من عجين ليّن، ما عُدت قادرة على الرّكض والفرار منهنّ، كان صدري ضيّقًا، اقتربت إحداهنّ من وجهي، وكان لها شعر عوسجي[1] طويل ينسدل على ردائها الأحمر، نفثت في وجهي نفثة، كانت أنفاسها باردة كنفح الثّلج! لكنّها هدّأتني، وتباطأت دقّات قلبي، ازدردتُ ريقي بصعوبة وأنا أحدق إليهن، سألتني صاحبة الشّعر العوسجيّ وهي تحدق إلى وجهي بعينيها الواسعتين:

- من أدخلكِ إلى هنا؟

تلعثمت وأنا أُجيبها:

- كُنت في بيت مهجور مع أبي، ووجدتُ نفسي هُنا!

- وأين أبوك؟

- لا أدري..

ثُمّ سألتهنّ وأنا أكاد أنشطر إلى نصفين من شدّة الخوف:

---

(1) عوسجي: بلون العوسج الأحمر، والعَوْسَجُ نبات له ثمرٌ مدوَّرٌ كأنَّهُ خَرَزُ العقيق الأحمر.

- من أنتنّ؟

تعالت ضحكاتهنّ وطفن بي وهنّ يُرددن في آن واحد:

نحـــن بنـــات «وَردان»[1]
حُســن يطـوف فــي أمــان
إن كُنــت تريــد صُحبتنــا
حتمًــا ســنزورك فــي المنام.

ابتعدت إحداهنّ قليلًا بطيفها وأشارت لنفسها قائلة:

- أنا «مرجانة»[2]، وهذه أُختي «ريحانة»[3]، وتلك أختي «كُركُمانة»[4]، وأنتِ؟

تأمّلت رداء «مرجانة» الأحمر، ورفعت عينيّ تجاه وجهها فرأيت لطختين حمراوين على خدّيها بحُمرة المرجان، كانت جميلة وساحرة، أمّا «ريحانة» فكانت لها عينان خضراوان وقد انسدل من فوق رأسها وشاح مُذهّب، وكان ثوبها كلون عينيها وموشّى بحبّات الزّمرّد، والثّالثة كانت ممتلئة ولها وجه جميل كالقرص المضيء، وعليها رداء صُفرته فاقعة تقطعه خطوط بلون القِرفة وله ذيل طويل. أجبتها:

- أنا «فرح».

قالت «كُركُمانة»:

---

(1) بنات وَرْدَان: الخنافس الملوّنة.

(2) المَرْجانُ: جنس حيوانات بحريّة لها هيكل وكلس أحمر، يُعَدّ من الأحجار الكريمة.

(3) الرَّيْحَانُ: نبات طيب الرائحة زاهي الخضرة من الفصيلة الشفوية.

(4) الكُركُمان: من الكُرْكُم وهو نباتٌ مسحوقه أصفر فاقع يُستخدم في الطبّ، والتوابل.

- ملابسك غريبة، من أين أتيتِ يا صغيرة؟

- من مصر.

التصقن ببعضهن وأخذن يثرثرن وكأنني لست واقفةً أمامهن، واختلطت أصواتهن فلم أعد أُميّز من منهنّ تتحدّث من فرط سرعتهن في الكلام:

- هل تعرفين أين مصر يا «ريحانة».

- لا أدري يا «مرجانة» تعلمين أننا لم نخرج من جزيرتنا منذ اختفاء أبي إلّا لهذه السّراديب وبعض الجولات القصيرة هنا وهناك!

- وتزعمين أنّك أكثرنا ذكاء! ولكن.. كيف دلفت هذه الفتاة إلى هُنا؟

- ربّما ألقاها أحد أفراد الجنّ السّاكنين هنا.

- أنسيت أيّتها الحمقاء الخضراء أنّ عشائر الجنّ الأُخرى لا ترى هذه السّراديب؟ نـحن فقط من نعرف مكانها!

- إذًا ألقاها أحد جنود الملك!

قالت «كُركُمانة» وكانت تحرّك رأسها يمينًا ويسارًا وهي تتابعهما:

- لو علمت أُمّي أننا نأتي إلى هنا وقت نومها ستقتلنا.

- لا تُخبريها إذًا أيّتها الحاذقة! وهيّا لنعود.

- هل سنترك تلك الصّغيرة هنا؟

صاحت «كُركُمانة» في غضب:

- لن نُخرجها طبعًا! أجننتما! قد نلفت الأنظار!

قالت «ريحانة»:

- لنتركها هنا بعيدًا عن «البواشق»، وعلى كلّ حالٍ هي لن تموت من الجوع!

وغمزت «ريحانة» لشقيقتيها، فسقط قلبي بين أضلعي وسألتهن:

- من هم «البواشق»؟

لم يجبنني! وأخذن يدرن حولي، ويحرّكن خصلات شعري في الهواء، ويعبثن بثيابي، وكنت خائفةً منهن للغاية، تذكّرت «رَيْهُقانة» وما فعلته بنا قبلها بعامٍ في «كويكول»، وهنّ يشبهنها، عادت دقّات قلبي تتسارع مرّة أُخرى، قطع عبثهنّ المستفزّ صراخ قويّ، وكنّ قد شعثن ملابسي، وبعثرن خصلات شعر رأسي، فجمدن مكانهن فجأة فور سماعهن للصّوت، وكنّ معلّقاتٍ أمامي في الهواء عندما بدا عليهن الخوف والهلع، كان الصّراخ لصوت أنثويّ يُنادي:

- ريحاااناااا!

همست «ريحانة» لهن:

- أُمّي تنادي!

اختفت الجنّيّات الثلاث من أمامي وأحدثن فرقعة ملوّنة بنفس ألوان ثيابهنّ، وعُدت وحيدة، أطلّت «مرجانة» مرّة أخرى فأجفلتُ، جاءت لتُعيد إليّ الخريطة الّتي سقطت منّي على الأرض أثناء فراري منهنّ، وفرقعت بأصبعيها فوق الخريطة وبعثرت غُبارًا ملوّنًا عليها، ثُمّ مدّتها نـــحوي هامسة:

- لا تُخبري «ريحانة» و«كُركُمانة» بأنني عدت لكِ، وتتبّعي العلامة على الخريطة، وسِيري خلفها، وستتمكّنين من الخروج من هُنا قبل غروب الشّمس.

واختفت من أمامي فجأة، وعادت بعد لحظات مرّة أخرى فارتجفت أمعائي من الفزع، وقالت:

- إيّاك أن تدخلي الزّنازين.. لا تدُسّي أنفك في أوكار الزّنابير.

ألقى الصّمت عباءته على المكان بعد رحيل «بنات وَردَان»، فتحتُ الخريطة، وعُدت أتفحّصها، فرأيت علامة مضيئة تتحرّك على الخريطة كلّما خطوت خطوة، أدركتّ حينها أنّ البيت المهجور مَنــحني خريطة لأستدلّ بها على الخروج من هذه الزّنزانة، وقد ساعدتني «مرجانة» بإضاءتها بهذه العلامة، فقررت الخروج فورًا، وبدأت أسير وفق تخطيط الممرّات على الخريطة، وأنا أتعجّل الخروج من هذا المكان الخانق، كان باب الخروج بعيدًا وفق ما هو مخطوط بين يديّ، مررت بزنزانة أخرى وكانت خاوية، وثالثة، ورابعة! لا يوجد أحد، ولا يوجد أبواب لها.. عجيب! وقع في نفسي أنّها متاهة، أو سرداب فالسجون لها أبواب، ولا يوجد هُنا أبواب!

كُنت أتقدّم، وأتراجع عندما أكتشف أنني دنوت من طريق مسدود، دلفت لزنزانة فرأيت هيكلًا عظميًّا فاقشعرّ بدني، كانت بقايا الأسمال[1] البالية عالقة به، هرولت مبتعدة وأنا أحدق إلى الخريطة، كُنت أخشى أن أُصدر صوتًا فيظهر لي وحش أو جنيّ أو سفّاح فيقتلني.

سمعت صوت أنين فاقتربت من مكانه بخطى مُرتعشة، ودلفت إلى زنزانة وجدت فيها عجوزًا ملقاة على الأرض تنازع وتردد همهمات لم أفهم كنهها، اقتربتُ منها خطوة خطوة وساقاي ترتعشان كورقتي شجر في مهبّ الرّياح، فرفعَتِ الْعجوز عينيها الكليلتين تجاهي واتسعت حدقاتهما في اندهاش، تحامَلَتْ على نفسها وحاولَتِ الْجلوس بصعوبة شديدة، وأسندت ظهرها إلى الجدار، وقالت بخفوت:

- من ذا الّذي ألقى بك هنا يا صغيرتي؟

لم أُجبها، فقد كنت خائفة، وما زلت أرتعش، أضافت في هوان:

(1) أسمال بالية: ثيابٌ هالكة وقديمة.

- ثيابك غريبة! لستِ من بلادنا، لا بدّ أنّك ضللت الطريق، ما اسمك؟

ازدردت ريقي بصعوبة وأجبتها:

- «فرح».

- هل أستطيع أن أُصافحك؟

تراجعتُ للخلف، لم يرحني طلبها المباشر بتلك الطّريقة، وشعرت بالتّهديد، أغمَضَتْ عينيها وكانت في حالة مزرية، ثُمّ قالت:

- ما زلنا في أوّل النهار، عندما تغرب الشّمس سيغرق السّجن في ظلمة الدّيجور حتّى الصّباح، لا يوجد شُعل هنا، هُناك من يُطعمني وأظنّهم نفر من الجنّ فأنا أجد الطّعام والماء أمامي فجأة.

أدركتُ حينها أنّ «بنات وَردَان» هنّ من يُطعمنها. توقّفت عن الكلام وكأنّها كانت في جهاد لتنطق بهذه الكلمات الّتي لم تلتقط أُذني منها غير كلمة «سجن»، قُلت في انزعاج:

- هل نــحن في سجن؟

- ألا تعرفين أين نــحن الآن؟

- لا!

- نــحن في سجنٍ بلا أبواب، الدّاخل هنا مفقود، والخارج من هنا مولود.

ثُمّ ضحكت ضحكة ممزّقة حزينة وأضافت:

- من يعثر على ممرّ الخروج حرّ بأمر القاضي.

- لدي خريطة للمكان.

- حقًّا؟ كيف هذا ويُشاع أنّ الجنّ هم من بنوا هذا المكان؟ فهل التقيت بنفر من الجنّ؟

أجفلتُ عندما ذكرت أنّ هذا السّجن قد بناه الجنّ، وقفز إلى ذِهني كلّ النّماذج السّيئة من الجنّ الّتي آذت أفراد عائلتي أو حكوا لي عنها، قُلت لها:

- نستطيع الخروج من هنا معًا إن أحببتِ.

- لا أظنني سأعيش حتّى هذه اللحظة.

ثُمّ طالعتني بنظرة يائسة وقالت:

- اقتربي مني، لا تخافي، أودّ فقط أن أُصافحك.

رأيتها ضعيفة واهنة، ولن تتمكّن من أذيّتي، فاقتربتُ منها على حذرٍ ومددتُ يدي لأُصافحها، قبضت على يدي بكفّيها وأغمضت عينيها ورأيت مقلتيها تتذبذبان يمينًا ويسارًا خلف جفنيها، ظلّت على حالها هذا لدقيقة وأنا أجذب يدي الّتي علقت بين كفّيها، وبعد جهد استطعتُ انتزاع كفّي وتراجعتُ للخلف وفي قلبي ريبة منها، فتحتْ عينيها وقالت:

- «أبـادول»، «مُحاربـون»، «مُستكشـفون»، «مملكـة البلاغـة»، «المغاتيـر»، «المجاهيـم»، «أُوبـال»، «أمانـوس»، «كويكـول»، «ديرينكويـو»، «وراشـين»، «أوركا»، «أوبالـس»، «ماذريـون»، صقـور تتحـدّث، وخيـول وحيتـان تتحـوّل لبشـر، كُتـب حيّة وبيـوت تتنفّـس! وصنـدوق وخريطـة! مـا كلّ هـذا يـا فتـاة؟

أصابني الهلع، كيف عرفت بكلّ هذا؟ لم تتوقّف عن الكلام، ظلّت تسرد على مسامعي أسماء كلّ من التقينا بهم في «كويكول»، وتيقّنت حينها أنّها تخللتني عندما أمسكتْ بيدي فقلت لها:

- أنتِ عرّافة؟

- لو كنتِ من جزيرتنا لسمعتِ عنّي، أعرف الآن عنك كلّ شيء.

تذكّرتُ كلام أبي عن العرّافين، وكيف أنّهم يتلصصون على النّفوس والأرواح ويسرقون ذكرى من هنا، وفكرة من هُناك، ويخدعون النّاس، قلتُ عندما رأيتها واهنة وقد تلاشى خوفي منها:

- لو كُنتِ تعلمين الغيب لنجوتِ ممن قاموا بسجنك هُنا، أنتِ فقط تقرئين ما حدث بالفعل، الماضي، أفكاري وذكرياتي، لن تعرفي أبدًا ما سيحدث غدًا، فالغيبُ لا يعلمه إلّا الله.

رمتني بنظرة امتعاض وقالت وهي تسحب جسدها لتتمدد على الأرض مرّة أخرى:

- كم أنت نابهة وذكيّة، لم أشعر بضآلتي قط كما أشعر الآن، لماذا التقيتُ بكِ الآن بالتّحديد وأنا في حالتي تلك؟ اغربي عن وجهي.

- ألا تريدين الخروج من هنا؟

- لو رأوني سيقتلونني في الحال.

- من هم؟

- الّذين يعرفون كلّ شيء!

- كيف يعرفون كلّ شيء؟ لا أحد يعرف كلّ شيء!

- ذلك أمرٌ عصيّ على الشّرح، كما أنّك صغيرة جدًا.

وقفتُ في حيرة، وددت لو خرجت وأكملت طريقي وفق الخريطة الّتي أحملها، وكانت قد علمتْ بأمرها ومن أين حصلت عليها عندما صافحتني، فقالت لي بعد نوبة من السّعال داهمتها للحظات قصيرة:

- أكملي طريقك وفق الخريطة الّتي معك، ربّما تتمكنين من الخروج قبل غروب الشّمس كما أخبرتك تلك الجنّية الحمراء، لقد رأيتُ كلّ شيء دار بينك وبين «بنات وَردَان» عندما أمسكتُ يدكِ،

كنّ يُطعمنني ولا يُظهرن أنفسهن، ولا أدري لماذا! أسرعي فلن تحتملي الظلمة الحالكة هنا.

هرولتُ خارجة من الزنزانة، لكنّها انتفضت فجأة ونادتني فعُدتُ إليها، قالت وقد لملمت ما بقي بجسدها الواهن من دبيب الحياة واعتدلت في جلستها:

- هل لي أن أُحمّلك أمانة لتوصليها لابنتي؟
- كيف سأصلُ إليها لأبلغها؟
- ستعرفينها..

ثُمّ ابتسمت وأشارت إليّ لأقترب، فاقتربتُ منها، طلبت منّي الجلوس قبالتها ففعلت، ازدردت ريقها بصعوبة وقالت:

- أنتِ الوحيدة الّتي أدركْتِ الحقيقة، جميع من بالخارج كانوا يخافون منّي، أنا فعلًا لا أعرف أبدًا ما سيحدث غدًا، لكنني أستطيع قراءة الماضي، وأستطيع رؤية ما رأته عيناك من قبل، يمرّ في عقلي كصور حيّة، حتّى أحلامك، حتّى تلك القُبلة الأخيرة الّتي قبَّلَتْها لك أُمّك بين عينيك، وودتِ لو أنّك قبلّتها أنتِ أيضًا قبل خروجك من البيت ودخولك لهذا الصندوق الّذي يتحرّك.

كانت تقصد سيّارة أبي، ففطنتُ لكلماتها، هربت دمعة من عيني، تذكّرت لحظة وداعي لأمّي.

كُنت حقًا خائفة من تلك العجوز وهي تُطالعني بعينيها الكليلتين، أضافت وهي تُربّت على خدّي:

- سأنقل إليك تلك الميزة الآن، فهذا مِيراثٌ يُمنــح ولا يُسلب، على وعد منك بأنّك ستنقلينه لابنتي عندما تلتقين بها، بنفس الطريقة الّتي سنفعلها الآن، فخروجي من هنا مُحال، ولا أحد يعرف بوجودي

في سرداب الموتى هذا، وأُرسلتِ إليّ لتكوني حلقة وصلٍ بيني وبينها، وحتى لا ينقطع ميراثي، فهل ستفعلين؟

شعرتُ أنّ هذه مهمّتي الّتي أتيتُ من أجلها، فوافقتُ لعلّني أنتهي منها وأعود لعائلتي فأطعتُها، كانت تشبه المصباح في نزعه الأخير عندما يشتعل فتيله بوهن وهو يبخر آخر بقايا زيته بدخان أسود يلوث الضّوء، وضعتْ باطن يدها اليمنى على خدّي الأيسر، وأمسكتْ بيدي اليُمنى ووضعتها على خدّها الأيسر، وقبضت على يدي اليُسرى بيدها اليُسرى، وغرست عينيها في عينيّ للحظات لن أنساها ما حييت، رأيتُ وميضًا حجب عنّي الرؤية للحظات، ثُمّ شعرت بحرارة تجتاح رأسي وصدري، تركت يدي فجأة، وأشاحت عن وجهي وأبعدتْ يدي عن وجهها بعُنفٍ وقالت بعصبيّة:

- ابتعدي بسرعة.. لا تلمسيني مرّة أخرى.

فوثبتُ واقفة وابتعدتُ عنها، ازداد هوانها وضعفها، وزاغت عيناها وهي تقول:

- هيّا اركضي من هنا، قبل أن تغيب الشّمس.

ثُمّ همست بخفوت:

- احذري «عِشْرِقة»!

- من «عِشْرِقة»؟

ظللت أُرددُ السؤال وهي تُنازع أمام عينيّ وتلفظ أنفاسها الأخيرة، انتبهتُ إلى أمر مهم، وهو أنني لم أعرف اسمها ولا اسم ابنتها، لكي أتمكّن من البحث عنها، فقد نطقت فقط باسم «عِشْرِقة»، وأنا لا أدري من هي «عِشْرِقة» تلك، حتّى أنني أخشى أن أنسى هذا الاسم الصّعب، تحسستُ وجهها، فلم أشعر بشيء، ولم أقرأ ذكرياتها كما فعلت هي

معي رغم زعمها أنّها نَقلت إليّ تلك المَيْزة! وكان هذا لأنّها ماتت، وماتت معها الذّكريات.

تركتُ زنزانة العجوز وعُدت لتتبّع خطوط الخريطة، أخطأتُ أكثر من مرّة وعدت أدراجي لأبدأ من جديد، كانت الرّياح الّتي تتسلل من الفتحات الدائرية في أسقف الزّنازين تُصدر صفيرًا مُخيفًا، أصابني الدّوار، فتخيّرتُ زنزانة خالية من بقايا عظام الموتى لأرتاح قليلًا، وجلستُ وهواجسي تتناطح في رأسي، ماذا لو لم أُفلح في الوصول لأحد المَخرجين المرسومين على الخريطة؟ كيف سأقضي ليلتي في ظُلمة حالكة هنا؟ بدأتُ أبكي، سأموت.. سأهلك هنا.. أنا وحيدة..

أغثني يا الله!

مرّت دقائق ثقيلة، كدت أنهض لأعاود السّير عندما رأيت الخطوط على الخريطة تتغيّر وتعيد تشكيل نفسها، أصبح المخطط يبدأ من حيث كُنت أجلس، تمعّنت في المتاهات، أدركتُ أنّها شبكة أقبية ودهاليز معقدة، والمكان مقسم إلى ثلاث قاعات واسعة في كل منها مجموعة من الأقواس والدّعامات مرسومة بدقّة شديدة، سرت بأصبعي على المخطط حتّى وصلت لمدخل السجن وكان عبارة عن درج يوجد قرب قبّة، خرجت من الزنزانة وبدأت أسير ببطء حتى وصلت إلى القاعة الثّالثة، رفعت رأسي فرأيت قبّة من القبب ومررتُ من تحتها، ثُمّ وضعت أصبعي على مكانها المرسوم على الخريطة، وأدركتُ حينها أنني قد وصلت لبوّابة الخروج عندما رأيت ضوء الشّمس النحاسي يغمر الدّرج الصّاعد إليها مُمتدًا على الممر من الدّاخل، ركضتُ نحوها وصعدتُ الدّرج وخرجت، اكتشفت أنّني كُنت تحت الأرض، وتلك الفتحات الّتي كُنت أراها بسقف كلّ زنزانة صارت تحت أقدامي، لم أجد أيّ أثر لبشريّ حولي، وجدتُ حجرًا كبيرًا عليه نقوش برموز ولغة غريبة لم أتمكّن من فهمها، تحسستها بأطراف أصابعي، فقد كانت بارزة، شعرت وكأنني

التقط صورة لها، وانطبعت في ذاكرتي، حتّى أنني أغمضت عيني عدّة مرّات لأتخلّص من صورتها، كانت تبدو وكأنّها لغة من اللغات القديمة، أدركتُ أنني في عصر حضارة من تلك الحضارات الّتي اندثرت على أرضنا وبلادنا.

كان هناك أسوار عالية، تجوّلت بالمكان، أجفلتُ عندما رأيت حارسًا ضخم البُنيان، له جبين عريض، وشفتان غليظتان، وبطن كبير رجراج، كان الحارسُ يستند إلى جدار وهو غارق في نوم عميق، وحوله أواني الطعام، وأقداح المشروبات الفُخّاريّة الفارغة، والذّباب يطوف بفمه الملطّخ بالطعام، تساءلتُ في حيرة.. كيف يضعون حارسًا واحدًا فقط أمام هذا السّجن العجيب[1] المحفور تحت الأرض. لكنني لم أر أيّ سُجناء بالدّاخل!

تذكّرتُ كلمات العجوز وهي تُخبرني بأنّه سجن ملعون، الدّاخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، أصدر الحارس شخيرًا عاليًا فأجفلت، قررت حينها أن أبتعد بسرعة وبحرص شديد.

هرولت مبتعدة قبل أن يستيقظ هذا الحارس ويكتشف خروجي من السجن، وفجأة! أطلّ حارس آخر عليه ثياب من الجلد وفي يده رمح نَصله يبرق كاللجين يستهدفني به، ركضتُ مبتعدة وأطلقت ساقيّ للرّيح، تبعني لمسافة طويلة، ألقى رمحه بالقرب منّي ليُخيفني فسقط الرّمح بجواري، نجوت منه بأعجوبة، كان يُنادي «قفي.. قفي هنا..» ولم أجبه، وصلنا لطريق منــحدر فسمعت صوتًا غريبًا فلم ألتفت، يبدو أنّه تعثّر وهو يركض، فأسرعتُ واختبأتُ خلف شجرة بلوط عريضة لألتقط أنفاسي، كان صوت الحارس قد اختفى، رأيت بستانا يُطلّ من بعيد وثمار البرتقال تبرز من بين أغصانه الخضراء كالشموس الصغيرة، سرتُ نــحوها في البداية بخطوات وئيدة متقاربة، ووجدتُ نفسي بعد

(1) تفاصيل المكان مستوحاة من سجن «قارا» بمدينة مِكناس بالمغرب.

لحظاتٍ أركض في هلع وأتلفّت خلفي، كان قلبي يخفق خفقًا من شدّة الخوف ويكاد يقفز من بين ضلوعي، انتشرت الغيمات في السّماء فجأة، وتوارت الشّمس خلفها فأظلم الطّريق، شعرتُ بوخزة في صدري فتوقفت لأستريح، كان حلقي جافًا وكأنني ابتلعت حفنة من الشّوك للتوّ، لاحت لي من جديد ثمار البرتقال من بين أغصان الأشجار المخضوضرة الزّاهية عن قُرب هذه المرّة، قُلت في نفسي لعلّه بُستان كبستان «بركات»[1] الّذي أخبرتني عنه عمّتي «حبيبة»، وقررتُ الرّكض نـحوه، تذكّرت كلمات «أبادول» عن تلك الشّعوب المنسيّة، وخشيت أن أكون وحدي وألّا يعثر عليّ أبي، فبدأت دموعي تسيل من جديد في صمت، شعرت بالدّوار وسقطتُ على ظهري وبقيت كالمشلولة لدقائق مرّت عليّ كساعات طويلة، تناهى إلى مسامعي صوت هملجة[2] جواد بالجوار، كان صوت حوافره وهي تقدح الأرض يقترب، استدرت برأسي ولا زلتُ ممددة على الأرض لا أقوى على تحريك لساني، فرأيت شابًا أبيض بياضًا لا يخالطه شيء من الحمرة، وكأنّه سقط في نهرٍ من حليب، ليس بنَيِّرٍ[3] لكنّ لون بشرته نقيّ كالرّخام الأبيض الشّفاف، ثيابه بيضاء فضفاضة يحرّكها الهواء بينما يقترب، كان شعره الطّويل الأبيض المنسدل على كتفيه تشوبه صفرة خفيفة ويبدو كهالة من نور وهو يحيط بوجهه، وكان يمتطي جوادًا أشهب[4] بديعًا وكأنّه سحابة من قطن يركبها وتطير به، رأيته يوقِف جواده، ويترجّل عنه، ويقترب بوجهه الأزهر[5] من وجهي، رمش بأهدابه الشّهباء فرأيت عينيه البلّوريتين، فَطِنتُ حينها أنّه شابٌ

(1) بركات: من شخصيّات رواية أوبال.

(2) هملجة: سير الخيول سيرًا حسنًا في سُرعة.

(3) نيّر: النيّر المُضيء، والحسن اللون المُشرق.

(4) أشهب: أبيض.

(5) الأزهَرُ: كلّ لون أبيضَ صَافٍ مشرق مضيء.

«أمهق»[1]، انــحنى ليحملني، فأسندت رأسي على كتفه، كُنت متعبة، وخائفة، همستُ بهوان:

- خريطتي.

فقال وهو يُربّت على ظهري:

- ها هي ذي يا فراشتي، لا تخافي.

أغمضتُ عيني، وغبتُ عن هذا العالم الغريب، واستيقظتُ بعدها لأجد نفسي مُمددة على الأرض وقد ملأت رائحة البرتقال أنفي، وامرأة تُشبه الشّاب تمامًا وحالها كحاله من حيث لون بشرتها والبياض، تمسح وجهي بالماء، هشّت لي وبشّت عندما فتحت عينيّ وقالت بحنوّ:

- يا حلوة! كيف حالك؟

همستُ بخفوت:

- الحمد لله.

أردتُ أن أخبرها بقصّتي، لكنني شعرت بهوان شديد ولم أقوَ على الكلام وطافت رَجفة بأوصالي، فتحسَّسَتْ جبيني بكفّها للحظات فوضعتُ يدي فوق يدها وكانت تلك اللمسة كافية لتبدأ ومضات من صورٍ شتّى تمرّ برأسي، رأيت لقطات من ذكرياتها! رأيتُها وهي تبكي وتتألّم بينما تودّعُ أحدَهم وهو يمضي مسافرًا، ثُمّ وهي تبكي بحرقة على قبر، ثُمّ وهي تكتب شيئًا على شاهد القبر بلغة تُشبه تلك الّتي رأيتها على باب السجن، كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي أرى فيها ذكريات أحدهم في رأسي وكأنني أعيشُها، زالت الصّور عندما أزالت كفّها عن جبيني، بل عندما فارقت كفّي كفَّها، فأدركتُ أنّ الأمر منوط بيدي، وتيقّنتُ حينها أنّ العجوز الّتي التقيت بها في هذا السجن قد صدقت،

(1) أمهق: المهق هو حالة وراثية تقل فيها كمية صبغة الميلانين التي تتكون في الجلد والشعر والعينين، فيبدو صاحبها نيّر الوجه، وأبيض الجلد والشّعر.

وأنني حُمّلت برسالة لابنتها، ولا بدّ أن أبحث عنها لأعيد لها ميراث أُمّها الغريب. سألتني السيّدة اللطيفة:

- ما اسمك؟

- «فرح».

- لماذا كُنتِ تسيرين وحدك؟

- كُنت مع أبي.

- وأين هو أبوك؟

- لا أدري.

كنت حائرة وأتساءل هل لمسُ بشرتها كافيًا لأُدرك هل ستؤذيني أم لا؟ لم أجد مناصًا من إخبارها بما حدث لي على أرضهم هنا على الأقل، قصصت عليها ما مررتُ به في السّجن فقط، وبما حدث مع العجوز، أصيبت بصدمة وظلّت تحدق إلى وجهي في ذهول ثُمّ قالت:

- لا تَذكري هذا لأي مخلوق يا بنتي.. أبدًا.. أبدًا.

وأطالت النّظر لعينيّ تنتظر منّي إشارة الطّاعة فهززت رأسي وقُلت:

- سأفعل يا سيّدتي.

ظهر الشّاب الأمهق مرّة أخرى وكان يحمل الحطب، فأشارت إليه ليضعه على الأرض، وعندما اقترب مدّ يده ليُصافحني وهو يقول:

- اسمي «أَقْمَر».. وأنتِ؟

- «فرح».

ووجدتني أقبض على كفّه كما فعلت العجوز معي، فتكرر الأمر كصاعقة في رأسي، تدفّقت مشاعره لقلبي وذكرياته لرأسي، أدركتُ في الحال أنّه عندما عثر عليّ وحملني ظنّ أنني سأخاف من مظهره لأنّه أمهق، ورأيتُ صورًا أُخرى له وهو في مثل عمري، يركض أمام الصّبيان،

وهم يطاردونه ويقذفونه بالحجارة، كان حزينًا، وكانت دموعه تسيل على وجنتيه وهو يهرب منهم عندما كانوا يسخرون من بياض بشرته، ترك يدي وبقيت مشاعر الحزن ملتصقة بأضلعي، فحزنتُ لحاله، كما حزنتُ لحال السيّدة «زهراء»، هكذا ناداها، خالتي «زهراء»، وددت حينها أنّني لم أحمل تلك الميزة الّتي ستُرهق روحي كلّما لمستُ أحدًا من البشر، سألني عن الخريطة، فأخبرته أنّها تخصّ عائلتنا، فقال إنّها خريطة تخصّ الجزيرة الّتي نــحن عليها الآن، تعجّبت وفتحتها وفوجئت بتغيّر ما كان مرسومًا بها، وبدلًا من مخطط السجن ظهر مخطط للجزيرة كلّها، فأدركتُ أنّ الخريطة تتغيّر بتغيّر المكان، وستُساعدني لأستدلّ على مكاني، استأنستُ بالحديث معه، فقُلت لأُخفف عنه وقد كانت صورته وهو طفل لا تغادر مخيلتي:

- اسمك «أَقْمَر» وأنت تُشبه القمر.

ضحك ومسح على رأسي وقال ملاطفًا:

- تعالي لنبحث عن شيء لنأكله من مطبخ الخالة «زهراء» فبطني تُقرقر من شدّة الجوع.

أمسك بيدي ومضيتُ معه، وسعدتُ لأنّني شعرت بأنّه قد سُرّ لأنني وصفته بالقمر، أدركتُ هذا من مُلامسة كفّه، كانت كلمة بسيطة منّي كافية لتخفف عنه، بدأت الصّور تتتابع على رأسي مرّة أخرى لأنّ يده في يدي، أدركت أنّ «زهراء» هي خالته بالفعل، وهي من ربّته يتيمًا بعد مقتل والديه، توقّفتُ فجأة وشعرت بانقباضة في صدري وفزع ثُمّ شعرت بقهر شديد عندما رأيت مشهدًا مخيفًا لرجلٍ يطعنهما أمام عينيه، تسارعت أنفاسي، وانــحنيت راكعة وقبضت على ركبتيّ، وأجهشتُ بالبكاء، فلاحظ هذا وظنني أبكي لأنني أفتقد أبي، أخذ يُربّت على كتفي ويمسح دموعي، ويطمئنني، تبعتنا الخالة «زهراء» واحتضنتني فقال «أَقْمَر»:

- كانت المسكينة في السّراديب الملعونة، واستطاعت الخروج منها، لا بدّ أنّها مرّت بلحظات صعبة.

هزّت رأسها تومئ له بالإيجاب وأضافت:

- ضلّت من أبيها، وهناك من يُطاردها.

مرّ شبح القلق على وجه «أَقْمَر» فسقط قلبي بين أضلعي، خشيت أن يعثر هذا الحارس عليّ ويُعيدني للسّجن، أضافت السيّدة «زهراء» قائلة:

- لقد منـحتها عجوز هناك ميراثها لتنقله لابنتها.

أجفل «أَقْمَر» وتساءل:

- هل تُدرك «فرح» ما هو الميراث؟

- تقول إنّها قُدرات ذهنيّة، لكنني أظنّها لم تظهر عليها حتّى الآن.. أليس كذلك يا «فرح»؟

اكتفيت بالصّمت، خشيت أن ينفرا منّي فأنا أستطيع كشف بعض أسرارهما بلمسة واحدة..

«لا ينبغي للفتاة أن تُخبر النّاس بكلّ ما يجول في خاطرها».

كانت تلك نصيحة من نصائح أبي الّتي تذكّرتها حينها، سالت الدموع من عينيّ، وغصّة شديدة في حلقي منعتني من الكلام، فقد كُنت أحتاج حينها لحضن أبي، ورائحة أبي، ونبرة صوته المميّزة، ونظراته الحانية، وذراعه الّتي أتكئ عليها، فالأب أمان، وحصن، وسَند. طالعاني بنظراتٍ تملؤها الشّفقة، وقالت السيّدة «زهراء» وهي ترتب خصلات شعري بحنان بليغ:

- لا شكّ أن أباك يبحث عنك الآن، وربّما يطرق بابنا الليلة.

منحتني ابتسامة لطيفة وأضافت:

- دعيني أبحث لك عن ثوب يلائمك ولا يلفت إليك الأنظار، فنـحن مُزارعون، والفلاحون سيرونك صباحًا.

ثُمّ قالت لــ «أَقْمَر» بجديّة شديدة:

- لا بدّ أن ننتبه لهذه المسكينة، فهي لا تزال طفلة! وهي الآن في خطر.

هزّ رأسه موافقًا وهو يرنو إليّ بنظرة واثقة طمأنتني، جلستُ بجوار السيّدة «زهراء» وأخفيتُ يديّ تحت ثيابي حتّى لا ألمس بشرة أيّ منهما مرّة أخرى، فقد اكتفيت مما رأيته من ذكرياتهما، تألّمت كثيرًا حتّى أنّ صدري كان يوجعني، ويكفي أنّهما شخصان مُسالمان، لن يؤذياني، هززتُ رأسي وقُلت لهما إنني بخير، تناولنا الطّعام، وشَرب «أقمر» الحليب فترك له شاربًا من قشدة فضحكتُ رغمًا عنّي، فأشرقت عيناه، حاول التّخفيف عنّي بمزاحه، ولكن الخوف كان لا يزال ملاصقًا لروحي، حلّ الليل على البُستان، وحلّت الكآبة معه، فأبي لم يظهر، وكُنت أتساءل، أين هو الآن؟

أنهت السيّدة «زهراء» تجهيز ثوب بسيط لي، وكان «أَقْمَر» يداعب هرّة صغيرة دلفت الدّار بينما كُنّا جالسين، بدّلتُ ملابسي وارتديت الثّوب الهندبائيّ اللون الّذي هيّأته لي ووقفت أمامهما، فأعجبهما للغاية، سكنتُ في مكاني للحظات، ونقلتُ عيني بين وجهيهما وقُلتُ في خُفوت:

- أُريدُ أن أُخبركما بشيء مهم.

- قولي يا «فرح».

أوّلًا.. لقد رأيتُ «بنات وَردَان».

- ومن هنّ؟

- ثلاث شابّات من الجنّ.

- لا عليك يا فتاتي، الجنّ يظهرون بالجزر حولنا، لا تخافي.

- كما أنني...

- ماذا؟

- لست من عالمكما.

غضّن «أَقْمَر» حاجبيه وسألني:

- كيف؟!

- هل ستُصدّقانني؟

تبادلا النّظرات، وطالعاني في فضول وهزّا رأسيهما، وبدأت أروي لهما قصّة عائلتنا مع مملكة «البلاغة»، وبدا لي أنّهما لم يُصدّقاني، فقد قالت السيّدة «زهراء» إنني فتاة واسعة الخيال، وكان «أَقْمَر» يضحك، لهذا توقّفتُ عن سردي للأحداث ولم أُكمل، لكنّهما على الأقلّ لم يتهماني بالكذب، فقط هما الآن يظنّان أنني فتاة صغيرة لها خيال واسع، بقيت القطّة تتواثب في الدّار، وظللت أُتابعها بعيني في صمت، ليت الكبار يصدّقون الأطفال عندما يُخبرونهم بأشياء غريبة مرّوا بها، أو عن تلك الأطياف الّتي يرونها في غرف النّوم، والأصوات الّتي تناديهم بعد منتصف الليل من تحت الفراش، والثّريات الّتي تهتزّ بلا سبب، وأبواب خِزانات الملابس الّتي تُفتح فجأة، ليتهم صدّقوني.

خرج «أَقْمَر» ليبحث عن أبي هنا وهناك حول المكان، وظلّت السيّدة «زهراء» تمسح على شعري برفق، حتّى أخذ الكرى بمعاقِدِ جفنيّ.

****

عاد «حمزة» للبيت وفور أن فتح بابه وجد «يُوسف» أمامه، كان يستعدّ للخروج للبحث عن «أنس» و«خالد» و«ميسرة» و«فرح» و«سُليمان»، فهم لم يعودوا حتّى الآن منذ خروجهم لتوصيل «ميسرة» لبيت من البيوت الّتي أخبرهم أنّ لديه مهمّة بها، وجميع هواتفهم خارج نطاق الخدمة، مما دفع السيّد «كمال» للاتصال بـ«أحمد» ليسأله عن العُنوان. أسرع «يُوسف» بالخروج وتبعه «حمزة» وكان الخوف يضرب على أوتار قلبيهما، بل على أوتار قلوبهم جميعًا، وقفت الأُمّهات الثلاث «دولت»، و«مرام»، و«حبيبة» خلف زجاج النّافذة وكلّ منهن تسأل الله أن يحفظ الغائبين، ابتعد «يوسف» وانطلق ينهب الطّريق نهبًا بسيّارته، وكان «حمزة» يجلس بجواره في سكون ودقّات قلبه تنقر أضلاعه نقرًا،

بينما كان «كمال» ينتظر ظهور أبيه «أبادول»، فقلبه يُحدّثه أنّ هناك خطبًا جليلًا قد حدث.

وصل «يُوسف» مع «حمزة» للبيت بسهولة، فقد كان وصف السيّد «أحمد» دقيقًا للغاية، فوجئا بوقوف سيّارة «أنس» أمام الباب، ترجّل «حمزة» وهرول نحوها وقلبه يهفو، فالأبواب مفتوحة، ومفتاح السيّارة بها! ولولا أنّ المنطقة خالية بسبب العُطلة وكون البيت مختفيًا خلف العمارتين الفارهتين لسُرقت في الحال! قال في هلع:

- الأبواب مفتوحة! والمفتاح بالسيّارة!

- ليس هذا من عادة «أنس»! فهو حريص ودقيق!

جذب «حمزة» المفتاح ووضعه في جيبه وهرول نـحو البيت، كان البيت كئيبًا، ساكنًا، غامضًا، تحلّق فوقه غمامة من الغموض، وتفوح منه رائحة الموت، وكأنّه بيتٌ للأشباح، دفع دفّة الباب ففُتح بسهولة، ودلف لتلقي عتمة البيت على قلبه المزيد من الرّعب وانقباض الصّدر، كان «يُوسف» خلفه عندما انغلق الباب فجأة بعد دخولهما فانتفضا في آن واحد، وقفا وأخذا يجوسان بعيونهما في المكان، قال «حمزة» وقد استقرّت عيناه على سترة أخيه «خالد»:

- هذه سترة «خالد».

أسرع يحملها وقرّبها من أنفه بعفويّة وشمّها ثُمّ ضمّها لصدره، كانت الكرة المطّاطيّة الصّغيرة الّتي يحملها «سُليمان» دائمًا في يده هناك، انـحنى «يُوسف» وحملها في تأثّر وقال بصوت يشوبه القلق:

- وهذه كُرة «سُليمان».

شدّد قبضته على الكرة، ثُمّ صمت هُنيهة وأضاف:

- لقد كانوا هنا، ولم يخرجوا من هذا البيت، يبدو أنّ هناك شيئًا غريبًا قد حدث فجأة مما دفع «أنس» لترك السيّارة مفتوحة والرّكض نحو البيت!

- سأبحث في الحديقة عن أيّ أثر.

دقّ هاتف «يُوسف»، كانت «حبيبة» على الطّرف الآخر، أخبرته أنّ «أبادول» قد وصل، وطلب أن يتحدّث معه، وعندما سمع من «يُوسف» وعلم بما حدث، جاء صوته الرّخيم قائلًا:

- لقد ظهرت أربع علامات بجوار اسم عائلتنا في كتاب «القُدْمُوس»، والعلامة الخامسة ظهرت بجوار اسم عائلة «ميسرة».

- وماذا يعني هذا؟

- لقد التقم البيت الخمسة! وهذا لم يحدث من قبل!

- إذًا جميعهم من المُستكشفين.

- ربّما!

كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يسمع فيها «يُوسف» كلمة تحمل الشكّ في طيّاتها من «أبادول»، فهو دائمًا يحمل الإجابة الصّريحة لأسئلتهم الّتي تُحيّرهم عن مملكة البلاغة، سأله وهو يتخبّط في حيرة:

- وماذا سنفعل؟

- عُد بسيّارتك لتُقلّنا، وليأتِ «حمزة» معك بسيّارة أبيه، وإيّاك أن تتركه وحيدًا عندك.

- لماذا سأُقلّكم إلى هنا؟ البيت كئيب ومن الأفضل ألّا تراه «حبيبة» و«مرام» والسيّدة «دولت».

قال «أبادول» بتصميم شديد:

- سنأتي جميعًا وسنقيم في هذا البيت حتّى يعود لنا أحبابنا.

أغلق «يُوسف» هاتفه بأنامل ترتعش، وعادا بالسّيارتين لبيت «أبادول».

****

«فرح»

نضحت السيّدة «زهراء» وجهي بالماء، فأفقت فزعة فلم أعتدْ على هذا، ولكنني فهمت منها أنّها تُحاول إفاقتي منذ فترة، ولم أستجب للنداء، ولا لتربيتها على كتفي بلطف فقد كُنت متعبة جدًا، أخبرتني أنّ «أَقْمَر» علم أنّ الحُرّاس يبحثون عنّي، لأنني خرجت من السّراديب الملعونة بميراث تلك العجوز الّتي التقيت بها، تسللت دمعة من عيني، كنت خائفة، فأنا لا أرغب في العودة لهذا السّجن، وكان ما أمرّ به يفوق قُدرتي على التّحمل، قال «أَقْمَر» بجديّة شديدة:

- أنتِ في خطر يا «فرح»، لا بدّ أن نرحل من هنا.
- لماذا يُريدون قتلي؟ وإلى أين سنرحل؟

قالت السيّدة «زهراء»:

- إلى جزيرة «سُقُطْرى» يا بنتي.
- لا بدّ أن نرحل إليها لتكوني في أمان، فهُناك؛ حتّى لو عرف الجميع بأمرك سيرغبون في بقائك على قيد الحياة، أمّا هُنا فجميعهم سيرغبون في سجنك أو قتلك.

انتفضت وكأنني صُعقت بتيّار كهربائي وسألتها:

- قتلي! لماذا سيرغبون في قتلي؟

قال «أَقْمَر» وهو يجمع بعض أغراضه:

- العجوز الّتي منــحتك ميراثها تُدعى «طرجهارة»[1]، وهي من أبناء «خَنْدّريس»[2]، وكان ميراثها الّذي منــحته لكِ سببًا في إشعال الفتن بين العشائر هنا، كشفت الأسرار، وفضحت المستور، أمّا

---

(1) طَرْجَهارَةُ: شبْهُ كأسٍ تُشْرَبُ فيها.

(2) خَنْدَريس: الخَنْدَريسُ الخَمْر القديمة، ويُقال تمْرٌ خنْدَريسٌ أي قديم، وحِنطةٌ خَنْدَريسٌ أي قديمة.

في جزيرة «سُقُطْرى»، فقد ظنّوا أنّها عرّافة تطّلع على الغيب، كان لها مريدون وأتباع كُثر، وكانوا يتواردون عليها ليسألوها قراءة مستقبلهم، حتّى أنّهم صنعوا لها صنمًا هُناك.

- مستحيل، أخبرني أبي أنّ هذا مُستحيل، لا يعلم الغيب إلّا الله.

- أعرف هذا يا «فرح»، لكنّ «الّذين يجهلون كلّ شيء» من سُكّان «سُقُطْرى» صدّقوها، كانت تقرأ الذّكريات، وتضع توقّعاتها بذكاء وحيلة، وتنسج كلمات مطاطة مبهمة، قد يكون لها معنيان، وتتلاعب بنفوسهم، وتوهمهم أنّها تعرف الغيب، وعندما نشأ خلاف بينها وبين الملك، هددها بالقتل، فانتقلت من «سُقُطْرى» للجزيرة الخضراء هنا، وبدأت تتلاعب بالنّاس كما كانت تفعل من قبل، لكنّ سُكان الجزيرة هنا يختلفون عن سُكّان «سُقُطْرى»، لم يُقدّسوها، بل كانوا ينفرون منها، فبدأت تكيد لهم، كانت لمسة من يدها ليد أحدهم كافية لتهديده، لأنّها تعرف خبيئته، وكانت سببًا في قتل ابن حاكم الجزيرة هنا بوشاية منها لأحدهم، كانت خبيثة توقع بين النّاس، فلم ينسها لها الحاكم قط، وألقاها في السراديب الملعونة فسُجنت هناك.

- لماذا لم يقتلها؟

- لتُعذّب قبل أن تموت، فقد رأى الموت الفوري راحة لها، وهذا المكان ملعون، يموت الدّاخل فيه وإن كان على قيد الحياة، حيث لا يخرج أبدًا، وقد يفقد عقله، فالدّاخل مفقود، والخارج مولود!

وأيضًا خوفًا من أخيها فقد تسبب في قتل أطفال عشيرة وكانت مذبحة، فخشي أهل الجزيرة هنا أن يُفعل بأطفالهم ما فُعل بأطفال تلك العشيرة انتقاما لأخته إن قُتلت.

- كيف ترك ذلك الرّجل شقيقته في السجن؟

- لا أدري.. فلم نسمع عنه منذ فترة طويلة.

- لكن ما ذنبي؟ فليأخذوا هذا المِيراث منّي.

أجفل «أَقْمَر» وصاح في وجهي لأوّل مرّة منذ أن التقيتُ به:

- لا تمنحيه لأحد أبدًا.

ثُمّ أضاف بعد أن اعتذر عن حدّته معي:

-انتظري حتّى نلتقي بـ«النَّطَاسِيّ»[1].

- من هو «النَّطَاسِيّ»؟

- عالم حاذق، ورجل نبيل، وهو من سيدلّنا على كيفيّة تصريف ميراث «طرجهارة» لتتخلّصي من لعنة أبناء «خَنْدَريس».

- من هم أبناء «خَنْدَريس»؟

- اسمعي من خالتي «زهراء»، وسأخرج للبحث عن مركب لنرحل به مُبكّرًا إلى جزيرة «سُقُطْرى».

جلستُ أُنصت لقصّة «أبناء خَنْدَريس» من الخالة «زهراء» وكُلّي آذان مصغية.

****

«أبناء خَنْدَريس»

كان الليل يزحف بنهم على جَنَبات جزيرة «سُقُطْرى»، البيوت مغلّقة الأبواب وأهلها يقبعون خلف النّوافذ في ترقّب، والكهوف الّتي أُضيئت بالشعل في أحضان الجبال سكنت كالقبور المفتوحة، والوديان مُقفرة موحشة وخالية من الأصوات والأنفاس، كانت «رَيْدانة»[2] تحدق إلى الظّلام بعينيها الرّائقتين وأهدابها تُرفرف في وداعة ولطف، وجدائلها النّاعمة تغمر كتفيها، سحبت وشاحًا ذا قلنسوة مُذهّبة لتستر به ثوب

(1) النَّطَاسِيّ: العالمُ الماهرُ، والطبيبُ الحاذِق.

(2) رَيْدانة: الرّياحُ اللّيّنة.

زفافها الّذي بدا قوامها الفتّان فيه كجنتين يفصل بينهما خصر ملفوف بحزام من لجين، سترت جمالها عن العيون، وما كانت هناك أيّ عيون حاضرة لترقبها! فقد هربوا جميعًا، لكنّها غارت على جمالها، فهي ترى أن لا أحد يستحقّ هذا الجمال سوى «وجدان»[1]، هو فقط، وإلى الأبد.

جلست تنتظره ووجيف قلبها يزداد من شدّة الشوق واللوعة، ابتسمت وهي تتحسس السّوار الّذي صنعه خِصِّيصَى لها وأهداه لها بالأمس، أصرّت على الزّواج منه على الرّغم من رفض والديها، ووالديه، وكل من سمع بأمر الزّفاف بالجزيرة، كانوا جميعًا يعرفون بقصّتهما، وكيف عشقها ملك من ملوك الجن يُدعى «خَنْدَريس»[2]، الّذي أُسر بجمالها الفتّان وحال بينها وبين كلّ من يطلبونها للزواج، لكنّه لم يُفلح في اقتحام عقل «وِجدان» العاشق الولهان، لم يتمكّن من منعه، ولا من إخافته، ولا حتّى تهديده، ولم تُغرِه أيّ من نساء الجزيرة قط، ولم تُحرّك لواعج الشّوق في قلبه إلّا «رَيْدَانة»، فقد شغفها حبًا وشغفته.

وكان «خَنْدَريس» قد أذاق الكثير من أهل الجزيرة وابلًا من الجحيم والعذاب، حتّى صار مجرّد ترديد اسمه يصيب السّامعين بالهلع، وكانت عشيرة «البواشق»[3] الّتي كان هو زعيمها تتجلّى لسكّان الجزيرة كلّ ليلة، يُخالطونهم، ويحدّثونهم، ويسلبونهم نساءهم، وقد يخطفون أطفالهم إن أبى أحدهم تنفيذ أمرٍ من أوامرهم، لم يسلم منهم سوى «العنادل» الّذين لا يفترون عن التسبيح ومُناجاة الله كلّ ليلة، وكانوا قد ارتحلوا من هذا المكان وسكنوا خلف الشلّالات.

---

(1) وِجْدان: وِجْدَانُ الْمَرْءِ هو نَفْسُهُ وَقُوَاهُ البَاطِنة، وَمَا يَتَأَثَّرُ بِهِ مِنْ لَذَّةٍ أَوْ أَلَمٍ.

(2) خَنْدَريس: الخَنْدَريسُ الخَمْر القديمة، ويُقال تمرٌ خنْدَريسٌ أي قديم، وحِنطةٌ خَنْدَريسٌ أي قديمة.

(3) البواشق: طيور مِنْ فَصِيلَةِ الصَّقْريَّاتِ مِنَ الجَوَارِحِ.

كان الحبيبان يلتقيان بـ«المُعلّم النّبيل» على أطراف وادي الخيزران كلّ ليلة، يشكوان له رفض الأهل للزّواج، ويُفكّران معه في حلّ تلك المُشكلة، ويتعاهدان معًا أمامه على إتمام الزّواج، ويلتزمان بالطّهر والعفاف، حتّى لا يقعا في شَرك ملك الجن، فتلك ثغرة يستطيع الولوج من خلالها لأيّ نفسٍ عندما تتلوّث بالخطيئة، هكذا علّمهما «المُعلّم النبيل» عندما كان يُدرّسهما في صغرهما.

كان «المُعلّم النّبيل» ناسكًا عابدًا له نفس عفيفة مُجللة بالوقار الأنيق، يُدرك بفراسته الصالح، ويَحذَر بفطنته من الخبيث، وكثيرًا ما كان يقف ليتأمّل زُرْقةَ المحيط اللازورديّة وهو يتفكّر في هذا العالم العجيب الّذي يقبع تحت سطحه، فيُطيل الصّمت، ويُنصت لأمواجه وما تحمله من همس وبوح وحكايات!

كان نقيّ السّريرة فشفَّت روحه، حتّى أنّه كان يرى فوق رأس «ريْدانة» وميضًا لؤلؤيًّا وكأنّها ترتدي تاجًا من جليد، فكان يقع في نفسه أنّها فتاة طاهرة، وكان يحبّ «وجدانَ» لأنّه يفعل الخير ويُساعد الضعفاء، فقرر أن يبذل جهده ليساعدهما على إتمام زواجهما. تركهما وذهب لمدرسة الحكمة، وعقد اللقاء مع كبار شيوخ العشائر في الجزيرة، وأقنعهم أن يوافقوه على إتمام الزّواج، فوافقوا على شرط، وهو أن يخرج الحبيبان من الجزيرة ويرحلا للأبد لأيّ جزيرة أخرى بالقرب من جزيرتهم، استبشر المُعلّم النبيل وهرول نـــحو وادي الخيزران، وزفّ إليهما الخبر.

تم زفافهما في اليوم التّالي، لزم أهل المدينة بيوتهم واعتزلوهما، وغُلّقت الأبواب في ترقّب، وكأنّ الجزيرة صارت جزيرة للأشباح! حتّى والديها خرجا من الدّار في رعب وأعلنا أنّهما مُرغمان، بكت أمّها وألبستها عقدها الوحيد قبل أن تنصرف، وخرج أبوها مطأطئ الرّأس يتوقّع المصائب الّتي ستتوافد عليهم تترى، أمّا «وجدان» فقد طرده

أبوه وبات ليلته على شاطئ الجزيرة يناجي البحر ويبثّه حنين شغاف قلبه، حتّى طارت أشواقه ورفّت على صدر الماء، فأتاها في اليوم التّالي وحيدًا مُغْبَرَّ الثّياب وقلبه يتدحرج أمامه على الطريق من شدّة الشّوق والفرح، وأمامه يسير المُعلّم النبيل، وكان الوحيد الّذي يسعى لإسعادهما، زوّجهما في معبد الجزيرة بحضور النسّاك فشهدوا عقد زواجهما، ضحكا كطفلين عثرا للتوّ على حلواهما المفضلة، وخرجا في سكون تجاه الشّمال، وعاشا في هناء في وادٍ رحيب خلف الشلالات. ثُمّ بدأت الكوابيس تقض مضجع «رَيْدانة»، وكانت المصائب تتبع «وجدانَ» أينما حلّ.

ألقى «خَنْدَريس» على رأسه الطلاسم وصبّ لعناته، فصار «وجدان» يؤذي زوجته، ويهجرها، فصبرت المسكينة لأنّها تُحبّه، وكلّما أفاق من سَكرة من سَكَراته كان يحاول إصلاح ما أفسده، مرّت أيّامٌ تجرّ خلفها أيّامًا، وكان لا بدّ من السّعي في طلب الرّزق، فبدأ يعمل بالتّجارة، ويكسب المال، وصار له خدم وبيت واسع ورحيب، وحملت زوجته بطفلهما الأوّل، وسمعت بأمر تلك العجوز الّتي تسكن طربالًا[1] أعلى الجبل، فقررت زيارتها.

صعدت «رَيْدانة» الجبل بتؤدة في حشمةٍ بثيابها المخمليّة تضيء وجهها قبّة مطرّزة بحبّات اللؤلؤ، كانت الليلة قَمراء، فسرقت مقلتاها من القمر بصيصًا من الضوء تبعثر كاللؤلؤ المنثور في عينيها الخائفتين، كان يتقدّمها خادمها المخلص حاملًا في يده شعلة ليضيء لها الطريق، كانوا ثلاثة لكنّهم لم يكونوا ثلاثة! فهناك رفقة لا تدرك المسكينة أنّهم يتربصون لها. من خلفها كانت جاريتها تحثّها على الصّعود والتّحمل حتّى يتمكّنوا من الوصول لطربال العجوز، وصلوا أخيرًا بعد عناء، هبّت

(1) طربال: الطِّرْبَالُ عَلَمٌ يبْنَى فوق الجَبَل، وهو كلُّ بناءٍ عال كالمنارةِ ونـحوها.

نسمات هواء كادت تطفئ الشّعلة الّتي يحملها الخادم لتنير الطريق، نادتها العجوز باسمها فأجفلت، كيف عرفت اسمها وهي لم ترها من قبل!

وأمرتها بالدّخول، سرت القشعريرة في جسدها الهزيل، وتخشّب لسانها في فمها، وتبعت الخادم وهي تقبض على كفّ جاريتها بقوّة، ودلف الثلاثة للطربال بخطوات مترددة، كان للعجوز وجه أكلف[1]، وشفة لعْسَاء[2]، وشعر فحمي مسحوب في جدائل ملفوفة بشرائط بلون الزّعفران، طالعتهم بعينين تسللت الصّفرة لبياضهما، وأشارت إليهم فجلسوا في خشوع، طال صمتها وهي تتشمم تارة، وتلوي أنفها تارة أخرى، وتغرّب وتشرّق بعينيها وكأنّها ترى ما لا يرونه، مسحت جبينها فلاحظوا سبّابتها المقطوعة، صمتت طويلًا ثُمّ قالت:

- معشوقة!

كانت «رَيْدانة» قد أتتها لتسألها عن سبيل الخلاص من «خَنْدَريس» وسلطانه، فقد كان يُظهر نفسه لها، وكانت لا تحتمل النّظر إلى وجهه، وتعايش لحظات الرّعب كلّ ليلة، حتّى زوجها قد زَهِد فيها، فبعد الحبّ والعشق صار «وِجْدان» يُبغضها ويلعنها ويسبّها بأقبح الألفاظ، ولم يعد «وجدان» الّذي كان يذوب فيها عشقًا وغرامًا، انتفضت العجوز وكررت:

- معشوقة!

دارت رأسها وهي تُنصت لكلام العجوز، الّتي وضعت يدها على بطنها المتكوّرة وقالت:

-جنينك يُشبه أباه، ها هو تحت يدي يتقلّب في بطنك ويدور.

ثُمّ أغمضت عينيها وقالت:

(1) أكلف: وجه أكلف أي تعلوه حُمرة وكُدرة.

(2) لَعْساء: اللَّعَسُ :سواد في باطن الشفة.

- سيرثُ منكما كلّ جميل، لكنّه سيحمل همًّا عظيمًا سيرثه من «خَنْدَريس».

أجفلت «رَيْدانة» وسألتها:

- لماذا سيرث من «خَنْدَريس»؟

- لقد فرض سُلطانه عليكِ، واتّخذ عهدًا على نفسه أن يضرب بصولجانه على رأس كلّ ولدٍ من أولادكما ولن يترك واحدًا منهم أبدًا..

ثُمّ رفعت صوتها قائلة:

- يا مسكينة! يا مسكين!

فجأة رفعت يدها عنها وطلبت منهم الخروج من طربالها المُعتم، ونصحتها أن تبتعد، وترحل هي وزوجها إلى جزيرة «النّور» فهي أرضٌ مُباركة، فالجنّ لا يدخلونها! ظلّت تتعجلها لتخرج حتّى أفزعتها، فأسرعت «رَيْدانة» بالخروج مع الجارية والخادم، وهي تلوم نفسها على لجوئها لها، وليتها ما فعلت! فقد كرهت ما سمعته منها وضاق به صدرها.

ظلّ الحال على ما هو عليه، ولم تُخبر زوجها عمّا سمعته من العجوز، فلو علم بصعودها للجبل وهي حبلى كان سيغضب غضبًا شديدًا، ولو علم بذهابها لتلك العجوز سيزداد غضبًا، لم تُحاول حتّى إقناعه بالرّحيل لجزيرة «النّور»، فقد كانت تعرف مدى ارتباطه بـ «سُقُطْرى»، وكيف صمم على عدم الرّحيل خلف الشّلّالات ولم يُعجبه ما اتفق عليه قومه، حتّى هي لم تتخيّل أنّها سترحل عن أرضها يومًا ما! فغرقت في صمتها الحزين.

لزمهما «خَنْدَريس»، لم يتمكّنا من الخلاص من شرّه، لكنّهما أنجبا الكثير من الأبناء والبنات. رحلا أخيرًا خلف الشّلالات مع أبنائهما، حيث يعتزل «العنادل»[1] عن أهل الجزيرة، فارتقت نفسه ونفسها وزال عنهما

(1) العَنادِل: جمع عَندليب وهو طَائِر مُغرّد.

الأذى، صارا ناسكين عابدين مسبحين، وعادت إلى قلبيهما السّعادة، عادت النّجوم تحلّق فوق رأسيهما، ودامت السّكينة لسنوات تشملهما، لكنّ «خَندَريس» كان قد ترك وسمًا على كل طفل من أطفالهما، مرّت السنون، وكبر الصّغار، وكلّما بلغ واحد منهم مبلغ الرّجال انقلب حاله، وهجر أبويه. انتشروا في أركان الجزيرة الأربعة، وسعوا في أرض الجزيرة فسادًا، وصار أهل الجزيرة يفرّون من البقعة الّتي يظهرون فيها، حتّى أنّهم رحلوا للجزر الصغرى المحيطة بها هربًا منهم، وصاروا ينسبونهم لـ «خَنْدَريس» بدلًا من أبيهم «وِجدان»، فحزن حزنًا شديدًا، نصحوه بالرّحيل إلى أيّ جزيرة، فالأسفار الطويلة كافية لغسل الأحزان، لكن هيهات! فهذا جُرح الولد لأبيه، وثمّة جراح كثيرة من أولاده. انتقل مع زوجته لجزيرة «النّور»، حيث انتقل إليها معهم بعض «العنادل»، بقي ولدهم الأكثر صلاحًا على فطرته ونقاوة قلبه، والّذي كان يحمل نفس اسم أبيه.. «وجدان»، قرر العودة لوطنه، بحثًا عن إخوته، وظلّ ينقل اسم أبيه لولده ويُوصيه أن يُطلق نفس الاسم على ولده، حتّى لا ينسى النّاس أنّهم أبناؤه وأحفاده.

****

«فرح»

عاد «أَقْمَر»، وبدأنا نستعدّ للخروج، حملتُ خريطتي، وخرجنا يتقدّمنا «أَقْمَر» وخالته «زهراء» لنُفاجأ بعدد كبير من الحرّاس يزدحمون أمام الدّار ويحملون الشّعل، وقد انضمّ إليهم حشدٌ كبير من سُكّان الجزيرة الخضراء، وتقدّم كبيرهم فور أن رآني أخرج من باب الدّار، وطالبهما بتسليمي، فأدركتُ حينها أنّ الخطر الّذي يَتَهددني قد صار وَشِيكًا، التفتَ «أَقْمَر» تجاهي وقال:

- لا تفتحي عينيك أبدًا مهما حدث.

غلبني فضولي وفتحت عينيّ لأنني لم أُدرك حقيقة ما سيفعله «أَقْمَر»، راقبته وهو يتقدّم ثلاث خطوات للأمام، ويرفع يده تجاه الحشد، ويطلق وميضًا قويًا من ضوء أبيض قويّ يعمي الأبصار، صرختُ عندما أعماني الضّوء، فقبض «أَقْمَر» على يدي بشدّة، فرأيت مشهد لقائه بالحارس الّذي كان يتبعني يمرّ في ذهني بسرعة خاطفة، أدركتُ حينها أنّ «أَقْمَر» أنقذني من هذا الحارس بنفس الطّريقة، وهي إطلاق ضوء قويّ يعمي الأبصار، وكنت لا أرى شيئًا بعينيّ، ظننت أنني قد فقدتُ بصري، فحملني «أَقْمَر» الّذي كان يحدّثني باستمرار ويُطمئنني، ويُخبرني أنّ بصري سيعود إليّ بعد قليل، وكانت السيّدة «زهراء» تتقدّمنا، وركضنا حتّى خرجنا من الجهة الخلفيّة من البُستان، دون أن يعترض طريقنا أحد، كان الوميض الّذي أطلقه «أَقْمَر» قد أعمى الحرّاس وكلّ من صحبهم فلم يرونا، ولا يزال يحيطهم وكأنّهم حُبسوا في فقاعة عملاقة من الضوء الأبيض، ولم يتحرروا من أسره إلّا بعد فترة كانت كافية لكي نصل إلى الشّاطئ بأمان، حيث كان هناك رجل وامرأة ينتظران وصولنا، أدركتُ هذا من صوتهما فقد أصابني عمى مؤقّت، ركبنا معهما المركب الخاصّ بهما، وبدأ الرّجل يُجدّف، ولا يزال البياض الشديد الّذي أطلقه «أَقْمَر» يغمر عينيّ عندما ابتعدنا، وحين بدأ الفجر يزحف حولنا رويدًا رويدًا، كانت قدرتي على الإبصار قد عادت بالتّدريج، فتبيّنت وجه الرّجل الّذي كان يُجدّف ويجلس أمامي مُباشرة، فأجفلت، فقد كان له وجه يُشبه السّحالي، وكذلك كانت رفيقته، لاحظ «أَقْمَر» اضطرابي، فهمس إليّ قائلًا:

- لا تخافي يا «فرح»، إنّهما من «المشّائين».

زال عنّي التّعجب عندما ذكّرت نفسي بأنني في مملكة البلاغة، مملكة العجائب والغرائب. همس لي «أقمر» قائلًا:

- سامحيني إن تجنّبت الإمساك بيدك أنا والخالة «زهراء»، فلن تحتملي ذكرياتنا.

كانت السيّدة «زهراء» تسمعه، فقالت وهي تُطالعني بحنان بليغ:

- لا عليك يا صغيرتي، سيزول ذلك الأمر حتمًا، سيزول.

كُنت حزينة لهذا، فقد كُنت في حاجة لمن يُمسك بيدي ويقبض عليها بشدّة ليُخبرني أنني في أمان. فتحت خريطتي فرأيت فيها جزيرة كبيرة، وحولها خمس جزر، وهناك خطّ مرسوم من كلّ جزيرة تجاهها، فأدركت أنّها «سُقُطْرى»، الّتي كّنا نُبحر تجاهها.

*****

وصلت عائلة «أبادول» للبيت المهجور، لم يكن قط كبيت «أبادول» الدّافئ، بل كان بيتًا باردًا، وخاويًا، ومُخيفًا كالمقبرة. اضطرّ «كمال» للبقاء ببيت «أبادول» مع زوجته ليُسلّما المال لـ «ليلى»، فبقيا وحدهما بالبيت لأوّل مرّة على مضض وكانا حزينين، وعدهما «حمزة» بالعودة إليهما ليُحضرهما بعد أن يُسلّما المال لتلك الـ «ليلى» الّتي ظهرت فجأة في وقتٍ غير مُناسب، وبعد أن ينتهيا من توقيع الأوراق الّتي يُعدّها المُحامي لإنهاء كلّ شيء خاصّ بملكيّة البيت.

ترجّل «أبادول» من السيّارة، كان يبدو أضعف مما كان، لكنّ روحه صارت أقوى. سقط حاجباه، لكنّ نظراته بقيت عالية أبيّة، سار نحو باب البيت ودفعه بقدمه، ثُمّ طرق الأرض بعصاه فتردد صدى طرقته في أركان البيت المُتهالكة، وقال بصوته الرّخيم:

- اللهم قوّة!

كانت أركان البيت تتنهّد كعجوز مجهدة، دلف «يُوسف» مع «حبيبة»، وتبعهما «حمزة» مع «مرام»، وهم يحملون حقائبهم الّتي جمعوا فيها

بعض الثياب على عجل، ووقف الخمسة يتأمّلون جدران البيت وهو يشكو حالته البائسة، ظلّوا على حالهم لدقائق يتلفّتون، ورائحة الرّطوبة تنفح من كلّ حدبٍ وصوب، ران عليهم صمت مُطبق، كادوا يعودون لبيتهم الدّافئ، ولكن هيهات! إنّه «أبادول» العنيد، لن يرحل إلّا بعد عودة أحفاده!

قرر «حمزة» أن يتحدّث أخيرًا، يبدو أنّ هؤلاء الكبار حوله صاروا الآن تائهين من شدّة قلقهم وخوفهم على ذويهم من المجهول، فحتّى كبيرهم «أبادول» لا يعرف الكثير، وقد انقطع الاتصال بين شطر العائلة الّذي التقمه البيت وبينهم، بدأ «حمزة» لأوّل مرّة يوجههم ويُوزّع المهام على استحياء، وبدأ يعمل على إصلاح الإضاءة وترتيب البيت، جمع بعض الأغصان من الحديقة على عجلٍ وقام بإشعال المدفأة، وأخرج الكثير من الأغراض الّتي كانت تعوق حركاتهم للحديقة، ومنها صندوق خالٍ كان يقبع في حفرة مستطيلة، تعجّبوا من تلك الحفرة المستطيلة الّتي عثروا عليها في وسط البيت، وأخذوا يتساءلون عن سبب وجودها، قام «حمزة» و«يُوسف» بحمل لوح خشبيّ عريض ووضعوه فوقها، حتّى لا يتعثّر أحد منهم أو يسقط فيها، كان لا بدّ من تهيئة البيت قدر الإمكان ليتمكّنوا من الإقامة فيه، عمل الأربعة بجهد كبير، حتّى أنّ «يُوسف» اضطرّ للعودة لبيت «أبادول» ليجلب بعض الطّعام والأغطية والدّواء. جلس «أبادول» أمام المدفأة، يتفكّر ويتساءل في نفسه: أين «فرح» الآن؟ كان قلقًا عليها بشدّة، فهو على يقين الآن أنّها هي المقصودة، وأنّها من المُستكشفين، فقد أخبرتهم أنّها رأت العلامات، لكنّ أحدًا لم يُصدّقها، تُرى ما الميزة الخفيّة بحفيدته، والّتي لم ينتبه لها من قبل؟ أو ربّما لأنّها ابنة «أنس»! لماذا التقم البيت الأربعة ومعهم «ميسرة»؟ لماذا أُخذت جبرًا أوليس الأمر تطوّعيًا؟ أم تلك طفرة كعادة عائلته الّتي تتعرّض دائمًا للغرائب!

****

الجزيرة الثّانية
جزيرة الضّباب

خالد

سقط «خالد» في الماء كالقذيفة، غاص حتى التهمه قاع المحيط بسواده الغامض الكثيف المُدلهمّ كما حدث ببحر «حِنْدس»[1] من قبل، لكنّه اليوم إنسان ضئيل وسط رحابة تلك الزُّرقة اللامنتهية، لكنه اليوم لم يكن حوتًا ليسبح مع حيتان الأُوركا[2] ويمخر عَباب هذا المحيط اللازورديّ العريض. دفعةً قويّة رفعته فوق سطح الماء وكأنّه قذيفة «طوربيد» أطلقتها غوّاصة لتفتك بعدوّها اللدود، ارتقى على ارتفاع مترين في الهواء ليسقط مرّة أخرى قبل أن يطفو كجذع شجرة تتلقفه الأمواج الثّائرة، رأى شاطئًا أبيضَ الرمال على مقربة منه فبدأ يسبح تجاهه وهو مذهول مما يراه ويعيشه، وكانت هناك دوّامة من الضّباب الأبيض تدور فوق هذا الشَّاطئ، فتعلّقت عيناه بها للحظات، ظهرت العلبة الخشبيّة الّتي قذفها الصّندوق تجاه صدره بالبيت وكانت تطفو على سطح الماء، وكأنّها تتبعه، لم يُلْقِ لها بالًا في البداية، لكنّه تذكّر

(1) بحر حِنْدِس من أجواء وشخصيّات رواية أمانوس، والحِندس هي الظُلمة الشديدة السوداء.

(2) حيتان الأُوركا من أجواء وشخصيّات رواية أمانوس

قول «مَيْسرة» بأنّ الشيء الّذي يمنــحه الصّندوق المدفون في غرفة الكنز تحت كلّ بيتٍ من تلك البيوت للمستكشف له فائدة أثناء رحلته، لا ريب أنّ تلك العُلبة لها فائدة، فقد سُمّيت الغرفة الّتي كانت تحتويها بغرفة الكنز! ولكن أيّ كنز هذا الّذي تُمثّله علبة خشبيّة عتيقة وفارغة!

التقطها ليتفحّصها، وكانت مستطيلة ورفيعة تُشبه الكتاب ذا الدّفّتين، فتحها برفق ليرى ما بداخلها، فوجد دفّة تحتوي على مرآة، لكنّها مرآة من نوع غريب، تبرق وكأنّها من لُجين مصقول، كان يرى صورته فيها مُقعّرة، وبدت وكأنّها مُجسّمة، يكاد يلمس وجهه لو مدّ أصبعه! والدّفة الأُخرى تحتوي على ورقة برديّ التصقت بها عندما بللها الماء. أغلقها وأدخلها تحت قميصه، ظلّ يسبح حتّى وصل للشاطئ واستلقى على ظهره ليلتقط أنفاسه، تلاعبت أشعة الشّمس بعينيه فشوّشت رؤيته، فاعتدل جالسًا وبدأ يفركهما ويتساءل.. ماذا حدث؟

هل يُعقل أنّه من المستكشفين ولم تظهر عليه العلامات؟

لماذا ظهرت على شقيقته «فرح» بدلًا منه؟ فهي لا تزال طفلة في الحادية عشرة من عُمرها فكيف تكون من المُستكشفين؟

ها هو الآن في عالم شعب من تلك الشّعوب المنسيّة الّتي لا بدّ من حلّ لغز من ألغازها ليتحرر هذا البيت من أسرها بكتبه الغامضة، وتُفتح الأجواء فوقه ليُسمح بتحليق الصّقور لتحمل المحاربين من هُناك لاسترداد القيم المُدوّنة بتلك الكتب.

تناهى إلى مسامعه صوتُ بكاءِ رضيعٍ صغيرٍ، هرول تجاه الصّوت، وكلّما اقترب ازداد الصّوت وضوحًا، بكاءُ رضيعٍ يتزامنُ معه نــحيبُ شابٍّ كان ينكبّ على جسد مسجّى وينوح في شجن، والرّضيع العاري على مقربة منه ولا يزال الحبل السّريُ المقطوع عالقًا ببطنه الصغير! وقف أمام المشهد فانخلع قلبه لما رآه، اقترب بخطوات مترددة وألقى

السّلام فأجفل الشّاب ورفع رأسه ورشقه بنظرة ناريّة، وانتفض وهرول تجاهه وهو يزأر:

- من أنت؟

- أنا...

لم يعطه الفرصة ليجيبه، بل أطاح به أرضًا بيد واحدة، ثُمّ أوسعه ضربًا وظلّ «خالد» يتفادى الضّربات وهو في ذهول، أهكذا يكون أوّل لقاء بأوّل وجه يراه هنا! قبض الشّاب على عنقه بيد تنبض عروقها الظّاهرة وتكاد تطفر من إهابه[1] الحنطيّ اللون، ازرقّ وجه «خالد»، وانقطعت أنفاسه، وبدأ الخدر يسري في جسده، كان الشّاب عظيم البنية، شديد البطش، مفتول الذّراعين، يبدو على محيّاه أنّه تعوّد على الخشونة، وكانت روحه شديدة القتامة حتّى أنّه لا يتبيّن ما أمامه من شدّة الغضب، رفع يده وسدد بقبضته الأخرى ضربة شديدة لوجه «خالد» فسالت الدّماء من أنفه، فلمّا رأى حُمرتها وهي تسيل رفع يديه عنه وتراجع متعجبًا وهو يقول:

- دماؤك حمراء!

هزّ «خالد» رأسه ليفيق فقد دوّخته الضّربات ورفع يديه دلالة الاستسلام، فقال الشّاب وهو يدفعه في صدره:

- من أيّ جنس أنت؟

التقط «خالد» أنفاسه بصعوبة ووقف يترنــح، لم يتخيّل قط أنّ لون دمائه سيُنقذه من الموت، ظنّ دائمًا أنّه سيُعرّضه للخطر إن اكتُشف أمرها وهو في رحاب مملكة البلاغة. قال وهو يُشير للرضيع الّذي كان يصرخ ويرتجف وكانت الرّياح الباردة تطوف بالجزيرة:

(1) الإهاب: الجلد، ويُقال كاد الشَّخصُ يخرج من إهابه من شدَّة الضِّيق.

- دثّر هذا المسكين أوّلًا.

خرّ «خالد» على ركبتيه خائر القوى، ودار الشّاب برأسه فجأة وكأنّه انتبه لوجود رضيع حديث الولادة للتوّ، ورنا إليه بنظرة مُنْكسرة، وارتعشت ملامحه، وبدأ يضرب رأسه بيديه، وقال بصوت تخنقه الدّموع:

- ماتت أمّه وهي تلده.

نهض «خالد» وسار نـحو الرّضيع وحمله بين ذراعيه، اقترب الشّاب من «خالد» وانتزعه منه، لكنّه توقّف هُنيهة ونظر إلى وجه «خالد»، وكأنّه فطن لكونه شخصًا مُسالمًا، فقد بدأه بالسّلام ولم يُسدد إليه ضربة واحدة، وكأنّه رأى حاله وبكاءه والرّضيع ففهم كربه وقدّر سَورة غضبه، كما أنّه أضعف منه قوّة وبنية، فأعاد الرّضيع إليه، وتناول دثارًا من الكّتان لفّ به ابنه، بدا وكأنّه كان وشاح أُمّه الّتي ماتت وهي تلده للتوّ، وتركه على ذراع «خالد»، وعاد ليجلس بجوار جثّة زوجته مرّة أخرى، الآن يشعر بالخواء، بالتيه، بطعنة مريرة في فؤاده، شيء خفيّ لا يُرى فارق جسدها فاختفى كلّ شيء، إنّها الرّوح الّتي لا يعلم سرّها إلّا خالقها! اختفت بسمتها، ونظراتها، وهمسها إليه بالحبّ، وحتى ارتجافة يدها وهي تتألّم، وصراخها الّذي كان يدوّي في الهواء منذ لحظات أثناء ولادتها لجنينها، حتّى عرق جبينها الّذي كان يتلألأ انطفأ بريقه في لحظة، حرارتها الّتي كانت تنبعث من جلدها تلاشت، عيناها وهي ترنو لجنينها بحبّ وحنان تجمّدتا وصارتا وكأنّهما من بلّور! كانتا تتذبذبان بينما يمسح أبوه بوجهه ويضربه بلطف على ظهره ليبكي ويشهق شهقة الحياة، وكيف ضحكت عندما بدأ يصرخ باكيًا، وهمست لزوجها «أُحبّك» قبل أن تغمض عينيها للأبد، انتحب باكيًا، ثُمّ رفع رأسه فجأة وقال بتصميم:

- ستدفن بالجزيرة رغم أنوفهم.

- من هم؟
- الّذين لا يُريدون معرفة أيّ شيء!
- الجزيرة هُنا؟

أشار تجاه الشرق وقال:

- بل في «سُقُطْرى».
- يا إلهي، جزيرة «سُقُطْرى» اليمنيّة!

استدار الشّاب نــحو «خالد» وهو مثبط الهمّة والدّموع تغرق وجهه وسأله:

- من أين أتيت إذًا؟ ظننتك فررت من هناك كحالي وزوجتي!
- أتيت من وراء البحر التّهاميّ، سقطت في المحيط و....

قاطعه الشّاب وهو يجول بعينيه في ثيابه قائلًا:

- ثيابك غريبة!

أراد «خالد» أن يُحدّثه عن نفسه ومن أين هو ولم ثيابه مختلفة، لكنّ الموقف المأساويّ كان أكبر من أن يفعل هذا، فقال وهو لا يزال يحتضن الرّضيع:

- اسمي «خالد».
- لم أسألك عن اسمك! ولا يعنيني هذا!
- حسنًا، هل هناك امرأة على الجزيرة تستطيع إرضاع طفلك هذا؟

دمعت عيناه ونكّس رأسه وهو يجيبه:

- لا يوجد غيرنا من البشر، تلك الجزيرة محجوبة، ويسكنها بعض نساء الجنّ، ولن يقبلن ببقاء أيّ زائر على أرضها، ولن يصل إليها أحد على أيّ حال. لقد وافقن على بقائي وزوجتي لأنّهن

علمن أننا فررنا من «سُقُطْرى» حفاظًا على حبّنا، فتعاطفن معنا وقبلن. وحتّى إن وصل النّاس إليها فلن يجرؤ أحدٌ على المعيشة هنا معهن، فالجزيرة مخيفة تحت عتمة الليل، كُنا نستعدّ للرّحيل، فزوجتي كانت تُعاني من تلك الوحشة، فالحياة المُريبة هنا كادت تدفعها للجنون، والرؤية مُحالة، ولا يعرف أحد أنني أعيش هنا معها وحولنا تطوف «بنات وَردَان»! ولا أعرف كيف وصلتَ أنت إلينا! أتدري؟! حتّى أنا وزوجتي دُفع مركبنا دفعًا للشاطئ هُنا، وكأنّ هُناك من رغب في وصولنا إلى هنا، ولو لم يدفعنا ما كُنّا وصلنا أبدًا!

- من حجبها؟ وما قصّتها؟

- أبوهنّ «وَردَان»، سأُخبرك بقصّتهنّ لاحقًا فقد يسمعن كلامنا الآن ويبدأن في الثّرثرة.

ثُمّ تلفّت في حيرة وقال له بتصميم شديد:

- سنرحل.. وستساعدني وتحمل ابني، وأنا سأجرّ هذا المركب للماء، وسأنقل زوجتي إليه، وسنذهب الآن لـ «سُقُطْرى»، وستُدفن هناك رغم أنوفهم، وسينشأ ولدي على تلك الجزيرة مُعززًا مُكرّمًا.

كان الصّغير يبكي ويرتجف، وكان «خالد» يهدهده برفق ليُسكته، مسح الشّاب الدّموع عن وجهه وهرول نـحو كوخ من جذوع الأشجار المصفوفة ببراعة، له سقف من جريد النّخل مغمور بالطين الجاف يبدو أنّه قد بناه بنفسه ليكون مأوى له ولزوجته.

سمع «خالد» صوت طقطقة، فأدرك أنّها العُلبة الخشبية، فتحها بيدٍ وكان يحمل الصّغير بالأُخرى، وجد بها ورقة البرديّ العتيقة وقد جفّت من البلل قليلًا، وعليها كلمات مكتوبة فقرأها:

«نــحن لا نموت دفعة واحدة، فأرواحنا تُغادرنا شيئًا فشيئًا، ولم يبق منّا إلّا جزء ضئيل يُصارع الحياة. أُؤمن أنني هنا لسبب ما، قد أكون سببًا لشقاء أحدهم، وسببًا لسعادة أحد آخر، أو سببًا لنجاة غريق، وإثباتًا أنّ الدُنيا قبيحة، وأنّ هناك جانبًا مُظلمًا للحياة».

ظنّ «خالد» أنّ تلك العلبة تُشبه كُتب المُحاربين، فأعاد الورقة للدّاخل وأغلقها.

أخذ يتأمّل الرّضيع، كان يحمله برفق ويخشى أن يؤذيه لضآلته وصغر حجمه، وكان لا يزال يبكي، فقرّب فمه من أُذنه اليُمنى، ووجد نفسه يُردد الأذان، فسَكَن الصّغير. عاد الشّاب وكان يحمل ثيابًا له، وكان قد سمعه وهو يؤذّن في أُذنه، فلم يُعلّق وحمل منه ابنه وقبّله لأوّل مرّة منذ أن رأت عيناه الصغيرتان نور الحياة، وأخذ يتشممه وهو يبكي أُمّه، بدّل «خالد» ملابسه، وطوى ثيابه المبتلّة ووضعها مع العلبة الخشبيّة في المركب، ونقل الشّاب جثّة زوجته إليه، وصعدا أخيرًا على متنه، وبدأ الشّاب يُجدّف والكربُ يُعشش بين عينيه، بينما «خالد» يُهدهد الرّضيع ويضمّه لصدره ليحميه من البرد، فقد شحب ضوء الشّمس وانخفضت درجة الحرارة، كان أبوه قد جلب معه عنقودًا من العنب، فمزّق «خالد» قطعة من قميصه وبدأ يعصر حبّة من حبّات العنب بداخلها ليصفي عصيرها من بذورها وأليافها الرّفيعة ويقطرها في فم الصّغير، فبدأ يهدأ أخيرًا، وسكن المسكين بين يديه، عندها سأل «خالد» الشّاب قائلًا:

- ماذا ستُسمّيه؟

- نفس اسمي، واسم والدي، وجدّي، وجدّ جدّي، وأجدادي، حتّى لا ينساه أهل «سُقُطْرى» أبدًا وسيُرددونه للأبد.

- وما اسمك؟

- «وِجْدان».

أطرق كلاهما هُنيهة ثُمّ سأل «وِجْدان» بفضول:

- من صاحب الكلمات الّتي كُنت تُرددها لتمجيد الله الواحد الأحد في أُذن ولدي؟

كان «خالد» متوتّرًا فهو لا يعرف الزّمان ولا المكان الّذي نشأ فيه هذا الشّاب، قال له:

- هكذا ننادي في بلادنا للصلاة.

هزّ رأسه، ثُمّ سأله وذراعاه المفتولان يتابعان التّجديف:

- أخبرني عن قصّتك بالتّفصيل، وسأُخبرك عن قصّتي بعدها.

تفكّر «خالد» للحظات، هل يُخبره بالحقيقة أم لا؟ لكنّه سريعًا ما اتخذ قراره، سيُخبره بكلّ شيء لعلّه يُخفف عنه حزنه عندما يسمع غرائب قصص مملكة البلاغة الّتي لا يعلم أنّه يعيش في بقعة منها وإن كانت منسيّة! وعن عائلة «أبادول» ومغامراتها، تنهّد بعمق وبدأ يحكي له من البداية، وأنفاس الصّغير اللطيفة تداعب عنقه وهو يحتضنه، ابتعدا عن الجزيرة وكانت دوّامة الضباب الأبيض التي كانت تدور فوق الجزيرة تنخفض تدريجيًّا حتّى التقمت الجزيرة وحجبتها.

كان «وِجدان» يُجدّف وكأنّه آلة لا تكلّ ولا تتعب، لم يتوقّف للحظة ليلتقط أنفاسه، سمع من «خالد» قصّة مملكة البلاغة، لكنّه لم يُصدم، فهناك على جزيرة «سُقُطْرى» ما هو أعجب من أن تكون دماء الرّجل حمراءَ اللونِ ويحكي عن عوالم أُخرى! وقد رأى بالفعل ما هو أكثر إدهاشًا من ذلك.

لاحت جزيرة «سُقُطْرى» من بعيد بأشجار «دم الأخوين»[1] العجيبة، كان «خالد» قد قرأ عنها من قبل، توقّف «وِجدان» عن التّجديف لأوّل مرّة وقال له:

- سننتظر حتّى يسحب الليل رداءه على الجزيرة.

هزّ «خالد» رأسه وقام ليناوله ابنه عندما رآه يُطرق نحو جثّة زوجته ليشغله عنها، فالتقط «وِجدان» ابنه وأخذ يتشمّمه ويلثمه، رفع رأسه بعينين عامرتين بالدّموع وقال له:

- إنّه يُشبهها! خرجنا من «سُقُطْرى» لأننا تحاببنا وتزوّجنا.

- وما العيب في هذا؟

- سنعيد قصّة جدّي «وِجدان» وجدّتي «رَيْدَانة»، فقد تزوّجا رغم علمهما بأنّ «خَنْدَريس» ملك الجنّ يعشقها، وأراد أن يملكها ويمنعها عن البشر، ولمّا انتصر حبّهما عليه، وفشل في التفريق بينهما، أراد أن يصيب ذرّيتهما بالسوء والمرض، ليكونا عبرة لغيرهما، وليكون كلّ واحد من أبنائهم طعنة في قلب والديه، لكنّ مكره انقلب عليه، وكان في كلّ مرّة يلمسهم ليضرّهم يُسلب شيئًا من قُدرات الجنّ الخارقة، لم يصابوا بالمرض، ولم يهلكوا، ولم يغلبهم الجنّ بسلطانهم، بل اكتسبوا من الجنّ القُدرات العقلية والبدنيّة الّتي لا يملكها البشر، وكبروا، واختلفت نفوسهم، منهم

(1) شجرة دم الأخوين: توجد هذه الشجرة في جزيرة سقطرى اليمنية، وتعتبر الشجرة الأندر في العالم، ويعود ذلك إلى أسطورة يمنية تقول إن الأخوين قابيل وهابيل هما أول من سكنا هذه الجزيرة، ولما قتل قابيل هابيلًا وسقط دمه على الأرض نبتت هذه الشجرة. ويعود تاريخ هذه الشجرة لأكثر من خمسين مليون سنة، ولها استخدامات طبية كبيرة حيث ذكرها العلماء العرب في مؤلفاتهم، وعلى رأسهم العالم ابن سينا في كتبه، وتستخدم المواد المستخرجة من لحائها في علاج الجروح والتقرحات وتقوية الجهاز الهضمي.

من طغى عقله على نفسه، ومنهم من طغت نفسه على عقله، ومنهم من طغت روحه على كليهما، وظلّ القلب يتلجلج ويتقلّب بين النفس والعقل والرّوح! ولأنّهم بشر؛ كان للجسد ثورات وطفرات فصار منهم الّذي يطير في الهواء رغم كونه من الطين اللازب، ومنهم من يقطع مسافات طويلة في لحظات خاطفة، ومنهم من يُجيد قراءة الأفكار والذّكريات بمجرّد لمس بشرة من يُصافحه، ومنهم من يُخاطر الآخرين ويتحكّم بهم بعقله عندما يقتربون منه بمسافات كافية حتّى أنّه يدفعهم للقفز من فوق قمم الجبال، أو يدفعهم لقتل بعضهم بعضًا، ومنهم من تمكّن من السّيطرة على عشائر الجنّ المختلفة، ومنهم من صار يُحرّك الأشياء عن بُعد دون أن يلمسها، ومنهم من يُشعل النّار ليُحرق كلّ شيء حوله، ومنهم من له قوّة عصبة من الرّجال لا تُقهر.. وكان هذا جدّي «وِجدان» الثّاني، والّذي لا تزال قوّته تجري في دمي.

قال «خالد» وهو يتحسس عنقه:

- أُدرك هذا جيدًا فقد كدت تقتلني بيد واحدة.

- سامحني.. كنتُ..

قاطعه «خالد» قائلًا:

- لا عليك يا «وِجْدان»، ما تعانيه الآن عصيّ على الشّرح.

هزّ «وِجْدان» رأسه وأكمل:

- شاع الفساد، وصار القتل تسلية، والتفّ الجبناء والمنافقون حولهم، وأصبح سُكّان الجزيرة يخافون أبناء «وِجدان» و«رَيْدانة»، وتحوّلوا بمرور الوقت لمُناداتهم بأبناء «خَنْدَريس» بدلًا من مناداتهم بأبيهم البشري الحقيقي «وِجدان»! فحزن جدي الأكبر

وزوجته، وعندما أنكرهما أولادهما، وكان قد مرّ على زواجهما أربعون عامًا، عادا لقومهما للقاء المُعلّم النّبيل الّذي شهد زواجهما، فعلما بموته، وتسلّما من تلاميذه نسخة من سجلّاته الّتي دوّن في جزء منها قصّتهما بتفاصيلها وما حدث بينهما وبين «خَنْدَريس»، فأخذاها وانطلقا في أثر أولادهما، وكان عددهم كبيرًا..

ومرّت السّنون، وتكاثروا وازدادوا، وصاروا حفنة من البشر بقدرات خارقة يُذيقون الآخرين الويلات، صاروا يصدّقون أنّهم من جنس خارق لا ينتمي للبشر ولا للجنّ، وادّعى بعضهم أنّه إله من شدّة إعجابه وذهوله من قُدراته! وأنكروا أباهم «وِجْدانَ»، أفلح جدّي الأكبر «وِجْدان» وجدّتي في إقناع قلّة منهم، وفشلا مع آخرين، ومرّت السّنون، وماتا، وظلّ الميراث من القدرات الخارقة يُنْقل من الأب للابن للحفيد، يُمنـح ولا يُسلب.

- ماذا تعني بكونه يُمنـح ولا يُسلب؟
- يُمنـح طواعية من صاحبه لغيره، وإن مُنـح لواحد لا يستطيع أحد أن يسلبه منه أبدًا.
- وإن مات؟
- يموت معه، لكنّه ميراث يُغري النفوس الضّعيفة، فكان الأبناء يتنافسون لإرضاء آبائهم ليمنـحوهم الميراث قبل الموت، حتّى أنّ بعضهم قتل أخاه وذبح أُخته ليبقى هو فقط ويحمله، ويدّعي أنّه إله خارق، ليلتفّ حوله مريدوه.
- يُقدّسونه!
- نعم.
- ولهذا خرجت من الجزيرة؟

- خشيتُ على زوجتي فهي نقطة ضعفي، وخفتُ على ذريّتي، وأرغب في أن يموت الميراثُ معي، ولن أمنــحه أبدًا لأبنائي، كما أنني أخالف عائلتي في الأفكار، وهم ينفون كلّ من يُخالفونهم للجزر الأُخرى حولها، لتبقى «سُقُطْرى» درّة التّاج من بين جزر الأرخبيل[1] الأُخرى ومركزًا لسلطانهم، وما زالت عشيرة «البواشق» تظهر لأهل الجزيرة ليلًا، يُخالطونهم، ويعيشون بينهم، ويأمرونهم فيطيعونهم، وصار منهم بشريون، أي صار هُناك «بواشق» من الجنّ والإنس، الآن جميع سُكّان الجزيرة يخافونهم، إلّا «المشّائين»، فهم لا يخافون الجنّ.
- ومن هم «المشّاؤون»؟
- جنس من البشر يتحدّثون ويتناسلون مثلنا لكنّهم يختلفون عنّا، أشكالهم غريبة، دماؤهم باردة، بشرتهم عليها حراشيف قرنيّة صغيرة، وعيونهم جاحظة مخيفة، لها جفن ثالث، لديهم فم واسع ولسان رفيع وطويل، وأصواتهم غريبة تختلف في حدّتها عن أصواتنا، رؤوس الرّجال منهم أكبر من رؤوس النّساء، وينمو لبعضهم نتوءات عظميّة بعضها يُشبه القرون، وكأنّك تنظر إلى سحليّة، دماؤهم ليست سوداء، ولا حمراء كدمائك، لكنّها بيضاء تشوبها صفرة، وهم الآن يسعون لسلب الميراث من أبناء «خَنْدريس»، وكذلك كان يسعى «البواشق» دائمًا لجمع الميراث أو التّزاوج مع كلّ من لديه ميزة غريبة، فبدأ كلّ من يحمل ميراثًا بالتّخفي والهروب، ونشأ بينهم شقاق عظيم.
- ألم تُخبرني أنّ الميراث يُمنــح ولا يُسلب؟

(1) أَرْخَبيل: مجموعة من الجزر المتقاربة في البحر.

- بلى، ولكن ماذا لو كُنت مكان واحد منهم، وتعشق زوجتك وولدك، وهددوك بقتلهما؟ هل ستمنــحهم الميراث طواعية أم لا؟
- سأمنــحهم بالتّأكيد لأُنقذ أهلي، إن عجزت عن استخدام هذا الميراث في الرّحيل بهم بعيدًا أو في مواجهة هذا الظلم البيّن!
- وهذا ما حدث بالفعل لبعضهم، ولا تنس أنّ أغلبهم فُتن بميراثه هذا حتّى أنّه ظنّ أنه إله!
- أتعني أنّ هناك من «المشّائين» من هم بقدرات خارقة سلبوها من أبناء «خَنْدَريس»؟
- نعم، وتذكّر أنّهم أبناءُ «وِجدانَ» يا «خالدُ»، وإن ضلّ بعضهم، لا تفعل مثلهم وتنسبنا لذاك الحقير المسمّى «خَنْدَريس»!

غربت الشّمس فسال الشّفق الأحمر عندما ذبحها الأُفق بسيف من لُجين، اضطرب المركب حين اشتدّت الرّياح، سكنت جزيرة «سُقُطْرى»، وأضاء أهلها الشُّعل على أبواب البيوت، والكهوف في الجبال، كان «وِجدان» صامتًا كتمثال من زجاج، انعكس ضوء القمر على عينيه وهو يراقب الجزيرة، ويتحيّن اللحظة المناسبة ليعود للتجديف، بدأ يُجدف تارة، ويسكن تارة، دار حول الجزيرة وتخيّر بقعة خالية من البيوت، تحفّها الأشجار، وقد غابت الرّمال عن شاطئها وبقيت الصّخور تُؤَطِّرُها، اقترب رويدًا رويدًا، ثُمّ قفز وأخبر «خالدًا» أنّهما سيسحبان المركب ببطء شديد حتّى لا يُحدثا صوتًا يلفت إليهما الأنظار، أخرج «وِجدان» وشاحًا من متاعه الّذي جلبه من كوخه وربط ابنه به على صدره ليتمكّن من الحركة بسهولة، أخفيا المركب خلف شجرة، وتركاه ليبحثا عن ضوء ليبدأ «وِجْدان» في حفر القبر ليدفن زوجته، عاد الصّغير للبُكاء، فأصرّ «خالد» على حمله عن أبيه، وربطه على صدره بنفس الوشاح، وأخذ يُهدهده بأغنية كانت أمّه تغنّيها لـ «فرح» وهي صغيرة، فهدأ الصّغير.

لم يعثرا على قبس من ضوء هنا أو هُناك، وفضّلا عدم الاقتراب من البيوت حتّى لا ينكشف أمرهما، فقد أراد «وِجدان» دفن زوجته في هدوء. عادا وحملا أدوات الحفر الّتي جلبها «وِجْدان» معه، واختار بقعة على طرف مقبرة كان يعرفها منذ صغره، وبدأ يحفر، لم يسمح لـ «خالد» بمساعدته في الحفر، وسار نـحو المركب وحمل جثّة زوجته وعاد للقبر المحفور حيث كان «خالد» يقبع في سكون والصغير في حضنه، ووضع زوجته فيه وكأنّه يضعها في مهدٍ من حرير، وخلع قلادة كانت تُعلّقها حول عنقها وغلبه البُكاء فانخرط في نشيج مسموع، خشي «خالد» أن يتسبب هذا في لفت أنظار أهل الجزيرة، لكنّهم كانوا في مقبرة مهجورة على أطراف الجزيرة. أنهى «وِجْدان» مراسم الدّفن، ووضع حجرًا مميّزًا على قبر زوجته ليتعرّف عليه لاحقًا.

لم يكن «وِجْدان» مُتعبًا، فلديه من قوّة الجسد ما يجعل كلّ ما فعله من تجديف وحفر طوال السّاعات الماضية مجرّد مجهود بسيط لا يُذكر، فقد اعتاد على حمل الأحجار الضخمة وتحطيمها في جزيرة الضّباب الّتي كان يسكنها مع زوجته، والّتي كان الجميع يخشونها لما سمعوه عن تلك المخلوقات الّتي كانت تسكنها قديمًا، وكانت سببًا في أن يبتلعها الضّباب الكثيف، حتّى أنّهم لا يعرفون الطّريق إليها، لكنّه كان حزينًا يغالب جرح قلبه العميق الّذي انفطر وهو يراقب زوجته في نزعها الأخير، كم كانت لحظاتٍ قاسيةً، انتشله «خالد» من صمته سائلًا إيّاه:

- والآن، ماذا ستفعل؟ هذا الصّغير يحتاج لامرأة حانية القلب لترعاه وتُرضعه.

- لديّ صديق بـ«سُقُطْرى»، عالم وطبيب بارع، معروف بـ «النَّطَاسِيّ» لديه زوجة لطيفة الطويّة كانت تُحسن لزوجتي، وأظنّها سترعاه.

- وأنت؟ هل ستعود لجزيرة «الضّباب»؟

- مستحيل.. سأموت قهرًا لو عُدت إليها مرّة أخرى دونها. لن أتحمّل البقاء في الجزيرة دونها، كما أنني سأفقد عقلي لو بقيت بجزيرة «الضّباب» مع بنات «وَرْدَان»، فهنّ ثرثارات للغاية، ويسألن عن كلّ شيء.

- ما قصّتهن؟

- قصّة غيرة شديدة لزوج على زوجته وبناته، فـ «وَردَان» أبوهنّ هذا قد بنى قصرًا مذهلًا على تلك الجزيرة، فهو بارع في البناء واشتهر بين عشائر الجنّ بهذا، ووضع في القصر شيئًا منها وشيئًا منه وشيئًا من بناته.

- وما هذا الشّيء؟

- شيء من كيانهم الأثيري ليتمكّنوا من الوصول إليه دائمًا.. لا أدري كيف لكنّهم الجنّ!

- يا للعجب!

- ثُمّ ذهب بزوجته وبناته إلى القصر، وأخذ يجمع الضّباب ويسحبه من هنا وهناك ويكثّفه ليُخفيها عن الأنظار، وعندما نجح في إخفائها تمامًا، خرج في مهمّة واختفى ولم يعد! وبقيت زوجته مع بناتها بالقصر الّذي شيّده لها زوجها.

- تُرى أين ذهب؟

- لا أحد يعرف. لا بدّ أنّ «خَنْدَريس» قتله!

رنا لقبر زوجته وأطرق قليلًا ثُمّ قال في حيرة:

- لا أدري ماذا سأفعل، فلو شاع أنني عُدت لـ «سُقُطْرى» سيسعون لقتلي، أو تهديدي بابني هذا ليسلبوني الميراث المشئوم، قوّتي الّتي كرهتها.

قال خالد وهو يضمّ الصغير لصدره:

- الولد نقطة ضعف أبويه.

- صدقت، ولهذا سأستشير صديقي «النَّطَاسِيّ» عندما نصل لداره، ربّما أرحل لجزيرة أخرى، وأتردد عليهم من آن لآخر لأطمئنّ على ابني.

تناهى إلى سمعهما صوت صياحٍ، ومُكاء، وتَصدية خلف التلال القريبة، سارا حتّى وصلا لشجرة وارفة الظّلال وتقوقعا تحتها في بقعة تسمح لهما برؤية الوادي الّذي كان يكتظّ بالرّجال والشّباب وهم يُشكّلون حلقة عظيمة تحفّها النيران من حولهم لتضيء عتمات الليل، يتوسّطها رجلان من ذوي العضلات المفتولة والبارزة يتصارعان، تابعا مصارعتهما العنيفة وحبس «خالد» أنفاسه وهو يُراقبهما فقد كانا خصمين شرسين لا يعرف قلب أيّ منهما قيد أُنملة من الرّحمة، حتّى أنّه تعجّب من ذلك الجمهور العريض الّذي يُتابع ويُشجّع قتالًا كهذا، فهمس لـ «وِجدان» مُتسائلًا:

- ما الّذي يحدث هنا؟

- هذا وادي الخيزران، شبح الموت يحلّق هنا كلّ ليلة، يتواعدون بعيدًا عن سكن العشائر والقبائل، ويتقاتلون حتّى الموت، ويتركون الخاسر للضباع والوحوش، ذاك ديدنهم هنا منذ قديم الأزل، لا يُشغلون العقل، والصّراع طوال الوقت قائمٌ بالعضلات، يتقاتلون على كلّ شيء، والبقاء للأقوى!

- إذًا الفائز هنا من ينجح في ارتكاب جريمة قتل ويحوّل من أمامه لجثّة تطفو وسط بركة من الدّماء.
- وقد يُطالب الجمهور بتأجيل القتل حين يوشك أحدهما على قتل خصمه، فيلتزم المُتصارعان ويتوقفان فورًا لتتعدد سجالاتهما، وتستمرّ المتعة! أصبح القتل تسلية وهواية، كلّ شيء مسموح به، الطعن والذّبح وفَقْءُ العينين والضرب بالهراوات!

ثُمّ أضاف «وِجدان» وهو شارد بعينيه:

- القُوّة المُفرطة تعمي صاحبها، وكلما زادت ازداد جبروته، هناك شعرة قد تجتازها وتتحول إلى وحش قاتل، نفسك التي تقبع بين جنبيك ستنقر صدرك نقرًا، نفثة واحدة من نار غضبك قد تحولك لطاغية!

تواثبت دقّات قلب «خالد»، لا بدّ وأنه سيختلط بهؤلاء، ماذا سيفعل؟ كانوا يكشفون جذوعهم ويلفّون خصورهم بالقماش الثّخين، يتباهون بأجسادهم ويستعرضون عضلاتها، جلس يتابع ما سيحدث، قتل المصارع الأكثر شراسة خصمه، وانتهت المباراة عند هذا الحدّ، دماء وجُثّة لرجل كان يزأر منذ لحظات، والآن زَهِد فيه الجميع وانفضّوا من حوله. حمل الحشد الفائز ليحتفوا بفوزه وانصرفوا، وخلا الوادي إلّا من هذا الّذي كان يملأ المكان صياحًا وتباهيًا بفتوّته منذ ساعة!

كان «خالد» يراقب كلّ شيء بحذر وهو يقبع في سكون، حلّ الرّضيعَ من رباطه الّذي كان يربطه به على صدره ووضعه أمامه، كان في حاجة لإراحة عضلات ذراعيه وقدميه، فقد كان مُرهقًا ومُتعبًا، كادا يهبطان من فوق التلّة ليبحثا عن دار «النَّطَاسِيّ» عندما قفز رجل أصلع من فوق الشّجرة، كان له حاجبان أسودان مُتّصلان، وعينان ضيّقتان كثقبين في

جمجمته وضع قدمه على صدر الرّضيع الّذي كان لا يزال على الأرض وقال حانقًا:

- اختر بينهما يا «وِجدان»، ميراثك.. أو ولدك.

هدر «وِجْدان» قائلًا:

- سأقتلك يا «عنبسة» وأنت تعرف هذا.

- جرّب أن تفعل! وسأقتل ولدك كما قتلت أخي!

- تعلم أنني زاهد في هذا الميراث.

- هاته إذًا!

علا بُكاء الرّضيع، وبدأ «خالد» يتحدّث معه وهو يقترب بحذرٍ ويتوسّل إليه ليرفع قدمه عن صدر الرّضيع ويرحمه، قال «وِجْدان» وهو يغمغم غاضبًا:

- ارفع قدمك عنه، وخُذ ما تُريده.

تلجلج الرّجل وامتقع وجهه! فقد كان يعرف من هو «وِجْدان»، قال بتلعثم من فرط الانفعال:

- هات يدك وامنــحني الميراث قبل أن أرفعها.

- ها هي يدي يا «عنبسة»، خُذ ميراث «خَنْدَريس» واهنأ به.

بخطوات ثابتة تقدّم «وِجْدان» نــحو «عنبسة» ومدّ يده تجاهه، وقبض على ذراعه ورفعه من فوق ابنه وكأنّه يرفع خرقة هزيلة، فأسرع «خالد» يحمله، قنص «وِجْدان» على عنق «عنبسة» بيده الأخرى، لكنّ الخبيث طعنه طعنة نافذة اخترقت قلبه بخنجره المزدوج النّصل وكاد يفرّ لولا أنّ «وجدانَ» لم يترك رقبته وعصرها بيديه فصدر عنها صوتُ طقطقةٍ ومات في الحال فتركه ليسقط على الأرض، كان «عنبسة» قد تعرّف عليه عندما لمحه من بعيد فأخذ يُراقبه، وأنصت لحواراته مع

«خالد» وهو يقبع فوق الشّجرة في سكون حيث أتى لمُشاهدة القتال اليومي بوادي الموت، وأدرك أنّ الرّضيع هو ابن «وِجْدان»، بدأت الدّماء تتدفّق من جرح «وِجْدَان»، تسارعت أنفاسه وقصرت، وكان «خالد» قد أعاد ربط الرّضيع على صدره، فأشار «وِجْدان» لـ «خالد» فاقترب منه، وقال بصوت يرتعش:

- هات يدك، واقبض عليها بقوّة.

فعل «خالد»، وقبض على يده بقوّة، فرفع «وِجدان» ذراعه وذراع «خالد» وضمّ القبضتين لصدره وقال وهو يختلج:

- هذا مِيراثي، احْمِ ولدي، وليَمُتِ الْمِيراثُ معك.

ارتجّ الأمر على «خالد»، لكنَّ نظراتِ «وِجدانَ» كانت كافيةً لإخراس أيّ صوت لأيّ فكرة أخرى تدور برأسه، شدّد كلاهما قبضته، وشعر «خالد» بتيار صاعق يسري في جسده، حتّى أنّه أحسّ وكأنّ عينيه ستخرجان من محجريهما، انتفضت عضلات ذراعيه، واختلجت ساقاه، وخفق قلبه خفقًا شديدًا، وتدفّقت الدّماء لرأسه، وانتهى الأمر عندما نكّس «وِجدان» رأسه على صدره وقال بخفوت:

- ادفنّي بجوار «رَهَف».

كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يُردد اسم زوجته أمام «خالد»، أسلم «وِجدان» أنفاسه الأخيرة بين يدي «خالد» الّذي كان أنف الرّضيع اليتيم يداعب عنقه بأنفاس واهنة لطيفة كلُطف قَسَمات وجهه، سالت الدّموع من عيني «خالد» وهو يتأمّل وجه «وِجدان»، وضع يده على ظهر الرّضيع الّذي كان حجمه بالكاد يفوق حجمها بقدر ضئيل جدًا، ونظر لفمه الورديّ الرقيق وهمس بصوت تخنقه الدّموع:

- يا مسكين! مات والداك في أوّل ساعات حياتك!

ظلّ «خالد» قابعًا في مكانه تحت الشّجرة بين الجثّتين، وتفقّد أنفاس «وِجدان» أكثر من مرّة، حتّى أنّه شقّ قميصه الغارق بالدّماء وألصق أذنه بصدره ليتفحّص صوت دقّات قلبه، لكنّه لم يعثر على نبضة واحدة، ولم يشعر بأنفاسه على كفّه الّتي كان يضعها أمام أنفه مرّات ومرّات، ولم يستجب «وِجْدان» لهزّاته وضرباته على صدره، كان لديه أملٌ أنّ معجزةً ما ستحدث، وسيفيق «وِجْدان» ويُخبره أنّه لم يمت. وكذلك فعل مع القاتل مُرتابًا منه، فلعلّه لا يزال على قيد الحياة وقد يفيق فيقتله، مرّت ساعات الليل ثقيلة عليه، والرّضيع يستيقظ من آن لآخر ويصرخ صرختين فيُسرع «خالد» بإسكاته بعصرة من حبّات العنب الّتي بدأت تذبل في جيب بنطاله، قرر أن يبدأ الحفر قبل أن يداهمه الفجر، فعاد وجلب أدوات الحفر، ونقل الجثّتين للمقبرة وكانت قريبة، وحلّ الوشاح الّذي كان يربط الصّغيرَ به على صدره، ووضعه بجوار أبيه، لم يجد مكانًا آمنا إلّا هذا المكان، حضن أبيه!

*****

قبل ساعة من مقتل «وِجْدان»...

دلفت «بنات وَردَان» على أُمّهن «حبّوبة» في قصرها العجيب الّذي بناه لها زوجها «وَرْدان» قبل اختفائه، كان القصر مُحاطًا بضبابٍ عجيب أبيض من جهاته الأربع، وكان «وَرْدَان» يغار على «حبّوبة» لفرط جمالها الأخّاذ فبناه لها في تلك الجزيرة، وحجبها بالضّباب حتّى لا يصل إليها أحد غيره، وكان من أبرع مردة الجنّ في البناء، حتّى أنّ عشيرة من عشائر الجنّ طلبت منه بناء ذلك السّجن الغامض الرّابض تحت أرض الجزيرة الخضراء ويُخفيه عن باقي عشائر الجنّ كما أخفى جزيرة الضّباب، فصمم بناءه لهم فبنوه تحت إرشاده، ومنذ انتهائهم من بنائه لم يعُد مرّة أُخرى، فانطلقت «حبّوبة» تبحث عنه في أرجاء الجُزر كلّها،

فوق الأرض، وتحت الأرض، ولم تعثر له على أثر، علمت بـ«خَنْدَريس» ولعناته، فخشيت على نفسها وبناتها منه، فعادت لجزيرة الضّباب، ولاذت بقصرها وأقامت فيه مع بناتها الثّلاث لسنوات طويلة، لا يعرف عنهنّ أحد شيئًا، ولا يعرفن عن أحد شيئًا ، حتّى أتاهنّ «وِجدان» و«رَهف» في مركب وكانا أوّل من تمكّن من الوصول للجزيرة رغم الضّباب الّذي يكتنفها، وأقاما على الجزيرة، وصارا أنيسَيْنِ لها ولبناتها، وكانا يرويان لهنّ الكثير من الحكايات عن «سُقُطْرى» وما حدث فيها.

كانت «حبّوبة» قد استيقظت من نومها للتوّ، وأخذت تُنادي على أكبر بناتها «ريحانة»، والّتي كانت مع شقيقتيها أمام «فرح» عندما سمعنها تُنادي، فأتين في الحال، قالت «ريحانة»:

- هأنذا يا أُمي.
- أين شقيقتيك المتحذلقتين يا سعفة النّخلة؟

برزت الأختان ووقفن ثلاثتهنّ أمام أُمّهن في تخبّط، فقالت وهي تنقل عينيها بين وجوههن:

- ما بكِ يا «مرجانة»، من أين أتيت بتلك الحُمرة الشّديدة على خدّيك؟
- لا شيء يا أُمّي، أنا بخير.

ثُمّ التفتت نحو «كُركُمانة» ونهرتها قائلة:

- انطقي يا «كُركُمانة».. ما بكنّ!

كادت «كُركُمانة» تبوح بسرّهن، فأسرعت «ريحانة» وقالت:

- لا شيء! نحن بخير!
- وكأنّكن فعلتن حماقة جديدة من حماقاتكنّ! هل ضايقتنّ «وِجدان» وزوجته مرّة أُخرى بثرثراتكنّ؟
- لا.. لا.

تمددت «حبّوبة» واستطالت بكيانها الأثيريّ السّمين وهي تتثاءب فملأت الغرفة، ثُمّ هزّت رأسها فتبعثرت خصلاته الّتي غزاها الشّيب وقالت:

- سأذهب الآن لزيارة «رَهف»، فهي على وشك الولادة.

تحمّست الشّابات الثلاث، وكنّ ينتظرن ولادة ذلك الطّفل بفضول شديد، وأردن أن يذهبن معها لكنّها رفضت، واختفت من أمام أعينهن في الحال، التفتت «ريحانة» لشقيقتيها وقالت:

- لنتبعها!

كانت دماء «رَهف» لا تزال هناك، دماء غزيرة، رائحة الموت تشيع في الأجواء! وكان الكوخ مظلمًا وخاليا، أدركت «حبّوبة» أنّ صديقتها قد تعرّضت للخطر، فـ «وِجْدان» لن يرحل عن جزيرة «الضّباب» إلّا لو حدثت مُصيبة، طافت الجزيرة وهي تجمجم في هلع، وبحثت عنهما في كلّ شبر من أرض جزيرة الضّباب، ولمّا لم تعثر على أيّ أثر لهما، عادت للكوخ ووقفت أمامه كالعادة، فهنّ لا يدخلن هذا الكوخ، ولا يستطعن مهما حاولن! فبرزت بناتها الثّلاث أمامها، قالت غاضبة:

- لو لم تخرجن وأنا نائمة لرأيتنّ ما حدث.. أيّتها الحمقاوات!

ثُمّ أردفت وهي تحدّجهن بنظراتها النّارية:

- فلتذهب كلّ واحدة منكنّ لجزيرة، ولنبحث عن «وِجْدان» و«رَهف».

ذُهلت الفتيات، لم يتوقّعن أن تكون أُمّهن على علم بتسللهن دون استئذانها، قالت «ريحانة»:

- كُنّا..

قاطعتها قائلة:

- أعرف أنّكن تخرجن من آن لآخر، وتذهبن للسراديب الّتي حفرها أبوكن تحت أرض الجزيرة الخضراء، فمخططها مرسوم على حائط القصر من الدّاخل، وأعلم أنّك تحفظينه بتفاصيله يا «مرجانة». اذهبن للجزر الأخرى، وسأذهب أنا إلى «سُقُطْرى»، ولا تُظهرن أنفسكنّ لأحد، فلتكن مهمّتنا سرّية.

انطلقت الأمّ وبناتها الثّلاث باحثات عن «وِجْدان» و«رَهف» في باقي الجزر.

*****

بدأ «خالد» يحفر قبرًا آخر بجوار قبر «رَهَف»، وشعر بِبَوْنٍ واسعٍ بين همّته وقوّته عندما خرج من ماء المُحيط، وهمّته وقوّته الآن، كان الأمر سهلًا يسيرًا رغم أنّ الأرض شديدة الصّلابة، لم يدرك حينها أنّه بالفعل أصبح بقوّة عشرة رجال، ولم يفطن لهذا جيّدًا حتى في هذه اللحظة، ولم يتعرّف على ما يحمله جسده بعد، فقد كان رأسه يضج بالأفكار، انتهى من حفر القبر، وأسرع يحمل «وِجدانَ» ووضعه فيه، رَمَس[1] قبره بيديه، وغطّاه بالحجارة كما كان الحال في القبور حولهما، ولم يكتب شيئًا على القبر، كما أنّه لم يدفن ذلك القاتل البغيض بجوارهما، بل حفر له قبرًا جديدًا بعيدًا عنهما، تمّ هذا في أقلّ من ساعة! حتّى أنّه تعجّب من سرعته وقوّته، وبدأ يتحسس ذراعيه، لم يشعر بالتعب ولم يندّ جبينه بقطرة عرق واحدة، ولم تتسارع أنفاسه، فهل تلك هي القوّة الخارقة الّتي حدّثه عنها «وِجدان»! أم هناك المزيد!

صرخ الصّغير، فهرول نـــحوه وحمله وهدهده وربطه على صدره مرّة أخرى، لا بدّ أن يُسرع بالابتعاد عن المقبرة، وليبحث عن دار «النَّطَاسِيّ»،

(1) رَمَس القبر: سوّاه بالأرض.

لعلّه يُساعده، عاد للشاطئ وجرّ المركب وأخفاه تحت شجرة وارفة الظلال، وحمل متاع «وِجدان»، وسار بين المقابر، وكان يحمل ملابسه الّتي أتى بها في جِراب خاصّ بـ «وِجدان»، وضع فيه العلبة الخشبية الّتي لا يعرف حتّى الآن ما فائدتها، كان يُهرول حاملًا هذا اليتيم في حضنه، صعد تلالا، وعبر شلالًا، ولاحت له زمرة من البيوت تشبه بعضها بعضًا، كان هناك شابّان من أهل «سُقُطْرى» يتسامران قُرب نار أوقداها أمام دارهما الفسيحة، وقد علت ضحكاتهما وتردد صداها في الأجواء، فاقترب منهما، وسألهما عن دار «النَّطَاسِيّ»، فدلّاه على مكانه.

****

دار «النَّطَاسِيّ»

كان «النَّطَاسِيّ» يقطن على أطراف جزيرة «سُقُطْرى»، قُرب المعبد الوحيد المتبقّي على أرض الجزيرة منذ أن قام أبناء «خَنْدَريس» بهدم جميع المعابد هُناك، وجمع سجلّات المُعلّم النبيل المدوّنة على الألواح والأحجار وجلود الحيوانات للتخلّص منها. كان «النَّطَاسِيّ» رجلًا عالمًا، ذكيًا، صالحًا، رفيع العماد[1]، كثير الرّماد[2]، رحب الذّراع[3]، ومحبوبًا من أهل الجزيرة بمختلف روافدهم وانتماءاتهم الفكريّة والعقائديّة، ومحلّ ثقتهم واحترامهم ليس لعلمه فقط، بل لدماثة خلقه أيضًا ورفقه بالفقراء. وكان السّبب الرئيسيّ لتلك المكانة الّتي احتلّها في قلوبهم أنّه كان يُسدد ديون الفقراء قبل إعدامهم، كان يُرسل أمواله في التّجارة فتعود له أضعافًا مُضاعفة فيركض بها نـحو الدّيوان الملكيّ ليفكّ أسر

(1) رفيع العماد: أي مشهور.

(2) كثير الرّماد: أي كريم وسخيّ في إطعام ضيوفه.

(3) رحب الذّراع: أي كثير المعروف، وكلها من ألفاظ الكناية عند العرب.

المديونين، ويعود ليختبئ في داره ولا يفتح باب الدّار لهم عندما يأتون في جماعات لشُكره، فكان له أثر في كلّ بيت، وفي كلّ قلب. كان اسمه «غيث»[1]، لكنّهم ورغم كونه غيثًا لهم توقّفوا عن مناداته باسمه توقيرًا له، إلّا زوجته «سَرْوة»[2]، بقيت هي الوحيدة الّتي تناديه يا «غيث قلبي»، وكان يستعذب هذا منها، وكانت على العكس منه، قليلة الذّكاء، لا تُحسن فعل أيّ شيء إلّا طهو الطّعام الّذي يُحبّه والاهتمام به حتّى أنّها كانت تجلس ساكنة وهائمة في خيالاتها بينما هو يدرس ويقرأ. لم ير غيرها من النّساء، ولم يسكن فؤاده إلّا هي. رآها في بُستان وقدماها تدعسان العُشب المبلل في خفّة، ضلّت الطريق لبيتها بين أشجار السّنديان، عندما لاحت لها أشجار الأُقحوان فجأة من بعيد، فهرولت تجاهها لتجمع أزهار الأُقحوان الّتي تعشقها، كان في العشرين من عمره، وكانت في السّابعة عشرة من عُمرها، تحدّث إليها فأجابته بعفويّة كالأطفال، وكان كلامها حلوًا وعذبًا، وفي عينيها براءة، فأدرك حينها علّتها كما أدرك صفاء روحها. أعادها لأهلها، وتركها هناك فتعثّرت روحه على عتبة الدّار. توقّفت مقلتاها المُدهشتان على مقلتيه وهي تشكر له صنيعه معها، فعلِق فؤاده على بابهم، ولم يذق طعم النّوم ليلتها، لم ينس أبدًا النّونة المحفورة في ذقنها، ولا نبرة صوتها الحانية، لقد عشقها وفُتن بها. عاد فطلبها للزواج، فصاح والداه في غضبٍ شديد:

- أنت! أذكى شباب «سُقُطْرى»! تتزوّج من خرقاء![3].

---

(1) غيث: مطر غزير يجلب الخير.

(2) سَرْوة: السّرو هو شَجَرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّنَوْبَرِيَّاتِ، لَهُ شَكْلٌ جَمِيلٌ، دَائِمُ الخُضْرَةِ، والواحدة سَرْوة.

(3) الخَرقَاءُ فِي تَصَرُّفِهَا: الْبَلْهَاءُ، الْبَلِيدَةُ.

وكان «النَّطَاسِيّ» شريف الأرومة[1]، ذو حسب ونسب، يتمنّى أشراف الجزيرة مصاهرته. تزوّجها رغم اعتراض أهله وذويه، فجميعهم رأوها لا تليق به رغم جمالها الأخّاذ، لم تشفع عيناها البندقيّتان، ولم يشفع شعرها الذّهبي، وحتى نقاء سريرتها وطيب نفسها وحلو حديثها، فهم يرونها حمقاء، وأخبروه أنّه سيفيق بعد تلك السّكرة الّتي أخذته من فرط جمالها، وقالوا إنّها مصابة بلوثة في عقلها، فلم يلتفت ولم ير قلّة إدراكها نقصًا! وكان يُردد دائمًا:

«أُحبّها على حالها، ولو كانت على غير هذا الحال ما أحببتها!».

كان يعلم أنّها فتاة طاهرة الرّوح يستحيل تتبيل عقلها بملح أفكار خبيثة، ولمّا آذوها وكان الصّغار يسخرون منها ويُلقونها بالأحجار عندما كانت تُخبرهم بأنّها ترى «أصحاب القلانيس[2] الزّرقاء»، رحل بها من القرية وسكن على الحدود، فالناس لا يحبون هؤلاء الذين عطلت عقولهم عن الخديعة والنفاق. لم ير أصحاب القلانيس الزّرقاء مثلها قط، لكنّه كان يتبعها عندما كانت تهرول نـحو الشَّاطئ لتتحدّث إليهم، وكان يمسك بذراعيها وينظر إلى عينيها الرّائقتين ويقول:

«أعلم أنّك صادقة، على الرّغم من أنني لا أراهم».

فكانت تُعانقه وتسكن في حضنه كطفلة صغيرة حتّى تهدأ خلجات قلبها، وعندما تُخبره أنّهم انصرفوا، يعودان لبيتهما المُطلّ على الشَّاطئ معًا. انكبّ على الدّراسة، وتشريح كلّ ما تقع يده عليه من كائنات على جزيرة «سُقُطْرى»، واستطاع تفنيد أكثر من مائتي نوع من الطّيور الّتي تعيش على أرضها وتحت سمائها، وقام برسمها ورسم أعضائها

(1) الأرومة: أرومة الشّجرة هي أصلها وما يبقى منها في الأرض، وشريف الأرومة هو طيّب الأصل.

(2) القلانيس: جمع قَلَنْسُوَةُ وهي لباسٌ للرأْس مختلف الأَنواع والأَشكال.

الدّاخليّة بعد تشريحها في عدّة كُتب، وكانت زوجته تُعاونه في صناعة الأحبار، وخاصّة الحبر الأحمر الّذي كانت تجمعه من أشجار «دم الأخوين» المنتشرة بالجزيرة، وكانت تسأله دائمًا:

- هل حقًا هذا السّائل الأحمر الّذي يسيل من سيقان تلك الأشجار هو دماء لأخوين تصارعا؟

فكان يبدأ حديثه معها بشكل علميّ، وكانت تهزّ رأسها وكأنّها تفهمه، لكنّها لا تدري عن أيّ شيء يتحدّث، ولا تُحسن التفريق بين المواد القابضة، والأُخرى الحمضية، وصبغة كذا الحمراء، لكنّها كانت تبدو سعيدة وهو يُحدّثها، وعندما ينتهي من كلامه تتعانق نظراتهما في حبّ، فيستند برأسه على رأسها ويسكنان. كان بينهما ذلك الرّباط الودّي الّذي يجعل الحديث في العلم، والحديث في فنون الطّبخ سواء، ما دامت الكلمات تتناقل بينهما، فتلك كانت لغة من لغات الحبّ الّتي أجاداها معًا، أن تكتفي بجوار حبيبك حتّى وإن لم تُدرك كنه ما يسرده أمامك من كلمات، لكنّ نبرة صوته تكفيك، أن تستمتع بنظراته رغم أنّ الحديث لا يعنيك، أن يُعانق صورة وجهك بجفنيه، وأن ترفرف أهدابك اضطرابًا لقُربه منك، أن تهزّ رأسك مرارًا وتكرارًا لتُشعره بالاهتمام، ويستطرد في الشرح رغم كونه على يقين أنّك لا ترغب في معرفة تلك المعلومات، ولا تفهمها، لكنّكما عالقان في مصيدة الحبّ تدوران فيها خلف بعضكما، تبغيان التّواصل فحسب، لينتهي الحديث بسكينة، وطُمأنينة، وعناق لطيف، وقلبين لهما نفس وتيرة النّبض، ورحيق لحبٍّ غير آسن، ينهل منه الحبيبان نهلًا.

وكانت دار النَّطَاسِيّ واسعة، رحيبة، لها حديقة خلفيّة اهتمّ بزراعتها بنفسه فملأها بأشجار الأُقحوان، والزّنبق، والياسمين من أجل زوجته، حتّى السّفرجل لم ينسه فهي تُجيد طبخ ثماره حتّى أنّها تصنع منها

المربّى، وكانت تقضي فيها نهارها والطّيور تحلّق من غصن لآخر وتتنقّل من رأسها لكتفها لتؤنسها، بينما كان ينشغل هو في ساحة واسعة وخالية من الزّروع والنّباتات، يحفّها سور حجري من جهاتها الأربع، ويُفتح بابها من داخل الدّار، حيث خصّصها لتشريح الحيوانات، والطّيور، وليتمكّن من إجراء تجاربه دون أن يُزعجها، كان يُشعل الأثّافيّ[1] ويضع فوقها القدور، ويصبّ فيه عصارات، ومساحيق، وينتظر، ويُجرّب، فينتهي الأمر بروائحَ نتنةٍ وكتلٍ صلبة لا تستطيع «سَرْوَة» انتزاعها من القدور، فتسمع الفرقعة وهي في حديقتها وتتأمل خيط الدّخان الصّاعد من ساحة تجاربه وتبتسم بهدوء، لم تتضرر يومًا من فساد قدور الطّبخ، ولم يُزعجها قط استغراقه في سبر نجوم السّماء في دأب فلكيّ ليُراقب «بنات نعشٍ» و«سُهيل»[2] وباقي النّجوم، وكان يروي لها سبب تسميتهم بتلك الأسماء، وكيف أنّها قصّة تُروى عن رجل اسمه «نعش» قُتل على يد رجل اسمه «سهيل»، وكان لـ «نعش» هذا سبع بنات فحَمل أربعٌ منهن نعشه وسَار الثلاث الباقيات خلف النعش وأقسمن على السير بنعش أبيهن حتى يأخذن بثأره. وهرب سهيل إلى منطقة بعيدة، وهن واصلن السير لإدراكه لكن ذلك لم يحدث فبقين يمشين طوال حياتهن بالنعش وما أدركن قاتل أبيهن، وكان يُشير

(1) الأثافيّ جمع أُثْفِيَة: أحجار ثلاثة تُوضع عليها القدور فوق الموقد.

(2) بنات نعش: فلكيًّا هي نفسها مجموعة الدب الأكبر، لكن تسمية الدب هي تسمية مستوحاة من أساطير يونانية. أما قصة بنات نعش الأصلية فتعود إلى رجل عربي اسمه نعش قتل على يد رجل اسمه سهيل. الفكرة في التسمية أن هناك نجمًا اسمه سهيل يقع في الجنوب الشرقي من السماء أما مجموعة بنات نعش فتقع في الشمال وبالتالي وبسبب وجود ما يشبه النعش وحوله ثلاثة نجوم، مع استحالة التقائهن أبدًا بسهيل وصف العرب هذه المجموعة ببنات نعش تخليدًا لقصتهن. وذكرهن «المتنبي» قائلًا:

كأنّ بناتِ نعشٍ في دُجاها   خَرائدُ سافِراتٌ في حدادِ

لمواضع تلك النّجوم، وعلى الرّغم من كونها لا تتبيّنها كانت تهزّ رأسها وكأنّها فعلت.

لم يُنجبا، خمسة عشر عامًا مرّت على زواجهما، تناولا خلالها الكثير من العقاقير الّتي أعدّها بنفسه من الأعشاب، ولم يتغيّر شيء، ولم يتساءلا عن السبب، فهي طفلته الوحيدة الّتي يُدللها، وهو ابنها الوحيد الّذي تُحبّه. صار في الخامسة والثلاثين، وها هو ذا يزداد علمًا، وشهرة، ووقارًا والجميع يُجلّونه ويحترمونه، أمّا هي؛ فهو دُنياها الوحيدة.

*****

كانت «حَبّوبة» قد وصلت عندما كان «وِجْدان» يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي «خالد»، وسمعته وهو يُوصيه على ابنه، فوقفت تُراقب «خالدًا» وهو يجلس حزينًا، ثُمّ وهو يتفحّص أنفاسه من حين لآخر، وظلّت تُراقبه حتّى انتهى من دفنه، ظهرت عفريتة من الجنّ على رأسها تاج من المرمر، وكانت تتبع «خالدًا» ورأتها «حبّوبة»، رفعت حجرًا عظيمًا فوقه وكاد يهوي فوق رأسه ليدكّه دكًا، فانطلقت «حَبّوبة» والتقطت الحجر وأطاحت به، ولم يشعر «خالد» بما حدث، وتصدّت «حبّوبة» لتلك العفريتة، وطاردتها حتّى أخرجتها من الجزيرة، وكانت لا تعرف هويّتها، ومن أيّ عشيرة هي، وما سبب رغبتها في قتل «خالد»! عادت «حبّوبة» وقررت أن تتبعه حتّى يصل لدار «النَّطَاسِيّ».

******

كان «النَّطَاسِيّ» يستعدّ للنوم عندما هرولت «سَرْوة» نـحوه وقالت وهي ترتجف:

- ضيف سيطرق بابنا بعد قليل، قلبه قلب الطّير المُهاجر، يتلهّف الحبّ والأمان!

- من أخبرك؟

- أصحاب القلانيس الزّرقاء!

- ومن يكون؟

- غريب عن جزيرتنا، لكنّه سليم الطويّة، ويحمل لنا هديّة!

طرق «خالد» بابهم في نفس اللحظة الّتي أنهت فيها كلماتها، فأسرع «النَّطَاسِيّ» وفتح باب داره، كان «خالد» مُتعب النّفس والرّوح، وقد حوّقت[1] عينيه هالات سوداء، وكان مشتت الذّهن، يرغب في الانهيار والسقوط لكنّه في موقف لا يسمح له بهذا، كان عقله لا يعمل وكان في حاجة شديدة للنوم، فليس الأمر تعبًا جسمانيًا، ولم يشعر بالهوان والضّعف قط، لكنّها تلك النّفس الّتي عانت مفاجأة تلو الأخرى، حتّى أنّه اضطر لدفن جثّتين والفرار برضيع ظلّ يقطر عصارة العنب في فمه طوال الليل، قد نكون في أعظم حالاتنا أمام الآخرين، ولكن أرواحنا من الدّاخل مُتعبة.

نظر إلى عيني «النَّطَاسِيّ» وقال بصوت مُتحشرج:

- أتيت برسالة من «وِجْدان».

انتفض النَّطَاسِيّ وزوجته عندما سمعا اسم «وِجْدان»، وأدخلاه في الحال وأغلقا الباب بلطف، فجلس بينهما وروى لهما ما حدث لـ «وِجدان» و«رَهَف»، فحطّ الهمّ على قلب «النَّطَاسِيّ»، وهرعت «سَرْوة» والتقطت الرّضيع من بين يديه، وأخذت تتشمّمه وتلثم بشرته الملساء الورديّة في حنان، وسالت دموعها في وقار بعد أن شعثها الحزن والأسى على صديقتها الّتي ماتت منذ ساعات قليلة، كان «خالد» يشعر وكأنّها انتزعت منه قطعة من قلبه، أو شيئًا يخصّه، وكان لا يزال حزينًا

---

(1) حوّقت: أحاطت، والحَوق هو الإطار المُحيط بالشّيء المُستدير.

على أبيه، لم يرفع عينيه عن وجه الصّغير، كاد يمد يديه ليستردّه منها، فلاحظ «النَّطَاسِيّ» قلقه فقال له:

- يبدو أنّك تعلّقت به.

- أشعر بالمسئولية تجاهه، وأخشى عليه.

- لا تخف، فهو في يدٍ أمينة، «سَرْوة» ستعتني به جيّدًا، وسيكون ولدي من اللحظة.

- كان أبوه يثق بكما.

- ويبدو أنّه وثق بك أيضًا.

بدأ الصّغير يبكي، فقالت «سَروة»:

- المسكين.. لا بدّ أنّه جائع!

قال «خالد» بإشفاق:

- كنت أعصر حبّات العنب في فمه.

رنت إليه «سَروة» وهي تهزّ رأسها بثقة:

- يبدو أنّ السّكر في عصير العنب قد عَرَك بطنه، سأهتمّ به.

وانزوت في غرفتها وانشغلت بالهديّة الّتي حملها «خالد» إليها، كان لديها تَحنانٌ[1] شديد للأمومة، وها هي رحمات الله أتتها كالمطر الهَتون تلطّف عليها.

لاحظ «النَّطَاسِيّ» الكدمات على وجه «خالد» فسأله عنها، فأخبره عن بداية لقائه بـ «وِجْدان» وكيف كانت عنيفة وصادمة، حيث كاد يقتله، ثُمّ كيف صار بعد ذلك رفيقه لساعة لن ينساها أبدًا ولن ينسى

(1) التَّحْنان: الحنينُ الشديدُ.

حواره معه بالمركب، ولا وصيّته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه، هزّ «النَّطَاسِيّ» رأسه في أسى وقال لــ «خالد»:

- يا مسكين! أنت تحمل ميراثًا ثقيلًا، لا أظنّك تُدرك مدى خطورته، ولم يمنــحه «وِجْدان» لك إلّا لثقته بك، فقد كان شديد الفراسة، حتّى أنّه لم يخطئ يومًا في الحكم على الآخرين.

صمت «خالد» هُنيهة، تذكّر كيف توقّف «وجدان» للحظة وهو يتأمّله عندما انتزع ابنه من بين يديه، وكيف أعاده إليه ودثّره بشال زوجته، وتركه ليحمله، قام «النَّطَاسِيّ» وأحضر دهانًا وبدأ يعالج جروح وجه «خالد» وقال له:

- ستأكل وستنام لترتاح، وعندما تستيقظ سيكون لنا حديث طويل.

كان هذا بالفعل ما يحتاجه «خالد»، تناول فطيرتين وشرب من منقوع السّفرجل الّذي أعدّته له «سَرْوة»، وصحبه «النَّطَاسِيّ» لغرفة بالطّابق العلوي لينام، كان «وِجْدان» الصّغير نفحة من نفحات الله لهذين الحبيبين الصّابرين، جلسا يتفحصانه في صمت لطيف، ويدققان النّظر في أصابع يديه وقدميه المُنمنمة، ويلمسان جلده الرّقيق بأطراف أصابعهما، ويبتسمان في عفويّة، شردت «سَرْوة» للحظات، ثُمّ التفتت لزوجها وهمست:

- خطبٌ جليلٌ يقترب!

أدرك «النَّطَاسِيّ» حينها أنّ «أصحاب القلانيس الزّرقاء» قد أخبروها بهذا، كانت تقول له إنّهم أطفال الجنّ من تلك العشيرة، وكان يهزّ رأسه دون تعليق.

عادا لمُراقبة الرّضيع، أحاط كتفيها بذراعه وطمأنها، كان جلد «وِجْدان» الصّغير شفّافًا رقيقًا، تتخايل من خلفه عروقه الدّقيقة، وكانت

رائحة أنفاسه حلوة، بقيا على حالهما يُراقبانه، وران عليهما صمتٌ حلوٌ لطيف. كانت دارهما كالمملكة، وقلبه فيها كجزيرة رحبة جميلة، وكانت هي الملكة المتوجة على عرش قلبه، وأمّا هو فملكها، وجيشها، وحارسها، وحاميها، وحبيبها، وسلطان فؤادها.

*****

كان «حمزة» مستلقيًا على ظهره بجوار المدفأة على الأرض، بعد أن صنع لنفسه فراشًا من الوسائد الّتي جمعها من غُرف هذا البيت العجيب ونفضها من الغُبار والأتربة في الحديقة قدر استطاعته، كان يحدق إلى سقف الغرفة، وخيالات أثاث الغُرفة تتراقص على الجُدران مع تراقص ضوء لهب المدفأة، راوده شعور غريب بوجود أخيه «خالد»، وكأنّه بجواره، ويسمع صوت أنفاسه، حتّى أنّه أجفل عندما سمع صوت سُعاله الّذي لا يُخطئ فيه أبدًا فانتفض واعتدل جالسًا وتلفّت باحثًا عنه، وكان «أبادول» يحدق إلى لهب المدفأة عندما رآه يتلفّت فسأله:

- ما بك؟

- سمعت سُعال «خالد»، أشعر... أنّه هنا!

هزّ «أبادول» رأسه وكانت عيناه تسبحان في غموض، تمتم وهو يُغمض عينيه مُتظاهرًا بالنّوم:

- سيُنقذهم الله كما يفعل في كلّ مرّة.

حدّق «حمزة» إلى وجه «أبادول»، وأطال النّظر إليه وهو يتفحّص قسمات وجهه، وأخذ يتساءل في نفسه: «كيف تحمّل «أبادول» لسنوات طويلة كلّ هذه الأحداث وحده؟ وكيف كان يقضي وقته وحيدًا ببيته بعد وفاة زوجته؟

لم يفتح «أبادول» عينيه وظلّ يتظاهر بالنّوم حتّى عاد «حمزة» لنومه واستدار بوجهه نـحو المدفأة، حينها فتح «أبادول» عينيه مرّة أُخرى، وجلس مهمومًا، وعلى وجهه تقطيبة تنمّ عن الهمّ الشديد، والأفكار تدور في رأسه كطواحين الهواء.

*****

كان «خالد» يتقلّب في فراشه فريسة الأرق، وكان أرقًا لا هدنة فيه، داهمته نوبة سُعال خفيف، تناهى إلى مسامعه صوت طقطقة، فانتبه واعتدل في فراشه، كان الصّوت يصدر من تلك الحقيبة الجلديّة الّتي أخذها من مركب «وِجدان» ليحمل فيها متاعه، أمسكها وأفرغ محتوياتها على الأرض، كان يعلم أنّها العُلبة، جلس يتفحّصها على ضوء مصباح زيتيّ كان يضيء الغرفة بضوء شحيح وشاحب، أصدرت العُلبة خشخشات تُشبه صوت الكتابة على الورق، فتحها بحرص شديد، فوجد ورقة البرديّ الصغيرة العتيقة مرّة أخرى، فحملها في وجل وقرأ ما دُوّن عليها:

«سيأتي يوم وستُدركون أنني هنا، ستسمعون صدى صوتي، سيزعجكم بُكائي ونـحيبي، أنفاسي المُتسارعة ستزعجكم، سأبعثر بعضًا منّي في كلّ مكان لعلّكم تلتفتون، فقد مللت من الاختباء في هذا القُمقُم!»

همس «خالد» في هلع:

- قُمقُم!

ثُمّ شعر بقشعريرة تجتاح جسده، داهمه الخوف من أن تتكرر مأساة أخيه «حمزة» مع «رَيْهقانة»[1]، أو ربّما هي نفسها، يا إلهي!

جفّ حلقه، وتَخشّب لسانه في فمه، وتواثبت دقّات قلبه، ماذا سيفعل؟ أخذ يتنفّس بعمق، وذكّر نفسه بأنّها ماتت، نعم.. ماتت، فهو

---

(1) رَيْهُقانة من شخصيّات رواية كُويكُول وهي جنّية من ساحرات ماذريون.

على يقينٍ من أنّ فجوة الموت التقمتها، وتلك فجوة تلتهم ما يُلقى فيها للأبد. أغلق العلبة وجلس يجمجم في حيرة، وفتحها مرّة أُخرى فلم يجد الرّسالة، فشعر بتنميل في ساقيه، ظلّ يُغلقها ويَفتحها، ويَهُزّها مرّات ومرّات، ثُمّ أغلقها أخيرًا ووضع يده فوقها وأغمض عينيه، وأخذ يدعو الله ألّا تكون «رَيْهُقانة».

طقطقت العُلبة مرّة أخرى، وكأنّها تُعلن عن وصول رسالة أخرى! فتحها فوجد نفس ورقة البرديّ، مُحي ما كان عليها من كتابات سابقة، وظهرت كتابات جديدة! قرأ الكلام المُدوّن عليها:

«نبتت لي منذ ذلك اليوم البائس أجنــحة شفافة، أُحلّق بها كلّ ليلة، وأقطع المسافات الطّويلة بلا كلل، رأيتُ كلّ شيء، وسمعت كلّ شيء، ولن أنسى ما فعلتموه من وراء ظهري، لن أُسامحكم أبدًا!»

تغضّن فمه وارتعش خدّه، أخذ يُحدّث نفسه:

- هي «رَيْهُقانة»، لا ريب أنّها هي، تقول منذ ذلك اليوم، وهي تقصد يوم ألقتها «شفق» في فجوة الموت، وتقول إنّها رأت كلّ شيء، ولم تنس ما فعلناه بها، إنّها الملعونة «رَيْهُقانة»!

أطلقت تلك الرّسالة إعصارًا مدوّخًا في عقله، وبقيت عيناه مفتوحتين على وسعهما، أخذ يحملق في العلبة، وينتظر وصول رسالة جديدة، لكنّ الرّسائل توقّفت، ظنّ أن السّبب أنّه لم يُعِد ورقة البرديّ للدّاخل، فأعادها وأغلق العُلبة، وانتظر.. وصلت رسالة جديدة، فقرأها وعندما انتهى منها طالع وجهه في المرآة، لكنّه ألقى العُلبة من يده فجأة، وتراجع للخلف، فقد ظهر له وجه أُنثويّ!

عاد يحمل العُلبة بأنامل مُرتعشة، ونظر للمرآة مرّة أُخرى، كانت هناك فتاة، وكانت تُحدّق تمامًا مثله إلى المرآة، بيد أنّها لا تراه، ولكنّها

ترى وجهها أمامها كأيّ فتاة تنظر في مرآتها، بدأت الطُّمأنينة تتسرّب لأوصاله عندما رأى ملابسها، وأدرك أنّها من عالمه.

كانت الإضاءة في غُرفتها قويّة بالقدر الكافي ليتبيّن ملامحها، كانت رقيقة الملامح لها وجه أبيض تتمشّى فيه حُمرة خفيفة، وأنف دقيق يكسوه النّمش، بدأت تحدق إلى المرآة وعيناها اللوزيتان تتذبذبان في قلق، ظنّ أنّها رأته! وانتظر أن تقول شيئًا، لكنّها زمّت شفتيها وأغلقت العُلبة فجأة، فاختفت صورتها، وعادت صورة وجهه، وكان وجهه متورّمًا من أثر ضّرب «وِجْدان» له، وهناك بعض الكدمات، فهمس قائلًا وهو يُقرّب المرآة من أنفه:

- تُرى هل هي تراني أيضًا؟ لكن.. هذا ليس وجهًا يُشجّع على الحديث، صرت أُشبه المجرمين.

فتحت الفتاة علبتها فعادت صورتها فأبعد المرآة عن أنفه، رآها ساكنة لهُنيهة، ثُمّ عادت تُحدّق مرّة أُخرى بجانب عينها في تشكك، ظنّ أنّها رأته! لكن للأسف اتّضح أنّها تتفحّص بشرتها، فقد أقلقها ظهورُ حبّةٍ حمراءَ في خدّها، تحسستها بحذر بطرف سبّابتها وكأنّها تتحسس قُنبلة موقوتة تخشى أن تنفجر، كان من الجليّ أنّها لا تراه، والعُلبة لا تُمثّل لها إلّا مجرّد مرآة تجميل، حاول أن ينقر على المرآة، طرقها بأصابعه، ثُمّ أصدر أصواتًا وألقى السّلام، لكنّ محاولاته كُلّها باءت بالفشل، أخذ يتساءل: هل هي من المُحاربين؟ أم ماذا؟

اختفت مرّة أخرى، فجلس في ترقّب ولم يحدث شيء، ملّ من الجلوس والانتظار، والدّار يكتنفها صمتٌ كثيف زاده مللًا وضجرًا، كان مُتعبًا للغاية، أطفأ قناديل عقله، وعندما انتصر النّوم على القلق، دسّ العلبة في الحقيبة مرّة أخرى، واستسلم للنوم.

*****

الجزيرة الثّالثة
جزيرة المشّائين

«سُليمان»

كان «سليمان» أكثر ثباتًا وحماسًا من «فرح»، فقد تقبّل كونه قد انتقل إلى رحاب عالم غريب من عوالم مملكة البلاغة كما حدث من قبل، حتّى كونه وحيدًا في تلك اللحظة تقبله، فقد كان على يقين أنّ خاله «أنس» سيظهر قريبًا هو أو «خالد» من بين أشجار الغابة الّتي يقف على أرضها الآن، سأل نفسه هامسًا «هل أنا مُحاربٌ أم مُستكشف؟»، غرق في حيرته بينما كان يقبض على البوق النــحاسيّ العجيب الّذي قذفه الصندوق تجاهه، أخذ يقلّبه بين يديه، تأمّل النّقوش عليه ولم يفهم مدلولها! برز على قمّة البوق جناحان منقوشان بينهما حفرٌ عميقٌ لهدبة تُشبه لهب الشّعلة، علّقه في رقبته بالحبل الجلديّ الطويل الّذي كان معقودًا بحلقته، كان المكان مُقفرًا صامتًا، مرّت الدّقائق الأولى وهو يَسْبُرُ[1] الأفق بعينيه النّابهتين، كان يقف متأهّبًا في مكانه كالدَيْدَبان[2]

(1) يَسْبُر: يختبر ويقيس بعينيه ليتعرّف على المكان حوله.

(2) الدّيْدَبان: الطّليعة والرّقيب والحارس.

اليقظ، قرر أن يسير لعلّه يلتقي بخاله «أنس» أو بـ«خالد» أو حتّى بـ«فرح».

ملّ من السكون المطبق الّذي أحاط به، بدأ القلق يدغدغ صدره..

- لماذا لا أنفخ في هذا البوق؟

تساءل وهو يسير بحذر وأوراق الأشجار الجّافة تُطقطق تحت حذائه، رفع البوق لفمه ونفخ فيه نفخة واهنةً فاترة بلا حماس، أصاخ السّمع فلم يسمع لبوقه أيّ صوت، أعاد النفخ بقوّة أكبر فلم يصدر عن البوق صوتٌ مسموعٌ، فأزاحه عن فمه ليُفاجأ بهبوب رياح قويّة لها صوتُ صفيرٍ مخيفٍ أخذت تتلاعب بأغصان الأشجار وتبعثرت بعض زهورها بكثافة وتساقطت على الأرض، رفع رأسه فإذا بأجنــحة الطّيور تظلل السماء فوقه، فَغرَ فاه من فرط الاندهاش! ما أبدعه من منظر خلّاب! فتّش عن الصّقور بعينيه، «الرّمادي» ليس هناك، وكذلك «قطرة الدّمع» الّتي يعرفها، حطّت الطّيور الغريبة على الأشجار حوله وفي كلّ مكان بألوانها وأشكالها المتعددة والمتداخلة، هذا أخضر منقاره قصير، وهذا أصهب ورأسه أبيض، وذاك عوسجيّ ذيله طويل، وذاك قشديّ مُرقّط، وهؤلاء مبرقشون، والآخرون مرقّشون، حسنًا؛ هذا البوق يجلب الطيور، وإن لم يُسمع له صوتٌ ظاهر يطرق الأذن البشريّة، ماذا بعد؟

فجأة! لاحظ «سُليمان» انزعاج الطّيور، واهتزاز أغصان الأشجار بشدّة، ودوران أوراق الأشجار الجّافة السّاقطة على الأرض في دوّامات، رأى طيفًا يموج في الهواء حتّى أنّه بدأ يفرك عينيه في توتّر، تسارعت دقّات قلبه، وصرخ في فزع!

كانت هُناك عفريتة من الجنّ تُطارد «سُليمان»، أجفل عندما سمع صوتها الّذي كاد ينتزع قلبه من بين أضلعه، تعملق كيانها وهو يموج في الهواء، شهق «سُليمان» وانطلق يركض بأقصى سُرعته، أخذ يُنادي

بعفويّة على خاله «أنس»، وعلى «خالد»، وعلى الرّغم من علمه بغيابهما ظلّ يصرخ دون جدوى، تعثّر وسقط على الأرض، لمع البوق على صدره، فأخذ يتساءل عن سبب لمعانه، فالتقمه ونفخ فيه نفخة قويّة مرّة أُخرى، فأقبلت الطّيور من كلّ حدب وصوب وأحاطته وتكاثفت حوله وحجبت العفريتة عن الوصول إليه.

في تلك اللحظة وصلت «ريحانة» الّتي كانت تطوف بالجزيرة كعادتها فهي تميل للتجوال في الغابات الخضراء، رأت ما حدث، فأسرعت نـحو العفريتة، أخذت تدور حولها من كلّ الجهات، فصنعت بدورانها عاصفة خضراء تطايرت معها أوراق الأشجار في مدار حلزونيّ لأعلى، بدأت تلك العاصفة الّتي صنعتها تشتدّ حتّى أنّها رفعت تلك العفريتة في الهواء، كادت تُسقط تاج المرمر الّذي يضوي فوق رأسها، ثُمّ توقّفت فجأة وأطاحت بها بعيدًا، كان «سُليمان» حينها يركض نـحو بقعة أخرى، لا يلتفت خلفه، والطّيور تحوطه وتبسط أجنـحتها في نفس الاتجاه، عندما دلف إلى تلك البُقعة الّتي خلت أرضها من الأعشاب، لم تتمكّن «ريحانة» من دخولها، فقد مُنعت على الحدود! فنظرت إليه من بعيد وأومأت برأسها، فلم يجرؤ على رد الإيماءة أو حتّى تحريك يده من مكانها، ظلّت على حالها لفترة، ثُمّ اختفت من أمامه، مُخلّفة وراءها غُبارًا ملوّنًا، فجلس يلتقط أنفاسه، وكان محزونًا.

قام واستمرّ في سيره يتلفّت هنا وهناك، والطيور تُراقبه، لا أثر لحيوان واحد، تلك الطيور فقط! ما زالت أشعة الشّمس النـحاسية تغمر المكان، الجبال تلوح من الجهة الشّرقية وترسل تجاهه لفحات باردة تحملها الرّياح من آن لآخر، خفّت الخُضرة وبدأت الأرض تتصحّر تحت قدميه شيئًا فشيئًا، شجرة تفّاح عظيمة كانت تقف كالمارد قبالته، العشب الأخضر يحيط جذعها بشكل دائريّ وكأنّها اقتُطعت

من بقعة أخرى أو هاجرت من بُستان آخرَ زحفًا بجذورها لهنا! شُلَّتْ قدماه عندما رأى ثمار التّفاح تغادر الشجرة على مقربة منه وتطير في الهواء، وكأنّ هُناك من يُحرّكها ويحملها! تبعها بعينيه وقلبه يخفق من شدّة الخوف، لا بدّ أنّها ألاعيب الجنّ، تُرى هل هم «المجاهيم»؟ أم «الدّواسر»؟ أم «ساحرات ماذريون»، أم «أبناء سَرمد»؟ أم عشيرة أخرى لا يعرفها! رأى الثّمار بأمّ عينه وهي تتجه نـحو بئر معتمة لها فوهة عظيمة واسعة حافّتها ملساء، توقفت التّفّاحة فوقها تمامًا ثُمّ سقطت فيها، ثمرة تلو أخرى، فاحت من البئر رائحة الصّدأ والكِبريت، اقترب بخطوات مترددة، انبثقت من فوهة البئر حفنة من الخفافيش أصابته بالهلع حتّى أنّ ساقيه ارتجفتا وشهق شهقة عالية وبات يسمع صوت اصطكاك أسنانه ببعضها، غادره الحماس والفضول وحلّ الخوف والهلع مكانهما، تسارعت أنفاسه عندما شعر بأنّ هناك صوتًا يتردد في رأسه ويُحدّثه، بل ويدفعه دفعًا للاقتراب من فوهة البئر المُعتمة، كانت البئر مُطرمسة[1] شديدة الحلكة لا يُرى قعرها، وقف وأحنى رأسه مُرغمًا وشعر وكأنّه دمية من دُمى «الماريونيت»[2] وهُناك من يتحكّم بها.

كانت أشعة الشّمس تتعامد على البئر تمامًا في تلك اللحظة، حين أحنى رأسه ليرى ما انخلع له قلبه، أراد أن يصرخ ويركض مبتعدًا، لكنّ الصوت الّذي كان يتلجلج في رأسه ظلَّ مستمرًّا ولا يتوقّف عن الحديث إليه، يأمره بالاقتراب، والنظر، وفتح عينيه على وسعهما، رأى نصف جسد هزيل لرجلٍ مُسنٍ هرم، وجهه مُعكّر وجلده مُعتم كان ملقى هُناك في قعر البئر، يبدو جليًا أنّه قد كان قَزَمًا، لكنّه الآن مبتور الساقين

(1) مُطرمسة: شديدة الظّلمة.

(2) الماريونيت هي الدمى المتحركة، وهي عبارة عن مجسمات اصطناعية يتحكم في حركاتها شخص، إما بيده أو بخيوط أو أسلاك أو عصيان.

والذّراعين، ملفوف بأسمال بالية ومتهتّكة، وقد غطّت وجهه القاذورات. عيناه مدفونتان بين طيّات الجلد المتيبس كانتا تتحرّكان وتتأملانه في تحفّز، ثُمّ في رجاء، لاح بصيص مكر بينهما! أراد «سُليمان» أن يتراجع، أن يفرّ أو يبكى، لكنّه لم يفعل أيًّا من هذا، واستجاب للصوت الّذي يتحكّم برأسه، كان الصوت لهذا الرّجل الهَرِم الّذي كان يُخاطره من قعر البئر، هكذا قال له عندما بدأ يحدّثه بلسانه الجافّ الّذي كان يَتوق لشربة ماء لم يذقها منذ أمدٍ طويل!

- إنّه أنا وهذا صوتي الّذي يتلجلج في رأسك.. هل أنت وحدك؟

تردد «سُليمان» قبل أن يُجيبه:

- خالي يتبعني.

- ابحث عن حبل لترفعني من البئر.

- كيف سأرفعك وحدي وليس معي من يُعينني؟

- لستُ ثقيلًا كما تظنّ، أنا حفنة من العظام المنقوصة، نصف هيكل عظميّ لقَزَمٍ يا فتى.

صمت «سُليمان» هنيهة ثُمّ سأله:

- من ألقاك هُنا؟

- الّذين يعرفون كلّ شيء!

- ومن هم؟

- ذلك أمرٌ شرحه يطول، ساعدني أوّلًا.

- كيف تسير إليك ثمار التفّاح؟

- لا أدري من يقذفها.. لعلّه من الجن!

أجفل «سُليمان» وكاد يتراجع، لكنّ الرّجل عاد للتخاطر معه، فشعر «سُليمان» برأسه وكأنّها جمجمة من جليد، الصّقيع ينخر دماغه نخرًا، ثُمّ راودته صعقة قويّة، فاقترب مرّة أخرى من حافّة البئر ونظر إليه، فرفع الرّجل صوته قائلًا:

- اسمي «طَرْخُون»[1] وأنا سجين هنا منذ سنوات، أعيش على الثّمار الّتي تُلقى إليّ، فهُناك نفرٌ من الجنّ يأتونني باللحم والخبز والماء، لم يُحدّثوني قطّ، ولم أسمع لهم صوتًا، يُطعمونني، ثُمّ يرحلون، حتّى أنّهم عالجوا جراح أطرافي الأربعة، وأحيانًا يأتيني هذا التُفّاح!

أمسك «سُليمان» برأسه وقال:

- كيف لم تستدرجهم مثلما تفعل معي الآن؟

- لا أملك التّأثير على الجنّ.

- والخفافيش!

- لا تقربني، ولا يقترب من البئر أحد من العطّارين لعلمهم أنني أُلقيتُ هُنا، صرت ملعونًا ومنبوذًا، أخرجني من هنا أرجوك.

لم يكن هناك مجال للخيار أمام «سُليمان»، فقد كان «طَرْخُون» يتحكّم فيه عن طريق التخاطر، حُبست مخاوفه، حتّى صراخه ما عاد مُتاحًا، وغير مسموح له بالبكاء الآن، كان هذا قاسيًا للغاية، حتّى أنّ أضلاعه كانت ترجف تحت جلده، فأخذ يبحث عن شيء يرفعه به، كانت وشائج الأشجار تحتاج يدًا قوية لتنتزعها وتجدلها لتهيئها لحمل «طَرْخُون» من البئر، وكان «سُليمان» أصغر من أن يقوم بتلك المهمّة،

(1) الطَرْخُون: نبات مُعمّر يُزرع لرائحة أوراقه، وتؤكل أوراقه الخضراء مع الطَّعام ويسمى أيضًا: الحَوْذان.

فهو في الحادية عشرة من عمره، وإن كان مظهره يُوحي بأنّه أكبر من هذا لطول قامته واشتداد عوده، أصابه الحزن واليأس، لا يستطيع الفكاك من أسر هذا الرّجل، فكلّما حاول الابتعاد عن البئر كان يجذبه مرّة أخرى بصواعق الأفكار المُتلاحقة، بات يسيطر على فكره تمامًا. قال «سُليمان» بصوت مسموع مرّة أُخرى:

- «كيف سأرفعك وحدي وليس معي من يُعينني؟».

*****

تكاثف الدّخان بالبيت المهجور وبدأوا يسعلون، فتحت «حبيبة» النّوافذ كلّها مرّة أخرى بعد أن كانت قد أغلقتها لتُقلل من تيّارات الهواء البارد الّتي كانت تجوب البيت حتّى أنّهم كانوا يرون الأبخرة وهي تخرج من أفواههم كلّما تحدّثوا إلى بعضهم بعضًا. فقال «يُوسف» وهو يرتدي معطفه:

- لعلّ هناك خللًا في أعلى المدخنة، سأصعد فوق سقف البيت لأنزع الغطاء إن وُجد، فقد امتلأ البيت بالدّخان.

صعد «يُوسف» لينزع الغطاء، كان هناك من وضع لوحًا خشبيًا ليُغطّي فتحة المدفأة ووضع فوقها حجرًا ثقيلًا، أزاح الحجر ثُمّ اللوح الخشبيّ، وألقى نظرة سريعة، شعر لوهلة وكأنّه ينظر في بئر عميقة، حدّق في الظّلمة الّتي تحت عينيه، وإذا به يسمع صوت ابنه «سُليمان»، كان يسأل أحدهم «كيف سأرفعك وحدي وليس معي من يُعينني؟»، هوى قلبه بين أضلعه، كان يعرف صوت ابنه جيدًا، أدرك أنّه خائف ممن يُحدّثه، اعتصر قلبه وانحنى على فتحة المدخنة وأخذ يُنادي بجنون:

- «سُليمان».. «سُليمان».. أين أنت؟

لم تأتِه إجابة، مرّ بخاطره أنّ ابنه يسمعه الآن وإن لم يره بأُمّ عينه، فقوّس كفّيه حول فمه وصاح داخل المِدخنة:

- «سُليمان»، كُن رجلًا فأنت مُحارب!

دوّى صوته في المِدخنة، وسمعه من بالبيت، فوثب «حمزة» وصعد إليه في الحال، ووقفا يصيخان السّمع لعلّهما يستمعان إلى أيّ صوت آخر، سأله «حمزة»:

- ماذا كان يقول يا عمّاه؟

- كان يقول: «وكيف سأرفعك وحدي وليس معي من يُعينني؟»

طال انتظارهما، ولمّا لم يسمعه أبوه مرّة أُخرى، نزلا ليُطمئنا «حبيبة» و«مرام» فقد كانتا تنتظران نزولهما بفارغ الصّبر.

****

بينما كان «سُليمان» يقف كالفأر العالق في مصيدة لا يملك أن يبرح مكانه ولا يملك أن يطلب العون، والطّيور لا تزال تُحلّق حوله وتتكاثف في المكان، سمع صوت أبيه يتردد في الأجواء، ويُناديه ليُثبّته قائلًا:

- «سُليمان»، كُن رجلًا فأنت مُحارب!

ففغر فاه وأخذ يتلفّت باحثًا عنه في كلّ اتجاه كالمجنون، لم يتمكّن من الابتعاد، لكنّه تجاسر، وتيقّظت فيه روح المُحارب.

بدأ «طَرْخُون» يوجهه لكي يصف له المكان وشكل الوشائج، دفعه للحركة والعمل مُجبرًا ومقهورًا، فجذب «سُليمان» وشائج الأشجار، حتى تشنّجت ذراعاه وجُرحت أصابعه، لم يتوقف رغم جروحها بأمر من «طَرْخُون» الّذي كان ينخر في دماغه.

كانت «ريحانة» تُراقبه من بعيد، لم تتمكّن من اقتحام المنطقة حول تلك البئر، أشفقت عليه فبدأت تنزع الوشائج حولها وتجدلها

وترسلها إليه في الهواء وتسقطها خلفه كلّما كان يُدير ظهره حتّى لا يشعر بها، فقد أدركت أنّه يخاف منها، كانت تتساءل لماذا يصنع هذا؟ رأى «سُليمان» الوشائج وصنع منها جديلتين عظيمتين واستخدمهما كحبلين، ربط طرفيهما حول جذع شجرة التّفاح، والطرفان الآخران أسقط واحدًا في البئر، وأمّا الآخر فربطه حول خصره، وتدلّى به ليحمل «طَرْخُون» الّذي كان يبدو هزيلًا كهيكل عظميّ يسبح في قميص من الجلد المعتم، مبتور الأطراف الأربعة، جذبه ببساطة لخفّته، احتضنه مُجبرًا وهو يخافه، حمله وهو مذعور من هيئته، وربط الحبل الثّاني حول خصر «طرخون»، تسلّق أولًا وحده، ثُمّ سحب الحبل بجسد «طَرْخُون» الهزيل، وكان كلّ هذا من توجيه «طَرْخُون» له.

أراد «سُليمان» أن يرتاح، فسكن تحت شجرة التُّفاح قليلًا وأخذ يُحدّق إلى كفيه المُحتقنتين وينفخ فيهما ليُخفف الحُرقة الّتي كان يشعر بها، كان هذا ثقيلًا عليه، وعلى صغر عمره تحمّل كما يتحمّل بعض الصّغار معاناتهم في صمت، قد لا يُدركون كيفية البوح لكنّهم يصمدون..

على ضآلتنا، فقد مرّ كلّ منا بخطب جليل في طفولته، قد لا نبوح به للكبار، لكننا كُنّا حينها أقوياء، وحطّمنا قيد الخوف وحدنا. على ضآلتنا؛ قد كُنّا مُحاربين، ولكن ربّما تبقى ندبة في قلوبنا، لا نرتاح من آلامها إلّا عندما نُخبر أحدهم أننا في الماضي. على ضآلتنا.. كُنّا أقوياء!

كان «طَرْخُون» في هيئة رثّة وأسماله الدّبقة تفوح منها رائحة القذارة، وكان «سُليمان» رقيق القلب كأبيه، وَرِث رهافة القلب عن «يُوسف» الّذي نشأ أسيفًا وحيدًا حتّى داوت «حبيبة» جراح قلبه عندما التقت به، حمل «سُليمان» الرّجل الهَرم من تلقاء نفسه تجاه جدول الماء القريب، وبدأ يُنظّفه ويغسل وجهه ورأسه بالماء، حتّى أنّه فركهما بليف الأشجار على الرّغم من ألم أصابعه، غادره الخوف رويدًا رويدًا،

واستمرّ يُنظّفه، بقي شعر رأسه المجعّد الأشعث الطويل مشكلة، فخلع «سُليمان» سُترته واستعان بقميصه ومزّقه ولفّه حول شعر «طرخون» المبتلّ كالعمامة. كان «طَرْخُون» يتعجّب من فعل «سليمان»، فلم يأمره بهذا عن طريق تخاطره معه، وكانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يُحسن إليه فيها شخص آخر من تلقاء نفسه، ولم ينسها له قط، فعلى الرّغم من قُدرته على التخاطر والسّيطرة على الآخرين، وتحريك الأشياء عن بُعد، لم يتمكّن «طرخون» قط من رفع نفسه في الهواء، لو ملك هذا لخرج من تلك البئر البائسة في الحال، وكان في حاجة لشخصٍ آخر يعتني به. بسط «سليمان» سُترته الصّوفيّة ودثّر «طَرْخُون» بها بعد أن أزال الأسمال البالية عنه على استحياء ليستر عورته ويدفّئه فقد كان يرتجف، أشفق عليه وهو لا حول له ولا قوّة، رأس وجذع ضئيل فقط، تخيّل «سُليمان» للحظات كيف كان يعيش وحده في الظّلام مع تلك الخفافيش، ودّ لو سأله عن الجنّ الّذين يحملون له الطّعام لكنه تراجع.

دار حوار طويل بين «طَرْخُون» و«سُليمان»، أدرك حينها أنّه بين يدي غلام طيّب الحشيّة، سهل الانقياد لبراءته، من بقعة أخرى يتحدّث عن أمور لم يسمع عنها قطّ! ولحُسن حظّه لا يعرف شيئًا عن ماضيه وقصّته، عندما سأله «سُليمان» عن قصّته وانتظر منه الإجابة، أخبره أنّه يشعر بالدّوار، وأنّ نهايته قد اقتربت، طلب منه حمله لجزيرة «سُقُطْرى».

ربط «سليمان» «طَرْخُون» بوشائج الأشجار بعد أن لفّه في سُترته كحقيبة يحملها على ظهره، وسار به نـحو الجبال الشّرقيّة بحثًا عن الشَّاطئ الّذي تتوافد عليه مراكب العطّارين، فقد أخبره «طَرْخُون» أنّها تروح وتجيء كلّ يوم حيث يجمعون الأعشاب من هذه الجزيرة الصّغيرة القريبة من «سُقُطْرى». كان «سُليمان» رغم سكونه وطاعته له قلقًا،

كيف لرجلٍ هَرِمٍ مُسنٍ عاجزٍ أن يستمرّ على قيد الحياة في بئر كتلك، في ظروف كهذه؟ لماذا لم يُنقذه الجنّ وهم يُطعمونه؟ كذلك العطّارون وهم يأتون كلّ يوم؟ لا شكّ أنّ هُناك سرًّا يُخفيه عنه، فالأمور مبهمة وغامضة، وهو بلا حماية ولا سلاح أو عون من أحد، ولا يعرف هل سينجو من أهوال هذا الشّعب المنسيّ أم لا.

طال المسير. كانت تلك الجزيرة عامرة بالأشجار العطريّة، لهذا كانت مقصدًا للعطّارين من كلّ حدب وصوب، يأتون بالمراكب ويتجوّلون فيها لأيّام طوال لجمع الأعشاب الطّبيّة، عُشبة القديسين، وعُشبة عنب الدّب، وعُشبة شوك العاقول، وإكليل الجبل، ولسان الثّور، والبرشاوشان أو كزبرة البئر كما يسميها البعض، حتّى العشبتان المفضلتان للسحرة: ضفائر الجنّ، وشعر الغول، كانتا تنبتان هناك بكثرة، خاصّة حول البئر الّتي كان «طَرْخُون» فيها.

ما زالت الطّيور الغريبة الّتي اجتمعت عندما نفخ «سُليمان» في البوق تحلّق هنا وهناك وتتبعهم، أخبر «سُليمان» رفيقه بأمر البوق وما فعله فأخبره أنّ الكلمة المنقوشة على البوق مكتوبة بالخطّ المُسند[1] الحميريّ، وأنّها تعني «صوت الرّيح»، كانت «ريحانة» تسمع كلّ هذا، لم تُظهر نفسها لهما، لكنّها اضطرّت لتركهما فجأة.

---

(1) خط المُسند: أو الخط الحميري يسمّيه المستشرقون خط النصب التذكارية هو نظام كتابة قديم تطور في اليمن قرابة القرن (التاسع - العاشر) قبل الميلاد، وهو أحد ضروب الكتابة السامية الجنوبية. ويتألّف من 29 حرفًا ويطابق في أصواته وعدد حروفه خطّ العربية، ويزيد عليه حرفًا يسمّيه الباحثون السين الثالثة، ويُكتب المسند من اليمين إلى اليسار إلا في نقوش المرحلة المبكرة حيث يُكتب فيها بطريقة خط المحراث، فيكون اتجاه الكتابة في الأسطر الوترية من اليمين إلى اليسار وفي الأسطر الشفعيّة من اليسار إلى اليمين مما يؤدي إلى قلب اتجاه بعض الحروف ليوافق اتجاه الكتابة.

سار «سُليمان» وهو يحمل جذع «طَرْخُون» على ظهره وكأنّه حقيبة من الجلد، ليس فيها متاع، لكنّها تحوي عظام رجل شَابَ شعر رأسه وشَابت معه الذّكريات، نفسٌ عاشت وطبعتْ على أرض الجزر بصماتٍ، ولمساتٍ، وأفعالًا، وأقوالًا، ومواقفَ لم ينسها أهل «سُقُطْرى» ولا أهل الجزيرة الّتي يقف «سُليمان» عليها وهو أسير له، كان «سُليمان» يسير وهمّه الوحيد أن يعثر على خاله «أنس»، كان يجول بعينيه هنا وهناك، برز أمامه رجل غريب الهيئة، له بشرة داكنة، يبدو وكأنّه قد تمرّغ في الطّين ثُمّ جفّ الطّين على جلده فترك عليه قشرة مُشققة، مرّت لحظات قبل أن ينتبه «سليمان» لكونها حراشف تُغطّي بشرته، لاحظ البروزين الناتئين على جانبي رأسه، وكأنّهما بقايا لقرنين مقطوعين، كانت له عينان جاحظتان، وله جفنان سميكان يلوح من خلفهما غلالة رقيقة تروح وتجيء يمينًا ويسارًا كلّما رمش بعينيه، فتح فمه الواسع فبرزت أسنانه الرفيعة ولاح لسانه الطّويل المُدبب وهو يلعق شفتيه، ظنّ «سليمان» أنّه سيُصدر صيحات غريبة ثُمّ يأكله، فوقف وأوصاله ترتعش، لم يكن وحشًا، لكنّه رجل بهيئة وحش! فهذا جسد رجل، وهاتان ذراعا رجل، وساقا رجل، كما أنّه يرتدي ثيابًا أنيقة خيطت بمهارة هو وزوجته الّتي كانت تتبعه، وها هو يتحدّث إليه بصوت رجل ويسأله:

- من أيّ جزيرةٍ أتيت؟

أنزل «سليمان» «طَرْخُون» من فوق ظهره بهدوء شديد وعيناه لا تُفارقان وجه الرّجل الغريب، وقال بتلعثم:

- من.. من..

كان «سُليمان» خائفًا منه، ولم يصبر الرّجل حتّى يُكمل إجابته، قال وهو يتأمّل جذعه العاري والفضول يُطلّ من عينيه:

- حذاؤك غريب! وكذلك سروالك! أين باقي ملابسك؟

قالها الرّجل وهو يحدق إلى بنطال «سليمان» وحذائه، فقد كان القميص على رأس «طرخون»، والسّترة مربوطة حوله، وكان «طَرْخُون» مُستقرًّا على الأرض لا يظهر للرّجل، وقد انزلقت العمامة الّتي لفّها «سليمان» على رأسه وغطّت عينيه، بدأ يُحاول السّيْطرة على عقل هذا الغريب ليُخاطره، ويخترق عقله، فلم يتمكّن، فتحوّل لـ «سُليمان» الّذي كان فريسة سهلة له، كان الرّجل يعلّق خنجرًا في حزامه الّذي يتمنطق به، فاقترب «سُليمان» وهو يمدّ يده وكأنّه سيُصافحه، انتزع الخنجر من حزام الرّجل، طعنه بتحريض من «طَرْخُون» الّذي سيطر على عقله، فوقعت الطّعنة في ذراعه، فأقبلت زوجة الرّجل وكانت تُشبهه تمامًا لتمنعه، وطوّقت «سُليمان» من الخلف بذراعيها وضغطت على جذعه وذراعيه فارتخت قبضته وسقط الخنجر، صاح «سليمان»:

- لستُ أنا.. إنّه..

عاد «طَرْخُون» لأفاعيله ومنعه من إكمال كلماته، اعتُقل لسانه ولم يتحدّث، وقف الرّجل الغريب وهو يضغط على جرح ذراعه ليوقف تدفّق دمائه وعيناه شاخصتان تجاه «طَرْخُون» حيث لاحظه للتوّ عندما مال جسده وسقطت العمامة فانكشف وجهه وقال:

- «طَرْخُون»!

التفت تجاه «سُليمان» وصاح به وهو يُحدّجه بنظراته:

- هل اخترقتَ نطاق البقعة المُحرّمة؟

قال مُحذّرًا زوجته:

- لا تتركي الغلام، فهو يُسيطر على عقله، وقد يُعيد الكَرّة بتوجيه منه.

ثُمّ قال لـ «سُليمان»:

- لقد أخرجتَ لعنة من لعنات الماضي من تلك البئر المهجورة في البقعة المُحرّمة من جزيرتنا.

أضاف وهو ينقل عينيه بين وجه «طَرْخُون» ووجه «سُليمان» الثّائر الّذي كان يعافر محاولًا الخلاص من بين ذراعي المرأة وهي تطوّقه بهما:

- ارفقي بالغلام، احمليه وابتعدي حتّى يُحدّثك بشكل طبيعي، فكلّما ابتعدت به عن «طَرْخُون» زال تأثيره.

صاح «طَرْخُون» وهو يتجشّأ غضبًا وحنقًا:

- لا.. لا.

بدأ الرّجل يتعجّل زوجته:

- الغلام في خطر، ابتعدي حتّى يتحرر عقله من نطاق سيطرة عقل «طَرْخُون»، وقيّديه حتّى لا يستجيب لأوامره، وعودي به لندخل الكوخ معًا، فلو شاع الخبر سيقتلونه.

جرّت المرأة «سُليمان» مُبتعدة وهو ينتفض ويقاوم ويصرخ بين يديها، وعندما شعرت أنّه أصبح بعيدًا عن تأثير «طَرْخُون» تركته، فوقف «سُليمان» يبكي أمامها، أخيرًا استطاع أن يبكي، أن يعبّر عمّا يعتمل في صدره، كان ينظر لكفّيه وقد احتقنتا مما فعله بوشائج الأشجار ليُنقذ «طَرْخُون»، الّذي كان يرغمه على العمل بهما رغم سيلان الدّم منهما، لم يكن حرًّا، كان متعبًا وخائفًا ومقهورًا وممنوعًا من البُكاء.

قد نفعلُ أحيانًا ما لا نرغب في فِعله، حرجًا ربّما، انقيادًا لضعف منّا ربّما، أو خضوعًا لسُلطان آخرين نُبغضهم لكننا لا نملك أن نتخلّص من قيودهم، فتكون أفعالنا جلدًا لذواتنا الّتي تصرخ في كلّ لحظة؛ تمرّدًا علينا لأننا خضعنا. نظلّ نصرخ في دواخلنا بلا صوت حتّى تحترق

صدورنا من صمت حناجرنا المُطبق، وخضوعنا المهين. حتّى متى سنظلّ نصرخ من الدّاخل؟ من الدّاخل فقط!

أشفقت المرأة عليه، احتوته في حضنها، ظلّت تُهدئ من روعه وتقول:

- لا بأس عليك.. لا بأس.

ظلّ «سُليمان» يعتذر لها، كان ما مرّ به يفوق طاقته النّفسية، أن تُجبر على مواجهة ما يُخيفك، تُرغم على القفز في ظلمة تُرعبك، تُكره على احتضان الخوف، وشمّه ولمسه، وحمله بيديك، ويقشعر بدنك من شدّة الهلع ويكاد قلبك يقفز من بين ضلوعك لكنّك ممنوع من الصّراخ، ومن البكاء، وحتّى من الهروب، ومجبر على العمل لخدمته دون أن تنطق بكلمة واحدة! كان هذا أكبر من أن يحتمله غلام في الحادية عشرة من عُمره!

وصف لها ما يُعانيه قائلًا:

- أسمع صوته يتلجلج في رأسي فتغيب إرادتي، وأسير رغمًا عني لأُنفّذ ما يريده مني.

لم يلتفت «سُليمان» لحراشفها ولا للون جلدها، بل لعينيها الحانيتين فقط، كانت تلك نظرات أمّ، وهذا ما كان يحتاجه، فعلّق مقلتيه بمقلتيها وأنصت إليها وهي تقول:

- هوّن على نفسك، ستتخلّص من هذا الأمر.

- لكنني ورغم خوفي منه قد أشفقتُ عليه، المسكين بلا يدين ولا قدمين!

- هذا رجل قلبه من حجر، لا يعرف الخوف، فيه عرق من الجنّ، لهذا ظلّ على قيد الحياة.

- لماذا لم يؤثّر فيكما؟
- لم يقدر أبدًا على التأثير في عشيرتنا، نــحن نختلف عنكم، لكننا في النّهاية بشر مثلكم، وهذا ما كان يغضبه، فكان يُحرّش[1] الآخرين علينا.
- ما اسم عشيرتكم؟
- «المشّاؤون».

لم ينتظر زوجها عودتهما، بل حمل «طَرْخُون» كما يحمل خرقة بالية، وطَوّحه بقوّة من فوق التلّة تجاه صخرة صمّاء، فتدحرج حتّى اصطدم بها وشُجّت رأسه، وهرول نــحوه وطعنه في صدره طعنتين نافذتين، واستدار مُهرولًا ليُشعل النّار في كومة من الحطب، رآه «سُليمان» بينما كان يتحدّث مع زوجته، فهرع وهو يصرخ وركض نــحوه بسرعة شديدة، والمرأة تلاحقه، كان «سُليمان» يُشفق عليه على الرّغم من كلّ هذا، انزلق من فوق التلّة كما اعتاد أن يفعل وهو يلعب مع رفاقه دائمًا ليصل بسرعة عندما كان يتسابق معهم، فطار نــحو مكان سقوط «طَرْخُون» ووصل في ثوانٍ معدودة، كان «طَرْخُون» يلفظ أنفاسه الأخيرة، نظر لــ «سُليمان» نظرة طويلة، حاوره فيها حوارًا سريًّا غابت عنه الحروف والكلمات فتلجلج صوته في رأسه، كانت المرأة تتابع «سُليمان»، عندما وصلت عنده رأته يضع جبهته على جبهة «طَرْخُون» الّذي لم ينس أبدًا أنّه نظّف عنه القذارة بيده عندما أخرجه من البئر، بدا الأمر وكأنّ هناك شرارة تصدر بين جبهتيهما كما تصدر عن حجرين يصطكّان ببعضهما لإشعال النّار، مات «طَرْخُون»، بعد أن سلّم ميراثه لــ «سُليمان»، فقد «سُليمان» وعيه، في تلك اللحظة كان زوجها قد وصل

(1) حرَّش بين المتقاتلين: أفسد وأغرى بعضَهم ببعض، وهيَّجهم على بعض.

إليهما، لم ير ما حدث لـ «سُليمان»، لكنّ زوجته رأت كلّ شيء، قال زوجها بصوته الأجشّ بعد أن لعق شفتيه بلسانه المّدبب:

- كان لا بدّ من موته.

حملت المرأة «سُليمان» الّذي ظلّ فاقدًا لوعيه، وكان رأسها يضجّ بالأفكار. بينما حمل زوجها جثّة «طَرْخُون» وألقاها في النّار الّتي أشعلها فأطلقت شرارات قاتمة، ثُمّ مَحَشَتْهُ[1] ونَهَشته[2] والتَهمت كلّ ذرّة فيه، وتلوّن لهبها بزُرقة عجيبة. أغلق الرّجل باب الكوخ وبدأت زوجته تُضمّد جرح ذراعه الّذي أصابه فيه «سُليمان»، وعندما أفاق «سليمان»، غطّت كتفيه بشال من صوف، وانتقلت لتعالج جروح يديه، وقامت بدهنهما بمعجون أخضر أخبرته أنّه خليط من الأعشاب سيُخفف الألم والاحتقان وسيجعل شفاء الجروح سريعًا، زاد حنقها على «طَرْخُون» عندما رأت كيف أثّر على «سُليمان» وأجبره على جذب وشائج الأشجار وجدلها ليُنقذه وهو غلام لا يحتمل كلّ هذا، كان «سُليمان» ساكنًا، لا يزال يُطالعهما بتعجّب، عيناه مدهوشتان ويجلس مُتشنّجًا أمامهما، فهيئتهما غريبة عليه، أراد الرّجل أن يُخفف عنه فاقترب منه قائلًا:

- اسمي «سَقَنْقُور»[3]، وهذه زوجتي «شُرْشُمانة».

- أسماؤكما غريبة!

قالها على استحياء وخشي أن يجرحهما هذا.

ابتسمت «شُرْشُمانة» وقالت وهي تمسح على رأس «سُليمان»:

---

(1) محشته: أحرقته بشدّة.

(2) نهشته: تملّكته فمزّقته.

(3) السَقَنْقُور والشُّرشُمان من أنواع السّحالي الّتي تعيش في جزيرة سُقُطْرى الّتي يعيش على أرضها تسعة وعشرون نوعًا من الزّواحف المتوطّنة، لا توجد في أيّ مكان آخر بالعالم.

- ما اسمك؟
- «سُليمان».
- وكم عمرك؟
- أحد عشر عامًا.
- تبدو أكبر من هذا، فقامتك طويلة.

ابتسما وكانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يرى أسنانهما بالكامل، أبعد عينيه سريعًا عن وجهيهما. سقته «شُرْشُمانة» حليب جوز الهند، وقدّمت إليه خبزًا وزيتًا، لكنّ هذا الطّعام لم يرق لـ «سُليمان». جلس يستمع إلى قصّة «طَرْخُون» وكيف أنّه من أبناء «خَنْدَريس»، فأدرك أنّه الآن على جزيرة «المشّائين»، وأنّهم جنس من البشر يتحدّثون ويتناسلون مثلهم لكنّهم يختلفون عنهم، وأنّ «طَرْخُون» قد كان سببًا في قتل الكثيرين منهم، عندما كان يُسيطر على عقول شباب جزيرة «سُقُطرى» ويدفعهم لقتل أطفال المشّائين وذبحهم تارة، وإلقاء بعضهم من فوق الجبال تارة أخرى، وحتّى إغراقهم في البحر أمام أعين آبائهم وأمّهاتهم، فنشأت الصّراعات بينهم وبين أهل «سُقُطْرى»، فهاجر «المشّاؤون» بعدها لتلك الجزيرة حفاظًا على ما بقي من أبنائهم وحقنًا للدماء، لكنّهم لم ينسوا أبدًا بشاعة ما حدث لأبنائهم بسبب «طَرْخُون»، وأصبح هدفهم الأكبر هو القضاء على ميراث «خَنْدَريس» بقتل أيّ فرد يحمل قُدرات خارقة منهم، أو تهديده بخطف أبنائه وزوجته ليتنازل عن ميراثه ويمنـحه طواعية تحت التّهديد لأحد «المشّائين»، فهو ميراثٌ يُمنـح ولا يُسلب، حتّى أصبح من «المشّائين» من يملكون قُدرات خارقة، وأُطلق عليهم نفس اللقب: «أبناء خَنْدَريس»، لم تتوقّف الصراعات بينهم وبين أهل «سُقُطْرى» إلّا ذات صباح عندما عاد أحد «المشّائين» ممن يحملون ميراثًا من موَرايث «خَنْدَريس» وقد استطاع أن ينال من «طَرْخُون»، وجاء وهو يُقيّده

ويجرّه جرًّا، بتر ساقيه ثُمّ ذراعيه في وادي «النـحيب» أمام الجميع، حيث كانوا يجتمعون لبكاء أبنائهم، كان «طَرْخُون» وحيدًا بينهم وهو لا يملك أن يُسيطر على عقولهم، فوقف الآباء والأمّهات يراقبونه وهو ينزف الدّماء من أطرافه الأربعة أمام أعينهم، ويتذكّرون أبناءهم الّذين ماتوا، فقد وعيه، فألقوه في بئر نتنة يملؤها الخفافيش ليموت ببطء، ويتعذّب حتّى اللحظات الأخيرة، لكنّ صوت عويله وصراخه كان يملأ الأجواء، في تلك الليلة ظهر «عفريت البرق الأحمر» في السّماء، وألقى بصاعقة فوق البئر، فامتنع «المشّاؤون» عن الاقتراب منها، وأعلنوا أنّ تلك المنطقة مُحرّمة، ولم يدخلها أحد.

قال «سليمان» مُتعجّبًا:

- لكنّ «طَرْخُون» أخبرني أنّ هناك نفرًا من الجنّ عالجوا جراحه، وكانوا يزورونه ويطعمونه، وينظّفون له البئر حوله وينصرفون دون أن يتحدّثوا إليه.

ظهر القلق على وجه «سَقَنْقُور» وقال له:

- هذا يعني أنّ هناك من كان يرغب في بقائه على قيد الحياة لإبقاء الميراث مخزونًا فيه، لكنّه لا يرغب في إخراجه من جزيرتنا لسبب ما!

قال «سَقَنْقُور» وهو يفرك يديه في توتّر:

- لو علم أبناء عشيرتنا بما فعلتَه يا «سُليمان» سيقتلونَك.

سأله «سُليمان»:

- لماذا لم يكن الأمر بتلك السّهولة وقتها؟ لماذا لم تقتلوه في الحال؟

- لم يكن هذا كافيًا، لقد أحرق أفئدتنا على أبنائنا! أراد الجميع الانتقام منه بتعذيبه ليموت ببطء كما فعل مع البعض من

عشيرتنا، لم يمنعنا عن العودة للبئر إلّا «عفريت البرق الأحمر»[1]، مارد عظيم من الجنّ له برق عجيب أحمر، يقتل ويحرق في ثوان قبل أن يرتدّ إليك بصرك.

أخرجت المرأة له ثيابًا تناسبه، تعجّب «سليمان» عندما وجد الثياب تناسب قِياسه، نظرت إليه وقد اغرورقت عيناها بالدّموع وقالت له:

- كانت لولدي الحبيب، كان «طَرْخُون» سببًا في مقتله.

أدرك «سليمان» حينها سبب إصرار «سَقَنْقُور» على قتل «طَرْخُون» وحرقه، فقد كان قلبه أكثر اشتعالًا من تلك النّار. جلس «سُليمان» يُنصت إليهما في وجوم، وكان صوت «طَرْخُون» لا يزال يتردد في رأسه «ابحث عن ولدي وانقل إليه الميراث كما سأنقله إليك الآن»

خرج «سَقَنْقُور» من الكوخ ليتفقّد النّار، ربّتت «شُرْشُمانة» على كتف «سُلَيْمان» عندما لاحظت شروده، كانت تعلم أنّه قد تأثّر بالطريقة الّتي قُتل بها «طَرْخُون»، فهو غلام بريء ولا يعرف ماضيه، أرادت أن تخفف عنه فقالت له:

- كان خبيثًا، لا تحزن عليه.
- أخبرتماني أنّ ميراث أبناء «خندريس» يُمنــح ولا يُسلب.
- هذا صحيح.
- لقد.. منحني «طَرْخُون» ميراثه!

(1) ظاهرة «عفريت البرق الأحمر» red sprite lightning عبارة عن رشقات نارية من الضوء تحدث غالبا فوق العواصف الرعدية. بلون أحمر في الطبقات العليا ولكنها تتلاشى إلى اللون الأزرق على ارتفاعات منخفضة. كشفت وكالة «ناسا» عن صورة مذهلة لها بدقة HD، تُظهر البرق بتفاصيل لا تصدق. التقطتها المصورة «ستيفاني فيتير» Stephanie Vetter، وأوضحت «ناسا» أن السبب الجذري لتلك الظّاهرة لا يزال مجهولًا.

أمسكت «شُرْشُمانة» بكتفيّ «سُليمان» وحدقت إلى عينيه لبرهة وسألته:

- عندما وضعت جبهتك على جبهته، أليس كذلك؟

- بلى، لقد نقله إليّ، وطلب مني تسليمه لابنه.

تذكّرت «شُرْشُمانة» التصاق رأسيهما أمام عينيها، وتلك الشرارة الّتي صدرت عند تلامس جبينيهما، وضعت «شُرْشُمانة» يدها على فم «سُليمان»، وقالت لتُحذّره:

- هل تستطيع إبقاء فمك مُغلقًا لتستمرّ على قيد الحياة؟

أومأ «سُليمان» إليها موافقًا، فأردفت تحذّره:

- إيّاك أن تُخبر أحدًا بهذا السرّ.. أبدًا!

وخرجا ليتفقّدا «سَقَنْقُور»، الّذي كان يتأكّد من احتراق «طَرْخُون» بالكامل في النّار، ووقف يُقلّب ما تبقّى من جذعه وينثر فوقها المساحيق الحارقة، ويضيف زيتًا طيّارًا لتزداد النّار اشتعالًا، وعندما اختفت معالمه كانت الشّمس توشك على الغروب، همست «شُرْشُمانة» لزوجها بما عرفته عن «سُليمان»، فران الصّمت على الثّلاثة وهم يُراقبون النّار، قال «سَقَنْقُور» الّذي كان القلق قد بدأ ينهش رأسه:

- لا بدّ أن نرحل من هنا، لا بد من ذهابه لدار «النَّطَاسِيّ» ليُخلّصه من هذا الميراث.

- فلنُسرع إذًا، فمراكب العطّارين ترحل وقت الغروب.

- لكنّهم لن يقبلوا بدخولنا لـ «سُقُطْرى»، أنسيتِ يوم المذبحة يا «شُرْشُمانة»؟

- لا بدّ أن نـحمي هذا الغلام المسكين، لو عاش ولدنا لكان في عمره!

قالتها وقد سالت من عينيها الدّموع، فارتعشت ملامح زوجها الّذي بدا عليه التّأثّر أيضًا، عادا للكوخ مع «سُليمان»، ولم يحملا متاعًا حتّى لا يلفتا إليهما النّظر، وخرج «سَقَنْقُور» يشقّ طريقه نــحو الشّاطئ وزوجته «شُرْشُمانة» خلفه وهي تُمسك بيد «سُليمان»، مرّ بهم العديد من «المشّائين»، كانوا يتشابهون جميعًا بجُملة النّظر من بعيد، لكنّهم وبعد التّمحيص يختلفون في لون جلودهم، وفي حراشفها، وأيضًا ملامحهم، وكذلك في حجم رؤوسهم، لاحظ «سُليمان» أنّ أطفال «المشّائين» يركضون خلف السّحالي الصّغيرة، ويقتلونها بضربها على رأسها في الحال، وتكرر الأمر، فسألهما:

- ما هذا! لماذا يقتلون السّحالي الصّغيرة؟
- إنّها «الكومودو».
- لماذا يقتلونها؟
- نشأنا على هذا، لا بدّ أن نقتله فور أن نراه، ولا يزال يظهر بكثرة رغم قتلنا له باستمرار.
- أتقتلونه وأنتم تُشبــ...
- ماذا؟
- لا شيء!

أوشك أن يُخبرها أنّهم يُشبهون السّحالي، لكنّه تراجع، كانت جثث الكومودو ملقاة على الجانبين، قال «سَقَنْقُور» وهو يزيح جثّة إحداها بقدمه:

- حيوانات حقيرة! تنشط وتنتشر قبل الغروب، تملأ الجزيرة ليلًا، وتختفي طوال النّهار.

صاح «سُليمان» رغمًا عنه:

- يا للعجب!

وثب رجل من «المشّائين» فجأة أمامهم وقطع عليهم الطّريق، رشق «سليمان» بنظرة حارقة وسأله:

- من أنت؟ ومن أين أتيت؟

تقدّم «سَقَنْقُور» منه بثبات وقال وهو يغرز عينيه في عيني الرّجل:

- مالك والغلام؟

- هو الغريب عنّا وهذه جزيرتنا، فما الّذي أتى به إلى هُنا؟

- ضلّ عن خاله، ونـحن نبحث عنه، ويعرف «النَّطَاسِيّ»، فسنرسله مع العطّارين لعلّه يلتقي بخاله هناك.

تفحّصه الرّجل من أوّل قمّة رأسه وحتّى أخمص قدميه، لاحظ الأربطة على كفّيه فسأل «شُرْشُمانة»:

- ماذا حدث ليديه؟

- أصابهما شوك أشجار القتاد[1].

أضافت «شُرْشُمانة» بامتعاض شديد:

- أفسح الطّريق أيّها الثرثار، لا شكّ أنّ خاله الآن هائمٌ على وجهه يُفتّش عنه في أنـحاء الجزيرة.

زمجر الرّجل وأفسح لهم الطّريق وهو غير راضٍ عن تلك الإجابات، كان سمجًا يُخرج الكلمات بنزقٍ وكأنّه ينتزعها من فمه انتزاعًا، زاد هذا من توتّر «سُليمان»، أخبره «سَقَنْقُور» أنّه رجل فضوليّ، وهو شديد الدّهاء، سيُرسل خلفهم من يُراقبهم، وصلوا إلى الشَّاطئ، كان هناك

(1) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر يُستخرج منه مادّة صمغيَّة تستعمل في صنع الأدوية والغراء.

الكثير من سحالي «الكومودو» تركض هُنا وهُناك، سأل «سُليمان» «شُرْشُمانة»:

- هل أستطيع اقتناء سحليّة منها؟

طالعته بتعجّب وقالت:

- الكومودو!

- نعم.

هزّت كتفيها وتلفّتت ثُمّ أشارت له ليفعل قائلة:

- أسرع دون أن يراك أحد.

انحنى «سُليمان» والتقط واحدة منها، وأخفاها تحت قميصه، كان يرغب دائمًا في تربية حيوان أليف، لم يستطع كبح جماح نفسه، فهو يكره ما يفعلونه بتلك السّحالي، ودّ لو جمعها كلّها ورحل بها من هنا، سكنت السّحلية والتصقت بصدره! ركب «سليمان» في آخر مراكب العطّارين الّتي بقيت على الشّاطئ، كان صاحبها شابٌ ضعيف البنية، كان يسعل بشدّة وقد بدا عليه المرض، فتولّى «سَقَنْقُور» أمر التّجديف لجزيرة «سُقُطْرى»، كانت الشّمس قد سقطت في حضن المحيط، وتركت خلفها بصيصًا من حمرتها الشّاحبة، شعر «سُليمان» بالوحشة، والبرد، والخوف، لكنّ «شُرْشُمانة» لاحظت ذلك، فمنحته نظرةً واثقةً وغمزت له فابتسم، ثُمّ دثّرته بشالها لتُدفّئه.

كانت «شُرشُمانة» طيّبة القلب وحنونًا، عجبًا لهؤلاء الّذين يظنون أنّ القلوب الرّحيمة تنبض فقط في صدور أصحاب الوجوه الجميلة، وأنّ الحبّ خُلق فقط للجميلات، وأنّ الشّكل وحده هو معيار تصنيف الآخرين، هُناك أرواح جميلة لا تُرى من النّظرة الأولى، وقد تختبئ خلف

القشور والإهاب والنّدبات، لكنّنا نستطيع أن نشعر بها من نبرة الصّوت، والأفعال، والمواقف، والنّظرات!

بعد لحظات من الإبحار شخصت «شُرْشُمانة» بعينيها نــحو الشَّاطئ حيث كان هناك أحد المشّائين، عظيم الرّأس، ضخم البنية، على رأسه قبّعة من القشّ، وفي يده رمح عظيم، وعليه ثياب بألوان الطّيف السّبعة، فتسارعت دقّات قلبها وقالت لزوجها:

- لقد اكتشف «أبو بُريص» أمرنا.

- لا بدّ أنّها النّار، ورائحة جمجمة «طَرْخُون»، تعرّف عليها بطريقته.

سألهما «سُليمان»:

- من هو «أبو بُريص»؟

- من كبار السّحرة هنا، أنت في خطرٍ يا بنيّ.

أسرع «سَقَنْقُور» يُجدّف بأقصى ما أوتي من قوّة، وابتعد بالمركب عن الشَّاطئ، وبدأت رحلتهم إلى جزيرة «سُقُطرى»، وكانا ينويان الرّحيل من جزيرتهم منذ عدّة شهور.

كانا يبحثان عن جزيرة يلتقيان في رحابها بروحيهما المتعبتين مرة أخرى، فقد كان موت ولدهما الوحيد كزلزال أصاب حياتهما بصدع عميق ما زال يخيفهما كلما اقتربا من حافته، حيث تطل بقايا الماضي من ذلك الأخدود العميق، أين تطفو تلك الجزيرة؟ وهل هي «سُقُطْرى» أم غيرها؟

كانت دائما تطرح هذين السؤالين عليه بنظراتها، وكان دائما يبحث ويفتش ليجيبها، وفي كلّ مرّة يصل للإجابة كان يلزم الصّمت، فالإجابة مخيفة.

****

جمعت «حبّوبة» بناتها الثّلاث بعد عودتها من «سُقُطْرى» وقالت لهنّ:

- ماتت «رَهف» وهي تلد صغيرها، كُنت نائمة حينها، ولعلّها نادت عليّ.

وانتحبت قليلًا ثُمّ أضافت قائلة:

- ذهب «وِجْدان» ليدفنها بجزيرة «سُقُطْرى»، فقُتل هناك على يد مجرم طعنه غدرًا.

شاركت بنات «وردَان» أمّهن البكاء، كن يحببن هذين الزّوجين، وينتظرن ولدهما، قالت «ريحانة» وهي تُكفكف دموعها:

- وأين ولدهما؟

- مع شاب غريب اسمه «خالد»، سأُخبركن عن قصّته، فهو يقول إنّه من «المُستكشفين»! ولكن الغريب أنّني رأيت عفريتة تتبعه، وأرادت قتله!

صاحت «ريحانة»:

- عفريتة لها عينان واسعتان وطيف متلوّن خلّاب، وعلى رأسها تاج من مرمر؟

- نعم! هل رأيتها؟

- كُنت أتجوّل في جزيرة «المشّائين» و..

- أيّتها الحمقاء المتهوّرة، هل ذهبتِ إلى تلك الجزيرة وحدك؟

- نعم يا أُمّي.. سامحيني.

- وماذا حدث؟

- رأيتها تُحاول قتل غلام كان يرتدي ثيابًا غريبة، ويحمل بوقًا عجيبًا، كان كلّما نفخ فيه أقبلت الطّيور عليه وأحاطت به، فدفعتُها

عنه قبل أن تنال منه، ودار بيننا صراعٌ أرهقني، ما زلتُ أتألّم حتّى الآن، لكنّ الغُلام دلف إلى بقعة من بقاع تلك الجزيرة، لم أتمكّن من تخطّي حدودها، فراقبته من بعيد.

- وماذا فعل؟

روت لهنّ ما فعله «سُليمان» مع «طَرخُون»، وكيف عادت إليه بعد فترة فوجدته مع «سَقنقور»، و«شُرشُمانة، يقفون أمام النّار، وأدركت أنّ «طرخون» مات، ووهب ميراثه للغلام قبل موته، وراقبتهم حتّى رحلوا إلى «سُقُطْرى». همست أمّها قائلة:

- ميراث «طرخون»!

- نعم يا أُمّي، الّذي أخبرتنا عنه «رهف».

قالت «كُركُمانة» بتردد:

- أُمّي، لقد عثرنا على فتاة في السّجن الّذي بناه أبي، وكان معها خريطة، وتقول إنّها من مصر.

وروين لأمّهن عن «فرح»، وكيف عُدن إليها بعدما أخبرتهنّ أُمّهن أن يفترقن للبحث عن «وجدان»، لكنّهن أسرعن للحاق بـ «فرح» أوّلًا، فرأينها والحارس يُطاردها، ثُمّ رأين «أقمر» وهو يحملها، ولم يتمكّن من دخول داره، لكنّهن سمعن الحارس أثناء عودتهنّ وهو يقول إنّ «طرجهارة» منحتها ميراثها، واكتشفن للتوّ أنّهن كنّ يُطعمن «طرجهارة» الّتي أخبرتهنّ «رَهف» إنّها عجوز لئيمة، ظهر القلق على وجه أمّهن وقالت:

- ميراث «طرجهارة» مع الفتاة، وميراث «طَرخون» مع الغلام، وميراث «وِجدان» مع «خالد»، و«خالد» هذا يقول إنّهم من «المستكشفين»!

اقتربت «مرجانة» من أمّها وسألتها:

- كيف عرفتِ هذا يا أُمّي عن «خالد»؟

- تنصّت على دار «النَّطَاسِيّ» من الخارج لأنني لم أتمكّن من دخوله.

-أُمّي لماذا لم تتمكّني من دخول بيت «النَّطَاسِيّ» هذا؟

- بيوت «العنادل» بـ «سُقُطْرى» محميّة من الجنّ، يدخلها فقط عشائر الجنّ الّذين يدينون بدين «العنادل»، وكلّ عشائر الجنّ هناك يتبعون «خَنْدَريس».

قالت «كُركُمانة» بفضول:

- كُنا نخشى أن نُخبرك أننا نغادر الجزيرة.

- كُنت أعلم، وتبعتكنّ في البدايات، وعندما أدركت أنّكن ماهرات في التخفّي ووثقت بكنّ، أصبحت أترككن.

- هناك جزيرة لم نتمكّن قط من دخولها.

- لا بدّ أنّها جزيرة «النّور».

- لماذا لم نتمكّن من دخول جزيرة «النّور»؟

- لأنّ «العنادل» يُقيمون هناك، تلك الجزيرة محميّة من دخول الجنّ.

تمتمت «مرجانة» تسألها على استحياء:

- هل كان أبي من «العنادل»؟

- نعم.

- وأنتِ يا أُمّي؟

- لم أهتمّ بهذا الأمر.

- ولهذا لم تُعلّمينا دين «العنادل» ولم تُحدّثينا يومًا عن الله؟

هدرت «حبّوبة» غاضبة:

- كُنت أعتني بكنّ طوال الوقت، أُطعمكن وأرعاكنّ وأعلّمكن وحدي!

ران عليهنّ الصّمت، كانت «حبّوبة» تشعر بالخجل من ابنتها، فهي بالفعل كانت تُهمل هذا الأمر، حتّى أنّ زوجها قبل اختفائه كان غاضبًا منها لأنّها لا تهتمّ. قالت «مرجانة» هامسة:

- كان «وِجْدان» و«رَهف» من «العنادل»، سمعتهما يُرددان التّسابيح.

زفرت «حبّوبة» وقالت وعيناها تسبحان في حيرة:

- تلك العفريتة صاحبة تاج المرمر ترغب في قتل هؤلاء المُستكشفين، ويبدو أنّ الثلاثة في خطر.

- لا بدّ أن نُساعدهم.

- لا.. سنظلّ هنا في جزيرتنا، وحدنا للأبد، هل فهمتن!

انصرفت «حبّوبة» للنوم وتركتهن حائرات، لم تذق «مرجانة» النّوم طوال الليل، بقيت ساهرة حتّى نامت شقيقتاها أيضًا، وقررت أن تخرج خلسة كما تفعل دائمًا بعد نومهما، وعادت قبل أن تستيقظا بعد أن طافت بعدّة أماكن لتروي ظمأ فضولها، وبقي هذا سرّها الدّفين.

***

الجزيرة الرّابعة
جزيرة النّور

«**أنس**»

من الصّعب أن تختفي قرّة عينك فجأة من بين يديك، وهي للتوّ كانت قد هرعت لحضنك لتحتمي بك، تتبخّر، تتلاشى، تنزلق، هو لا يدري ما الّذي حدث لها بالضّبط! وهذا الّذي أوجع قلبه وعصره عصرًا. كانت آثار حرارة أنفاس «فرح» لا تزال على صدر أبيها، الّذي كان يصرخ صراخ من انتُزع قلبه النّابض الحيّ من بين أضلاعه، تحسس قميصه حيث كانت تُخفي ابنته وجهها منذ لحظات، لا يزال دافئًا وكأنّها هناك، أخذ يضرب صدره وهو يقول مُحدّثًا نفسه:

- إنّها طفلة! كيف ستتحمّل كلّ هذا؟ ومن سيحميها؟

تذكّر كيف التفتت فجأة، وكيف ضربت اللفافة الجلدية صدرها، قبل أن تغيب عن عينيه.. لفافة من الجلد! هل تلك القطعة المهترئة هي عونها هنا؟ نادى عليها عدّة مرّات، وكان لصوته دويّ مهيب وصدى في أجواء الجزيرة الّتي ظنّها صحراء جرداء في البداية عندما غمرته الرّمال البيضاء بعد أن سقط في كثبانٍ عظيمة من الكُثبان الرّملية الغريبة الّتي تملأ تلك الجزيرة، لكنّ صوت موج البحر الهادر من بعيد انتشله من

حالة الوجوم الّتي أحاطت به من كلّ صوب. رأى تلك العصا الّتي قذفها صندوق الكنز تجاه صدره بعد اختفاء ابنته ملقاة فوق الرّمال، فسار نــحوها وتناولها، تذكّر كلمات «ميسرة» عن تلك الأدوات الّتي يمنــحها الصّندوق للمستكشفين، وأنّها تُفيدهم في رحلاتهم، رأى عليها رمزًا غريبًا نُقش بخط منمنم على مقبضها، لم يفهم مدلوله، رفعها ولوّح بها في الهواء كما فعل بعصاة «أبادول» في مدينة «كويكول» من قبل، ولم تُفتح فجوة ولم تنشقّ الأرض، هدر غاضبًا:

- لا شيء... لا شيء!

أخذ يتساءل في نفسه، هل صار الآن مُستكشفًا هو الآخر؟ هل هو مع ابنته بنفس المكان؟ ما الّذي حدث لـ «خالد» ولـ «سُليمان» ولـ «ميسرة»؟

لا بدّ أنهم رأوه هو و«فرح» وهما يختفيان، أو ربّما الأربعة هنا! أو «ميسرة» فقط! أو «خالد» وحده! يا إلهي! ماذا لو كان المِسكين «سُليمان» أيضًا مُستكشفًا ورأى العلامات والتقمه البيت أيضًا؟ أو ربّما بقي الغلام وحده بالبيت بعد اختفاء الجميع، ضجّ رأسه بالتساؤلات، تلفّت حوله، لماذا تلك الرّمال بيضاء ناصعة هكذا؟ كاد رأسه ينفجر، رفع رأسه للسماء، وأخذ يبتهل إلى الله أن يحفظهم جميعًا، استودعهم إيّاه وبدأ المسير أوّلًا تجاه الشّاطئ، ثُمّ سار بمحاذاته بعد ذلك، ولم يفتر لسانه عن الدّعاء. بعثرت الشّمس حفنة من غُبارها الذّهبي حوله، ومسحت رأسه بكفّها الدّافئة، كان البحر صافيًا، والسّماء رائقة، أمّا الرّمال فمن شدّة بياضها كانت تُشبه الجليد المجروش، سار ما شاء الله له أن يسير لساعات أنهكته، كلّت قدماه، وجفّت شفتاه، وانكسرت عيناه، وأنهكه التّفكير خلالها، أخيرًا تناهى إلى مسامعه صوت صهيل خيول، فاقترب منها على عجل، ثُمّ رأى خيطًا رفيعًا من الدّخان يهرب

لسُحُب السماء، وعددًا لا بأس به من الخيام نُصبت بقرب بعضها بعضًا ويتوسّطها أثافيّ فوقه قِدر كبير يغلي فيه حساء ما، فملأ الأجواء بأبخرته، الّتي اختلطت بدخان الأثافيّ وماج كلاهما مع تيّارات الهواء، أخذ يحدّق حوله فلم يعثر على أثرٍ لرجلٍ واحد، فأجفل وتوقّف قليلًا، ثُمّ عاد لسيره بتؤدة وحذر نـحوها عندما مرّت بخاطره فكرة أن تكون ابنته في تلك الخيام.. ربّما.. لِم لا؟

عندما وصل ووقف أمام الخيام كانت كلّها مغلقة بأستار من قماشٍ ثخين، كانت الخيول ساكنة، قام بإحصاء عدد الخيول فأدرك أنّ عدد فرسانها كبير، اقترب من القِدر فسمع غَطغَطته، اشتمّ رائحة اللحم المطهي فتعجّب لغياب الأفواه الّتي تطلب هذا القوت، بل ولغياب طاهيها! اكتشف وجود أثّافيّ آخر عليه قِدر أكبر من القِدر الّذي رآه في البداية، يا للعجب! أين أصحاب النّيران والقُدور تلك؟

كاد يُصفّق بيديه وينادي، لولا أنّ أحدهم جاء من خلفه على حين غفلةٍ منه، ووضع يده على فمه وقبض عليه بقوّة، فضربه «أنس» ضربة قويّة بكوعه في بطنه، لكنّ هذا المجهول همس بأذن «أنس» ولا تزال يده على فمه:

- أنا «ميسرة»!

توقّف «أنس» عن دفعه، والتفت ليرى وجهه، ما زال جرحه على وجهه، لكنّه الآن بلا ضمادة لكنّه مُلطّخ بشيء ما، رفع «ميسرة» كفّه عن فم «أنس» وأمسك بذراعه وهو يُشير له بالصّمت، وسارا معًا حتّى وصلا خلف ستار من الخيش معلّق بين شجرتين عتيقتين، بدا وكأنّها خلوة خُصصت له وكان ينام فيها، كانت الخيول تقبع أمامه في سكون، قال «أنس» مُعتذرًا عن ضربه في بطنه:

- اعذرني فقد فاجأتني.

- لا عليك.. خشيت أن تصيح فيستيقظون.

- كيف يتركون القدور هكذا؟

- يهتمّ بها خادم أبكم.. ويُطفئ الأثّافي عندما ينضج الطّعام.

قال «ميسرة» هامسًا وهو يمدّ يده بقدح من الماء لـ «أنس»:

- لا بدّ أنّك عطشان.

- أين بقيّتنا؟

- لا أدري، لكنني على يقين أننا جميعًا هنا، فقد رأيت كلّ واحد منكم وهو يختفي بأمّ عيني!

- يا إلهي! هذا ما كُنت أخشاه!

- أمضيت ساعات النّهار مع أصحاب تلك القافلة، لم أكفّ عن الحديث والسؤال لأجمع أكبر قدر من المعلومات، لكي أبدأ رحلة البحث عنكم جميعًا.

- لعلّ هذا خفف عنك الصّدمة، فقد كدت أفقد عقلي من طول المسير والتّيه وكثرة التّفكير وأنا أسير وحدي.

مدّ «أنس» يده بالعصا تجاه «ميسرة» وقال له:

- ألقاها الصّندوق على صدري، وألقى لفافة جلديّة على صدر «فرح».

أمسك «ميسرة» العصا وقال وهو يُحاول قراءة النّقوش عليها:

- سنعرف فائدتها لاحقًا، أمّا أنا فلم أحصل هذه المرّة على شيء!

ظلّ «ميسرة» يُجرّب العصا، ضرب بها الأرض، حرّكها في الهواء، فركها بين يديه، حاول أن يخطّ بها على الأرض شيئًا، ألقى بها عدّة مرّات حتّى ضحك «أنس» لأوّل مرّة وسأله:

- ماذا تفعل.

- أُجرّبها!

- يبدو أنّك مُغرمٌ بتجربة كلّ شيء يا ميسرة.

- تربّيت على «الممنوع»، كلّ شيء ممنوع، ولأنني كنت طفلًا وحيدًا فكان خوف أبويّ عليّ مضاعفًا، عندما كبرت وصرت قويًا بالقدر الكافي قررت أن أُجرّب كلّ شيء.

- لكن للتجارب حدودًا، فاحذر أن تكون إحداها سببًا لتعاستك، فهما لم يمنعا عنك تلك الأشياء إلّا لخوفهما عليك، فكّر قبل أن تُجرّب!

توقّف «ميسرة» عن تحريك العصا وقال لـ «أنس» وهو يبتسم:

- سأُحاول.

- ربّما كانت نجاتك في هذا المنع!

- بالفعل أدركت خطورة بعض الأشياء الّتي منعاها عنّي لاحقًا.

- ستُدرك حقًا عندما تحمل بين يديك ولدًا يخصّك وتتعلّق به، وكأنّك تملكه! لكنّك في الحقيقة لا تملكه! ثُمّ يركض أمام عينيك نحو الخطر رغبة منه في تجربته!

أطرق «ميسرة» للحظات قبل أن يقول:

- دعني أُحضر لك بعض الثّياب أوّلًا، فقد اضطررت للارتحال حتّى لا يشكّوا في أمري بسبب ملابسي، اعتدتُ على هذا في رحلاتي السّابقة، لا بدّ من التّخلص من كلّ ما يُشير لعالمنا.

- وماذا فعلت؟

- خلعتُ جميع ملابسي وسترت عورتي بأوراق هذا النّبات.

وأشار لأشجار أوراقها عريضة جدًّا وكبيرة الحجم والطّول، ثُمّ أضاف:

- رأيتها منتشرة هنا وهناك، فصنعت سروالًا قصيرًا منها بصعوبة.

- يا لجرأتك! هل حقًّا فعلتها؟ وإن جفّت أو سقطت عنك؟

- أصنع غيرها!

ثُمّ هزّ كتفيه وقال:

- أحببت أن أُجرّب.

كان لــ «ميسرة» روح حماسيّة لطيفة مما خفف عن «أنس»، أضاف ليروي له ما حدث:

-رأيت الخدم يسيرون على أقدامهم خلف القافلة، فقد كُنت أتبعهم من أوّل لحظة لوصولي، وأُراقب آخرهم الّذي كان يسير ببطء شديد، فملّ الشّباب منه وسبقوه، فأظهرتُ نفسي له، استغثت به، وجدته أبكمَ، كتب لي على الرّمال كلمة بلغة رمزيّة غريبة لم أفهم كنهها، لكنني على يقين أنّها من اللغات القديمة، لكنّها ليست «الهيروغليفيّة»، أظنّها لغة تخصّ حضارة عتيقة، أعطاني من ثياب ابنه، وعندما وصلت معه سألتهم عن سبب بكائه وحزنه، فأخبروني أنّ ابنه مات منذ ثلاثة أيّام، أشار الأبكم لهم وكانوا يفهمون إشاراته، فأخبرهم أنّه وجدني عاريًا في الصّحراء، فتبادلوا النّظرات وهم يهزّون رؤوسهم وأخذوا يتهامسون بأنّه لا ريب أنّهم «النّهابون» من فعلوا بي هذا.. فلزمت الصّمت، وظنّوا أنني في صدمة مما مررتُ به.

- من هم «النّهّابون»؟

- عصابة من اللصوص يطوفون في الجُزر ويسطون على خيرات العباد.

ثُمّ تلفّت وقال لـ «أنس»:

- سأُحضر لك الثّياب، ولنُخْفِ ملابسك وحذاءك، فقد أعطاني الخادم كلّ ملابس ابنه الّذي مات، رجل مسكين، يعاون الخدم قدر استطاعته، كان ابنه يعتني بالخيول، وصارت تلك مهمّتي الآن مع آخرين، يقوم هؤلاء الرّجال بخدمة طلّاب العلم والشيوخ بمدرسة الحكمة، الّذين خرجوا في تلك القافلة العلميّة.

كاد «أنس» يضيف تساؤلًا جديدًا، لكنّ «ميسرة» لم يُمهله، وأسرع يخرج سروالًا وقميصًا من حاوية جلديّة مخروقة، يبدو أنّه اتخذها حقيبة له، فبدّل «أنس» ملابسه على عجل، وتخلّصا منها بأن دفناها بعيدًا، وعادا يتهامسان، قال «أنس»:

- أراك اعتدت أمر ولوجك لتلك العوالم المنسيّة، يبدو أنّ للمستكشفين جولات وصولات هُنا وهُناك، وما كُنت أدري عنكم شيئًا.

قالها «أنس» وأطرق في وجوم، كان مُتعبًا من طول المسير، وكثرة التّفكير فجلس ساكنًا كالصَنم لفترة، قال «ميسرة» محاولًا انتشاله من شروده وصمته:

- حسنًا، عندما يستيقظ الخدم سأُخبر رئيسهم أنّك مررت بنفس ما مررتُ به أنا من قبل، وأنني دعوتك للانضمام إلينا عندما أشفقتُ عليك، لتعمل معي في خدمتهم، وسنرى ما يقولون.

- ولو رفضوا؟

- لن يرفضوا، هم يحتاجوننا، فعدد أفراد القافلة كبير، وعدد الخدم محدود، ونــحن نــحتاج لغطاء لكي نسير بالجزيرة دون أن يشكّ بنا أحدٌ.

- جزيرة! هل نــحن على جزيرة؟

- نعم، وتلك قافلة من العلماء، يتنقلون عن طريق البحر، من جزيرة لأخرى، لا غاية لهم إلّا جمع الأحجار العتيقة الّتي دُونت عليها «سجلّات المُعلّم النّبيل».

- من هو المُعلّم النّبيل؟

- شيخ ناسك وعابد يقولون إنّهم ينقبون عن سجلّاته العتيقة، حيث انتقل قديمًا من جزيرة «سُقُطْرى» إلى هنا لينقل علمه لأهل الجزيرة.

- هل تقصد «سُقُطْرى» اليمنيّة؟

- لا شكّ أنّها هي، ونــحن في واحدة من الجزر الّتي حولها الآن، وما أعرفه أنّه أرخبيل مكوّن من عدّة جزر.

- الآن أعرف لماذا الرّمال بيضاء، فتلك الجزر تشتهر بالكثبان الرّملية البيضاء، وأشجار «دم الأخوين» الغريبة.

- عندما ينتهون من البحث والتنقيب هنا عن سجلّات المُعلّم النبيل الحجريّة، سيعودون إلى هُناك، وبهذا سنُفتّش عن «فرح»، و«خالد» و«سليمان»، في الجزيرة هنا قبل أن نرحل معهم.

صمت هنيهة وأضاف في أسى:

- هذا البيت غريب، وما حدث معكم كالعادة لم يحدث من قبل، و«فرح» هي أوّل مُستكشفة من الفتيات اليافعات، عائلتكم دائمًا تتصدّر غرائب محاربي مملكة البلاغة يا سيّد «أنس».

مرّ شبح ابتسامة ساخرة على شفتي «أنس» لم تمحُ مسحة الحُزن الظّاهرة على مُحيّاه، كان القلق ينهش روحه نهشًا، سأله وهو ينقر في الأرض بعصاه الّتي لم تُفارق يده:

-كيف يبحثون وينقّبون عن «سجلات المُعلّم النبيل»؟

- يقولون إنّ الأحجار المنقوشة عليها تلك السّجلات تضيء ليلًا، وبهذا يستدلّون عليها.

- لماذا جميعهم نيام الآن؟ حتّى الخدم لا أرى أيّ أثر لواحدٍ منهم!

- شربوا شيئًا من منقوع أعشاب غريبة تسمّى «اللفاح»[1]، نبات غريب ذو قوام طويل، جذوره متشعبة تُشبه جسم الإنسان! يقولون إنّ منقوعه شرابٌ مُقدّس يُساعد على الاسترخاء، وأعطوني منه، فحذّرني أحد الخدم من تناوله وابتعد مُسرعًا، لكنني أحببت أن أُجرّبه، وكدت أتناوله بالفعل ورفعته على فمي، لولا أنّ ذلك الخادم عاد وخطف القدح من يدي وسكبه على الأرض.

- أمره غريب!

- ما زلت لا أثق بهم جميعًا، فكما يُقال:

«اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تحترق بها».

- هل رأيت سجلًا من تلك السّجلات الّتي يتحدّثون عنها؟

- لا.

ران عليهما صمت قصير، كانت طواحين الهواء تدور في رأس «أنس»، لم ينتشله من حيرته إلّا الصلاة، كانت سجدته الطّويلة عامرة بالدّعاء، أسند ظهره لجذع شجرة البلّوط العتيقة الّتي كان السّتار مُعلّقًا

(1) نبات اللفاح أو اليبروح أو تُفّاح المجانين هو نبات الماندراجورا، وكان مُقدّسًا عند القدماء المصريين، وأول ما لفت نظرهم له هو تشعب جذوره الّتي تُشبه في شكلها بدرجة عجيبة شكل جسم إنسان واقف على قدميه، فتصوروا وتخيّلوا أنّه يحوي خصائص آدمية لتشابهه بجسم الإنسان، فأخذت الخرافات تنتشر تترى بأن هذا النبات إذا اقتلعه شخص من الأرض يحدث صوتًا عاليًا وأن كل من يسمع هذا الصوت يُصاب بالجنون وكثرت حوله الخُرافات والصفات السحرية.

بينها وبين شبيهتها ليسترهما، داهمه النُعاس، فنام لساعة، استيقظ بعدها وكان الليل قد بسط ثوبه الحالك الموشّى بالنجوم على الجزيرة ومن عليها، كان «ميسرة» قد أشعل النّيران مع الخادم الأبكم ليستمدّوا منها الدّفء والضّياء، كان ذلك الخادم لا يزال حزينًا على ولده، ولا تزال عيناه مخضلتين بالدّموع، أقبل يجرّ قدميه وهزّ رأسه تحيّة لـ «أنس»، ومدّ يده له بقصعة تحوي بعض الثّريد[1]، فأكل «أنس» وهو زاهد في الطّعام، وقلبه معلّق يتلجلج من القلق على ذويه، وخاصّة «فرح»، فهو يعلم أنّها الوحيدة الّتي ظهرت عليها علامات المُستكشفين، اقترب الخادم منه أكثر، نظر مباشرة في عينيه، ثُمّ أمسك بعود من الحطب وخطّ شيئًا على الرّمال، أربعة رموز بجوار بعضها بعضًا، وكأنّها كلمة، لم يفهم «أنس» كنهها، لكنّه شعر بالقلق يتذبذب في عيني الرّجل، فربّت على كتفه ليُطمئنه، فأسرع الرّجل يطمس معالمها قبل أن ينصرف، وكأنّه يخشى أن يراه أحد.

عاد «ميسرة» وكان يُعدّ سروج الخيول لينطلقوا، أخبر «أنس» أنّ الأمور على ما يرام، فقد أخبر رئيس الخدّم عنه، ووافق على انضمامه إليهم، وطلب منه أن يُساعده في العمل، فربط «ميسرة» رأسه كما يفعل بقيّة الخدم وهمس لـ «أنس» وهو يمدّ له رباط للرّأس:

- فلنُجرّب!

فربط «أنس» رأسه كما فعل، وصارا بجملة النّظر من بعيدٍ مثل الآخرين، خدمًا هيئاتهم متشابهة لا يُحسن أحد التفريق بينهم، كانت لهم ثياب بسيطة، تختلف عن ثياب الشّيوخ وطلّاب العلم الّتي كانت أكثر فخامة، احتاج «أنس» حذاء، فأعاره أحدهم واحدًا مُهترئًا، بدأوا يجمعون متاعهم ويحلّون أوتاد الخِيام، كان طلّاب العلم يقفون في خشوع

(1) الثّريد فتّةُ اللحم، ثَرَدَ الخُبزَ أي فَتَّهُ ثُمَّ بَلَّهُ بالْمَرَقِ وَاللَّحْمِ.

مُتحلّقين حول شيخهم الّذي كان يجلس أمام النّار، وقد انعكست حُمرة لهبها على وجهه، همس «ميسرة» لـ «أنس» قائلًا:

- يبدو أنّ لهذا الرّجل مكانة عظيمة، يقولون إنّه لا ينبغي لأحد الجلوس في حضرة المُعلّم «عُرقوب»[1] من شدّة تعظيمهم له، يُغالون فيه كثيرًا!

رنا إليه «أنس»، كان الرّجل سبعينيًّا ذا هيبة بالفعل، أنيق الثّياب، له لحية مرسلة، وشارب قصير أنيق، ووجه أبيض مستدير تشوبه حُمرة، طار الغراب من رأسه فغزاه الشّيب، لكنّ غُرّته النّاعمة كانت تهرب من تحت قلنسوته، كان لميكًا[2]، وله فمٌ واسع، ويرتدي عقدًا وخاتمًا عظيمًا في خنصره الأيسر!

كان «أنس» كجدّه «أبادول»، لديه فراسة لا تخيب، تفحّص لغة جسده، وطريقته في الكلام، أطرق بسمعه وهو يروح ويجيء بين الخيام، سمعه وهو يتحدّث ناصحًا، ثُمّ وهو يردد ترانيمَ هادئةً، ثُمّ وهو ينتقد أحدهم بعصبيّة وينهر الآخر، ثُمّ وهو يتحدّث عن «خَنْدَريس»، وأبنائه، مما جذب انتباهه، قرر أن يعرف من هذا الـ «خَنْدَريس» وما قصّته، فغالب الكلام كان عنه، ولم يكن عن المعلّم النبيل الّذي يبحثون عن سجلّاته!

انتهوا من أعمالهم، ركب الشيخ وتلاميذه خيولهم، تقدّمهم حارسان يحملان شعلتين عظيمتين، على فرسين أسودين قاتمين، وسار «أنس» و«ميسرة» خلف القافلة على أقدامهما مع باقي الخدم، همس «أنس» لـ «ميسرة»:

---

(1) عُرْقُوب: العُرقُوب من الإنسانِ: وتَرٌ غليظٌ فوق العقب من القدم. وهو اسم رجل في الجاهلية يُضرب به المثل في الخلف بالوعد والموعد.

(2) اللميك: مكحول العينين.

- أشعر أنّه رجلٌ داهية، فيه لؤم، قد يكون لسانه حلوًا أحيانًا، وقد تكون له هيبة، لكنّ نظراته فيها بعض الخبث والشّراسة. أظنّه يستغلّ تلاميذه هؤلاء، ويُسخّرهم ليجمعوا له تلك السّجلات، فهم يعرفون عنها أكثر مما يعرف هو عنها.

- كيف عرفت كلّ هذا يا سيّد «أنس»؟

قال «أنس» في لهجة حاسمة تشفّ عن اليقين:

- سمعته وهو ينهر من يُصحح له أخطاءه أكثر من مرّة، حتّى أنّه انفرد به بعد أن انفضوا من حوله وسبّه سبّة لا تليق بشيخ، كما أنّ كلماته هشّة لا قيمة لها، فهو يقول الشّيء وضدّه في ترانيمه، ليس هذا بحكيم.

- لماذا كلّ هؤلاء يقدّسونه؟

- لا ريب هُناك سبب!

- فلنــحذره إذًا.

- نعم فهو يُظهر غير ما يُسر ويُبطن، لو كان عالمًا حقًا لتواضع لهم، لكنّه يبدو كاليربوع[1]، عندما يصل لغايته منهم سيدخل جحره ولن يُعرف له أثر.

***

توقّفت القافلة فجأة، نادى الحارسان الحاملان للشُّعل على الخدم، فهرولوا للمقدمة، وكان «أنس» حريصًا أن يكون بينهم هو و«ميسرة»، فوجئ كلاهما بأضواء مُشعّة تصدر من بين الأشجار الكثيفة، لم يتقدّم الشّيخ ولا تلاميذه، لكنّهم كانوا يدفعون الخدم لاختراق تلك الأشجار

---

(1) اليربوع: حيوان بحجم الفأرة، وقد يطلق عليه لفظ الجربوع في جحره خدعة من الظّاهر.

حتّى يصلوا لمصدر الضّوء، مما أثار الرّيبة في نفس «أنس»، لم يتمكّن من كبح فضوله فتبع في الحال أحد الخدم وحمل معولًا مثله، تبعهما «ميسرة»، ودلفوا ثلاثتهم بين الأشجار الكثيفة، كان الضّوء يصدر من حجر مستطيل نُقشت عليه حروف ورموز كان كلّ رمز منها يشعّ ضوءًا من تلقاء نفسه، أخذ الخادم يضرب الأرض حول الحجر بمعوله، ثُمّ حفر حوله ليستخرجه من الأرض، كان مغروزا فيها كشاهد قبرٍ أو علامة أو إشارة ما، همس «أنس» للخادم وهو يحفر معه:

- ما المكتوب عليه؟

تريّث الخادم برهة مُفكّرًا ثُمّ قال:

- ممنوع!

سأله «ميسرة» غاضبًا:

- ما الممنوع؟

- قراءة السّجلات وترديد كلماتها باللسان!

ثُمّ أشار إليهما ليحملا معه الحجر، فقد كان ثقيلًا، أقبل خادم رابع ليُعاونهم، خرجوا بالحجر والنّقوش عليه تَضيء وتشعّ نورًا يزداد شيئًا فشيئًا، كانت عينا «أنس» لا تفارقها، وضعوا الحجر أمام الشّيخ «عُرقوب» الّذي لم يترجل عن جواده، بل أشار لاثنين من تلاميذه الأقوياء، فترجلا عن جواديهما ووقفا أمام الحجر، مرّا بأعينهما على النّقوش، ثُمّ التفتا نحو شيخهما، هزّ كلاهما رأسه بالإيجاب، فأجابهما بإيماءة ورمش بعينيه، فحملا مطرقتين حديديتين ضخمتين ففزع الخدم وتراجعوا للخلف فأجفل «أنس»، كان الصّمت الثّقيل يُخيّم على الجميع، والوجوه واجمة ونظراتهم تشخص نحو الحجر، كأنّهم سيشهدون جريمة قتل! لم يتبادلوا الحديث، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، كانت عيونهم تبرق

في الظّلام، بدأ التلميذان تبادل الطرق على الحجر حتّى حطّماه فانطفأ نوره فجأة، ففغر «أنس» فاه وكاد يصيح، لولا أنّ الخادم الرّابع الّذي كان يتبعهما قبض على ذراع «أنس» وهمس له:

- مهلًا!

همس «أنس» له:

- لقد حطّموا السّجل الّذي يبحثون عنه!

قال «ميسرة» وقد مال برأسه عليهما:

- ويحرّمون قراءتها باللسان!

قال الخادم بعد أن ترك ذراع «أنس»:

- لكننا لا نملك أن نعترض.

رماهما بنظرة تحمل رسالة تحذير قصيرة، فَطِن إليها «أنس»، وكذلك «ميسرة» الّذي قال لـ «أنس»:

- هذا هو الخادم الّذي حذّرني من تناول الأعشاب وسكبها على الأرض.

أنهى التّلميذان مهمّتهما، وعادت القافلة لسيرها، كان «أنس» يتعجّب مما حدث، تكرر الأمر مع حجرين آخرين، وكانت النّقوش مُختلفة، فقد لمحها «أنس» قبل أن تنطفئ أضواؤها تحت المطارق وهي تسحقها، طال المسير، وأخذ الشّك ينصب شباكه في رأس «أنس». في نهاية رحلتهم، وقبل طلوع الفجر، كانوا قد وصلوا إلى بستان فسيح، فنصبوا خيامهم مرّة أخرى، قطفوا من ثمار أشجار البُستان الّتي كانت أغصانها تلقي بثمارها بمجرّد مرورهم من تحتها وكأنّها تدعوهم لتذوّقها، شربوا منقوع العشبة الغريبة الّتي كان أحد تّلاميذ الشّيخ يحملها بنفسه ويوزّعها عليهم، سكبها «ميسرة» خلف شجرة ولم يشربها، وكذلك فعل

«أنس»، خلد الجميع للنوم، غطمط القِدر مرّة أخرى، وفرقعت نيران الأثّافيّ، وسكنت الخيول، وعلّق «ميسرة» ستاره المُرقّع بين شجرتين عريضتين، فقال له «أنس»:

- وجوده كعدمه!

- هذا السّتر المُرقّع على ضعفه سيحفظ لنا بعض الخصوصية، اعتدت ردع فضول النّاس هكذا يا سيّد «أنس».

كانا مُتعبين، وقد أنهكهما السّير الطويل، لم يتمكّنا من النّوم من شدّة البرد، ولم يرِقّ قلب أحد لهما، حتّى باقي الخدم كانت لهم خيام، لكنهم رفضوا أن يضموهما لخيامهم فهما غريبان، فقررا النّوم بالقرب من النّار بعد أن يُغلق الجميع خيامهم بأستارها الثّخينة، والّتي كانوا حريصين على إغلاقها جيّدًا.

*****

3

جزيرة سُقُطْرى

أَقْمَر

كان «أَقْمَر» يرزح تحت موجة من المشاعر المختلطة، قَلَقٍ لأنّه اضطر للرّحيل من الجزيرة مع «فرح» وخالته «زهراء» بتلك الطريقة، وتَحنانٍ للوطن فــ «سُقُطْرى» هي مسقط رأسه، وخَوفٍ من كَونه لم يتخطّ أمر مقتل والديه أمام عينيه بالشّكل الكامل، فكلّ خطوة هُنا ستنبش الذّكريات، كما كان لديه شوقٌ شديد إلى حضنهما، وألم يمسّ الحنايا ويهزّ الضّلوع، على الرغم من أنّ خالته «زهراء» لم تترك له مجالًا ليشكو من افتقاده للحنان والحبّ، فقد كانت له أُمًّا، وأبًا، وصديقةً يثق بها ويتكئ عليها لينهض عندما يتعثّر أو يسقط. لم ينس قط نظرة والديه إليه وهما يُفارقان الحياة وكأنّهما يعانقانه بمقلتيهما العناق الأخير، ويوصيانه بعدم البوح بالسرّ، وألّا يخبر أحدًا أنّ ميراثهما انتقل إليه، فقد منــحاه له قبل الهجوم عليهما في تلك الليلة عندما شعرا باقتراب الخطر، كان هناك رجلٌ يحجزه عن التقدّم نــحوهما، ويقبض بقسوة وضراوة على معصمه، فلزم الصّمت، وبكى بحرقة، لم يكن حينها على

علم بكيفيّة استخدام الضّوء القويّ الّذي ينبثق من كفّيه لينقذهما لصغر سنّه، وظلّ في مكانه بعد رحيل القتلة حتّى ظهرت خالته وأطفأت جمرة قلبه المُشتعلة بحضنها الحاني، لم تجرؤ على مواجهة «البواشق»، حتّى زوجها الّذي كان في رحلة تِجاريّة لم ينجُ من بطشهم، فقد كان من «العنادل»، وهم يكرهون «العنادل»، لأنّهم لا يُقدّسون أبناء «خَنْدَريس» وهو زعيمهم وأكبرهم نفوذًا، قتلوا زوجها عندما عاد من تجارته، فانفطر فؤادها قهرًا عليه، وها هم يقتلون أختها وزوجها الطّيّب، ولم يبق لها غير «أَقْمَر»، فاحدودبت عليه وربّته ورعته وأغرقته بحنانها الفيّاض، ذات ليلة وعندما أطلق من كفّه هالات بيضاء من الضّوء الأشهب ودفعها لتُحلّق في سقف الغرفة كما كانت تفعل أُمّه لتلهيه قبل أن ينام، أدركت حينها أن أختها وزوجها قد منــحا صغيرهما ميراثهما، فقد كانا من عِرق واحد تميّز أفراده بقوّة الضوء، بيد أنّ أُختها ورثته عن أُمّهما، أمّا هي فلم ترث غير ينبوع الحنان الّذي يتدفّق من قلبها، فهربت بـ «أَقْمَر» لتحميه من بطش «البواشق» إلى جزيرة أخرى على مركب من مراكب المُزارعين الّذين كانوا يحملون فواكه جزيرتهم المميّزة لــ «سُقُطْرى»، أقامت هُناك معه بالجزيرة الخضراء لعدّة سنوات. كان «أَقْمَر» كسائر شباب تلك الجُزر، متيّم بالمحيط وزُرقته الفاتنة، قلبه يهفو لجزيرة «سُقُطْرى» دُرّة التّاج بين مثيلاتها، يتوق لليلها، وسمائها، يُحبّ أشجارها، ويعشق طبيعتها السّاحرة، لكنّه لم يجرؤ على العودة إليها قط، وها هو اليوم يعود. كان يُدرك أنّه مُختلف، وأنّه ورث ميراثًا لا يُستهان به، لطالما أخبرته خالته أنّه سيستطيع التكيّف معه مثلما فعل والديه، وكانت تُذكّره دائمًا أنّ تلك القُدرات الخارقة لا بدّ أن تُسخّر للخير، ليس من الضروريّ أن تكون للقتل والتخويف، واستعراض القدرات، وسيطرة جنس على جنس آخر، وأنّه بشر وقد تُمرضه قرصة بعوضة فتُهلكه، أو

يلدغه عقرب فيموت في الحال، وقتها لن ينفعه الضّوء، كما علّمه شيخه أنّ العابد الحقيقيّ لا يرغب في الكرامات والقُدرات الخارقة، ولو ظهرت عليه لا بدّ أن يُخفيها، وأنّ البشر خُلقوا لعبادة الله الواحد الأحد، لا بدّ أن يحذر من إظهار قُدُراته حتّى لا يُقدّسه النّاس كما فعلوا مع باقي أبناء «خَنْدَريس».

لا يزال يذكر كيف كانت تصنع أمّه دوّامات الضّوء بأصبعها وتدفعها في الهواء لتدور، يفعل هذا أحيانًا عندما يطول سُهاده وهو مستلقٍ على ظهره في غرفته، لا يزال يذكر كيف كان أبوه يضيء شاطئ البحر ليلًا بيديه ليُساعد الصيّادين ويدلّهم على الطريق دون أن يُظهر نفسه أمامهم، كانوا يظنون أنّه ضوء يصدر من طيف من الأطياف الّتي تسكن كهوف ذلك الجبل القريب من الشّاطئ، حتّى أنّهم أطلقوا عليه «طَوْس»[1]، كانوا عندما يعودون كلّ ليلة في الثلث الأخير من الليل، ينادونه: «طَوْس.. طَوْس»، كان أبوه دائمًا هُناك كـ «الطّوس»، على الشّاطئ، يختبئ ويُطلق الضّوء من يده، خاصّة في الليالي الحنادس من كلّ شهر.

عمل «أَقْمَر» بالزّراعة عندما اشتدّ عوده، عاون خالته، وبارك الله في بستانهما، واستقرّا في الجزيرة الخضراء، سمعا عن «طرجهارة» ووصلهما خبر إلقائها بالسّراديب الملعونة، لم يعرف أحدٌ عن سرّ «أَقْمَر» سوى شيخه الّذي يُجلّه، وابنته «سُبُحات»[2].

كانت «سُبُحات» فتاة رصينة رهيفة وكأنّها من عاج، ملامحها بالغة الرّقة والعذوبة، لا تُحدث جلبة إن حضرت، فهي تميل للسّكون، إن نطقت

(1) طَوْس: هو اسم من أسماء القمر.

(2) سُبُحات: جمع سُبْحَةُ، وهي الخرزات المنظومة للتّسبيح، وتُطلق على مواضع السجود، والدّعاء، وصلاة التطوّع.

فصوتها هادئ حنون، وعندما تُغادر تترك من خلفها وهو يتساءل عن تلك الرّاحة الّتي غادرت المكان. رآها «أَقْمَر» أوّل مرّة وهو في الثانية عشرة من عُمره، عندما كان يملأ البستان ضجيجًا مع رفاقه، ويقذفون بعضهم بالحجارة فأصابها دون قصد فبكت في صمت وانصرفت ولم تشكه لأبيها، فقال لخالته:

- «تلك الفتاة طيّبة».

ثُمّ زارتهم وكان في السّادسة عشرة من عُمره مع أُمّها وكانت تراقب الهررة وتبتسم في لطف ووداعة، فقال لخالته:

- «تلك الفتاة هادئة».

ثُمّ رآها وهو في الثّامنة عشرة من عُمره، كان قد تعلّم الجدال وطال نقاشه مع أبيها الّذي كان يعدّه شيخه ومُعلّمه، فقاطعتهما وأجابت سؤالًا من أسئلته ببلاغة فانعقد لسانه، فقال لخالته بعد انصرافهما:

- «تلك الفتاة ذكيّة».

ثُمّ رآها وهو في العشرين من عُمره بثوب قشديّ ووشاح بلون زُرقة السّماء، كانت تجلس في سكون على الشّاطئ ليلًا تنتظر عودة مركب أبيها، فرأته يقف وحيدًا على الشّاطئ. كانت تحفّه هالة ضوء أبيض وهو يُلاعب ماء المُحيط، يقترب فيبتعد الماء وينسحب كلّما اقترب منه أكثر، ثُمّ يتراجع فيُقبل الماء ويفيض على الشّاطئ، كأنّه قمر يُداعب ماء المحيط بالمدّ والجزر، أجفل عندما اكتشف أنّها تُراقبه، جذبته عيناها المنيعتان بعد أن تجاوزته وكأنّه سرابٌ، فعاد وقال لخالته على استحياء:

- «تلك الفتاة جميلة».

فضحكت الخالة، وأدركت أنّ قلبه يخفق..

ثُمّ رآها وهو في الثّالثة والعشرين وكان يرنو إليها راجيًا نظرة واحدة، فمرّت بمقلتيها كالبرق على عينيه، واختبأت خلف كتف أبيها، فشحب وجهه، ورجف قلبه، وعاد لخالته سقيمًا وقال:

- «لقد سرقت «سُبُحات» قلبي»!

فقررت خالته أن تتحدّث إلى شيخه في أمر زواجهما، لكنّ الشّيخ اختفى فجأة هو وعائلته، ولم يعد للجزيرة، ولم تره منذ شهور، كان هذا يُقلقها ويوجع قلب «أَقْمَر»، وبعدها طال سُهاده، أصبح قليل الكلام، لا يزال يحلم بـ «سُبُحات»، كان ينسج في خياله حياة أُخرى، في جزيرة خاصّة تطفو فوق بحر عينيها المحفوظتين في ذاكرته، لا أحد يتنفّس الحبّ على أرضها سواهما، يسير معها فوق الرّمال، يقتربان من الشّاطئ معًا، يركلان موج البحر بأقدامهما بعفويّة، ينثران الماء على بعضهما ويضحكان بجزل كصغيرين بريئين لا يتبّل فكريهما إلّا ملح الطفولة، لا ضجيج هناك ليزعجهما، ولا خوف ولا تهديد، بل الكثير من الأمان.

وصل المركب الّذي كان يحمل «أَقْمَر» وخالته مع «فرح» لشاطئ جزيرة «سُقُطْرى»، وكانت «فرح» متكوّرة في حضن «زهراء»، فقد غشيها النّوم وهم في الطّريق، أيقظتها بلُطف وكانت الشّمس قد أزاحت عن وجهها نقابها بأكمله، وبدت الجزيرة في كامل زينتها، وقفت «فرح» مشدوهة وهي تقلّب ناظريها في الجزيرة المتّشحة بأثواب سُندسيّة موشّاة بالزهور بمختلف ألوانها وكأنّها عروس تستعدّ للزّفاف، ضحكت «زهراء» عندما فرط اندهاشها فقالت تلاطفها:

- أنت حقًّا فتاة جميلة!

صَرف «أَقْمَر» صاحب المركب، الّذي كان يُغطّي وجهه بوشاح وكأنّه يخشى أن يراه أحد، وسريعًا ما ابتعد عنهم فسألتهما «فرح» عنه، فأخبراها أنّه من عشيرة «المشّائين»، وهم جنس من البشر لكنّهم

مختلفون بطريقة ما، وأنّ منهم الصّالحين وأيضًا الطّالحين، وبعض أهل «سُقُطْرى» لا يرغبون في وجودهم على أرضها.

في تلك اللحظة، في الجهة الأُخرى من الجزيرة، كان «سُليمان» قد ترجل من المركب مع «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة»، وقد وصلوا للجهة الغربيّة من الجزيرة، حيث سيذهبون للقاء بعض «المشّائين» الّذين يعيشون في كهوف الجبال الّتي تقع خلف الشّلالات، ولم يغادروا الجزيرة رغم ما حدث بالماضي، ما زال «سُليمان» يحمل السّحليّة الصّغيرة، ولا تزال تقبع على صدره في سكون وتنصت لدقّات قلبه، لم يُضايقه هذا أبدًا، رنا إلى طائر من الطّيور المُلوّنة الّتي كان قد رآها عندما نفخ في البوق من قبل قُرب البئر، فرفع البوق على فمه ونفخ فيه بقوّة ليري رفيقيه أثره على الطّيور، فامتلأت السّماء بالطّيور الملوّنة بأشكالها العجيبة والغريبة الّتي أقبلت من كلّ حدب وصوب وبسطت أجنــحتها فوق الجزيرة، انتفض أهل الجزيرة، وهاجو وماجوا، وانطلقوا يرددون وهم يُشيرون لها:

- صوت الرّيح! صوت الرّيح!

حتّى «زهراء» أجفلت ورفعت رأسها وراقبت سرب الطيور وهو يطوف ويروح ويجيء ويموج وكأنّه يرقص مع الرّيح، وقالت بخفوت:

- صوت الرّيح!

- ما هو صوت الرّيح؟

- لحن لا يسمعه إلّا الطيور، يقولون إنّ أحد أجدادنا كان يهمس ببعض الكلمات، ويُناجي طيور السّماء، فتحمل الرّيح كلماته فتستجيب الطّيور لندائه، كان يجلس فوق هذا الجبل فتطوف به أسراب الطّيور كما ترى، وكأنّها ترقص حوله.

وقف الثّلاثة يُراقبون أسراب الطّيور، وكان الثّلاثة الآخرون يُراقبون نفس المشهد من الجهة الأخرى من الجزيرة، توجّهت «فرح» مع رفيقيها

لبيت «النَّطَاسِيّ»، وسار «سُليمان» مع صديقيه الغريبين ليصعد معهما الجبل، كان «خالد» حينها لا يزال نائمًا في بيت «النَّطَاسِيّ»، والصّغير «وجدان» ساكن في حضن «سَرْوَة» في سلام وأمان.

****

ظلّ «أنس» و«ميسرة» يتهامسان حتّى أتمّت الشّمس أناقتها، وارتدت حلّة الشّروق بأكملها، حينها شعرا بالدفء فغلبهما النُّعاس، كان «أنس» تائه في أفكاره، غارق في أحزانه، فهو لا يعرف أين أحبابه الآن، غطّى وجهه بثوب ليحجب ضوء الشّمس ونام، لكنّه فوجئ بعد قليل بمن ينزعه، كان نفس الخادم الّذي حذّرهما من الاعتراض على تحطيم الأحجار، كان رجلًا أربعينيًّا في مثل عُمر «أنس»، وضع سبّابته على فمه ليشير إليه ليلتزم الصّمت، أيقظ «ميسرة» وابتعد الثّلاثة عن النّار، واختبأوا خلف الستار المُعلّق بين الشّجرتين مرّة أخرى، جلس الرّجل أمامهما وقال:

- ربّما أزعجتكما، سامحاني لتطفّلي عليكما، أعلم يقينًا أنّكما لستما من عشائرنا، لهذا وجب عليّ تحذيركما، فالأمر جدّ خطير.
- أيّ أمر؟
- يصعب شرح التّفاصيل، لكن.. لا تُظهرا تمعّضكما مما يفعلونه بالسّجلات كما فعلتما الليلة الماضية، فقد يعرّضكما هذا للخطر.

سأله «أنس»:

- لماذا يُحطّمون السّجلات الّتي خرجوا للبحث والتّنقيب عنها؟

صمت هنيهة، كاد ينصرف دون إجابة، لكنّه أجاب وهو يوقّع كلّ كلمة وكأنّه يحصيها:

- يزعمون أنّها مُزيّفة، وأنّهم يُطهّرون الجزيرة منها ليُعيدوا كتابة السّجلات الصّحيحة من جديد.

قام لينصرف فقبض «ميسرة» على ذراعه وسأله:

- لماذا يهمّك أمرنا؟

تململ الرّجل، وجذب ذراعه بلطف دون أن يُظهر ضيقًا، منـحهما نظرة تشي بالكثير، ابتعد عنهما في صمت، وتركهما يتخبّطان في حيرة، كان ما حدث كافيًا لتدفّق جرعة من «الأدرينالين» في دمائهما كافيّة لإيقاظهما ربّما ليومين متواصلين، مرّت ساعة وكلاهما يحدق إلى صفحة السّماء، عاد «أنس» لتغطية وجهه لكي يحجب ضوء الشّمس وينام، ووضع «ميسرة» ذراعه فوق عينيه.

ران عليهما صمت خفيف قطعه «ميسرة» بقوله عن هذا الرّجل:

- اسمه «هائد»[1]، وهو المسئول عن طهي الطعام وتوزيعه على الشيخ وتلاميذه.

كان «ميسرة» يعرف اسمه، فالجميع يُنادونه به وقت توزيع الطّعام

قال «أنس» ولا تزال عيناه مغمضتين:

- هذا ليس بحال خادم، فيه وقار رجل حكيم، وهيبة شيخ نبيل، كما أنّ نظراته متقدة وتُشعّ ذكاء، يحسب الحساب للكلمة قبل أن ينطقها، حضوره له أثر.

- كأنّك تصف نفسك يا سيّد «أنس»! فيك نفس الوقار، والهيبة، والذّكاء، والنّبل، على العموم.. سنعرف حقيقته لاحقًا.

أطفأ كلاهما سراج عقله وناما، فقد كانا مُرهقين ومتعبين للغاية.

****

---

(1) هائد: رَجُلٌ هَائِدٌ أي تَائِبٌ، وعَائِدٌ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

فرح

جميلة هي جزيرة «سُقُطرى»، وجميلة طيورها، وجبالها، وشلالاتها، وأشجارها الخلّابة. رأيت شجرة غريبة لم أر مثلها من قبل! كان لها مظهر فريد، تاج مقلوب على شكل مظلّة ومعبأ بكثافة بالأغصان والأوراق الخضراء الزّاهية، ثمارها تُشبه التّوت بعضها لونه أحمر، وبعضها لونه برتقاليّ، كان هُناك طيور صغيرة تزدحم على تيجانها المقلوبة وتأكل تلك الثّمار الصغيرة، كان بعضها مشقوق السّاق ويسيل منها راتنج[1] أحمر داكن، وكأنّها تنزف!

اقتربت ولمست الرّاتنج بأصبعي وقُلت متعجّبة:

- تُشبه الدماء!

قال «أقمر»:

- هذا السّائل الأحمر يسيل منها باستمرار، ويُطلقون عليها شجرة «دماء الأخوين»، أهل «سُقُطْرى» يعدّونها شجرة مُقدّسة.

- لم يظنون أنّها مُقدّسة؟

مال «أقمر» بوجهه وهمس لي:

- يقولون إنّ هناك أسطورة تحكي عن أخوين تصارعا هنا وعندما قتل أحدهما الآخر سالت الدّماء على الأرض ونبتت منها تلك الشّجرة.

- هل هذا صحيح؟

ابتسم قائلًا:

- الله أعلم يا «فرح».

---

(1) الرّاتنج: مادة تخرج من أشجار كثيرة عند شَقّها، وتكون غالبًا مختلطة بالصُّموغ والزيوت.

- كيف يُقدّسون شجرة!
- لا تتعجّبي فهم يُقدّسون الأشخاص أيضًا.
- كيف؟
- سترين الغرائب هنا، يُقدّسون من لا يستحقّ التّقديس، يُصدّقون أكاذيبه، ويُخدعون بالمظاهر، لهذا أخشى عليك.
- من ماذا؟
- من تقديسهم لكِ لأنّك تحملين هذا الميراث!

أكملنا طريقنا، وكان أهل «سُقُطْرى» يطالعوننا بفضول، لكنّ الكثير منهم تعرّفوا على السيّدة «زهراء»، وسمعت همس بعضهم وهم يتعجّبون من «أَقْمَر» بعد أن كبر وصار شابًا، قالوا إنّه يشبه أباه كثيرًا، كُنت أحتضن خريطتي وأسير بجوارهما وأتفادى لمس كفوفهما حتّى لا أرى المزيد من الذّكريات المؤلمة، تذكّرت أنّ خريطتي تتغيّر بتغير المكان، ففتحتها ووجدت مخططًا لجزيرة «سُقُطْرى»، كان فيه كلّ شيء، الجبال، الشّلالات، وحتّى أشجار «دم الأخوين» كانت موزّعة على التخطيط مما أثار إعجابي، لمحها «أَقْمَر»، وتعجّب من تغيّر التخطيط، فوضع يده على كتفي وهمس قائلًا:

- تلك الخريطة غريبة يا «فرح».
- لا تختلف غرابة عن الضّوء الّذي خرج من يديك.

توقف فجأة عن السّير، نظر إلى عينيّ بجديّة شديدة وقال:

- هذا سرّ لا يعرفه أحد هنا، فهل تحفظينه من أجلي؟

قالت «زهراء» وهي تتلفّت يمينًا ويسارًا:

- لم يعد سرًّا، لقد رآك الجميع هناك، وسينتشر الخبر كانتشار النّار في الهشيم، فلنسرع لبيت «النَّطَاسِيّ» يا بنيّ.

قبضت السيّدة «زهراء» على يدي، نسيتْ أنّهما اتفقا على عدم الإمساك بيدي، وجدتهما منذ تلك اللحظة لا يكترثان لهذا وتعاملا معي دون احتراز من كوني أستطيع معرفة أسرارهما، هرولنا على الطريق، بدأتُ أرى ذكرياتها في طرقات «سُقُطْرى» فور مُلامسة كفّي لكَفّها، فنزعتُ يدي من يدها وأمسكت بكمّ ردائها، فالتفتت نــحوي مُتفهّمة ومنــحتني ابتسامة لطيفة.

ابتعدنا عن السّوق، والزّحام، والبيوت المتقاربة، سرنا في طريق طويل، حتّى وصلنا لمنطقة هادئة نائية من الجزيرة، رأيتُ دارًا واسعة أمامها ميدان فسيح وخال من البشر، كان للدار بوّابة ضخمة من خشب مدقوق عليه رموز بنفس الخطّ الّذي رأيته من قبل على بوابة السّجن، طرق «أَقْمَر» الباب طرقات متوالية، بعد قليل فُتح الباب، كان خلفه رجل تبدو عليه أمارات النّباهة، عليه ثياب رماديّة منمّقة، علمت أنّه «النَّطَاسِيّ»، أجفل عندما رأى «أَقْمَر» على أرض جزيرة «سُقُطْرى»، فأدخله وخالته وأدخلني معهما في الحال، أخرج رأسه من فرجة الباب ونظر يمينًا ويسارًا، كأنّه يرى هل هناك من يتبعنا أم لا، شعرتُ بالرّاحة فور دخولي تلك الدّار، جلست بجوار السيّدة «زهراء»، كان «النَّطَاسِيّ» يُنادي زوجته، الّتي أقبلت وعانقت السيّدة «زهراء» عناقًا طويلًا، وبكت كلتاهما، ثُمّ هرولت لخارج الغُرفة وعادت وهي تحمل رضيعًا، كانت تبتسم بلطف وهي تُهدهده، جلست بجوار السيّدة «زهراء» وقالت وابتسامتها ترتجف على شفتيها:

- هذا ابن «رَهَف»، ماتت وهي تلده.

وضعت السيّدة «زهراء» يدها على فمها عندما سمعت بوفاة أُمّ هذا الرّضيع، حملته منها واحتضنته في وجل وإشفاق. اقتربت زوجة «النَّطَاسِيّ» مني وقالت وعلى وجهها ابتسامة واسعة:

- أخوكِ هنا!

ارتجّ قلبي، وصرخت رغمًا عنّي:

- «خالد»؟

- نعم.

تعجّب «النَّطَاسِيّ» مما سمعه من زوجته، ثُمّ قال وهو يفرك جبينه:

- «أصحاب القلانيس الزّرقاء»؟

- نعم.

- بماذا أخبروكِ أيضًا يا «سَرْوَة»؟

- لا أذكر يا «غيث قلبي»!

عادت تحمل الرّضيع، ولم ترفع عينيها عن وجهه، التفت «النَّطَاسِيّ» نــحوي وقال بلطف:

- سأذهب لإيقاظ «خالد» في الحال.

خرج من الغرفة، كدت أركض خلفه، لكن السيّدة «زهراء» أمسكتني من ذراعي، وأشارت لي بيدها لأصبر وأنتظر، كنت أتلهّف لرؤية أخي، جلست والأسئلة تدور في رأسي، من هم «أصحاب القلانيس الزّرقاء» الّذين أخبروا تلك المرأة أنّني شقيقة «خالد»؟ هل يعرفون أين أبي؟

دلف أخي فكانت رؤيته كشربة الماء بعد طول الظّمأ، احتضنني طويلًا فلمست في حضنه روح أبي وحنانه، كنت في حاجة لهذا الأمان، سألني وعيناه تتذبذبان من شدّة القلق:

- هل أنتِ بخير؟

- بخير.. هل رأيت أبي؟

- لا، حتّى أنني لا أعرف هل هو معنا هنا أم لا! ولا أدري هل تعرّض «سُليمان» لما تعرّضنا له أم لا؟

- و «ميسرة»!

اغرورقت عيناي بالدّموع، خشيت على أبي، عاد «خالد» يسألني:

- ماذا حدث لكِ؟ أخبريني بالتّفصيل من لحظة وصولك وحتّى الآن.

دلفنا لغُرفة أُخرى كانت أكثر دفئًا، جلسنا حول مائدة عامرة بالطّعام، وتبادلنا الأحاديث، أخرج كلّ منا ما بجعبته، أدركت ما مرّ به أخي «خالد»، وأدرك هو ما مررتُ به بالسّراديب الملعونة، تفحّص الخريطة، حذّرنا «النَّطَاسِيّ»، وأخبرنا أننا في خطر، ولو علم بعضهم بالميراث الّذي نـحمله قد يهدد أحدنا بقتل الآخر إن لم نمنـحه له، فتلك نقطة ضعفنا.

سألونا كثيرًا عن «مملكة البلاغة»، شرح «خالد» الكثير من الأمور لهم، لم يكن من الصّعب عليهم تصديق أنّ الكُتب حيّة، تستدعي المُحاربين، فلديهم ما هو أعجب من قصّتنا، ويكفي خوارق أبناء «خَنْدَريس». صدّق «أقمر» وخالته الآن ما أخبرتهما به من قبل عن مملكة البلاغة عندما أكّد «خالد» على كلامي.

يبحث النّاس عن الصّدق في وجوه الكبار فقط! وآه لو يعلمون كيف يصدق الصّغار!

طلبتُ من أخي أن يعطيني يده، فتركها بين كفّي، فرأيت ما مرّ به، تألّمت عندما تلقّاه «وِجدان» بالضربات، حزنت لبكاء «وِجْدان» على زوجته، سمعت بكاء الصّغير من شدّة البرد والجوع، وانتفضت عندما طُعن «وجدان»، شعرت بالصّاعقة الّتي أصابت جسد «خالد» وهو يتلقّى الميراث من «وِجْدان، سمعت وصيّته، أشفقت على أخي عندما

كان يدفنه، فتركت يده ودموعي تسيل، بكيت في نشيج مسموع، أدركوا جميعًا أنني أُعاني مما أحمله، وقفت «سَرْوة» فجأة، وكنت أشعر أنّها تعي أشياء مما نقولها، تغيب في أحايين أُخرى في عالمها الخاصّ، قالت وهي تضع الرّضيع مرّة أُخرى بين يدي السيّدة «زهراء»:

- تحتاجين شيئًا ليدفّئ كفّيك، سأحضر أدوات الخياطة.

انصرفتْ وعلى وجهها نفس الابتسامة البريئة الّتي لا يُعكّرها شيء أبدًا! فقال زوجها وهو يرنو إليّ:

- تقصد أنّها ستخيط لك كفين من جلد أو قماش لأن الأمر منوط بيديك، هي تعلم قصّة «طرجهارة»، لكنّها...

قاطعه «خالد» ولم يدعه ليُكمل جملته، وقال:

- فكرة رائعة، لا عليك يا سيّدي.

لم يرد أخي إحراجه بتركه يشرح طبيعة زوجته، فقد كانت «سَرْوة» عاطلة عن كلّ كِياسة[1]، لكنّها كانت لطيفة جدًّا وحلوة، وإن كانت لا تُجيد إدارة الحوار معنا، حتّى أنني أحببتها للغاية.

انطلق «أَقْمَر» يسأل «النَّطَاسِيّ» عمّا عرفه عنه:

- هل حقًا لديك طريقة لنزع مواريث «خَنْدَريس» عن حامليها؟ هل من الممكن أن تُخلّص «فرح» من ميراثها لترتاح منه دون أن تنقله لابنة «طرجهارة»؟

- للأسف، شاع عنّي هذا الأمر بين أهل «سُقُطْرى»، وهو غير صحيح، يظنون أنني أملك الحلّ لكلّ المشكلات، والعلاج لكلّ الأمراض، والحلول لكلّ أُحجية يواجهونها.

- ما الحل إذًا؟

---

(1) كِياسة: ذكاء ولباقة.

- سنـحميها ونبقي الأمر سرًا، وإن لزم الأمر نُهرّبها ونُعيدها لوطنها.

كانت السيّدة «زهراء» قلقة، فقد أظهر «أَقْمَر» قُدراته ليحميني، لن تتمكّن من العودة معه للجزيرة الخضراء، وهي تخشى عليه من عداء «البواشق» هنا، تخشى أن يتنامى في صدره العدوان تجاههم وينخرط في معارك للانتقام منهم لمقتل والديه، كانت تعلم عن حزنه لغياب الشّيخ «هائد»، وقلبه مُعلّق بـ «سُبُحات»، التفتت نـحو «النَّطَاسِيّ» وقالت:

- كان الشّيخ «هائد» عندنا منذ شهرين، ثُمّ لم نره بعدها.

- هذا ما يحرق رأسي، لا أدري أين اختفى!

- كان يزورنا كلّ شهر مع عائلته، وكنّا ننتظر زيارتهم.

- لعلّه بجزيرة «النور».

انتبه «أَقْمَر» عندما سمع هذا وقال:

- سأبحر إليها لعلّني أعثر عليه هُناك.

أجفلت السيّدة «زهراء» وصاحت:

- لن تخرج من هنا الآن، سيعرفون حقيقتك.

- فليكن، أنا لا أخشاهم.

ربّت «النَّطَاسِيّ» على كتفه وقال يُطمئنه:

- لا تخرج اليوم، لننتظر حتّى نرى ما سيحدث، فموت «طرجهارة» وانتقال ميراثها لـ «فرح» سيشعل غضب الكثيرين.

- وموت «وِجدان» أيضًا.

- لا أحد يعلم بموته، ولا يعرفون أنّ هذا الرّضيع ابنه.

التفت «أَقْمَر» تجاه «خالد» وسأله:

- هل رآك أحد وأنت تحمل الصّغير إلى هنا؟

- فقط اثنان من الشّباب، كانا يجلسان أمام دارهما، ويتضاحكان، هما من دلّاني على الدّار هنا، لكنّهما لا يعرفان من أنا، ولا من أين أتيت.

عادت «سَرْوة» برقعة من الجلد، وجلست تقصّها، وتبطّنها بالكتّان، وتخيطها أمامنا، انطلق «النَّطَاسِيّ» يُحدّثنا عن العلوم، والنّباتات، والأعشاب، والطيور بأنواعها على جزيرة «سُقُطْرى»، مضى الوقت وانتهت «سَرْوَة» من حياكة قفّازين مستديرين بمقاس كفيّ، ارتديتهما بمساعدتها، ضبطتهما «سَرْوة» بمهارة، ووقفت تتأمّلهما وضحكتْ كطفلة صغيرة، احتضنتني، ثمّ عادت تغزل خيوط أسرارها وحملت الرّضيع، وكأنّها لم تفعل شيئًا، أعاقني هذا القفاز عن الإمساك بالأشياء فقد كان يُشبه قفّاز الملاكمة، قرر «خالد» الخروج للتجوال بالجزيرة للبحث عن أبي، أو «سُليمان»، فقد كنّا لا نعرف هل هما معنا بـ «سُقُطْرى» أم لا؟ وتساءلنا هل «ميسرة» أيضًا انتقل معنا أم بقي هناك. لم يرض «خالد» بخروجي معه في البداية، لكنّه لم يجرؤ على تركي وحدي، ولم أترك ذراعه، فقرر «أَقْمَر» الخروج معنا ليحمينا، رغم تأكيد «النَّطَاسِيّ» على أنّ أخي «خالد» يستطيع الإطاحة بأيّ عملاق بكفّ واحدة، لكنّ «أَقْمَر» أصرّ إصرارًا شديدًا على الخروج معنا، كانت خالته «زهراء» تُعارض هذا الأمر، لكنّها في النّهاية لزمت صمتها اللطيف، ففارقناها على باب الدّار، كُنت أشعر بالأُلفة وأنا في بيت «النَّطَاسِيّ»، لكنني كنت خائفة على أخي، وخشيتُ ألّا أراه مرّة أُخرى، وكذلك خشي هو أن يفقدني، فخرجنا مع «أَقْمَر»، الّذي أطلق هالة من الضّوء فحلّقت كالمصباح في الهواء لتنير لنا الطريق.

****

صعد «سُليمان» مع «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة» الجبال وصولًا لكهوف «المشّائين» الّذين لم يتركوا «سُقُطْرى» منذ المذبحة الّتي فقد الكثير منهم أولادهم فيها، كانا يقصدان زوجين من حُكماء العشيرة، أحبّاهما دائمًا وكان بينهما ذكريات طيّبة، سألا عنهما حتّى وصلا لكهفهما، وكان «المشّاؤون» قد صنعوا لمداخل تلك الكهوف أبوابًا من خشب السّنديان، ووضعوا عليها رمزًا مميزًا اتخذوه شعارًا لهم، وقف «سَقَنْقُور» يطرق الباب، وانتظر الثّلاثة إجابة، وطال انتظارهم. كادوا ينصرفون لولا أنّ العجوز فتحت في النّهاية، دلفوا بعد السّلام الحارّ، وكانت سعيدة برؤيتهما، علما منها أنّ زوجها قد مات، وهي تعيش الآن وحيدة. سألتهما عن «سُليمان» وهي تنظر إليه بريبة، فأخبراها بما حدث له بالتفصيل، فحدّقت تجاهه بعينيها الغريبتين وقالت بصوت يُشبه الفحيح:

- ميراث «طَرْخُون»! وكيف تحملان همًا كهذا! هل جننتما؟ ألا تخشيان من بطش «عِشْرِقة» وأتباعها من «البواشق»؟

قال «سَقَنْقُور» وهو يرمش بعينيه:

- كيف نترك غلامًا في الحادية عشرة من عمره وحده وهو عرضة لهذا الخطر؟
- يبدو أكبر من عمره، وصحّته جيّدة، كما أنّه يملك عقلًا خبيثًا يكفي لإدارة أموره، ويستطيع حماية نفسه، وتَسخير أي ساكن من سُكّان «سُقُطْرى» لخدمته، بل يستطيع استعباد عشيرة بأكملها ما داموا يطوفون حوله، ليس في حاجة لكما أيّها الأحمقان!

كان «سُليمان» يتأمّل وجهها في صمت، بدأ الآن يُميّز بين أشكالهم بدقّة أكبر، فرؤوس الرّجال أكبر من رؤوس النّساء، وعيون النّساء أجمل من عيون الرّجال وتبقى كلّ أعينهم مخيفة، لكنّه كان قد اعتادها، لم يُعلّق على كلمات العجوز، لكنّه أدرك أنّها لا تُرحّب بوجوده.

انزعجت «شُرْشُمانة» من كلام العجوز، كانت يداها ترتجفان من شدّة الانفعال، فقد تعلّقت بــ «سُليمان» وأحبّته، فقالت بخفوت:

- «سُليمان» لا يرغب في فعل كلّ هذا، نودّ فقط المبيت حتى يحلّ الظلام لنتسلل لبيت «النَّطَاسِيّ»، لعلّه وصل لطريقة يستطيع بها تخليصه من هذا الميراث دون أن يضطر لنقله لأحد قد يؤذي أبناء «المشّائين» بخبثه مرّة أُخرى.

ثُمّ أضافت وقد زحفت نظراتها تجاه «سُليمان»:

- «سليمان» رقيق القلب، له حسّ مُرهف، حتّى أنّه يحمل واحدة من «الكومودو» على صدره.

انتفضت العجوز في مكانها وصاحت:

- ماذا؟ «كومودو»! نذير شؤم، اخرج من هنا.. اخرج.

قامت تضرب «سُليمان» بعصاها بقسوة وغلظة، وقد افترش الغضب وجهها فصار يُشبه الجورب المقلوب، فاحتضنه «سَقَنْقُور» ليمنع ضرباتها من الوصول إليه، أخرجه من الكهف، وعاد يُحدّث العجوز مع زوجته.

برزت له «بنات وَردَان» الثّلاث، أجفل وكاد يسقط، فرفعته «مرجانة» وأجلسته على صخرة، تعرّف على «ريحانة»، الّتي بدأته بالكلام قائلة:

- ما هذا الّذي تحمله؟

- «الكومودو».

قالت «كُركُمانة»:

- مقزز!

- لا تقولي هذا عنه!

كان غاضبًا وهو يقولها، لكنّهن أردن التّخفيف عنه، فقد رأين ما فعلته به العجوز، ووقفن يبعثرن غبارهنّ الملون حوله، فابتسم أخيرًا بحذر، بدأ الخوف يُغادره شيئًا فشيئًا، فقد التقى حتّى الآن بقزم مبتور

الأطراف الأربعة، وسار مع وحشين، ويحمل سحليّة على صدره، وها هو يتحدّث إلى ثلاث فتيات ملوّنات من بنات الجنّ. قالت «كُركُمانة» اللطيفة:

- لا تخف، نــحن بنات «وَردَان»!

قال ساخرًا:

- نــحن نطلق هذا اللقب على الخنافس!

طفقن يضحكن وكانت ضحكاتهنّ كالزّقزقة فضحك «سُليمان» عندما سمعها، وكانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يضحك فيها منذ وصوله، سألته «مرجانة» وهي تقرّب وجهها من وجهه:

- هل تعرف «فرح»؟

انتفض قلبه وصاح بحماس:

- نعم.. نعم.. أين هي الآن؟

- في طريقها لبيت «النَّطَاسِيّ»، و«خالد» هناك، هل تريد أن نــحملك إليهما؟ نستطيع ذلك!

وثب «سُليمان» فزعًا، تذكّر «رَيْهُقانة» فأخذ يُردد:

- لا.. لا أُريد أن يحملني الجنّ! سأذهب مع السيّد «سقنقور» والسّيدة «شُرشُمانة»، فهما أخبراني أننا سنذهب لدار «النَّطَاسِيّ».

بدأن يطفن به، وظللن يُثرثرن:

- لماذا تخشانا هكذا؟

- تخاف منّا ولا تخاف من تلك السّحلية!

- بل وتحتضنها على صدرك وتلتصق بجلدك!

اختلطت أصواتهنّ مما أزعجه، تسارعت دقّات قلبه، فأخذ يصرخ:

- ابتعدن عنّي.

في تلك اللحظة خرج «سقنقور» عندما سمع صوت «سُليمان»، وأخذ يُطمئنه. أخبره أنّ الجنّ على أرض «سُقُطْرى» كاذبون، لم تجرؤ «بنات وَردَان» على إظهار أنفسهنّ أمام «سقنقور»، فالمشّاؤون لا يخافون من الجنّ، وصوت صياحهن الحاد قد يلفت أنظار «البواشق» من الجنّ لهنّ، و«بنات وَردَان» يحرصن على التّخفّي، فمنذ اختفاء أبيهنّ وهنّ يفعلن هذا.

جلس «سقنقور» معه على سفح الجبل يراقبان ماء المحيط، كان «سُليمان» مضطربًا، فأخذ يُخفف عنه وقال وهو يُشير إلى الشَّاطئ القريب:

- كُنت أركض مع ابني هنا، بنينا معًا قصورًا من الرّمال، وكنّا نهدمها قبل أن نعود لكهفنا، كان غلامًا لطيفًا مثلك.

- لماذا لم تُنجبا طفلًا آخر؟

أجابه بنفس هضمها الحزن:

- نخشى أن ننجبه ونربيه فيموت فنتوجّع مرّة أخرى!

- وقد يكبر وتسعدان به!

كانت إجابة «سُليمان» بسيطة ومباشرة، و«سَقَنْقُور» يعرف هذا جيدًا، كما تعرف زوجته، لكنّهما غاصا معا في مستنقع الكآبة، ضرب صدريهما سهم الحزن، وكان الألم يعصر فؤاد «شُرْشُمانة»، فكانت في هلع مُستمر على فقد طفل لم تحمله في أحشائها بعد!

عندما نفقد شيئًا عزيزًا تعبنا لكي نــحصل عليه، وتحمّلنا المشقّة الّتي أنهكتنا، نخشى أحيانًا من تكرار التجربة، لأننا نعلم كيف كانت مرارة السعي للحصول على هذا الشّيء، وندرك أننا سنبذل جهدًا كبيرًا

مرّة أخرى، وقد تلازمنا أوجاع الفقد لفترة طويلة فتشلّ أركاننا، ولا نعاود المحاولة إلّا عندما ننسى قليلًا لأننا من المستحيل أن ننسى بشكل كامل، لكننا على الأقل ننسى بقدر كافٍ لنعاود المُحاولة، وهذا من ألطاف الله بنا، فالنسيان أحيانًا نعمة، وإن كُنّا لا نُدرك قيمته، وعندما يكون الفقد لولدٍ، يكون خوف الأمّهات من الفقد مرّة أخرى أعظم من الخوف من فقد الأشياء، وكانت «شُرْشُمانة» لا تزال عالقة في شَرك الذّكريات، وآلام الماضي تُسلسلها.

أخرج «سُليمان» السّحلية من تحت قميصه، لم يتمكّن من المسح على جلدها فقد كانت الأربطة تُغطّي كفّيه، تأمّلها ونظرت إلى عينيه، ثُمّ تسللت عائدة والتصقت بصدره مرّة أخرى، تعجّب «سَقَنْقُور» من فعلها وقال وهو يرنو إليها:

- لا أدري لماذا تكره عشيرتنا «الكومودو»! يقولون إنّها شيطان يزحف على الأرض، ولا بدّ أن تُقتل وهي صغيرة.

خرجت «شُرْشُمانة» وانضمّت إليهما، كان الهواء باردًا، أشفقت على «سُليمان» فخلعت شالها ولفّته به، كان جائعًا، ويرغب في النّوم، فقد أبحروا طوال الليل، رفضت العجوز دخولهم مع «الكومودو»، فصعدوا لكهف خالٍ يُصفّر الهواء فيه، نام «سُليمان» حتّى العصر و«الكومودو» ملتصقة بصدره بعد أن تناول بعض الفاكهة الّتي منـحتها لهم العجوز وأطعم «الكومودو» منها، وانتظر الثّلاثة هبوط الظلام لكي يتسللوا لبيت «النَّطَاسِيّ»، لعلّهم يجدون حلًا لنزع ميراث «طَرْخُون» الخبيث عن رأس «سُليمان».

****

استيقظ «أنس» و«ميسرة» عصرًا وكعادة أصحاب الخيام لم يستيقظ أحد حتى اقتربت ساعة الغروب، كان هذا ثقيلًا على قلب «أنس»، فإن

كانوا طُلّاب علمٍ فكيف ينامون كلّ هذا الوقت! كانت الأعشاب الّتي يتناولونها تخدّر العقل وتُرخي البدن بالفعل، لكنّه كره هذا على أيّ حال. رأى «هائد» يقف بجوار القدر، كان يبدو من خلف الأبخرة وكأنّه صنم لا يتحرّك، كان ينظر إلى «أنس» ويتمعّن في ملامحه في صمت، تبادلا النّظرات طويلًا، وكلّ منهما يودّ أن يبدأ الحديث مع الآخر، لكنّهما لم يفعلا. كانا متشابهين بطريقة ما، نفس العمر، ونفس الوقار، ونفس الصّمت العامر بالأفكار، ونفس الحذر، ونفس الذّكاء المتقد الّذي تشعّ به العينان.

أقبل فيلق من الجنود فجأة وأحاطوا بالخيام، كانوا يحملون سيوفهم، وأقواسهم، وكنانات السّهام تُطلّ من فوق ظهورهم، والخناجر تبرق كاللجين في أحزمتهم، بيد أنّهم لم يركبوا الخيول! شاع بين الخدم أنّ مراكب هؤلاء الجنود قد رست على الشّاطئ القريب، أخذ «ميسرة» يتفرّس في ملامحهم، كان يتساءل عن سبب انضمامهم لهم، فهل القافلة العلميّة تحتاج لهذا! هرول نـحو «هائد» ليسأله:

- من هؤلاء؟
- «البواشق».
- أليس «البواشق» عشيرة من عشائر الجنّ كما يقول الخدم؟
- كان هذا قديمًا، أمّا الآن فهم إلف من الإنس والجنّ معًا، تحالف مقيت.

قال «أنس» وكان يُتابع حوارهما:

- الجنّ يستطيعون قلب جزيرة بأكملها في لمح البصر، فهم يطيرون في الهواء، ويعيشون تحت الأرض، وفي قاع المُحيط، ويستطيعون نقل الشّيء من الشّرق إلى الغرب قبل أن يرتدّ إليك

طرفك، يروننا من حيث لا نراهم، وربّما يعلمون ما يدور برؤوسنا، ولهذا أظنّ أنّ هُناك سببًا وراء هذا الائتلاف.

- صدقت فهم يتنافسون في عدد الأتباع والمُريدين، وأيّهم يُقدّس أكثر من الآخر من قِبل البشر، يُفتنون بالرّغبة في السّيطرة، والتّحكم في الآخرين، وأحيانًا بتعذيبهم، والتلذذ بهذا، عانى أهل «سُقُطْرى» منهم قديمًا، ولا تزال المُعاناة مُستمرّة.

قال «ميسرة»:

- والسّحرة يُسخّرون الجنّ أيضًا!
- نعم، وهناك من يفعل هذا بالفعل في جزيرة أُخرى.

ردد «أنس» مقولة جدّه «أبادول» الّتي قالها بعد قتله للساحر في «كويكول»:

- لن يغلب ساحر قلبًا مطمئنًا بالإيمان.

تأمّله «هائد» في صمت بعد سماع جملته الأخيرة. عادوا يتمعّنون في زيّ الجنود وسيوفهم وخناجرهم، فقال «ميسرة»:

- هؤلاء إذًا من الإنس الّذين ينتمون لـ «البواشق».
- نعم وهم في الحقيقة جنود «عِشْرِقة»، ملكة «سُقُطْرى»، فالجنّ لا يدخلون الجزيرة هنا أبدًا.
- لماذا لا يدخلون الجزيرة هنا؟

كاد «هائد» يُجيبه، لولا أنّ أحدهم كان قد بدأ بقرع الطّبول بإيقاع منتظم، ضجّ المكان بالأصوات الصّاخبة، كان عدد الجنود يُضاعف عدد أفراد القافلة، ودون أن يطلب منه أحد؛ انضمّ «أنس» لمُساعدة «هائد» في إعداد وتوزيع الطّعام، كان «هائد» ساكنا كسكون ماء بحيرة عذبة الماء برّدتها نسمات الهواء بلُطف، نظراته كانت تحمل مسحة انكسار

وتواضع، كان يتقن ما يفعله بعين خبير، حتّى توزيع الطّعام كان يؤديه بإتقان شديد، تدحرجت نظرات «أنس» تجاهه وهو يوزّع المهام على باقي الخدم، تلاقت عيناهما عدّة مرّات، عملا معًا في تناغم وانسجام، شعر «أنس» لأوّل مرّة أنّه التقى بصديق يُشبهه، انتهى وقت الطّعام، وانتقلا لمهمّة أخرى.

جمعوا رحالهم وانطلقوا ليُكملوا رحلتهم، وبعد أن قرر قائد الجنود السّير ليُفسح الطّريق لقافلة الشّيخ «عُرقوب» وهم يدخلون أكبر قرى الجزيرة، كان «أنس» يسير بجوار «هائد» عندما هرول «ميسرة» نــحوهما قائلًا:

- سيدخلون القرية الآن، يقولون إنّهم حطّموا آخر سجلّ من سجلّات المُعلّم النّبيل.

قال «هائد»:

- يُريدون محو أثره للأبد!

التفت «أنس» تجاه «هائد» وسأله:

- لماذا كلّ هذا الحقد والحنق على المعلّم النبيل وسجلّاته؟

- لأنّهم يُقدّسون «خَنْدَريس» وأبنائه، ويتّخذونهم آلهة! وتلك السّجلات تُحذّرهم من هذا، كما أنّه كان يعبد الله الواحد الأحد.

سأله «ميسرة»:

- ومن هو «خَنْدَريس»؟ ومن هم أبناء «خَنْدَريس»؟

- أبطئا من سيركما حتّى نبتعد عنهم ولا يسمعنا أحد، وسأروي لكما قصّتهم باختصار.

بدأ «هائد» يروي لهما قصّة «وِجْدان» و«رِيْدانة»، كيف تحوّل نسلهما إلى طائفة من البشر يحملون قدرات الجنّ الخارقة، كيف غرّت

تلك القُدرات عقول بعضهم فضلّوا وأضلّوا، كاد يُخبرهم بما تحتويه «سجلّات المُعلّم النّبيل» بشكل دقيق، لكنّ طبول الجنود عادت تتعالى، ورأى الثّلاثة الشّعل تتراقص من بعيد، فهرولوا نــحو المُقدّمة، لتتعرّى حقيقة تلك القافلة، وتنكشف سوأتها، وتتضح حقيقتها، إنّهم يُريدون هدم المعبد وحرق القرية بأكملها، يُحاصرون أهلها وهم بلا سلاح ولا عتاد، كان رجال القرية يتترَّسون[1] خلف الأحجار الضّخمة الّتي جمعوها وأحاطوا بها قريتهم، ومن خلفهم صغارهم يشبّون على أطراف أصابعهم وأعينهم تزأر في جسارة، حتّى النّساء وقفن هناك يشحذن الهمم، الكلّ يتعاضد لحماية وطنه، وقف «هائد» كالصنم مرّة أخرى، أغمض عينيه، كأنّه يستشعر شيئًا ما أو يُنصت لصوت ما، أو يحاول التّركيز، ثُمّ فتح عينيه فجأة وهدر قائلًا:

- أسرعا.

- إلى أين؟

- سننضمّ لأهل القرية، إلى «العنادل»، ولكن قبل أن ننصرف، أريدكما أن تعلما أنني...

- أنّك ماذا؟

- أنا من أبناء «خَنْدريس»!

قالها ثُمّ استدار وكأنّه لم يقل شيئًا، فارتجّ الأمر عليهما، استوقفه «أنس» وسأله بجدّية شديدة:

- كيف تكون من أبناء «خَنْدَريس»، وأنت تقول عنهم ما قُلته ووصفته؟

(1) يتترّسون: يقبعون بِتَحَفُّزٍ وَحَذَرٍ وَرَاءَ الْمَتَارِيسِ.

- أنا من أبناء «خَنْدَريس» بمنطقهم، لكنني من أبناء «وجدان»، وهذا هو الحقّ! جدّي الأكبر هو «وِجْدان»، كما أنني من «العنادل» وأعبد الله الواحد الأحد، ولقد ابتليت بـ «حاسّة العنكبوت».

- ماذا تقصد؟

- هذا ميراثي، الإدراك الحسّي لديّ خارق، إدراكي مفرط بمحيطي عن طريق حواسّي الخمس، وهذا يُعزز شعوري بالمعرفة الدّاخلية، عندما يصفو ذهني أستطيع توقّع بعض الأحداث القريبة جدًّا بشكل واقعي نظاميّ، لأنني أجمع المعطيات من حولي بشكل عنكبوتيّ، أشمّ رائحة القادمين من مسافات بعيدة، وأسمع صوت الرّعد قبل الآخرين، وأرى حركة الأشياء بسرعة أكبر من أيّ عين أُخرى لأنّ حواسّي خارقة، لهذا أستطيع إيقاف سهم قبل أن يصل إلى مرماه، وعقلي...

- ما به عقلك؟

كان «هائد» يتحدّث بألم، وكأنّه يتوجّع من تلك الموهبة، حتّى أنّه وصفها في بداية كلماته بالابتلاء، أضاف بصوت مخنوق:

- أحيانا يعمل عقلي في منطقة اللاوعي، بينما أتفاعل أنا مع ما حولي بمنطقة الوعي، فأشعر أنني أعيش في فقاعة معزولة، أرى كلّ شيء حولي بزاوية أُخرى، قد أرى ما لا يراه من حولي.

ثُمّ أضاف كلمات وقعت على رأس «أنس» و«ميسرة» كالمطرقة عندما قال:

- لقد سمعتكما، كنتما في مكان آخر مع أشخاص آخرين، شممت رائحة وطنكما، ورائحة ثيابكما وعطوركما قبل أن تظهرا هنا،

سمعت حواركما عن مملكة البلاغة، سمعت صلاتكما خلف السّتر، أدركت أنّكما تعبدان الله الواحد الأحد.

تواثبت دقّات قلب «أنس»، وسأله بتلهّف:

- هل رأيت ابنتي؟ وابني؟ هو شاب! وطفل أيضًا في الحادية عشر من عمره لكنّه يبدو أكبر قليلًا، كانوا معنا.

- لا، لكنّكم سقطّتم جميعًا في آن واحد على الجزر هنا متفرقين، سمعت لحظات ولوجكم، هناك من سقط بالماء، وهناك من سقط على أرض صلبة، وهناك من خطا بقدميه على أوراق الأشجار الجافّة، وهناك اثنان سقطا على رمال وأظنّ أنّكما هما!

انخلع قلب «أنس» عندما تخيّل أحد الثّلاثة وهو يغرق في الماء، ازدرد ريقه وقال بخفوت:

- أسأل الله أن يحفظهم.

أضاف «هائد»:

- وددت أن أسألكما عمّا يخصّ مملكة البلاغة، فما سمعته لم يُرضِ فضولي.

- سأُخبرك لاحقًا، لكن هل يعلمون هنا عن حاسّتك العنكبوتيّة؟

-لا.. كان أجدادي يضعون حجرًا كريمًا بين العينين ليُعلنوا عن أنفسهم، فيتوافد النّاس عليهم، يطلبون منهم النّصيحة، كان أهل «سُقُطْرى» يربطون هذا بالقُدسيّة والحكمة، ويتّخذون بعضهم منجّمين، لكنني كرهت هذا، وخرجت من «سُقُطْرى» هربًا من تلك الهالة الّتي يحيكونها حولي.

قال «أنس» وهو يتفرّس في ملامحه:

- نـحن نُطلق عليها الحاسّة السّادسة.

- مهما تغيّر اسمها، هي ابتلاء!

هرول «هائد» نــحو القرية من جهة الشّرق، كان الجنود يقفون جهة الشّمال عند مدخل القرية، تبعه «أنس» و«ميسرة» وهما يتخبّطان في حيرة، كان شباب القرية يراقبون الحدود جيدًا فرأوهم وهم يقتربون، وكانوا يعرفون «هائدًا»، عندما وصل لحدود القرية توقّف وألقى عليهم السّلام، فأفسحوا له الطريق هو ورفيقيه، بدأ الجنود يُطلقون سهامهم تجاه «هائد» و«أنس» و«ميسرة» عندما لمحهم تلاميذ «عُرقوب» وهم يدخلون، التقط «هائد» سهمًا من السّهام قبل أن يخترق عنق «أنس»، وكان أنس قد رفع يده بشكل تلقائيّ ليتفادى السّهام وكانت عصاه في يده، فأنزلها بعد ذلك على الأرض فطرقتها رغمًا عنه، فأطلقت نهرًا من النّار يجري في خطّ مستقيم، فزع من حوله وتراجعوا للخلف، توقّفت النّار عن التّقدم، فتبادل «ميسرة» و«أنس» النّظرات، الآن يعرف أنّ للعصا فائدة، انشقّت النّار في الحال لفرعين، بدأت تحيط بالقرية، كأنّها ترسم حدودها رسمًا، شَخَصَ الجميع نــحوه، ودّ «البواشق» لو دكّوا رأسه دكًا على صخرة، فقد فاجأتهم النّار، كانت لا تنطفئ بل تزداد اشتعالًا وارتفاعًا على الرّغم من غياب أيّ وقود لها! فقد كانت بعيدة عن الزّروع والأعشاب والأشجار، كانت تسير على الصّخر سيرًا وتنــحني يمينًا ويسارًا، وترتفع نــحو السّماء، حتّى حالت بين الجانبين وغابت صورة كلّ منهما عن الآخر.

طال الحصار، واشتدّ غضب «البواشق»، اجتمع «العنادل» يُنصتون لكلمة الشّيخ «هائد»، الّذي وفد إلى الجزيرة مع أهل بيته منذ شهور ليُحذّرهم من «عُرقوب» وأعوانه، و«البواشق»، الّذين يرغبون في محو أيّ أثر لهم ولمعلمهم النّبيل من الجزر كلّها، وأمضى شهورًا معهم ليعلّمهم

كيف يستعدون لتلك اللحظة، ثُمّ انضم سرًّا لخدم «عُرقوب» ومضى مع قافلته في صمت.

- سنُدافع عن أنفسنا، وعن القرية، لن يقربوا المعبد، ولن يتمكّنوا من الوصول لسجلّات المعلّم النّبيل الّتي في حوزتنا.

قالها وهو يتنقل بعينيه بين وجوه الرّجال والشّباب، فتعالت همهماتهم في حماس.

كانت دقّات قلب «أنس» تتواثب وهو يتصفّح وجوه الصّغار بحثًا عن وجه ابنته «فرح»، وعن وجه «سُليمان»، حتّى الشباب، كان يتمعّن في ملامحهم بحثًا عن «خالد»، كان رأسه يطفو وسط الزّحام كجذع شجرة يحمله ماء النّهر في كلّ اتّجاه، لم يعثر على أيّ منهم، أخذ الحزن يمضغ قلبه، فمسح وجهه بيديه لعلّ نفسه تهدأ، كان «هائد» قد انتهى من كلمته الّتي انشغل عنها «أنس»، لكنّ «ميسرة» تابعها بتركيز شديد، قال لــ «أنس» وقد لاحظ الهمّ الّذي ارتسم على جبينه:

- سيُقاتلون دفاعًا عن قريتهم ومعبدهم.

- حسنًا، وسنعاونهم، لكنني أودّ معرفة ما تحتويه تلك السّجلّات أوّلًا، لكنني لا أفهم كنه تلك اللغة الّتي كانت مكتوبة على الصّخور الّتي حملناها وحطّموها أمام أعيننا.

- يقول السيّد «هائد» إنّهم لن يستطيعوا الوصول للنّسخ الّتي حفظوها داخل القرية، ولن تطالها أياديهم أبدًا.

- لنطلب منه إذًا أن يُطلعنا عليها.

أقبل «هائد» عليهما فسأله «أنس»:

- أين سجلّات المُعلّم النّبيل الّتي بحوزتكم؟

ابتسم «هائد» وقال له:

- لماذا؟

- أودّ الاطلاع عليها!

رنا إليه وأشار لصدره قائلًا:

- في صدورنا، ورؤوسنا، حفظناها من أجل هؤلاء.

وأشار إلى الصّغار وأردف قائلًا:

- سنعلمهم كلّ شيء، العلوم، والفلك، وطبّ الأعشاب، وتاريخ «سُقُطْرى»، وحضارة أجدادنا، وبها الحِكم والمواعظ، وهندسة البناء، وأنساب القبائل كلّها، وقصّة أبناء «خَنْدَريس» الّذين يُحاربون كلّ هذا، ويرغبون في نشر الجهل ليستمرّ سُلطانهم، حتّى شيخهم يُخدّر عقول تلاميذه بعُشبة بائسة! كلّهم مُغيّبون يا «أنس»!

وأضاف بانفعال شديد:

- سنُعلّمهم أيضًا كيف يعبدون الله الواحد الأحد، ويغرّدون كما تُغرّد العنادل على أغصان الأشجار.. السّجلّات موسوعة جامعة بها معلومات في كل ميادين المعرفة، مرتبةً ترتيبًا هجائيًّا، وبها الكثير من أسرار «سُقُطْرى».

رجف قلب «أنس»، كان حدسه صادقًا عندما ظنّ أن «هائدًا» عالم بحقّ، أخذ يتساءل في نفسه، هل تلك هي الكُتب الّتي ينبغي عليهم استردادها؟ أم أنّ تلك ليست مهمّتهم! قال وهو يُدير الأمر في رأسه:

- لا بدّ أن يُدوّن ما برؤوسكم في كُتب!

- كان الوقت ضيّقًا، كُنّا نـحاول التّدوين، نـحاول أيضًا تحفيظها للآخرين، فهي كثيرة جدًّا.

- أليس من الصّواب أن يرحل الّذين يحفظون تلك السّجلات من هنا، أو على الأقل بعضهم؟

- لن يقبلوا بالخروج، لو خرجنا سنظلّ مُطاردين للأبد، ولن يكون للعنادل جزيرة، سيُمحى أثرهم، ولن يقبلنا أحد على جزيرته.

- ماذا لو...

- أرجوك لا تُكملها، لن يتركنا الله الواحد الأحد، سيكون هناك بصيص نور مهما ضاقت، أنا لا أستطيع تركهم ليواجهوا هذا وحدهم، وقد كُنت أحثّهم على الثّبات والقتال، ليس هذا من المروءة!

- حسنًا، ونــحن معك يا «هائد».

- هل تستطيع توزيع النّار بعصاك؟ أقصد هل من الممكن أن تُحاصرهم بها بدلًا منّا.

- لم أكن على علم بأنّ تلك العصا تُطلق نارًا إلّا الآن.

- من أين حصلت عليها؟

- لنتوجه لأرض خالية لأُجرّب العصا، وسأُخبرك من أين حصلت عليها، وبمهمتنا هنا على أرضكم.

ساروا نــحو أرض خالية من سكّان القرية، كان «أنس» قد أخبره بشكل مختصر عن مملكة البلاغة، والمحاربين، والمُستكشفين، شعر «هائد» بصدق «أنس» في كلّ كلمة يبوح بها، كان يستوقفه من آن لآخر، ويُخبره بأخبار «البواشق»، كانت حاسّته العنكبوتيّة تعمل بأقصى حساسيتها وقوّتها، بدا أنّه متعب من كثرة ما يراه ويسمعه ويُحسّه، فأشفق عليه «أنس»، أخذ يُجرّب عصاه، طرقها عدّة مرّات، لكنّ الأمر لم يجرِ كما كان يظنّ، عملت العصا فقط عندما أراد أن يحمي نفسه، لكنّها لا تعمل الآن، أُصيب «أنس» بإحباط شديد، لكنّ «هائدًا» كان يُطمئنه، وصل إلى مسامعه عزم «البواشق» على اقتحام القرية، وقتل شيوخها،

فقال والعرق يقطر من جبينه:

- صعد بعض الجنود الجبل القريب، سيكشفون القرية، وبدأت النّار تضعف، سيقتحمون القرية وسنقاتلهم، لكن عدني يا «أنس»، لو كانت لهم الغلبة، سأُعطيك إشارة لتهرب بأطفال «العنادل» ونسائهم للجزيرة الخضراء حيث يحكمها الملك «قَلمَّس»[1]، فهو حاكم عادل، قد عقد معاهدة مع «العنادل»، سيسمح لكم بالدّخول، والزموا بُستان «أَقْمَر» هُناك.
- من هو «أَقْمَر»؟
- شاب صالح أعرفه، وهو من «العنادل» لكنّه يخفي هذا هو وخالته، كما يُخفي قُدراته، فقد خرج من «سُقُطْرى» كما خرجتُ أنا منها لنفس السّبب.
- لكنني لن أتركك يا «هائد».

نظر «هائد» في عينيه لبرهة، ثُمّ قال بتأثّر:

- ربّما لم يُكتب لنا اللقاء من قبل يا «أنس»، لكنني أشعر أنني أعرفك منذ وقت طويل، أرى نفسي فيك بطريقة ما وكأنّك أخي وشقيقي، أنت تُشبهني كثيرًا! حتى في هلعك على ابنتك، سمعت صوت أنفاسك المرتعبة عندما كُنت تبحث عنها بعد وصولك هنا، حتّى أنني شعرت بالخوف مثلك، كذلك أنا في خوفي وهلعي على ابنتي، لا أعرف كيف أصف لك ما أكنّه إليك، لكنني أرغب في الجلوس معك طويلًا، لأتحدّث معك عن نفسي، عن ضعفي، عمّا أُفكّر به، وعن أحلامي، وهذا لا يحدث إلّا مع الصّديق الّذي نتكئ على كتفه، لم أحظ يومًا بهذا، فقد كانوا جميعًا يتكئون على كتفي يا «أنس».

---

(1) قَلَمَّس هو رجل الخير المعطاء والسيّد العظيم والرّجل الدّاهية.

اغرورقت عينا «أنس» وهو يقول:

«الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

- نعم، هو هذا!

بدا وكأنّ «هائدًا» قد سمع شيئًا ما طرق قلبه فجعل قميص الخوف يضيق على صدره، تبدّلت ملامحه، صار وجهه وجه القائد، انطلق يسير بينهم يُشعل الحماس، وزّع المهام على رجالات القرية وشبابها، تأهّبوا للدّفاع عن أنفسهم، اعتذر «أنس» عن عدم إمكان مُساعدتهم بعصاه، ثُمّ تراجع و«ميسرة» وانضما لبعض الشّباب، أسرعوا كما أرشدهم «هائد» إلى الجنوب، تبعهم النّساء والأطفال، وصلوا قُرب الشَّاطئ الجنوبيّ للجزيرة، كان هناك الكثير من المراكب أُعدّت لتلك اللحظات ترسو هناك، لكنّ النّار كانت لا تزال تفصل بينهم وبين الشَّاطئ. كانت النّار تتضاءل حتى انطفأت بالتّدريج، حلّ الظّلام على المكان، بدأ «البواشق» هجومهم، أمطروا القرية بالسّهام، وتقدّم بعضهم يُطيح بالرؤوس، ويقطع الأذرع بالسّيوف، أظهر رجال «العنادل» شجاعة وبسالة في القتال، ألحقوا بـ«البواشق» الكثير من الخسائر، وكان الخبيث «عُرقوب» قد توقّع حفظ الشيوخ للسّجلات، فكانوا هدفًا لسيوف أكثر الجنود بطشًا، شقّ «هائد» صفوفهم، كان يستقبل السّهام بجسارة، ويُمسكها قبل أن تنال منه، رشق سهم في كتفه فنزعه، رشق آخر في ساقه فكسره ومضى لا يلتفت، استطاع الوصول لـ «عُرقوب» وطعنه بخنجره، فطارده تلاميذه حتّى طعنه أحدهم طعنة نافذة في بطنه، فتحامل وابتعد عنهم، سقط على الأرض، حمله شابّان من شباب «العنادل»، كان لا همّ لهما سوى مراقبة الشّيوخ والمُعلّمين، ركضا به نحو الجنوب، سعيًا للوصول إلى المراكب لإنقاذه، فهما يعرفان أنّه الوحيد الباقي ممن يحفظون سجلّات المُعلّم النبيل، هرولا بكلّ ما أوتيا من قوّة، وصلا أخيرًا فأسرع «أنس»

تجاهم، التقف «هائدًا» في حضنه، كان يختلج بين يديه، أقبلت ابنته «سُبُحات» تبكي وتمسح وجهه، فقبّل رأسها، ثُمّ تعلّق بعنق «أنس» وهمس والدّماء تخرج من فمه:

- ها هو ميراثي بين يديك، لأجل أطفال «العنادل».

ثُمّ جذب «أنس» من قميصه وعانقه بما بقي له من قوّة، فشعر «أنس» بأنّ جميع حواسّه استيقظت فجأة، وأنّ الحرارة تطوف برأسه وكأنّها تشتعل، أحسّ بدفقة هواء قويّة تخترق أنفه وتشقّ قفصه الصّدري، رأى أضواء الشّعل وكأنّها تومض بقوّة، تعالت الأصوات من حوله حتّى أنّه صار يسمع أنفاس الحاضرين، كانت أنفاس «هائد» تخفت، وقد علت حشرجات صدره، وتعرّق جبينه، تسللت دمعة من عينيه وبقيت مقلتاه معلّقتين بوجه «أنس» حتّى سكنتا للأبد، شعر «أنس» بحزن شديد يغمر صدره، وكأنّه هو المطعون، كاد ينشطر من الحزن إلى نصفين، لم يملك حبس دموعه، تلفّت في حيرة، كان «ميسرة» يتعجّله للرحيل، فصمم «أنس» أن يحمل «هائدًا» معه بالمركب، انطلقوا جميعًا والبكاء والنــحيب يتعالى من المراكب، فقد وقف الشّابان يرددان أسماء الموتى، وقد رأوهم بأعينهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، كانت تلك هي المهمّة الّتي كلّفهما بها «هائد»، فقد كان دقيقًا في تخطيطه، ساعة واحدة مات فيها الكثير من الرّجال، وترمّلت النّساء، وتيتم أطفال «العنادل»، لم يبق إلّا قلّة من الشّباب أكبرهم «هِلال» وكان في العشرين من عُمره، كان هو الّذي حمل «هائدًا» مع أخيه الأصغر بعد طعنه، انطلق «البواشق» يحرقون البيوت، وهدموا المعبد ودكّوه دكًا، كانت «سُبُحات» تجلس قرب «أنس» الّذي صار ذهنه حادًا يقظًا ونشطًا كقلب البركان، وهي تحتضن رأس أبيها في نفس المركب، تبكي وتهمهم بصوت خافت:

- سنعود يا أبي.. سنعود!

****

كان «أبو بريص» يجلس بين كبار عشيرة «المشّائين» الغاضبين، فقد علم الجميع بمقتل «طَرْخون» وقصّة الغلام الّذي أخرجه من البئر، وكيف منـحه ميراثه الّذي كان سببًا في مقتل أبنائهم، وكيف ساعده «سَقَنْقُور» و«شُرشمانة». تساءلوا كيف تغلّب الغلام على «عفريت البرق الأحمر»، وكيف دخل البُقعة المحرّمة بسهولة، جلسوا في صمت يُراقبون «أبا بريص» وهو يلقي بمساحيقَ غريبةٍ في النّار أمامه، وينتفض، ثُمّ يفتح عينيه الضيّقتين، ويُقلّص عضلات وجهه، ويفتح فمه الواسع لتبرز أسنانه وهو يتمتم بطلاسمَ لا يعلمون كنهها، قال أخيرًا بعد أن ملّوا من الجلوس والانتظار:

- هذا الغُلام مُحصّن ومحميّ، لن ينجح الجنّ في اختراق جسده لأنّه الآن من أبناء «خَنْدَريس».

قال زعيم «المشّائين»:

- لا بدّ من القضاء على ميراث «طَرْخُون»، هو الآن يعيش في هذا الغلام، وسيعود لقتل أولادنا.

ثُمّ صرخ بحنقٍ شديد:

- افعل أيّ شيء، إن لم تخترق جسده بخدمك من الجن، فأنت تستطيع إيذاءه بطريقة ما.

شهق «أبو بُريص» وقلب عينيه ثُمّ خرج منه صوت وكأنّ هناك من يتحدّث من خلاله وقال:

- ائتوني بأثر منه.

التفت زعيم «المشّائين» وقال لحرّاسه:

- اقلبوا بيت «سَقَنْقُور» رأسًا على عقب حتى تجدوا أثرًا من هذا الغلام.

****

كانت «سُقُطْرى» تبدو فاتنة تحت جُنــح الليل، أضواء الشّعل المُتراقصة كانت تُضفي عليها لمسة سحريّة، كانت رائحة المحيط الّذي تستقرّ بحضنه على الدّوام تجوب أرجاءها، كأنّه يغار عليها ويُعطّرها كلّ ليلة ليُوقّع عليها ويُثبت أنّ لا رائحة تعلو على عطره وملحه. جاب «خالد» الطرقات مع «فرح» و«أَقْمَر» باحثًا عن وجه أبيه بين وجوه أهل الجزيرة، سار الثّلاثة في صمت، وكلّ منهم يسبح في أفكاره، كانت «فرح» تسير في المنتصف وتمسك بيد كلّ منهما، كان القفّاز يمنع لمس كفّيهما فأراحها هذا من رؤية ذكرياتهما، كان «أَقْمَر» قد تفحّص خريطة «فرح» الّتي كانت تستقرّ عليها الآن تفاصيل جزيرة «سُقُطْرى»، كان لا يزال لديه بقايا ذكريات من طفولته، قادهما لمكان بيته القديم، كانت الأرض خالية من أيّ أثر لبناء أو بيت، طاف الحزن بصدره، كيف تلاشى كلّ شيء؟

كان «أقمر» يُضيء وهناك عتمة في قلبه بسبب فقده لوالديه، يتوهّج وهو غارق في الحنين لهما، يُطلق الهالات وهناك طفل مُنطفئ يختبئ في صدره، يُشرق وقلبه مُهاجر نــحو الغرب مُفتّشًا عن حفنة من الذّكريات، ولا يرى الآخرون منه إلّا ضوءًا أزهر، وثغرًا بسّامًا، يُساعد الآخرين ويُخفف عنهم، وعندما يبتسمون ترشح السّعادة في نفسه، فالسّعادة ليست في الأخذ والاقتناء فقط، بل هناك شيء لطيف يتخلله عندما يكون عونًا لأحدهم، إنّها لذّة العطاء الّتي ذاقتها روحه الحانية، وما أروعها!

مرّوا بالقرب من المقابر الّتي دفن «خالد» فيها «وِجْدانَ»، لم يدخلوها حتّى لا يلفتوا الأنظار، بل سارعوا بالابتعاد عنها، محش الحزن قلب «خالد» عندما تذكّر لحظات «وجدان» الأخيرة، تواثبت دقّات قلبه حتّى ظنّ أنّه سيلفظه من فمه عندما رأى موكبًا يقترب، كان هناك جماعة

من شباب «سُقُطْرى» يتوجّهون نـحو وادي الموت الّذي يشهد معارك المصارعين، وكان «خالد» يخشى على «فرح» من بطشهم، مرّوا بهم وهم يتلفّتون تجاههم، فقد كان أهل الجزيرة يعرفون وجوه الغُرباء بسهولة، همس لـ «أَقْمَر» وهو يجذب «فرح» من يدها:

- من الأفضل أن نبتعد بسرعة.

- لا تقلق يا «خالد»، لن يمسّها أحد بسوء، فليجرّبوا وسيرَون ما سأفعله!

جذبته «فرح» من ذراعه وقالت بتأثّر:

- لا تكشف سرّك أرجوك، من أجل الخالة «زهراء»، فقلبها يتفطّر قلقًا عليك، لو رأيتَ ما رأيته من ذكرياتها لأدركت ماذا تعني لها! ستموت المسكينة لو أصابك سوء!

قال «خالد» معقّبًا على كلمات «فرح»:

- لو تعرّضنا للخطر عدني بأنّك ستخرج بـ«فرح» من هذا الوادي دون أن تلفت الأنظار إليها.

- أعدك.

وقف «أَقْمَر» يتأمّل وجه «فرح» الّتي كانت تتحدّث بتأثّر شديد، كانت مُحقّة، فهو لم يأبه لقلق خالته، وأصرّ على الخروج وتركها على باب الدّار دون كلمة تُطمئنها.

هزّ رأسه، وقال هامسًا:

- حان وقت العودة.

ساروا مبتعدين عن الحشد في صمت، لكنّ موكبًا آخر ضجّ به الطّريق، كان موكب «البواشق» مُقبلًا لينضمّ للموكب الآخر، لم يمرّوا بالثلاثة مُرور الكرام، بل أحاطوا بهم عن قصد، تبعثروا حولهم عندما

لاحظوهم، وتحرّشوا بـ«خالد»، وبـ «أَقْمَر»، كان كلاهما يحمي «فرح» قدر استطاعته، كان «أَقْمَر» أكثر صبرًا، أمّا «خالد» فاستشاط غضبًا عندما رأى أياديهم تطال شقيقته، فقد لاحظوا حرصه على عدم وصول أياديهم لها فأخذوا يستفزّونه، حتّى أنّهم أخذوا يلمسون رأسها وشعرها، ويقرّبون وجوههم من وجهه تنمّرًا ليستفزّوه، حدث هذا مرّة، ومرّتين، وكانت الثّالثة كافية ليكوّر قبضته ويضرب أحدهم في وجهه ضربة واحدة كسرت أنفه، فاقترب آخر ووجّه إليه ركلة فضربه «خالد» بقبضته ضربة أطاحت به بقوّة فاصطدم بمن خلفه فسقط بعضهم معه وسط دهشة البقيّة! فتبادلوا النّظرات، كان قد اعتراه غضبٌ عارم لا حدود له، تقدّم رجل عظيم الكراديس، له وجه مربّع، وفكّ بارز، وعنق عريض، وذراعان منتفخان، وصدر عامر بالعضلات، وقد جدل شعر رأسه في جديلة واحدة قصيرة، سار نـحو «خالد» وسط صيحات التشجيع من رفاقه، وكان «أَقْمَر» قد تراجع بـ«فرح» وهو يضع يده على فمها حتّى لا تصرخ، كان يُحاول الفرار، فلاحظ «خالد» ما يفعله، أحاط «البواشق» بـ«خالد»، وبدأوا يُحرّشون بطلهم على مصارعته، لم يلتفتوا لـ «أَقْمَر» و«فرح» من هول المُفاجأة عندما أمسك «خالد» بتلابيبه فجأة ثُمّ ألقاه على الأرض بعيدًا عن «أَقْمَر» و«فرح» قاصدًا لتتوجّه كلّ الأنظار بعيدًا عنهما، لاحظ الجميع قدر قوّته بالتّأكيد، فلم تكن عيونهم في جيوبهم! فرّ «أَقْمَر» بـ«فرح» إلى دار «النَّطَاسِيّ»، وبقي «خالد» وحده، تعالت الصّيحات من كلّ حدب وصوب:

- قتال، قتال، قتال!

علا صوت المُكاء[1] والتصدية[2]، وأقبل الرّهط الأوّل ومعهم مُصارعهم الّذي كان من المُفترض أن يُواجه ذا الجديلة، اتسعت دائرة

(1) المُكاء: صوت الصفير بالفم والأصابع معا؛ صوت صفير طائر المكاء.

(2) التّصدية: التّصفيق.

المُشاهدين، أدرك «خالد» أنّه على وشك خوض معركة كتلك الّتي تابعها بالأمس، إمّا أن يقتل خصمه، أو يقتله هو وتبقى أُخته وحيدة، فغمر العرق جبينه، ودار بعينيه باحثًا عن بصيص أملٍ من هُنا أو هناك، لكنّه لم يجد.

أراد ذو الجديلة أن يبدأ القتال مع «خالد»، دفعه في صدره بقوّة، فدفعه «خالد» بكلتا يديه، اقترب وطرق جبهته بجبهة «خالد» فارتجّ رأسه، وكادا يلتحمان لولا أنّ ذراعًا مفتولة سمراء حالت بينهما، كان شابًا ضخمًا من شباب «سُقُطْرى» يُنظّم تلك المعارك، قال بصوته الأجشّ موجها كلامه لذي الجديلة:

- لم نعرف من هو، ولم يُراهن الرّهط على أيّ منكما، وهناك جولة لم تتمّ بينك وبين خصمك السّابق عليها رهاناتٌ مُعلّقة، فلنؤجل قتالكما للغدّ.

تمعّضت ملامح ذي الجديلة وقال بنزق:

- بل الآن!

وقف الشّاب الأسمر بينهما ونظر في عينيه وقال له:

- بل غدًا، فتأجيل مباراة اليوم ليس من مصلحتنا.

أومأ إليه وكأنّها إشارة، ففطن لمُراده وقال بحنق شديد:

- فلنمنــحه ليلته الأخيرة ليودّع أهله.

حدّجه «خالد» بغضب وقال:

- لن أُودّع أهلي، ولا أرغب في قتالك!

قبض ذو الجديلة على عنق «خالد»، فأمسك «خالد» بمعصمه وعصره فحرر رقبته وتراجع وهو مذهول، فلم ينجُ أحد من قبضته قط!

تعالت صيحات التّعجب، فتجشّأ ذو الجديلة غضبًا وحنقًا، وصاح قائلًا:

- سنتقاتل الآن رغم أنفك!

صاح أحدهم:

- ورهاناتنا السّابقة!

صاح آخر:

- نؤجلها ونضاعفها.

اعترض البعض، فهكذا ستكون الخسارات مُضاعفة، وشاعت الفوضى، تعالى صوت من بينهم سائلًا:

- من أنت ومن أين أتيت أيّها الغريب؟

- اسمي «خالد»، أتيت من خلف البحر «التهاميّ»(1) للتجارة.

- في أيّ شيء تُتاجر؟

غضب ذو الجديلة عندما رأى اهتمام الحشد يتوجّه نحو «خالد» فرفع صوته قائلًا:

- لا يهمّ من هو ولا من أيّ البقاع أتى، وليتاجر في الجحيم، فسيموت غدًا!

قال الشّاب الأسمر الّذي يُنظّم تلك المعارك:

- موعدنا غدًا، إيّاك أن تتأخّر عن الحضور، إلّا لو جَبُنت عن مواجهة «يعبوب»!

وأشار لذي الجديلة، فقال «خالد» والغضب معقود بين عينيه:

- فليكن موعدنا غدًا بمشيئة الله.

ضجّ المكان بضحكاتهم عندما سمعوه يُقدّم مشيئة الله، قال أحدهم ساخرًا:

- يبدو أنّه أُصيب بلعنة من لعنات «العنادل».

---

(1) البحر التهاميّ هو البحرُ الأحمر.

استشاط «خالد» غضبًا، دفعه رجل غليظ ليُخرجه من وسط الحلقة، وبدأ القتال بين الخصمين السّابقين، وتعالت الصّيحات، فابتعد عنهم ورأسه تضجّ بالأفكار، ماذا سيفعل، وأيّ عداوة تلك الّتي اكتسبها في جولته الأولى بالجزيرة، حاول أن يتذكّر الطريق لبيت «النَّطَاسِيّ»، سار بخطوات مُترددة، لا يدري هل هذا هو الطّريق الصّحيح أم لا؟ تناهى إلى مسامعه صوت هسهسة وكأنّ أحدهم يُناديه، كان شابًا من الّذين مرّ بهما الليلة السّابقة وهو يحمل الرّضيع وقد أرشداه لبيت النَّطَاسِيّ، اقترب منه «خالد» فأشار إليه ليتبعه، سار خلفه في سكون، كان الشّاب يعقد ذراعيه خلف ظهره، ويُشير بيده لـ «خالد» بكفّيه من وراء ظهره، حتّى لا يلفت أنظار المارّة، مرّ بجوار «خالد» شابٌ آخر يُشبه الأوّل لكنّه طويل ورفيع، همس له قائلًا:

- اتبعه ولا تقف.

تخطاه وسبقه، ثُمّ توقف فجأة، وعاد ليتعالى صوت شجاره مع أحدهم، استدار «خالد» ليرى ما يحدث، فأدرك «خالد» أنّهما يودّان مُساعدته، فتبع الأوّل حتّى وصل لداره، دلف الشّاب الأوّل ثُمّ أخرج رأسه من فرجة الباب وغمز له فأقبل ودخل داره، بعد قليل كان الشّاب الّذي افتعل شجارًا على الطّريق يدلف من الباب ويغلقه بسرعة، وجلس يلتقط أنفاسه، وقف الشّابان أمامه، كان يبدو على أحدهما الوقار الشّديد، وعلى رأسه قبّعة بيضاء، كان هذان هما الشقيقان: «جُندب»، و«البراء»[1]، صافحاه وأدخلاه على جدّتهما الّتي فوجئت به يدخل معهما فقالت:

- ضيف! من ذا الّذي يرغب في معرفتكما يا قُرّتَيْ عينَيْ جدّتكما؟

---

(1) «جُندب» و«البراء»: الاسمان مقتبسان من أسماء صحابة كرام من أرض اليمن ولكلّ منهما قصّة اشتهر بها وهما جُندب بن عمرو بن حممة الدّوسيّ، والبراء بن معرور.

- أبشري يا جدّتي سمعته بأذني يذكر الله الواحد الأحد.

تهلل وجه العجوز وابتسمت وكانت درداء[1]، أشار خفيف الظلّ لأخيه وقال:

- هذا أخي «البراء» وهو أكثر منّي علمًا، أمّا أنا فـ «جُندب» أقصر أفراد عائلتنا الصّغيرة وأكثرهم ذكاء ووسامة.

ضحكوا جميعًا، كانت تلك هي أوّل مرّة يبتسم فيها «خالد» منذ وصوله، كاد يسألهما عن بيت «النَّطَاسِيّ»، فقد كان يُريد العودة لداره سريعًا ليطمئنّ على «فرح»، لولا «جُنْدب» الّذي بتر السؤال وهو على طرف لسانه عندما قال له:

- أرأيت كيف أشرت إليك دون أن ينتبهوا؟ كان هناك من يتبعك، لكننا ضللناه، لو ذهبت لبيت «النَّطَاسِيّ» لوصلوا إليك في الحال.

قالت جدّته وهي تلوي شفتيها:

- من هم هؤلاء يا كبد جدّتك؟

- «البواشق».

أجفلت الجدّة وقالت:

- لماذا يتبعونه؟

التقط «البراء» طرف الحوار وقال بصوته الهادئ:

- هذا الشّاب الّذي دلف القرية الليلة الماضية وهو يحمل الرّضيع يا جدّتي، سأل عن بيت «النَّطَاسِيّ»، وبات ليلته هناك، رأيناه منذ قليل مع شاب وفتاة، خاض قتالًا خفيفًا مع أحد «البواشق» فأظهر قوّة وثباتًا، وحمدًا لله أنّ قتاله مع بطلهم تأجّل للغدّ، فهو لا يعرف

---

(1) درداء: فمها خالٍ من الأسنان.

قوانين القتال، رأيت أنّه يحتاج إلى المُساعدة، فربّما يكون هو السبب في القضاء على معارك الموت الّتي قضت على شباب قريتنا.

- كيف هذا يا ولدي؟

- لو قتل «يَعبوبًا» سيخشاه الجميع، ولن يجرؤ أحدٌ على قتاله.

قال «جُندب» وهو يبتسم:

- وستنتهي أسطورة ذي الجديلة.

أدرك «خالد» أنّ «البراء» يُمثّل العقل المُدّبر في هذا البيت، وأنّهما كانا يُراقبانه من كثب، قال وهو يثقبه بنظراته:

- لكنني لا أقتل! قد أفوز، لكنني لن أقتل أحدًا أبدًا!

- بكلّ الأحوال ستخوض قتالًا غدًا، لا بدّ أن تستعدّ له، وكن على يقين أنّ الجن من «البواشق» سيطوفون الجزيرة بحثًا عنك الليلة، إن لم يكونوا يبحثون الآن عنك بالفعل.

- ربّما يسمعوننا!

قال «جُندب» بثقة قبل أن يجلس بجوار «خالد»:

- لا.. فهم لا يدخلون بيوت «العنادل»، لن يدخلوا دارنا، ولا دار «النَّطَاسِيّ»، وبيوتًا أخرى لا تعرفها فأنت غريب عن جزيرتنا.

اعتدلت الجدّة في جلستها وقالت له:

- اسمع منّا أوّلًا يا ولدي.

جلسوا جميعًا في سكون، بدأت الجدّة الحديث بصوتها الحاني قائلة:

- كانت جزيرتنا قديمًا تعيش في سلام مثل كلّ بقاع اليمن، الخير في كلّ أرجائها، الأرض والثّمار والطّيور والأشجار، حتّى البحر لم يبخل على أهلها بشيء من خيراته بفضل الله.

قاطعها «خالد» بلطفٍ قائلًا:

- اليمن كُلّه خير، وسيظلّ هكذا للأبد.

مرّت ابتسامة حزينة على وجهها الّذي خطّت التجاعيد على صفحته خارطة تجارب طويلة، وقالت بصوت تصحبه بحّة لطيفة:

- كان الخير يغمرنا ويفيض حتّى ظهر «البواشق»! وبمرور السّنين دقّوا أوتادهم على الجزيرة، صرنا نعيش في بؤس يا ولدي.

ثُمّ أضافت في أسى:

- نهبوا خيرات الجزيرة، «البواشق» فقط من ينعمون بها الآن، وحُرم منها عامّة الشّعب، دفعوا الكثير من أبناء العشائر للهجرة للجزر الأخرى، شاع القتل، هاجر «المشّاؤون»، و«العنادل»، وغيرهم.

- بسبب ميراث «خَنْدَريس» أليس كذلك؟

تبادلوا النّظرات، هزّ «البراء» رأسه موافقًا وأكمل على كلام جدّته:

- ولكي تستمرّ سطوتهم كرّسوا منطق العنف الجسدي وسوغوه، القتال الّذي يدور الآن بوادي الموت ونحن نتحدّث معك سينتهي بمقتل أحد المصارعين، وغالبًا سيكون من أبناء عشائرنا، فـ «البواشق» دائمًا يفوزون.

- لماذا لا يتوقفون عن القتال؟ فليمتنع شباب الجزيرة!

- امتنع «المشّاؤون» من قبل، فكان أحد أبناء «خَنْدَريس» يتحكّم في عقول رجال الجزيرة ويُحرّضهم على قتل أبناء «المشّائين»، فكانت مجزرة قُتِلَ فيها أبناؤهم، رحلوا في النّهاية من جزيرتنا،

وقلوبهم تمتلئ حزنًا، وبغضًا، وكرهًا، ولا ريب أنّ الرّغبة في الانتقام لا تزال تعتمل في صدورهم، بقي قلّة منهم يسكنون كهوف الجبال القريبة، ويزورهم العطّارون من آن لآخر، لكنّ جراح قلوبهم لم تندمل أبدًا، فقتل الولد ليس بهيّن.

قال «جندب» في تحسّر:

- ثُمّ أدمن عامّة الشّعب الأمر، صارت عادة يستلذّونها، نُظّمت المباريات، وزادوا على القتل الرّهان بالمال.

عاد «البراء» يتحدّث قائلًا:

- متابعة تلك المباريات بمثابة صمام الأمان لـ «البواشق»، فهي تقوم بتنفيس ما يختلج في نفوس عامة شعب الجزيرة والغوغاء من مشاعر مكبوتة، ولذلك فإن الإثارة الشّديدة التي تصاحب مشاهد الذبح تطمس على إحساسهم بالبؤس الذي يعانون منه في حياتهم اليومية بسبب «البواشق»، كما تفرّغ مشاعر الكبت التي تنكد عليهم حياتهم، أمّا «البواشق» فكانوا يستغلون أي فرصة للتأكيد على شرعية سلطاتهم، ولذلك كانوا يسارعون بتنظيم هذه العروض باعتبارها تجسيدًا رمزيًا لقوتهم وطغيانهم، وكلّ هذا بمباركة الملكة «عِشْرِقة».

ران عليهم صمت قصير، اضطربت فيها ملامح «البراء» وكأنّه يستحضر الذّكريات، وأكمل قائلًا:

- في ساحة قصر الملكة «عِشْرِقة» تقام عروض الإعدام العلنية، وشلالات الدماء المسفوكة، لتجسد أبشع وأشنع وسائل التعبير عن الطغيان والجبروت والقوة التي صاروا مولعين بها.

وأضاف والحزن يفترش ملامحه:

- كان والد «عِشْرِقة» ملكًا ظالمًا، وعندما تولّت ابنته «عِشْرِقة» الحكم، أكملت مسيرته . أُعدم أبي أمام أعيننا ونــحن صغيران لأنّه أخذ من محصولنا المنهوب ليُطعمنا، وكذلك فعل بعض الرّجال، لم يجدوا حرجًا في الأخذ من حقوقهم! فغضب الحاكم عليهم، واتُّهموا بالسّرقة، كُنت حينها في العاشرة، وأخي «جُندب» لا يعي ما يحدث، عدنا مع أمي، فلم تتحمّل ليلة واحدة بعد موت أبي، فماتت قهرًا وحزنًا عليه، وربّتنا جدّتي.

ثّم انكبّ على كفّ جدّته يُقبّله وأكمل بعد أن أفاق من غمامة الحزن الّتي مرّت عليه:

- لديّ في مكتبتي الكثير من المخطوطات وقطع اللخاف[1]، والكرانيف[2]، وألواح الأحجار العتيقة التي تخلد تاريخ حضارتنا، لقد تعرضت الجزيرة للنهب مرّات ومرّات، لكنّ نهب العقول هو الأسوأ على الإطلاق، لقد نهب «خَنْدَريس» وعشيرته عقول أبناء «وجدان».

قال «خالد»:

- لكنني أرى أهل الجزيرة يُشجّعون تلك المباريات، ولا يأبهون لمن يموت، بل يتركون جثّته للسباع تنهشها.. رأيتهم بأمّ عيني!
- على الرغم من الشعبية الكاسحة التي تحظى بها تلك العروض إلاّ أن سجلات المعلّم النبيل ذكرت أنّها لم تكن في الأساس من أصل حضارتنا، لقد أخبرني «النَّطَاسِيّ» بهذا فهو على دراية

(1) اللَّخْفَةُ: حجر أَبيض عريض رقيق والجمع لِخافٌ.

(2) الكُرْنافُ: أصول تبقى في جذع النخلة بعد قطع السّعف والجمع كرانيفُ.
واللخاف والكرانيف كان يُكتب عليهما قديمًا قبل صناعة الورق.

بالكثير مما ذُكر فيها، وتلك الحقيقة هي ما لا يحب «البواشق» لأهل «سُقُطْرى» أن يسمعوها، فـ «البواشق» يعتبرونها شكلًا من أشكال العنف المسموح به رسميًّا والذي يعد نوعًا من الطقوس الدموية المتوحشة تحلل ذبح البشر وتقديمهم قرابين في معارك وهميّة لإرضاء النفوس المريضة لحُكّام غرّتهم أنفسهم، وغرّتهم كثرة أتباعهم، فهم لا يريدون لأهل «سُقُطْرى» أن يتذكّروا ماضيهم النّبيل.

قال «جُنْدب» وهو يوقّع كلّ كلمة من كلماته:

- لا بدّ أن تستعدّ لمعركة الغدّ، نــحن نُعلّق عليك آمالًا كبرى.

- ولماذا أنا بالذّات!

- لأننا نعلم أنّك تحمل ميراث «وِجْدان» ابن «وِجْدان» ابن «وِجْدان»! الّذي هو من سُلالة «وِجْدان» الأكبر.

أجفل «خالد» عندما أدرك أنّهما يعرفان خبر حَمله لميراث «وِجْدان» وسألهم:

- من أخبركما؟

- «النَّطَاسِيّ»، كُنّا في زيارته أثناء نومك هناك.

مرّت لحظة صمت أطرق فيها «خالد»، بينما تبادلا فيها النّظرات والإيماءات، كانا يرغبان في حثّه على مواجهة «البواشق» بأيّ طريقة، قال «البراء» بجديّة شديدة:

-لو بقي «وِجدان» على الجزيرة لتغلّب عليهم.

- لكنّه رحل عنها بإرادته على الرّغم من مقدرته على ردعهم. هو أخبرني بنفسه.

- لكلّ مهمّة رجلها المُناسب! ومما سمعته من «النَّطَاسِيّ» عن كونك مُحاربًا يُثبت هذا! أنت الرّجل المُناسب.

رنت الجدّة إلى «خالد» وتأمّلته في سكون، كان رأسها كجزيرة عتقية بطنها مليء بالجواهر المدفونة الّتي تحتاج للتنقيب لتبرز بين حبّات الرّمال ويضوي بريقها فيخطف الألباب. كنز وراء كنز يغوص في أعماقها، وهي صامدة لا يشقها زلزال، على صلابتها الظّاهرة كان قلبها خصبًا مخضوضرًا تنبت منه الزروع بسيقانها الصّلبة لتزهر على لسانها بالحكم، وكان حفيداها كرافدين لنهرها الفيّاض، ما تفتأ تروي أحدهما بنُصحها فيظمأ الآخر، لم تكلّ ولم يجف رواؤها أبدًا، فماء الحنان يجري في حضنها لهما، وليس لهما إلّا البقاء على ضفاف حياتها، وهما يتأملان ابتسامتها الدّرداء.

بدأت الجدّة تسأل «خالدًا» عن قصّة المحاربين، ولم هو هنا؟ فبدأ يروي لهم عن «مملكة البلاغة»، فوجدوا أُنسًا في حكاياه، وغرائبَ تختلف عن غرائب جزيرتهم، انقشعت غيوم القلق والتّوتّر، انتهت الجلسة بالضحكات كما بدأت، كان لــ «جُنْدب» روح مرحة، فهو خفيف الظلّ تمامًا كجدته، أمّا «البراء» فكان كثير الصّمت، عيناه تُشعّان ذكاء وهو يتحدّث، أضفى عليه كونه الأخ الأكبر بعد فقدهما لوالديهما في يوم واحد الكثير من النّضج والقدرة على تحمّل المسئوليّة، خرج «جُندب» مع «خالد» إلى بيت «النَّطَاسِيّ»، وكان في لهفة ليطمئن على «فرح».

كان «سُليمان» قد نزل من الجبل مع صديقيه خلال السّاعة الماضية، ووصل لبيت «النَّطَاسِيّ» قبل عودة «خالد» والتقى بــ«فرح» و«أقمر» هُناك، كانوا جميعًا يجلسون في ترقّب، وهم قلقون على «خالد» وينتظرون عودته بتلهّف، بكت «فرح» عندما رأته يدلف الدّار أخيرًا، وهرولت هي و«سُليمان» نــحوه، تعلّق «سُليمان» بعنقه وهمس له:

- كُنت خائفًا.

لم يترك عنقه، فشعر «خالد» أنّ الغلام مرّ بصدمة فانزوى به وبـ «فرح»، وسأله:

- هل أنت بخير؟

سالت الدّموع من عيني «سُليمان»، وطفق يروي ما حدث له بسرعة شديدة، أطال في وصف البئر و«طرخون»، وصوته، وملامحه، فأدرك «خالد» أنّ «سُليمان» قد ارتعدت فرائصه عندما نزل إلى البئر ليحمله منها، لكنّه كان مُجبرًا! تسارعت أنفاسه وهو يصف له كيف طاردته تلك العفريتة، فأدرك أنّه كان يكاد ينشطر إلى نصفين من الهلع، عندما أخبره بلقائه بـ «سقنقور» و«شُرشمانة»، وكيف حملته وركضت به، رنا «خالد» إليهما بعفويّة وتأمّل وجهيهما وكانا يتحدّثان إلى «النَّطَاسِيّ» فأشفق على «سُليمان»! كيف لغلام في عمره أن يقف أمامهما بهيئتهما دون أن يفقد وعيه أو ينهار! لقد كان كل هذا فوق احتماله!

وضع «خالد» يديه على كتفي «سُليمان» وقال له وهو ينظر إليه بفخر:

- يا لك من مُحارب شُجاع! لقد تفوّقت علينا أنا و«حمزة»!

وَاسَته تلك الكلمات، ومرّت على صدره فأزاحت عنه غُبار الخوف الّذي كان قد علق به، جذبه «خالد» إليه واحتضنه طويلًا، ثُمّ أخذ يتفحّص يديه وأبدى اهتمامًا وتعاطفًا ليُخفف عنه، تنبّه لشقيقته الّتي كانت تغار دائمًا من اهتمامه بـ «سُليمان» فمسح على رأسها واحتضنها طويلًا كما فعل معه، وأسمعها ما يسرّها من مدحٍ وكلمات لطيفة.

اجتمع أحفاد «أبادول» الثّلاثة تحت سقف دار «النَّطَاسِيّ»، أزاح هذا بعض الهمّ عن قلب «خالد»، فرؤية وجهيهما كانت نسمة لطيفة روّحت عن قلبه بعد ما مرّ به، كما كان هو كالظلّ الّذي آويا إليه لترتاح روحاهما

قليلًا، لكنّ القلق كان ينهش رأسه، فهو يخشى على أبيه، ويتوق لحضنه الدّافئ.

نــحتاج للكِبار؛ للجدار الّذي نستند عليه، للأمان في اليد الّتي تقبض على كفوفنا لتُخبرنا أنّهم هنا بالجوار، لصوتهم الّذي يُشعرنا بالأمان، لتلك النّظرة الواثقة الّتي تُخبرنا أنّ الأمر بسيط، فرغم بشاعة ما نمرّ به فقد مرّوا به من قبل وها هم أمامنا وبخير. نــحتاج للكِبار؛ لصوت سُعالهم، ورائحة عطورهم، ودفء كفوفهم، وحتّى لتلويحهم بأياديهم تحذيرًا لنا عندما نخطئ، فأخطاؤنا بين أياديهم مستورة لأنّنا منهم، ولأنّهم منّا. نــحتاج للكِبار؛ ولذلك الحضور المهيب والوقار المُطمئن، لأحضانهم العامرة بالأمان، لهمسهم بالدّعاء. نــحتاج للكبار، وحتّى لو كُنّا كبارًا فنــحن نــحتاج للكِبار!

كان «سُليمان» حزينًا لفقد «الكومودو» فقد استيقظ من النّوم في الكهف ولم يجده على صدره، بحث كثيرًا عنه مع رفيقيه، لكنّه لم يعثر عليه، فخرج معهما لبيت «النَّطَاسِيّ» وهو حزين لفقد صديقه الأليف الّذي تعلّق به، تعجّب «خالد» كيف قَبِل وتحمّل ملامسة سحليّة لجلده، وأظهرت «فرح» تقززها واشمئزازها عندما أخبرها، فأغضبه هذا منها. كان احتقان أصابعه قد اشتدّ، فجلس «النَّطَاسِيّ» يفحصها ويداويها، وكان يفكّر في حال ضيوفه، يبدو أنّ كلّ واحد من أفراد عائلتهم يحمل ميراثًا ثقيلًا، ولا ريب أنّ لهذا سببًا.

أحضر «خالد» العُلبة وأخذ يتفحّصها، لم تكن هناك رسالة. بعد قليل طقطقت العُلبة ففتحها ليجد رسالة جديدة:

«أحيانًا نضطرّ للرّجوع عن قرار ما، أو التخلّي عن معركة من معاركنا ليس لضعفنا، ولا لعجزنا، لكن لأنّ وراءنا من يخاف علينا ويجزع، وقد نظهر في مواطن ضعف على الرّغم من قوّتنا فنستدير غير

آبهين بتسجيل انتصارات نـــحن على يقين من تحقيقها، لأننا نُشفق عليه من لحظات هلعه علينا، وهذا لا يكون إلّا مع من نـــحبّهم بحقّ ويُحبّوننا بصدق».

شعر «خالد» بالضّيق، فالرّسالة أثارت مخاوفه، كأنّ من كتبها يراه، ويدعوه للتّراجع عن هذه المواجهة المُرتقبة، طالع المرآة، لم يظهر وجه الفتاة، أخذ يتفكّر هل هي الّتي تكتب أم لا؟ ربّما لا علاقة للرسائل بالمرآة! أغلق العُلبة، وغرق في بحر من الحيرة.

كانت «سَروة» سعيدة بامتلاء دارهما بالضّيوف، افترّ ثغرها عن ابتسامة وقالت:

- إنّهم سعيدون بـــ «سُليمان».

جلس الحضور يتساءلون عن هويّة الّذين هم سُعداء بـــ «سُليمان»، فقال «النَّطَاسِيّ» بهدوء:

- أصحاب القلانيس الزّرقاء!

هرولت «سَرْوة» نحو المطبخ، وقررت أن تصنع لهم المزيد من فطائر السّفرجل، بعد أن لاقى طعامها إعجابهم، انضمّت السيّدة «زهراء» مع «شُرْشُمانة» إليها لتساعداها، وتبعتهما «فرح»، كانت عجينة السّفرجل تُقرقِر عندما لفحها لهب الفرن، أخرجتها ثُمّ غطّتها بقماشة من الكِتّان، ووقفت تُجفف يديها بطرف وِزرتها[1]، شخصت فجأة وقالت لـــ «زهراء»:

- الحُزن يُخيّم على بُستانكم، صار البكاء مُتاحًا حتّى الثّمالة!

- من أخبرك بهذا؟

- أصحاب القلانيس الزّرقاء!

---

(1) وِزرة: لباس قصير يُغطّي من المرأة بطنها وفخذيها أثناء العمل بالمنزل.

تبادلت «زهراء» النّظرات مع «شُرْشُمانة»، كانتا تعرفان أنّ «سَرْوة» ترى أطيافًا مجهولة، قالت «شُرْشُمانة»:

- أما زالت تظنّ أنّ تلك الأطياف لـ «أصحاب القلانيس الزّرقاء»؟

- يبدو هذا!

-ليتهم ما رددوا أمامها أنّ المُعلّم النّبيل كان يراهم، فقد لصق الاسم برأسها، وأصبحت تدّعي أنّها تراهم.

تنهّدت «زهراء» وقالت بخفوت:

- مِسكينة!

جلس «أَقْمَر» يُداعب «سُليمان» بهالات الضّوء ويُطلقها في الهواء ليُذهب عنه الحزن، كان «سُليمان» غافلًا عن كيفية استخدام مهارات الميراث الّذي يحمله، ولو أدرك حينها لأذهل «أَقْمَر».

كان «أنس» في تلك اللحظات قد وصل لجزيرة الملك «قَلمّس» مع ما تبقّى من عشيرة «العنادل»، استقبلهم جنود ملكها بالتّرحاب، فقد كانوا جميعًا يُجلّون الشّيخ «هائد»، سمحوا لهم بدفنه، ورمس «أنس» قبره بيديه، وفور أن انتهت مراسم الدّفن توجّهوا للبستان، تقدمتهم «سُبُحات» والّتي كانت تعرف المكان جيدًا وبحثت عن الخالة «زهراء» وعن «أَقْمَر» فلم تجدهما، أقبل بعض المزارعين الّذين كانوا يعملون هناك وأخبروهم بقصّة الفتاة الّتي هربت من السّراديب الملعونة بميراث «طرجهارة»، وكيف هرب بها «أَقْمَر» وخالته من الجزيرة، فسألهم «أنس» عن قصّة «طرجهارة»، فأخبروه بخبثها والفتنة الّتي أوقعتهم فيها، ووشايتها الّتي أدّت لمقتل وليّ العهد، أدرك أنّها من أبناء «خَنْدَريس»، كان أهل تلك الجزيرة غاضبين، يودّون إلقاء القبض على تلك الفتاة الّتي هربت بالميراث ليُلقوها في السّجن الملعون، وقع في نفسه أنّها «فرح» فاصفرّ

وجهه، وجلس وكأنّ سهمًا قد رشق في قلبه، أدرك «ميسرة» هذا، فأخذ يصرف المزارعين، وبدأ يسألهم عن شاب وغلام ربّما رأوهما، كانت إجاباتهم كلها تنفي رؤيتهم لهما. لم يجرؤ على سؤالهم عن فتاة في الحادية عشرة من عُمرها، فقد وقع في نفسه ما وقع في نفس «أنس»، أسند «ميسرة» إلى النّساء مهمّة الاعتناء بصغار «العنادل»، فدلفوا لدار السيّدة «زهراء»، وتوجّه الشّباب إلى مخزن الحبوب ليقضوا ليلتهم هناك، كان مُصابهم جلل، سمع «أنس» صدى أصوات «خالد»، و«فرح»، و«سُليمان» وكأنّهم في قعر بئر عميقة، كان هذا كما شعر «هائد» بهم وهم يسقطون جميعًا في جُنبات «سُقُطْرى» وما حولها، أخذ يتلفّت حوله، أين هم الآن؟ أمسك رأسه وانــحنى وهو يتألّم، ثُمّ ردد بخفوت وهو يجلس على أرض البُستان:

- ويضيق صدري ولا ينطلق لساني.
- يتّسع بالتّسبيح.

قالتها «سُبُحات» وهي تمدّ يدها نــحوه بكسرة خُبزٍ وثمرة برتقال مما كان في بيت السّيدة «زهراء»، أضافت وكانت دموعها لا تزال تُبلل عينيها وقد انتفخ جفناها واحتقن أنفها من كثرة البكاء:

- أتظنها ابنتك؟

كان «أنس» قد أخبرها عن «فرح» بالمركب، هزّ رأسه موافقًا، قالت وهي تفرك يديها:

- لو كانت مع «أَقْمَر» والخالة «زهراء» فهي في أمان.
- أخبرني «هائد» عن «أَقْمَر»، يقول إنّه يُخفي قُدراته.
- كان يُخفيها، وها هو قد أظهرها علانية.. لقد علم الجميع بأمر الضّوء.

- الضّوء!

وكأنّ «أنس» يتساءل عمّا يستطيع «أَقْمَر» أن يفعله بالضّوء، أطرقت «سُبُحات» للحظاتٍ ثُمّ قالت:

- الضّوء يُنير وقد يُحرق، يُريح وقد يؤلم، وكما يُرينا الحقائق، قد يعمينا عن بعضها لشدّته.

كان رأس «أنس» يضجّ بالأفكار، ذهنه كان حادًا حارقًا كشريط اللِحام، حواسّه الخمس كانت يقظة وكأنّه يسمع كلّ من بالبُستان جميعًا في آن واحد، ثَمّة أصوات خفيّة، مُتوارية، مُحتجبة، كان يرى حركة أدقّ الأشياء حتّى الشُرغُوف[1] في بركة الماء القريبة كان يسمع حركته! ورفرفة أجنــحة الفراشات، أمّا أنفه فقد اختلطت عليه روائح النّباتات العطريّة وثمار البرتقال الّتي تملأ البُستان، أمسك رأسه بيديه، وأغمض عينيه، قالت «سُبُحات» وهي ترنو إليه:

- كان ميراثُ أبي حِملًا ثقيلًا عليه.

فتح عينيه الكليلتين واستدار بتؤدة وهو مثبط الهمّة وحزين، تذكّر وجه «هائد»، أكملت قائلة قبل أن تنصرف:

- كان أبي يُعاني مما تُعانيه الآن، ستعتاد على هذا الابتلاء!

غمغم «أنس» قائلًا:

- نعم يا بنتي، هو ابتلاء.

قد تتحوّل النّعمة إلى ابتلاء إن زادت عن حدّ معيّن، وقد يكون عجزنا عن رؤية كلّ شيء حولنا رحمة، وعجزنا عن سماع كل الأصوات رحمة، وعجزنا عن فهم كلّ الأمور رحمة، وعجزنا عن الحصول على كلّ النّعم رحمة، فالله يحجب عنّا من تلك النّعم بقَدَرٍ معلومٍ لأنّه يعلم أننا لا

(1) الشرغوف: صغير الضفادع.

نــحتمل الزّيادات فيها، ولأنّ سعة نفوسنا وأرواحنا وأجسادنا لا تحتمل ذلك الفيضان، وقد ننهار من فرطها في لحظة لضآلتنا، ولأنّ البعض منها يكفينا.

انضمّ «أنس» و«ميسرة» إلى باقي الشباب بمخزن الحبوب، أشفق عليهم «أنس» عندما رآهم ممددين بجوار بعضهم بعضًا، أكبرهم عُمرًا أصغر من ولديه! وأغلبهم حزاورة[1].

همس «ميسرة» إليه وهو يضطجع بجواره على أرض المخزن:

- تقول إنّك سمعت أصوات «فرح»، و«سُليمان» و«خالد» من بعيد، فهل تسمعهم الآن؟
- نعم، كالهسيس، نبرات أصواتهم في أُذني لأنني أحفظها، لكنني مع اختلاط الأصوات وكثرتها لا أُميّز ما يقولونه بالتّفصيل.
- غدًا بإذن الله سأُفتّش الجزيرة شبرًا شِبرًا، لا ريب أن قلبك يتمزّق قلقًا عليهم.

كان «ميسرة» قلقًا، فقد كان قاسيًا مع زوجته في آخر لقاءٍ لهما، يخشى الآن ألّا يعود، ويخشى أن يفقد زوجته للأبد، لا يدري لماذا الآن يشعر أنّه صار مهددًا ألّا يراها مرّة أخرى، وكان دائمًا على يقين أنّها ستنتظره. كان يعشقها بألم، لم يقبل فكرة أن يكون ضعيفًا أمامها حتّى في صندوق أسراره المدفون في أعماق نفسه، يرغب في حبّها ولكن يكره ضعفه أمامها، ظلّ يتهرّب من رباطه بها لأنّه يكره الإحساس بالحاجة لشخص آخر، لم يفطن قط إلى حقيقة أنّ الحبّ ذوبان لكيانين في بوتقة واحدة، لا وجود فيها للقوّة، فكما ضعف هو، ضعفت هي، لم يرَ هذا قط، وكانت لا تعلم سبب إعراضه عنها، فتركها في حيرتها تتخبّط! كانت تتساءل:

(1) الحزاورة: الحزور هو الغلام يوشك على البلوغ، والجمع حزاورة.

كيف يبذل كلّ ذلك الجهد ليتزوّجها ثُمّ الآن ينزوي عنها ويتشرنق على ذاته بحجّة أسرار مملكة البلاغة، ويُخفي عنها دواليبها وأحاجيها، حاولت أن تُظهر تصديقها بوجودها لكي تكون معه، لكنّه كره هذا أيضًا، فكيف تُصدّق ما لم تره بأمّ عينها؟ غاب أكثر من مرّة ولم تعرف له طريقًا، وعاد فجأة، وكان دائمًا يغيب بعد افتعاله لشجار يدفعها للرحيل لبيت أبويها، لم يُشركها سرّه الغامض حتّى غارت من دهاليز عالمه هذا، فبدأ النّزاع بينهما، ظلّت غاضبة عليه لانزوائه عنها، وظلّ يُخفي ضعفه أمامها خلف هذا القناع، كان ينتظر نومها ليتأمّلها ردحًا من الزّمن، فهو يحبّها بكلّ ذرّة في كيانه، لكنْ هناك شيء ما يحول بينه وبين استمتاعه بهذا الحبّ، تخيّلها ذات مرّة تحمل ابنًا لهما وهو غائب في فجوة من فجوات هذا العالم العجيب ولم يعد، ماذا ستفعل المسكينة؟ لم يتحمّل مجرّد الخيال، فاتخذ قراره المجنون.. سيُجرّب أن يبتعد وللأبد، وإن لم تبتعد هي سيزيحها عن طريقه، وسيعيش حياته كلّها وحيدًا، وسيُجرّب ما يحلو له كيفما يشاء ووقتما يشاء، ولن يحتاج لأحد.

غلبه سُلطان النّوم، وبقي «أنس» يُحصي أنفاس كلّ من ينام تحت سقف مخزن الحُبوب.

كان «أنس» مُتعبًا، ودّ لو أنّ لحواسّه زرًّا كهربائيًّا يفصل التّيار عنها، ليتوقّف كلّ شيء، ويرتاح قليلًا، ثُمّ يُعيد إدارة حواسّه صباحًا، أخذ يردد الدّعاء الّذي طالما لقّنه لابنته «فرح»، وكانت هي في جزيرة «سُقُطْرى» على مقربة من الجزيرة الخضراء الّتي وصلها منذ ساعات، وكانت تُردد نفس الدّعاء: «لا إله إلّا أنت سبحانك، إنّي كُنت من الظّالمين».

******

بعينين مضطربتين ونفس مثقلة، كان «خالد» مستلقيًا على فراش في إحدى غرف بيت «النَّطَاسِيّ»، وكانت «فرح» عن يمينه، و«سُليمان»

عن يساره، وكلاهما يغطّ في نومٍ عميق، حاول أن يتذكّر كلّ قوانين القتال الّتي سردها عليه «البراء»، والّتي بدا له بعد معرفته لها أنّها ليست قوانينَ، فالقتال بلا حدود، وكلّ شيء مسموح به، فقء العينين، كسر الفكّ، قطع الأوردة بالأسنان وإن شئت أن تلوك لحم خصمك في فمك فافعل! كسر عظام السّاق والفخذ مُباح، الخنق حتّى الموت، تحطيم الجماجم وسحقها سحقًا، ولو دخلتَ حلبة المُصارعة لن تخرج منها، انسحابك مستحيل، فتلك وصمة عار ولن يقبلها مشجعوك، ولن يُساعدك أحدٌ على الهرب، إمّا قاتلٌ أو مقتول. المخرج الوحيد كان من حقّ المشجعين، فإن أعجبهم القتال، عليهم أن يهتفوا لكي تتوقّف المعركة عند حدٍ معيّن، ولا يقتل أحدهما خصمه، لتستمر المعارك لعدّة أيّام يستعرض فيها كلا الخصمين مهاراتهما، ويزيد الرّهان، وهذا مخرجٌ مؤقت! فالموت آت لا محالة. طقطقت العُلبة الخشبية، هناك رسالة جديدة:

نظر «خالد» للمرآة، كانت الفتاة هذه المرّة تنظر لنفسها وهي تبكي، تحدّثت لنفسها في المرآة قائلة:

- أنا مُتعبة جدًا، أشعر أنني أحمل جبلًا على كاهليّ، صدري يؤلمني وكأنّ مَلزمة[1] تضغط عليه.

ثُمّ تلفتت وعادت تنظر للمرآة قائلة:

- أنفاسي ضاقت وكأنني أغرق!

طال صمتها وهي تراقب عبراتها التي تسيل على وجنتيها، وكأنّها تواسي نفسها بنفسها، وتنظر لدموعها لتُثبت لنفسها أنّها ليست وحيدة هنا، طال صمتها وأطرقت وكأنّها غرقت في حلم من أحلام اليقظة،

(1) ملزمة: أداةٌ لضغط الأشياء يستخدمها الحرفيون.

كانت تحدق إلى المرآة، لكنّ نظرة عينها كانت خاوية، طالعت ساعة يدها وقالت أخيرًا وهي نعسانة:

- سأتشرنق[1] الآن..

أغلقت علبتها أو مرآتها، هو لا يدري! فغاب وجهها عنه، كانت كلماتها تُعبّر عمّا يعتمل في صدره بشكل ما، لكنّه ليس مُرهف الحسّ ليبكي مثلها. وتركت دموعها في نفسه شيئًا من الشّجن، وترك صوتها في نفسه شيئًا ما! شيئًا لا يستطيع تفسيره!

ظهرت صورتها مرّة أخرى، تلك الفتاة الّتي كانت تبكي منذ قليل صارت الآن تبتسم! رفع حاجبيه مُتعجّبًا وهمس قائلًا: «هذا أثر الهرمونات!»، هذه المرّة كانت ترتدي ثوبًا جميلًا وكأنّها أميرة، غابت لثوانٍ وعادت بلا حجاب! وبدأت تُمشّط خصلات شعرها برفق ونعومة وهي ساكنة في وداعة، كانت جميلة، جميلة جدًا، أخذ يُراقب عينيها، ووجهها، وأنفها، و.. وانتبه فجأة!

شعر بالضّيق، كأنّه يرتكب جريمة ما، لكنّها جميلة، أعجبته! وراق له كلّ شيء فيها، حتّى صوتها، كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يُفتن فيها بفتاة بتلك الطّريقة، ربّما لأنّه وحده الآن، ومُتاح له أن يراها على طبيعتها وبعفويّتها، وهي بلا حجاب، لكن! أليس هذا خطأ؟ كيف يفعل هذا وهو لم يفعلها من قبل؟ ولا يرضاها لشقيقته؟ كان يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يقاوم رغبته في النّظر إليها مرّة أُخرى، كوّر قبضته وضرب الجدار، ثُمّ التقط العُلبة وأغلقها بعنف، فسقطت منه على الأرض، فانفصلت الدّفتين، وسقطت ورقة البردي وهي خالية من الكلمات، تصدّعت المرآة وكأنّ برقًا مُعقربًا أصابها فجأة، استيقظت «فرح» على صوت الارتطام وجلست في الفراش ونظرت تجاهه، فثبت

(1) تشرنق الشّخصُ: انغلق وانطوى وانعزل على نفسه.

في مكانه وأشار لها بهدوء ليُطمئنها، فعادت للنوم. تراجع للخلف يلوم نفسه، فقد حطّم العُلبة وهو لم يعرف فائدتها بعدُ، التقطها وأخذ ينظر إلى تصدّعات المرآة، اختفت صورة الفتاة، وبقيت صورة وجهه مصدّعة كحال قلبه الآن، كان يتساءل عن هويّتها، كيف كانت تصله صورتها، ولماذا لم تره ولم تسمعه؟ ربّما لأنّه في عالم من عوالم الشّعوب المنسيّة لهذا هو محجوب عن كلّ شيء حتّى عالم مملكة البلاغة!

ما فائدة تلك العُلبة غير أنّها تظهر له وجه فتاة جميلة؟

لم هي بالذّات؟ من هي؟ كم عمرها؟ هل تشعر به؟

أعاد العُلبة لجرابه الجلدي، وهمس مقتبسًا كلمة الفتاة وقد بدأ جفناه يثقُلان:

- سأتشرنق الآن!

«نـحتاج أحيانًا لضرب ناقوس الفضيلة، ليتردد صداها في عقولنا، وتهرب الرّذائل من أنفسنا».

****

«سَندَروسة»

كان «مَيْسرة» يبحث عنها في كلّ ركن من أركان الجزيرة الخضراء، فقد بدأ يشعر بوجودها. وكانت هي أيضًا تبحث عنه. شقّ طريقه بين أشجار البُستان، وظلّ يتوغّل فيها حتّى وصل إلى قمّة إحساسه بحضورها الّذي كان يملأ صدره سعادة وانتشاء، عندها توقّف، وتسارعت أنفاسه، وبرزت له من بين أشجار البستان وكأنّها زهرة نبتت من فروعها. كانت «سَندَروسة»[1] شديدة الجمال، لها عينان تسحران

(1) السَّنْدَرُوسُ: نوع من الأشجار المميّزة، لها راتنج يستخدم في صناعة الدواء، وخشبها قيّم جدًّا.

من ينظر إليها برمشة واحدة، وقفت أمامه بكامل زينتها، وعلى رأسها يضوي تاجها المرمريّ وهمست قائلة بثغرها الفتّان:

- اشتقتُ إليك!

سألها بتلهّف:

- أين كنتِ؟ بحثت عنك كثيرًا.

- نحن محجوبون عن جزيرة «النّور»، لم أتمكّن من تخطّي حدودها، لكنني كُنت أسمع صوتك.

طافت به ودارت حوله، وغمرته بكيانها الأثيريّ، وبعثرت أريجها السّاحر، وكان في حالة من الهُيام حتّى أنّه نسي الزّمان والمكان ونسي كلّ شيء حوله، حملته واحتوته بكيانها وطافت به فوق الجزيرة، فرأى الخُضرة تكسو كلّ بقعة فيها، عادت به حيث كانا، فسألها مُتعجّبًا:

- عُدنا سريعًا وليست تلك عادتنا!

- هناك شيء مهم أُريد أن أُحدّثك عنه.

- لا أرغب في الحديث عن أيّ شيء الآن، دعينا نستمتع بتلك اللحظات، فالوقت يمرّ وسأنهي أداء مهمّتي، وأعود لعالمي البائس، وتغيبين عنّي هُناك.

- حاولت مرارًا الولوج لعالمك ولم أتمكّن.

- انتقلي لمملكة البلاغة وعيشي هناك، فولوجها سهل عليّ، أمّا مملكة «الدّيجور» فلا!

قالت بنَزق:

- لا أرغب في مُغادرة مملكتي.

- حاولت معرفة المزيد عن «مملكة الدّيجور»، لكنّ الحديث عنها في «مملكة البلاغة» دائمًا يحفّه الغموض، ولم أصل لمعلومة عن طريق «المستكشفين».

- لقد سمعتُ الكثير من أبي عنكم.

- أخرجي ما بجُعبتك يا «سَندَروسة»، فوجهك يفيض بالقلق!

كانت «سَندَروسة» من بنات جنّ مملكة «الدّيجور»، وكانت قد التقت بـ «مَيْسرة» في آخر رحلتين له، عندما تسللت خلسة من ممرٍ كان جيش مملكة الدّيجور يحرس حدوده، فوقعت في حُبّه، فُتنت بذلك الشّاب الجسور الّذي كان له صولات وجولات في تلك المعالم، شوشّت عليه رؤيته فعلق في شباكها. حتّى تتقرّب إليه بشكل أكبر ساعدته في إتمام مهامه، وعندما ظهرت الصّقور وحملته راحلة به كانت حزينة.

بدأت تبحث، لم تجد كتابًا واحدًا في مملكة «الدّيجور»، فبدأت تسأل أباها كثيرًا عن مملكة «البلاغة»، كان دائمًا ينهرها عندما كانت تُردد اسمها. تسللت مرّة أخرى باحثة عن «مَيْسرة»، لتقضي معه أوقاتًا سعيدة في رحاب تلك الشّعوب الّتي يأتي ليُحررها من أسر النِّسيان. كانت تُحلّق به في سماء تلك الممالك المنسيّة، وتطوف به وكأنّه ملك، تغنّي له كأنّها جاريته، تتشكّل له في أبهى وأجمل صور النّساء حتّى سلبته روحه السّاكنة، لم تكن تعلم أنّ هناك من يُراقبها، وأنّ أباها الّذي يُعاملها دائمًا بقسوة ويبغضها يعرف كلّ شيء عن رحلتها الأولى والثّانية، كان يتركها تتسلل لتعبث، كان حقيرًا وديوثًا، حتّى أنّها تعجّبت وسألته عندما واجهها بمعرفته قائلة:

- ألم تغضب أو تغار عليّ؟ ألم تخف عليّ يا أبي؟

- فلتعبثي بالبشر كما تشائين، في النّهاية لن تتزوجي منهم، حتّى أنا أتسلل وأفعل ما يحلو لي!

- أتظنّني أعبث وألهو؟

- بالتّأكيد هذا عبث أيّتها الحمقاء.

- لكنني أُحبّه!

- منذ صغرك وأنت هكذا، طمّاعة، لا يملأ عينك ماء المحيط، ولا تراب الأرض، تتعلّقين بالشّيء وتتشبثين به وعندما تجدين ما هو أفضل منه تزهدين فيه وتُلقينه وتدعسينه وكأنّه حشرة.

- لن أفعل!

هدر غاضبًا وهو يقترب منها:

- اسمعي، لقد كلّفني الملك «غُدفان» بمهمّة ثقيلة، وإن لم تتمّ تلك المهمّة كما يرغب سيكون مصيري الهلاك على يد زبانيته وسحرته ومردته المُخلصين له، وكذلك أنتِ ستهلكين معي، فلا تظنّي أنني الأقوى هنا!

- وما علاقتي بمهمّتك يا أبي.

- لقد افتضح سرّك، والملك يعرف بأمرك، أخبره أحد السّحرة بأفعالك وألاعيبك الحقيرة، وهو يعلم أنّك تواعدين «ميسرة»، وهو من المُستكشفين.

- وماذا بعد؟

- ساعدتِه مرّتين! وهذا يعني أنّك ستُعدمين.

- لا! لا! لا تدعه يقتلني يا أبي أرجوك!

- سيعفو عنك الملك إن قُمت بما يطلبه منك.

- ماذا سأفعل بالتّحديد؟

- لقد أظهر «القُدموس» علامة بجوار اسم عائلة «أبادول»، تلك العائلة كانت سببًا في قتل الملك الأكبر «قلقديس» وزوجته الملكة «قلقطار»، هلاك كلّ أولياء الملك «غُدفان» في مملكة البلاغة من السّحرة ومردة الجنّ.

- لا أعرف ما هو «القُدموس»! ولا أدري من هو «أبادول» هذا!

- يكفيك أن تعلمي أنّ تلك المهمّة بمنزلة أخذ الثّأر من «أبادول»، والملك «غُدفان» كلّفك بقتل أحفاد «أبادول»، فهناك أربعة منهم يُرافقون «ميسرة» في رحلته القادمة.

قالت بتلهّف:

- «ميسرة»! هل سيأتي!

رماها بنظرة احتقار وقال لها:

- سأدلّك على الممر لتلك الجُزر الّتي وصلوها، ولكن، لا تعودي إلّا وقد قتلتهم الأربعة، واحذري من عشائر الجنّ هناك.

- سأتعرّض للخطر.. ساعدني يا أبي.

دمدم قائلًا:

- لا أستطيع!

- لماذا؟

أراد أن يُخبرها أنّهم يخافون حقًا من المُحاربين، ومن المُستكشفين، وأنّهم الوحيدون الّذين يتمكنون من ردعهم بثباتهم وقوّتهم ويقينهم الشّديد. أراد أن يروي لها ما فعله «أبادول» مع مردة الجنّ والسّحرة وكيف تصدّى لهم ولـ «حنطريرة»، حتّى أنّه كاد يُخبرها عن «حمزة» وكيف قتل «قلب العقرب»، لكنّه لم يتمكّن من نطقها بلسانه، نعم هم جبناء، جُبناء أمامهم وأمام حُرّاس المكتبة العُظمى، وليس أمامهم سوى سحب الأحبار من الكُتب، ومحاصرة الشّعوب بجهلها ليبقوا هكذا للأبد، على هامش النّسيان، لا يعرف عنهم أحد، ولا يعرفون شيئًا عن أحد. قال أخيرًا بعد صمته الّذي حيّرها:

- ستقتلينهم وحدك رغم أنفك أيّتها الحقيرة، لأنّ حياتنا معلّقة بنجاح مهمّتك تلك.

تركها أبوها وكانت تزوم من شدّة الغضب.

انتبهت «سَندَروسة» لنداء «ميسرة» لها الّذي تكرر وكانت شاردة وهي تتذكّر ما قاله لها أبوها، وكان يسألها:

- لم تقولي شيئًا يا «سَندَروسة»، ما الأمر؟ وجهك عامر بالخوف والقلق!

قررت أن تتحايل على «ميسرة» حتّى لا يعلم بما تكنّه وتُخطط له، كانت قد حاولت قتل «سُليمان» و«خالد» ولم تنجح بعد تصدّي «ريحانة» و«حبّوبة» لها، حتّى أنّها حاولت الوصول لـ «فرح» لكنّها دائمًا تكون في بيت من البيوت المحميّة، والّتي يُمنع الجنّ من دخولها، بيت «زهراء»، ثُمّ بيت «النَّطَاسِيّ»، قالت أخيرًا:

- لماذا أتيت هذه المرّة مع هؤلاء الغُرباء؟
- هؤلاء من المستكشفين مثلي، ولدينا مهمّة هنا.
- كيف سألتقي بك وأنت تُلازمهم.
- لا تخافي، سنُدبّر الأمر، أنا الآن مع أكبرهم السيّد «أنس»، ونبحث عن البقيّة.
- لا تُخبرهم عنّي.
- لماذا؟ لقد التقوا بالجنّ من قبل وساعدوهم.
- قُلت لك لا تُخبرهم عنّي!

أومأ موافقًا عندما لاحظ غضبها.

كانت تعلم أماكنهم لكنّها لم ترغب في إخباره، فهي تُريد قتلهم بعيدًا عن عينه، قالت له وعيناها تسبح في قلق:

- انتبه فالجُزر هنا ممتلئة بعشائر الجنّ.

- أعرف، «البواشق»، سمعت عنهم.

حملته وطافت به الجزيرة مرّة أخرى، كان يعشق الطّيران معها، وكانت هي السّهم الّذي أصابه فأفسد عليه حياته، حتّى عاد لزوجته وقد زهد فيها وكرهها، وبقي مفتونًا بـ «سَندَروسة»، الّتي لم تظهر له في عالمه، فظلّ الشّوق يقتات على قلبه حتّى يرحل لشعب آخر، ولهذا انتقل مرّة أخرى خلال هذا الشهر في مهمّة ببيت جديد ليراها مرّة ثانية، وهذه هي المرّة الثّالثة. مرّ الوقت وهو في سعادة وانتشاء، افترقا أخيرًا فقد حان وقت عودته لبُستان «أقمر»، ليوقظ السيّد «أنس» من نومه.

****

كان الصّباح يزحف ببطء، يُقدّم خطوة، ويؤخّر الأُخرى، وكأنّه يخشى الخروج من خلف ستار الأُفق خوفًا مما سيحدث اليوم! وعندما ظهر أخيرًا بكامل أنواره، تنبّه كلّ ما يتنفّس على الجزيرة.

استيقظ «أنس» فجأة، هبّ جذعه معتدلًا بعُنف، ولثوانٍ راح يتساءل عن المكان الّذي يُوجد فيه، وعمّا حصل له. عاد إليه وعيه بسرعة البرق عندما استيقظت حواسّه الخمس وصارت تعمل بسرعة صاروخيّة، أمسك رأسه وكان يشعر بانزعاج شديد، كان قد طال سُهاده الليلة الماضية، لم ينم بسهولة، قرر أن يتأقلم مع هذا الابتلاء، ويتعلّم انتخاب وانتقاء صوت من دفعة الأصوات المُتداخلة الّتي تخترق أُذنيه ويُركّز معه ويتبعه، فبدأ بهذا وأغمض عينيه، تناهى إلى مسامعه أصوات أطفال «العنادل»، كانوا يرددون تسابيحَ خاصّةً بهم، يمجدون بها الله الواحد الأحد، يُرددونها خلف «هلال»، ذلك الشّاب العشرينيّ الّذي هرول نــحو «هائد» وحمله للشاطئ، كان شابًا جلدًا قد عركته الحياة، فيه شيء من الرّجولة والمروءة، خرج «أنس» من مخزن الحبوب، ومرّ بجدول

ماء فغسل رأسه، هبّت نسمات الهواء تُصافح وجهه، فتوافدت روائح أشجار البستان على أنفه فدوّخته، ولا تزال الأصوات تختلط في أُذنيه وهي تخترقها بلا هوادة، لكنّه ظلّ يركّز على صوت أطفال «العنادل»، فخفتت كلّ الأصوات الأُخرى، واستطاع أن ينتخب صوتهم ليكون أعلاها ليُركّز عليه، أعجبه ما يُرددونه، وقف يتأمّل وجوههم البريئة، والحُزن الّذي لا يزال عالقًا بعيونهم بعد فَقْدِ آبائهم، التفت نـحو «هلال» الّذي منـحه ابتسامة خفيفة وأكمل ترديد التسابيح، كان صوته عذبًا جميلًا شجيًّا وكأنّه عندليب يُغرّد، أراح هذا أرواحهم المُتعبة، كما أراح «أنس» وهو يُنصت إليهم، أقبل «ميسرة» من خارج البستان وهو شاحب الوجه، وهرول نـحو «أنس»، كان يخشى أن يكون قد سمع حديثه مع «سَندَروسة»، لكنّه اطمأنّ بعد ذلك أنّ حديثه معها دار خلال نوم «أنس»، ولهذا لم يسمعه، جلس بجواره وقال:

- لم يظهر منهم هنا على الجزيرة غير «فرح»، ويُقال إنّ «أَقْمَر» رحل بها لـ «سُقُطْرى» ليحميها، لأنّهم هناك لن يقتلوها، فهي الآن في نظرهم من أبناء «خَنْدَريس».

ثُمّ أسرع «ميسرة» مُعتذرًا لأنّه وصفها بابنة «خَنْدَريس»:

- آسف.. أقصد أنّها تحمل ميراثه!
- لا عليك يا «ميسرة»، هي ابنتي رغم أُنوفهم جميعًا.
- لا بدّ أن نرحل الآن لـ «سُقُطْرى»، فهي الجزيرة الرئيسيّة هنا، ورأس الأحداث هناك، و«فرح» هي أوّل الخيط، سيُشاع خبر وصولها هناك، وسيعرف «خالد»، و«سُليمان»، أنّها على الجزيرة، وربّما يتوجّهون نـحوها من تلقاء أنفسهم، فتسهل مهمّتنا، وعندما نجتمع سنبحث عن سبب وجودنا جميعًا هنا، فهناك أُحجية لا بدّ

أن تُحلّ لنفكّ أسر هذا الشّعب المنسي، وتستطيع صقور مملكة البلاغة الوصول إلينا.

- حسنًا، لنتحدّث مع «سُبُحات»، و«هلال» وشقيقه، وكبار الأمهات المكلومات، ونُرتّب أُمورهم هنا قبل أن نرحل.

أقبلت «سُبُحات» وكانت تحمل قدحين من الفخّار سكبت فيهما الحليب السّاخن المُحلّى بالعسل، أعطت «ميسرة» واحدًا، ومدّت يدها بالآخر لــ «أنس» وقالت له:

- أخبرتهم ألّا يوقظوك، لأنني كُنت أعلم أنّك لن تنام بسهولة.

- شكر الله لك يا بنتي.

رشف رشفة من قدح الحليب وسألها:

- كيف حال النساء بالدّار؟

قالت بتحسّر:

- كان البُكاء مُتاحًا طوال الليل حتّى الثّمالة، لكنّهن أفضل اليوم وأكثر ثباتًا والحمد لله.

دمعت عيناها وتوقّفت عن الكلام وكانت شفتاها ترتجفان، ثُمّ أردفت بصوت حزين:

- سنكون بخير وسلام هُنا بإذن الله.

- ربّما نرحل لــ «سُقُطْرى» للبحث عن «فرح».

أجفلت وشحب وجهها، كانت تستمدّ الأمان من وجود «أنس»، فهو الأكبر عمرًا من بين كلّ من يُحيطون بها، قالت بخفوت:

- حسنًا فلتقصدوا دار «النَّطَاسِيّ»، لا ريب أنّ «أَقْمَر» و«فرح» هناك.

- أراكم تثقون بهذا العالم كثيرًا.

- جميع سُكّان الجزيرة يثقون به، «العنادل» وغيرهم، كما أنّه كان صديقًا لأبي.

فركت يديها وقالت على استحياء:

- وددتُ أن أطلب منك شيئًا قبل الرّحيل يا سيّد «أنس».

- اطلبي ما شئت يا بنتي.

- هل لك أن تزور الملك «قَلَمّس» وتُخبره بقصّتكم، ليعفو عن «فرح»؟ وليعلم سبب ما فعله «أَقْمَر» ليحميها ويُسامحه، فعودة «أَقْمَر» للبستان هنا أمرٌ ضروريّ، لم يبق معنا من الرّجال أحد، فـ «هلال» أكبر الشّباب، ولن يحتمل رعايتنا وحده.

قال «ميسرة» وكان يُتابعهما في صمت:

- لن نستطيع زيارة الملك.

- لماذا؟

- لو علم جنده أنّ السيّد «أنس» هو والد «فرح» سيحتجزونه وسيهددونها به لتتنازل عن الميراث، فقد أخبرنا أبوك بهذا الأمر، المساومة على الميراث تبدأ بتهديد حامله بأحبّائه وأقاربه، وهي فتاة يافعة، وقد تتنازل لمن لا يستحقّ.

هزّت «سُبُحات» كتفيها وقالت:

- فلتفعل وتُنقذ أباها.

قال «أنس» برويّة:

- لا يا بنتي، لا ينبغي أن نعرّضها لهذا الموقف أبدًا، فنحن هنا لسبب محدد، ولا أظنّ «فرح» حُمِّلت الميراث لتتنازل عنه بسهولة، الأُمور لا تُدار بتلك الطريقة.

ثُمّ أردف بجدّية ليُطمئنها:

- أعدك يا «سُبُحات» أن أعود للقاء الملك «قَلَمّس» بعد أن أعثر على ابنتي، وسأبحث عن «أَقْمَر» بنفسي، فلا ريب أنّكم تحتاجونه هنا.

أقبل رَتلٌ[1] من نساء «العنادل»، فنهض «أنس» توقيرًا لهنّ، كُنّ قد علمن بأنّ «أنس» قد حظي بمكانة خاصّة لدى الشّيخ «هائد»، ووصلهن خبر حمله لميراثه، وقفن أمامه وتقدّمت واحدة منهنّ، وكانت أُمّ «سُبُحات»، المكلومة على زوجها «هائد»، قالت بصوت تتصنّع فيه القوّة وتُجاهد لتُخرجه قويًّا ثابتًا وتعقد على عبراتها حتّى لا تتفلّت من عينيها:

- لقد رتّبنا أُمورنا، دار «زهراء» عامرة بالخيرات، وما كانت لتمنعنا عن البقاء فيها، فهي منّا ونـحن منها، والدّار واسعة، وكثيرة الغرفات.

قال «أنس»:

- لنـحوّل مخزن الحبوب لدارٍ مؤقّتة للشباب والحزاورة، حتّى نبني دارًا أُخرى لهم.

أردفت أُمّ «سُبُحات» وهي تهزّ رأسها موافقة على اقتراحه:

- وزّعنا المهام، وسنعمل مع المُزارعين بأرض البُستان، وقد أعارنا هؤلاء المزارعون الكثير من ثياب أولادهم، أهل الجزيرة هنا طيّبون، وكانوا يُحبّون «هائدًا».

وهُنا لم تملك عبراتها، حتّى النّساء من خلفها لم يملكن عبراتهنّ، فكلّ واحدة منهنّ كانت مكلومة تبكي حبيبًا مفقودًا، قد يكون زوجها، أو أباها، أو أخاها، أو ولدها الشّاب، وقد يكون جرحها أعمق لفقدها رجالها جميعًا! هزّ «أنس» رأسه في أسى، وأخذ يحدّثهنّ عن الصبر، واليقين

---

(1) رتل: جماعة يتبع بعضها بعضًا.

بالله، ذكّرهنّ بحاجة أطفال «العنادل» لهنّ، وأنّ الأُمّ وتدٌ لأهل بيتها، وهي الدّار لصغارها، وهي الحصن الّذي لا يُقتحم.

قال «هِلال» الّذي انضمّ إلى الجمع وتابع ما قيل:

- لقد حطّموا «سجلّات المُعلّم النبيل»، وقتلوا حفّاظها، لا بدّ أن نبدأ العمل لجمعها وتدوينها مرّة أخرى، فهذا علم «سُقُطْرى» وتاريخها، ولا بدّ أن يعود «أَقْمَر» للبستان لكي أرحل إلى «سُقُطْرى» وأتجوّل في باقي الجزر، لعلّي أستطيع الوصول لمن كانوا يحفظونها من كِبار السنّ هُناك.

وضع «أنس» يده على كتف «هِلال» وقال:

- لا ينبغي أن ترحل الآن، فدورك مهم هنا، هؤلاء الأطفال والغلمان يحتاجونك، فلا تتخلّ عنهم، سأرحل أنا و«ميسرة» للقاء «أَقْمَر»، لمتابعة ما يرتّبه «البواشق»، فقد طردوكم من جزيرتكم وحطّموا السّجلّات لسبب ما، لا بدّ أن أرى الحقيقة كاملة، وسأعود مع «أَقْمَر» بإذن الله.

رحل «أنس» مع «ميسرة» في مركب لجزيرة «سُقُطرى»، كانا ساكنين كتمثالين من شمع، «أنس» يُنصت لأصوات الأسماك وحركاتها في الماء، ويُحاول أن يُؤقلم نفسه على تنقية الكثير من الموجات الصّوتيّة الّتي تخترق أُذنيه لينتخب واحدة منها ويُركّز معها، استطاع أخيرًا أن يُنصت فقط لصوت موج المحيط، وارتفع صوته ليطغى على باقي الأصوات، وكان طوال الوقت يُغمض عينيه، فهو في غنى عن أي تشتيت بصريّ، أدركَ الآن أنّ مُجرّد ارتخاء جفن العين وإغلاقه نعمة كان غافلًا عنها، بقي ذهنه الّذي يطحن الأفكار طحنًا، لا يصلح معه ارتخاء جفن، ولا سدادة أذن! بدأ يُرتّب أفكاره، وحينها انتزعه «ميسرة» من تلك الفُقاعة اللامرئيّة الّتي لاذ بها وهزّ كتفه برفقٍ قائلًا:

- لماذا تُغلق عينيك هكذا يا سيّد «أنس»؟ ما عُدت تُحدّثني وكأنّك مللت منّي.

فتح «أنس» عينيه فوجد أمامه وجهًا مُثقلًا بالهموم، فأدرك أنّ هذا الشّاب يُعاني رغم ما يُظهره من جَلد، لم يشعر «أنس» بالضّجر منه، ولم يلمه على تضييع جهده الذّهنيّ والنّفسيّ خلال الدّقائق الماضية، فهو لا يدرك حجم المأساة الّتي كان يُعانيها، قال له وهو يبتسم:

- أوحشتك زوجتك؟

رمش بعينيه قائلًا:

- أخشى ألّا أراها مرّة أخرى.

قال «أنس» ليقطع عليه شروده:

- سنعود يا «ميسرة»، وستلتقي بها.

- كان الأمر أكثر سهولة عندما كانت هي من تُغضبني، لكن فراقنا الأخير كان بعد أن قسوت عليها ونهرتها، أشعر أن روحي انتزعت منّي.

- يبدو أنّك كُنت غامضًا بالقدر الكافي لكي تُشعرها أنّها لا تنتمي لك.

- لن تُصدّقني أبدًا.. وأردت أن أُجرّب الانفصال عنها لعلّنا نرتاح!

- الطلاق ليس تجربة من التّجارب الّتي ينبغي عليك أن تُجرّبها، فقد تكون الخسارة لا رجعة فيها، فاحذر يا بنيّ.

- لم أُطلّقها.. فقط أردت الانفصال لفترة.

- حاول أن تكبح جماح نفسك الّتي تدفعك لتجربة كلّ شيء بلا تفكير، فكر قليلًا قبل أن تُقدم على فعل أيّ شيء!

- ماذا سأفعل الآن؟

- قد تكون الصّراحة هي الحل الوحيد، افتح قلبك لها، أخبرها بكلّ شيء، ربّما عندما تسمع منّا نحن أيضًا تُصدّقك.

مرر «أنس» أنامله على جرح رأسه، وقال بصوت يغمره حنان أبويّ:

- لم يلتئم جُرحك بعد، سيزول الألم عندما يشفى الجُرح، وإن بقيت ندبة تُشير لمكانه، كذلك جُرح قلبك لم يبرأ بعد. إن كانت الحياة تجارب، فتلك دروسها، وكونك تتألّم يعني أنّك فهمت الدّرس جيّدًا، لا بأس عليك أيّها المُحارب!

مسح «أنس» على رأسه وكأنّه يمسح على رأس أحد ولديه، وأخذ يُطمئنه، ثُمّ عاد للسكون، للصمت، لإغماض عينيه، للبحث عن فقاعة ليلوذ بها.

عندما نـــحبّ ونُجرح ممن نـــحبّهم أو نجرحهم لحماقتنا ونفترق، فنـــحن نـــحمل معنا قطعًا من أرواحهم، ونترك بين أياديهم بقايانا، يؤلمنا ما تركناه لأنّه يؤخّر التّعافي، ويؤلمنا ما حملناه لأنّه يزيد الحنين. لن تتوقّف الحياة، لكننا سنلتقي حتما بهم مرّة أخرى، وقد يعود الجزء لكلّه، ويلتحم الكلّ بجزئه، ويعود الحبيب للحبيب على أهون الأسباب، وقد تكون التفاتة بسيطة هي السّبب، وقد تُطفئ ابتسامة حنين جمرة غضب، فيعود الخليل لخليله، وهذا فقط عندما نـــحبّهم ويحبّوننا.

****

استيقظ «خالد» على صوت ارتطام شيء ما بالأرض، وثب من الفراش وتلفّت فوجد «فرح»، و«سُليمان» يلملمان الأغراض الّتي أسقطها «سُليمان» الّذي يُجرّب تحريك الأشياء عن بُعد، وقد نجح في تحريك بعضها بالفعل! كرر التّجربة أمام «خالد»، وحاول السّيطرة عليه ليدفعه للوقوف، لكنّه فشل معه كما فشل مع «فرح»، قال بصوت مهزوم:

- ظننت أنني سأنجح كما فعل «طَرْخُون» معي! طوال الوقت وأنا مع الخالة «شُرْشُمانة» والسيّد «سَقَنْقُور» كُنت أحاول السّيطرة عليهما، لكنّ المشّائين لا يتأثّرون بميراث «طَرْخُون»، وهأنذا أفشل معكما.

قال «خالد» وهو يمسح آثار النّوم عن وجهه:

- ربّما لأننا نــحمل ميراثًا من مواريث «خَنْدَريس» مثلك.

- ربّما! ولهذا أنتما مُحصّنان، وكلّ أبناء «خَنْدَريس»، لكنّ فرح استطاعت قراءة ذكرياتك، لقد أخبرتني بهذا، فلماذا لم تُحَصّن من قدرتها على قراءة الذّكريات؟

- لا أدري! ربّما لأنّها مجرّد قراءة ذكريات، فهي لن تتمكّن من إيذائنا.

ثُمّ أردف وهو يهزّ أصبعه مُحذّرًا:

- الأمور هنا مُبهمة، ولا بدّ أن يحترس كلّ واحد منّا مما يحمله، فقد نؤذي بعضنا بعضًا، أو نؤذي الآخرين.

تذكّر العُلبة وكيف حطّمها أثناء نومهما، فأخرجها من الجراب، واتسعت حدقتا عينيه في دهشة! كانت المرآة سليمة مصقولة تبرق كاللجين، وكأنّها لم تتصدّع بالأمس، لكنّ صورته المعكوسة عليها ما عادت مقعّرة كما كانت في السّابق! وضع الدّفتين فوق بعضهما ووضع ورقة البرديّ بداخلها، وبحث عن شيء ليربطهما معًا، فأعارته «فرح» شريطًا من الكتّان كانت السيّدة «زهراء» قد ربطت جديلتها به.

طرق «أَقْمَر» الباب عليهم، ودعاهم للخروج، فقد استيقظت «سَرْوة» مُبكرًا وأعدّت لهم الإفطار الشهيّ، وقد عبقت الدّار بروائح المخبوزات اللطيفة، كان «وِجدان» الصّغير يبكي، فحملته بلطف وأخذت تُهدهده وهي توزّع عليهم الطعام بيدها الأخرى في فرح، كان زوجها سعيدًا لسعادتها، لكنّه كان قلقًا من مجريات الأُمور، فاجتماع أربعة من حملة مواريث «خَنْدريس» تحت سقف بيت واحدٍ ليس بالأمر الهيّن، فهؤلاء الثّلاثة من الأغراب لجأوا إليه ظانّين أنّه يستطيع تخليصهم منه بطريقة علميّة، ومعهم «أَقْمَر» الّذي لا يرغب في التخلّص من ميراثه، لكنّه

أيضًا وثق به ولجأ لداره. تُرى لماذا اجتمعوا تحت سقف بيته؟ ولم هو بالذّات؟ كان شاردًا عندما طرق «سَقَنْقُور» على كفّه بلطف لينتشله من شروده، سائلًا إيّاه على استحياء:

- هل بقاؤنا هنا يُزعجك؟
- لا.. لم يُزعجني أبدًا، داري ستظلّ مفتوحة للجميع، تعلم أنّني أُحبّ «المشّائين»، وأنتما بالذّات لكما مكانة عظيمة في قلبي.
- ما الّذي يُقلقك إذًا؟
- لم أسمع عن «هائد» منذ فترة، كان قد رحل لجزيرة «النور» ليُنبه «العنادل»، فقد وصلنا أنّ «عُرقوب» وجنود «البواشق» سيُداهمون الجزيرة، للقضاء على ما تبقّى من سجلّات المُعلّم النّبيل.
- لعلّه يظهر قريبًا.
- ربّما.

أنهى «خالد» إفطاره، وخرج مع «أَقْمَر» و«سَقَنْقُور» و«النَّطَاسِيّ» إلى السّاحة الواسعة الّتي كان يُجري فيها «النَّطَاسِيّ» تجاربه، قلّب ناظريه في أركانها وكانت ساحة مفتوحة بلا سقف، ثُمّ قال له:

- هل تسمح لي بطلب غريب يا سيّدي؟ ومن حقّك أن ترفض!
- هات ما عندك يا «خالد».
- وددت لو أتحت لـ «سُليمان» أن يُجرّب قُدراته عليك، فقد حاول معي ومع «فرح» ولم ينجح، وأظنّه لن ينجح مع «أَقْمَر» لأنّه يحمل ميراثًا هو الآخر، وكذلك السيّد «سَقَنْقُور»، فالمشّاؤون لم يخضعوا أبدًا لتأثير «طَرْخُون»، فهل تسمح له بهذا يا سيّدي؟

أطرق هُنيهة وأجابه:

- له هذا ولكن بشرط.

- ما هو؟
- ألّا يُخرجني عن وقاري!
- أعدك بهذا.

وقف «سُليمان» قِبالة «النَّطَاسِيّ»، لم يُدرك في البداية ما الّذي سيفعله، فثبت أمامه، وأخذ يكزّ على أسنانه تارة، ويعقد حاجبيه ويجمجم تارة، ويتشنّج تارة، دون جدوى ولم يحدث شيء، فشعر بالإحراج، خاطبه «أَقْمَر» قائلًا:

- استرخِ يا «سُليمان»، وفكر في ماء المُحيط الرّائق، عندما تسكن الأمواج، اهدأ تمامًا وحاول أن تفكّر في الكلمات الّتي تودّ توجيهها لمن أمامك.

استغرق «سُليمان» وقتًا حتّى استطاع السّيطرة على ذهنه، وأخذ يخاطبه في نفسه، عندها شعر «النَّطَاسِيّ» وكأنّ جمجمته من جليد، وكأنّ برقًا أصاب دماغه فجأة..

ردد «سُليمان» في رأسه: ارفع يدك اليمنى، تقدّم خطوة للأمام، كان «النَّطَاسِيّ» يُطيعه ويتحرّك حسب توجيهه له، وراق هذا لــ «سُليمان»، فالأمر بالنسبة لغلام في عمره مُحببٌ ويغذّي شعوره بالسيطرة. في تلك اللحظة طرق «جُندب» و«البراء» باب الدّار ودلفا على استحياء، فوجئا بوجود «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة» هناك، فهما يعرفانهما، وفوجئا برؤية «سُليمان»، ولمّا أخبرهما «خالد» عنه وعن «طَرْخُون» وميراثه أجفلا، وعندما أدركا ما يُجرّبه وقفا يُتابعان في سكون، كان «جُندب» ثرثارًا، وكلّما تحرّك «النَّطَاسِيّ» كان يُصدر صوتًا أو قهقهة بانفعال، التفت «سُليمان» نــحوه أكثر من مرّة، فقد جذب انتباهه بأصواته، لكنّه غضب من ضحكه، فانتقل إليه دون أن يسأله، وبدأ يدفعه لتحريك يديه،

ثُمّ الذّهاب تجاه الجدار والعودة، ثُمّ القفز في مكانه، فضحك «البراء» على شقيقه وما يُفعل به، أخذ «خالد» يحثّ «سُليمان» على التّوقف عمّا يفعله، رفع «سُليمان» «جندب» في الهواء وعلّقه، فانتفض «النَّطَاسِيّ» وقال وهو يقترب منه بهدوء:

- أرجوك أنزله برفق، لو أسقطّته فجأة قد تنكسر ساقه!

ضغط «خالد» على كتف «سُليمان» وقال بحزم شديد:

- أنزله برفق، وتوقّف عن هذا في الحال.

أنزله «سُليمان» برويّة، وكان وجه «جندب» قد شحب، وتسارعت أنفاسه، سارع «سُليمان» بالاعتذار منه، حتّى أنّه اعتذر للجميع، وقال بانفعال:

- آسف.. آسف جدًّا، لم أشعر بنفسي، كُنت..

سأله «خالد» غاضبًا:

- كُنت ماذا؟

- كُنت أشعر بنزعة للشرّ تتعملق في صدري، ورُحت أتلذذ بإرهاب «جُندب».

هزّ «النَّطَاسِيّ» رأسه في أسى، واقترب من «سُليمان»، وحدق إلى عينيه وهمس إليه قائلًا:

- لا تدع هذا الميراث يدفعك لإيذاء الآخرين، ولا قتلهم!

- لن أفعل يا سيّدي.. لن أفعل.

انصرف «سُليمان» عنهم، وكان في حرج، ذهب للبحث عن «فرح»، أراد أن يُخبرها بما حدث وكانت تحمل الرّضيع وتجلس في ركن هادئ، تُمسك كفّه الصّغيرة وتلمسها بحنوّ، وتنعم بما تستشعره منها من مشاعر بريئة، وصافية، وبيضاء، فرأسه خالٍ من الذّكريات، جلس

بجوارها وأخبرها عن «الكومودو»، وكانت يداه ملفوفتين بالأربطة، بعد أن عالجهما «النَّطَاسِيّ» الليلة الماضية بدواء أعدّه من راتنج شجرة «دم الأخوين» لعلاج الالتهابات والتّقرّحات، حلّ الأربطة الّتي تخضّبت بالرّاتنج الأحمر، وقال لها:

- جرّبي أن تقرئي ذكرياتي، وسترينه.

ترك لها يده، لترى «الكومودو»، وتشعر بما يشعر به تجاهه، كان يفتقده.

انزوى «النَّطَاسِيّ» عنهم وتبعه «سَقَنْقُور» وجلسا يتحاوران عن أمور الجزيرة وما فيها، وبقي «أَقْمَر»، و«جُندب»، وشقيقه «البراء» مع «خالد» الّذي كان مضطربًا، قرر أن يُخبرهم عن العُلبة، والطّيف الّذي كان يظنّه «رَيْهُقانة» وعن قصّتها، وتحطيم العُلبة وانفصال دفّتيها، والمرآة الغريبة الّتي أصلحت نفسها فجأة وعادت سليمة في الصّباح، فتناقلوا أجزاء العُلبة المكسورة بينهم في حذر، وقرروا إصلاحها، استعانوا ببعض الأدوات من معمل «النَّطَاسِيّ»، وجلس «خالد» يجمع دفّتي العُلبة ويُثبّتهما معًا وهم حوله، قال «جُنْدب» بفضول:

- ربّما هناك فتاتان في العُلبة، واحدة من الإنس، وأخرى من الجنّ.

قال «خالد» وهو يدقّ مسمارًا رفيعًا بحذر:

- كلّ شيء وارد!

- لكنّها ليست في قُمقُم! هل رأيتها وهي تكتب أمام المرآة يا «خالد»؟

- لا وهذا ما يُحيّرني.

قال «جُندب» وكأنّه خبير في تلك الأُمور:

- الجنّ يهمسون، ويظهرون فجأة، وقد يزورونك في أحلامك، أمّا أن تكتب لك رسالة.. فهذا غريب! لا أظنّها تستطيع هذا لو كانت محبوسة في قُمقُم!

قال «البراء»:

- بل تستطيع، الجنّ يستطيعون فعل ما لا يخطر لك على بال.

انتهى «خالد» من تثبيت دفّتي العُلبة، ونظر للمرآة وكان يتمنّى أن يظهر وجه الفتاة مرّة أُخرى، أغلق العُلبة. فطقطقت فجأة، فحدّقوا جميعًا تجاهها، صاح «جُنْدب»:

- افتحها بسرعة، ودعنا نرَ ما كتبته تلك العفريتة.

أجفل «خالد» وتشنّجت أصابعه، لكنّه فتح العُلبة على أيّ حال فوجد ورقة البرديّ تحمل رسالة، قرأ في صمت ما دُوّن فيها:

«أصبحت قبيحة للغاية، غارت عيناي في جُمجُمتي، برزت عظام وجهي، وكأنني أتحلل، تَلَفَ شعر رأسي الّذي كنت أتباهى به أمام قريناتي، لا أرغب في النظر إلى وجهي في المرآة، ستأتي «الحيزبونات الثلاث» لزيارتي في قبري اليوم، أودّ أن أنام!»

عرضها عليهم، فران على الشباب الثّلاثة صمت مُطبق، لم يفهموا شيئًا، فهي مكتوبة بحروف غريبة عليهم، وهم يعرفون حروف الخطّ المُسند الحميريّ فقط، لم يجدوا ما يقولونه لـ «خالد»، قرأها عليهم بصوتٍ مسموع، فقال «جُنْدب» وهو حدق إلى الرّسالة ويُردد الكلمات الّتي أخبرهم «خالد» أنّها كتبتها من قبل:

- جُمجُمة، وقبر! تتحلل وتنام! وتقول إنّها محبوسة في قُمْقُم! هذا غريب ومخيف!

قال «البراء»:

- ربّما تلك الصّور قديمة والرّسائل تظهر لك بعد موت تلك الفتاة.

أضاف «جُندب»:

- تُراسلك من قبرها لتدلّك على قاتلها مثلًا!

انقبض صدر «خالد»، كان القلق يمضغ رأسه، لم ينبس ببنت شفة، أمسك «أَقْمَر» بالرّسالة وقلّبها بين يديه وقال:

- هذا ورق البرديّ، تعلّمنا صناعته حديثًا من بعض التّجار الّذين يأتون من خلف البحر التّهاميّ، من وطنك، وإن كانت من الجنّ وتكتب بلغتك، فهي ليست من الجنّ السّاكن بجزيرتنا وما حولها، بل هي من عالم مملكة البلاغة الّذي أخبرتنا عنه.
- صدقت، فتلك الحروف معروفة بمملكة البلاغة، لكنّ الجنّ يستطيعون الكتابة بأنواع الخطوط المُختلفة! فهم جنّ!
- بأيّ حال من الأحوال هناك كيان غامض يُراسلك!

زفر «خالد» بضيق وقال:

- وأنا لستُ في حاجة للمزيد من الغموض.. لا أرغب في التّواصل مع طيف غامض!

أعاد «خالد» ورقة البرديّ للعُلبة وأغلقها، وبدأوا يتحدّثون عن القتال الّذي سيخوضه اليوم، طقطقت العُلبة مرّة أخرى، لكنّ «خالدًا» كان مشغولًا بحديثه مع رفاقه ولم ينتبه لها، كانت ورقة البرديّ تحمل رسالة جديدة:

«ما زلت أبحث عنك، أُفتّش بين العيون عن مقلتيك، أتصفّح الوجوه على عجل ولا تعلق عيناي بأيّ منها، أُنصت لعلّي أستمع لنبرة صوتك، أفكّر بك لتزورني في حلم جميل آخر، أكتب عنك لعلّني أتعرف عليك

بشكلٍ أكبر، أطلبك في الدّعاء لعلّك تعثر عليّ فجأة، عندها سأُقيم بعينيك للأبد، فأنا لست مُجرّد.. طيف!»

رآها «خالد» بعد انتهاء حواراته، كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي تصف فيها نفسها أنّها طيف! وكأنّها سمعته وهو يصفها بهذا خلال حواره مع رفاقه!

تفحّص المرآة، ما عادت صورة الفتاة الجميلة تظهر بها، أوجعه أن تكون ميّتة بالفعل وتلك صور قديمة لها، وكأنّها رسائل مُسجّلة!

أسرع وأخبر رفاقه عن الرّسالة الجديدة، لقد عادت العُلبة لعملها، بيد أنّ مرآتها قد عطلت. شاع في دار «النَّطَاسِيّ» أنّ هناك طيفًا غامضًا يُراسل «خالدًا»، وهناك فتاة جميلة تظهر في المرآة، حتّى «فرح» و«سُليمان» عرفا بالخبر، ناقش الجميع الأمر، ونظروا جميعًا في المرآة واحدًا تلو الآخر، ورأوا الرّسالة قبل اختفائها عندما أعادها للعُلبة وأغلقها، وجلسوا ينتظرون رسالة أخرى، لكنّها لم تصل، قالت «فرح» بعفويّة وهي تُحاول ارتداء القّفاز الّذي صنعته لها «سَرْوَة»:

- أُريد أن أتعلّم حروف الخطّ المُسند الحميريّ.

بسطت «سَرْوة» يدها ومدّتها نـحوها وقالت وقد لمعت عيناها الجميلتان:

- انظري كيف علّمتني أُمّي تلك الحروف.

خلعت «فرح» قفّازها مرّة أخرى، وأمسكت بكفّ «سَرْوة»، وأغمضت عينيها، وراقبهما الجميع والدّهشة تُطلّ من عيونهم، كانت «فرح» تبتسم، وتنطق الحروف بصوت مسموع، وتُرددها وكأنّ هناك مُعلّمةً تقف أمامها، رأت أمّ «سَرْوَة» وهي تحتضنها من الخلف وهي طفلة، وتُمسك أصبعها، وترسم بها الحروف على الطّحين المنثور، وعلى الرّمال، حتّى

أنّها كانت تصنع لها العجين ويشكّلانه معًا على هيئة تلك الرّموز، ظلّت «فرح» على حالها وعيناها مغلقتان حتّى انتهت، ثُم فتحتهما، فسحبت «سَرْوة» يدها وضمّتها لصدرها وكأنّها تعانق الذّكريات، فقد كانت تجترّها في رأسها في نفس اللحظة، قالت لها «فرح» وعلى وجهها ترتسم ابتسامة أنيقة:

- كانت أُمّك حنونًا يا خالة، تمامًا كأُمّي.

عانقتها «سَرْوة» عناقًا طويلًا، كانت كلتاهما تحنّ لأمّها، للأمان، للسكينة، للهدوء، للحبّ غير المشروط، وكانوا جميعًا يتأمّلونهما وكأنّهما يتأمّلون لوحة جميلة.

تغيّرت ملامح «فرح» فجأة، وجلست وفي عينيها تسكن نظرة حائرة، فسألها «خالد»:

- ماذا بكِ يا «فرح»؟
- الكلمات المنقوشة على بوّابة السّجن الّذي كُنت فيه.
- ما بها؟
- استطعت الآن قراءتها، فقد حفظت صورتها.
- وما معناها؟
- «سراديب الخطى الضّائعة»

*****

كانت «مرام» تقف في المطبخ وتحاول إعداد حساءٍ ساخن، فالطّقس بارد للغاية، حتّى أنّها شعرت أنّ أمعاءها ترتجف والصّقيع يتخلل مخّ عظامهم بهذا البيت، فالنّوافذ ليست مُحكمة وتُسرّب تيارات الهواء البارد طوال الوقت، تأمّلت الطّناجر والمقالي النحاسيّة المُعلّقة على جدران المطبخ الّتي سوّدها الزّمن، كانت الإضاءة بالمطبخ عاطبة،

والشّمس توشك على الغروب، فأشعلت الشّموع ووقفت على ضوئها الشّحيح تُراقب الموقد المُتهالك، تكاثف الصّمت حولها، أجفلت فجأة عندما سمعت صدى صوت «فرح» وهي تتحدّث إلى امرأة، كان صوتهما واضحًا، حتّى إنّها سمعتها وهي تقول:

- كانت أُمّك حنونًا يا خالة، تمامًا كأُمّي.

هبّت رائحة «فرح» العطرة فجأة، أغمضت «مرام» عينيها، وضمّت كفّيها لأنفها وسحبت شهيقًا عميقًا، كانت دموعها تسيل على خدّيها بغزارة، دلفت «حبيبة» فجأة ورأتها على ما هي عليه، فأطفأت الموقد وسألتها مُتعجّبة:

- ماذا تفعلين؟

قالت «مرام» بصوت مُرتعش ودموعها تُغرق وجهها:

- رائحة حبيبتي «فرح»، لقد سمعت صوتها، والآن أشمّ رائحتها.

احتضنتها «حبيبة»، وشاركتها العبرات وقالت لها:

- مررنا بأصعب من هذا، سيحفظهم الله، وسيعودون جميعًا.

- نعم سيردّهم الله لنا بإذنه.

****

كانت الملكة «عِشْرِقَة»[1] في مجلسها الملكيّ بقصرها المهيب المُحاط بالجنود من كلّ الجهات، كان القصر مربعًا أركانه مبنية بالرخام الملون وفيه سبعة سقوف طباقًا ما بين السقف والآخر خمسون ذراعًا، غرفًا بعضها فوق بعض. للقصر أربعة أوجه، وجـه مبنيّ بحجارة بيضاء، ووجه بحجارة سوداء، ووجه بحجارة خضراء، ووجه بحجارة

(1) العِشْرِقُ نبات من الأغْلاثِ وهو شجر يَنْفَرِشُ على الأرض عريض الورق وليس له شوك، والواحدة تُسمّى عِشْرِقَة.

حمراء، كان في رأس القصر[1] غرفة لها رونقٌ خاصّ، بباب من الأبنوس، وقد شُيِّدَ سقفُها من رخامة واحدة شفافة، يعرف الجالس في الغرفة من تحت رخامة السّقف تلك نوع الطّائر الّذي يُحلّق في السّماء، وكانت تلك هي غرفة الرأس العليا وهي مجلس للملكة «عِشْرِقَة»، كان عرشها العظيم مصنوع من أحجار صلدة مهندمة مدرّجة والأعلى منها كان من الرخام المصقول، كانت حجارته متلاحمة بالقطر المذاب ومطعّم بالنحاس المطروق والجواهر، كان في زوايا الغرفة الأربع أربعة أسود من نحاس أصفر بارزة صدورها للجهات الأربع، فإذا هبت الريح من أجوافها زأرت كما يزأر الأسد، وتُضاء الغرفة بمنحوتة من ثماني قطع مؤلفة مع بعضها بعضًا، يثقبون فيها السرج فتُطلق ضوءًا عجيبًا، لا حُمرة للّهب فيه، وكان يتصدر مدخل القصر حديقة وقنوات جارية وشجرة عظيمة من أشجار «دم الأخوين».

كانت ترتدي ثوبًا من المخمل المُقصّب والمنسوج بخيوط مُذهّبة، بأكمام واسعة من الدّيباج الموشّى بالياقوت الأحمر، وأحاطت عنقها بعقد فريد من اللؤلؤ، بينما أغرقت ضفائرها كتفيها. برز التّاج فوق رأسها تتراقص الأضواء على ماساته الخضراء، وهي تتحدّث إلى زوجها الملك «جُلجُلان»[2]، وللحضور من وزرائها، وأهل الثّقة من أهل الجزيرة المنتمين إلى عشيرة «البواشق» من الإنس، كانوا على اتّصال دائم بعشيرة «البواشق» من الجنّ، والّذين اتخذوا من أهل سُقُطْرى أولياء لهم من الإنس وعلى رأسهم الملكة «عِشْرِقَة» وزوجها «جُلجُلان» ومنحوهما لقب «البواشق» الشّرفيّ، بيد أنّ زعيم الجنّ «دَرْدَبيس»[3] لم يمنح أيّا منهم

(1) وصف القصر مقتبس من وصف قصر «غمدان» باليمن.

(2) الجُلجُلان: السِّمْسِمُ في قشره قبل أن يُحصد.

(3) الدَّرْدَبيسُ: الشيخُ والعجوزُ الفانيان.

ميراثًا كما فعل أبوه «خَنْدَريس» قبل أن يهلك، فلم يكن كأبيه، ولم يعشق يومًا إنسيّة، وكان يرى ما فعله أبوه حماقة، فقد دفعه عشقه لـ «رَيْدَانة» لفعلٍ أرعنَ أدّى لتسرّب سِماته وقُدراته لبشر ضعاف، فصنع منهم أشخاصًا خارقين ذوي قُدرات فائقة، حتّى أنّ البشر قدّسوهم وعبدوهم، وهذا ما كرهه، لكنّه يُريد أن يكون مثلهم، ليس في القُوّة فهو لا يحتاجها، بل في المكانة الّتي وصلت لحدّ التّقديس والعبادة، أراد أن يُقدّسه الجنّ والإنس معًا، وكان يسعى لهذا ويُسخّر ملكة «سُقُطْرى» لهذا.

لم تحمل «عِشْرِقَة» يومًا ميراثًا من مواريث «خَنْدَريس»، وكانت نَزِقة رعناء، لها طبع رديء، ظلّت تطمح لحمل ميراث «طرجهارة»، لكنّها لم تتمكّن من العثور عليها، أمّا «جُلجُلان» فهو ابن «طَرْخُون»، وكان يبحث عن ميراثه. كان «دَرْدَبيس» يعلم بمكان «طَرْخُون»، لكنّه لم يعلم قط بمكان «طَرْجَهارة»، لكنّه لم يُخبرهما، كان يُشعرهما دائمًا أنّه يعرف ما لا يعرفانه، فقد أراد أن ينال التّقديس كما ناله أبوه «خَنْدَريس»، غار منه، حتّى أنّه صار يكره اسم أبيه بشدّة.

منعه عفريت البرق الأحمر من الوصول لـ «طَرْخُون» في جزيرة المشّائين، وكان ماردًا من مردة الجنّ يعرف بأمر ميراث «خَنْدَريس»، كان حليفًا له لفترة طويلة، لكنّه بعد موته أراد أن يبقي على حياة «طرخون» ليدّخر فيه الميراث لعلّه يُفيده ليتمكّن من السّيطرة على «سُقُطْرى»، حتّى أنّه كان يُرسل من يُطعمه وهو في البئر.

حُجبت «سراديب الخُطى الضّائعة» عن الجنّ كافّة، الإنس فقط يتحدّثون عنها، ويُرددون أنّها سراديب سجن ملعون، الدّاخل إليه مفقود، والخارج مولود، حتّى أنّ الجنّ لم يعرفوا بوجود تلك السّراديب بجزيرة الملك «قلمس» إلّا بعد أن شاع خبر هروب فتاة من هناك بميراث «طَرْجَهارة»، ولهذا كان هذا الاجتماع الثُّلاثيّ.

اهتزّ القصر عندما ظهر «دَرْدَبيس» ابن «خَنْدَريس» بوجهه الّذي لم تجرؤ «عِشْرِقة» يومًا على التحديق إليه من بشاعته، واقترب منها وكان حضوره يُضيّق صدرها ويرفع حرارة المكان، وكانت تشعر بالاختناق، لكنّها كانت تُخفي هلعها منه، فألقى عليها التّحية، وقال بصوته الجهوريّ الّذي كانت ترتج له جنبات الغرفة:

- ماتت «طَرْجَهارة»!

امتقع وجه «عِشْرِقَة»، بدأت كتفاها ترتجفان، فقد كانت تبحث عنها لأنّها أرادت الحصول على هذا الميراث.

- متى وأين؟

- منذ ليلتين، في جزيرة الملك «قلمس» ومنــحت ميراثها لفتاة صغيرة.

- ماذا؟

- ووصلت تلك الفتاة لــ «سُقُطْرى»، لكنّها محميّة.

- من يحميها؟

- أحمقُ من «العنادل» يُسمّى «أَقْمَر»، يدين بدينهم.

قال «جُلجُلان» ساخرًا:

- لهذا لم تتمكّنوا من السّيطرة عليه؟ دائمًا تعجزون أمام «العنادل»!

هدر «دَرْدَبيس» غاضبًا:

- سُحقًا لك وللعنادل.

ثُمّ أشار «دَرْدَبيس» بيده في الهواء تجاهه، فشعر «جُلجُلان» بالاختناق، وكأنّ يدًا من حديدٍ تطبق على رقبته، واحمر وجهه كجمرة مشتعلة، ثُمّ حُبست أنفاسه، فازرقّت أوداجه، فصاحت «عِشْرِقَة» في هلع:

- هل ستقتله كما قتلت الآخرين؟ لم يبق أحدٌ من أوليائك إلّا أنا و«جُلجُلان»! تذكّر أنّك تحتاجنا.

ثُمّ صدحت بقوّة وبصوت فيه غلظة:

- لن يُقدّسك فرد واحد على أرض «سُقُطْرى» إن لم آمرهم بهذا.

حرّر «دَرْدَبيس» عنق «جُلجُلان» من تحت سيطرته بعد أن صار وجهه يُشبه كرمة العنب الذّابلة، وتكاثف الجنّ من «البواشق» في المجلس، كانوا يتوافدون عندما يعلمون بغضب سيّدهم، الّذي قال بحنق شديد:

- وقُتِلَ أبوك «طَرْخُون» أيضًا.

وأخذ «دَردَبيس» يُقهقه، فاستشاط «جُلجُلان» غضبًا، وكان يسعل ويُمسّد عنقه، سأله بصوت مخنوق:

- من قتله؟

- أحد «المشّائين».

- سُحقًا له.

سألته «عِشْرِقَة»:

- كيف قتله؟

- كان أسيرًا لديهم، قطعوا ذراعيه، وساقيه، وكادوا يسحقونه لولا «عفريت البرق الأحمر» الّذي منعهم منه!

- كيف لم تعرفوا عن مكانه من قبل؟

- «عفريت البرق الأحمر» وعشيرته، منعونا من الوصول إليه، ووصلنا أنّهم داووا جروحه وأطعموه، وأبقوه على قيد الحياة لحفظ الميراث فيه لسبب ما!

- وضاع الميراث.

- بل منــحه لغلام كان قد أخرجه من البئر الملعونة، وحمله على ظهره، وخرج به من البقعة المحظورة، فالتقى بأحد المشّائين، والّذي تعرفّ على «طَرْخُون» فور أن رآه فقتله.

وثب «جُلجُلان» في مكانه قائلًا:

- ألم تُخبرني أنّ عفريت البرق الأحمر يحمي البئر الملعونة؟

- بلى أخبرتك، لكنّ العفريت لم يتعرّض للغلام، والفتاة أيضًا لم تضلّ خطاها في «سراديب الخطى الضّائعة»، إنّهما من عشيرة غريبة، ولا نملك أن نتخللهم أو نُسيطر عليهم، حاولنا ولم نقدر، كما أنّهما في بيت «النَّطَاسِيّ»، وتعلمون أنّ بيته من بيوت «العنادل».

صاح «جُلجُلان» بحنق شديد:

- لا تملكون السيطرة عليهما، لكنّهما انتزعا الميراث من أبي و«طرْجَهَارة»، ولا تملكون دخول بيوت «العنادل»، وهما دخلاها، ولا تعرفون أين «سراديب الخطى الضّائعة»، ودخلتها الفتاة الصغيرة وخرجت منها حيّة، ولا تقدرون على «عفريت البرق الأحمر» واستطاع الغلام أن يتغلّب عليه، أيّ عشيرة بائسة من الجنّ أنتم؟

أقبل «دَرْدَبيس» يعصر عنقه مرّة أُخرى، وعادت «عِشْرِقَة» لتهديدها النّاعم، فتركه في النّهاية، كان يعلم أنّه في حاجة إليهما لترسيخ سُلطانه بالجزيرة، فهو يرغب في أن يُخلّد اسمه، ويُعبد ويُقدّس كأبيه من الإنس والجنّ معًا، فقد فشل في ضمّ العشائر الأخرى من الجنّ الّتي كانت تسكن الجزر إليه، وتفرّقوا في أركان الأرض الأربعة، لكنّه لم ييأس قط. قال ولا يزال وجهه يفيض بغضًا وحنقًا:

- حتّى «وجدان» مات، ومنــح ميراثه لشابٍ غريب، من نفس عشيرة الغلام والفتاة.

- من أين أتى هؤلاء؟
- يُقال أنّهم من عشيرة رجل يُسمّى «أبادول»، والشّاب أيضًا في بيت «النَّطَاسِيّ».

قال «جُلجُلان»:

- فلنقبض على «النَّطَاسِيّ» إذًا، أو نخطف زوجته ونُهدده بها.
- وهم معه؟ هل أنت أحمق؟

تبادلا النّظرات وكلاهما يفيض كرها للآخر، قالت «عِشْرِقَة»:

- أهل الجزيرة على اختلاف طبقاتهم يُجلّون «النَّطَاسِيّ»، لو أسأنا إليه سنخسر تأييدهم لنا، ولا بدّ أن نحترس، فقد يمنحه الغلام ميراث أبيك يا «جُلجُلان»، وقد تمنح الفتاةُ ميراث «طرْجَهارة» لزوجته، وقد يقتلك الشّاب بضربة واحدة، فأنت تعلم قدر ميراث «وجدان»!

قال «دَرْدَبيس» قبل أن ينصرف:

- لقد أنجب «وِجدان» طفلًا، وماتت زوجته وهي تلده، وهو الآن في بيت «النَّطَاسِيّ»، سيربيه كابن له.

استدار وارتفع بكيانه في الهواء لينصرف وبدأ أفراد عشيرته يتلاشون من الغرفة تباعًا، سأله «جُلجُلان» وهو يرفع عينيه تجاهه:

- وأين كان «وجدان»؟
- جزيرة الضّباب الّتي لم يعرف أحد الطريق إليها قطّ.

صاح «جُلجُلان»:

- إلّا هذا الشّاب الّذي نجح فيما فشلتم به ووصل إليها!

لم يلتفت «دَرْدَبيس» هذه المرّة لكلمات «جُلجُلان»، فلو التفت سيقتله، تجاهله ووصل لسقف الغرفة الشّفاف وكاد كيانه الأثيري يخترقه، استوقفته «عِشْرِقَة» وسألته:

- ماذا سنفعل؟

كان «دَردَبيس» قد علم بمخطط «سَندَروسة» ومحاولاتها لقتل أفراد عائلة «أبادول»، لكنّه لم يُخبر «عشرقة» و«جلجلان»، فهو يعلم أنهما يُريدونهم أحياء ليحصلا منهم على المواريث، قال بصوته المُنفّر وهو يخترق السّقف بكيانه:

- سأعود.

****

وَصَلَ المركب الّذي يُقلّ «أنس» و«ميسرة» إلى «سُقُطْرى»، وكان دخول «أنس» للجزيرة كالدّخول إلى دوّاماتٍ وأخاديدَ وسراديبَ أصابته بالدّوار حتّى أنّه تأرجح في مكانه فأسرع «ميسرة» يسنده حتّى لا يسقط، كان هناك الكثير من الأصوات المُتداخلة، والرّوائح الغريبة، وداهمته دفعات من الخواطر والأفكار الّتي أصابت عقله بالشّتات، همس بخفوت:

- كيف كان «هائد» يتحمّل كلّ هذا!

أسنده «ميسرة» إلى جذع شجرة، وكانت شجرة من أشجار «دم الأخوين» المُنتشرة بالجزيرة، أغمض عينيه وحاول أن يتأقلم مع ذلك التّشويش الّذي كان يكتنفه، كان «ميسرة» يُحدّثه، لكنّه لم يسمع صوته، مرّت دقائق حتّى استطاع أن يجمع شتات فكره، ويُركّز على صوت «ميسرة»، ثُمّ فتح عينيه أخيرًا، فوجده يجلس أمامه وينتظر أن يستردّ تركيزه، قال له وهو يبتسم:

- كيف حالك الآن؟

- أشعر أنّ رأسي كخليّة النــحل.

سال الراتنج من شجرة دم الأخوين، فمدّ «ميسرة» أصبعه وأخذ يتفحّصه ويشمّه وقال بعد أن وضعه في فمه ليتذوّقه:

- طعمه يُشبه طعم العسل.

- يا إلهي! أتجرّب أيّ شيء أمامك!

ابتسما، وساعده «ميسرة» على النّهوض، وسار يتكئ على عصاه الّتي لم تُطلق النيران مرّة أخرى! سألا أهل الجزيرة عن بيت «النَّطَاسِيّ» وكانوا جميعًا يعرفونه، فدلّوهما على الطريق لبيته، وعندما اقتربا كان «أنس» يسمع صوت «خالد»، وضحكات «سُليمان»، وبُكاء رضيع، وأصوات أخرى لا يعرفها، فأحسّ بدنوّه من مكانهما، وصلا أخيرًا فوقف أمام الباب وابتسم، فسأله «ميسرة» عن سبب ابتسامته فقال له:

- رائحة ابنتي.. لا أُخطئ فيها أبدًا!

كاد «أنس» يطرق الباب، لكنّ «سَرْوَة» سبقته وهي تفتحه وتسأله هامسة وعيناها التائهتان تُحدّق إلى وجهه المُتعب:

- مات الشّيخ «هائد».. أليس كذلك؟

أجابها مُتعجّبًا:

- بلى!

كان «النَّطَاسِيّ» خلف زوجته، فقد أفزعه أن يراها تهرول نحو باب الدّار في هلع فتبعها، فور أن رأى وجه «أنس» وكيف يُشبهه ولده «خالد»، سارع بإدخاله، فهرولت «فرح» نحو أبيها فور أن دلف إلى صحن الدّار، واحتواها في حضنه وانكبّ يُقبّل رأسها وجبينها، بينما أقبل «خالد» يُعانقه، واقترب «سُليمان» في غبطةٍ منهم، وسعد أحفاد «أبادول» باجتماعهم لأوّل مرّة على أرض «سُقُطرى»، فُجع «أَقْمَر»

عندما علم بمقتل «هائد»، ووصول «سُبُحات» وأمّها للبستان، خيّم عليه الحزن عندما أدرك ما حدث للعنادل، قال بتأثّر:

- لا بدّ أن نعود يا خالة.

قالت «زهراء» وهي تُكفكف دموعها:

- لا يا ولدي، ستكون في خطر، فالملك لا يعلم بقصّة «فرح» ودورها هنا هي وذويها، سيكون «العنادل» بخير هناك، أنسيت المعاهدة الّتي بين الملك «قلمّس» و«العنادل»؟

- لكنّهم يحتاجون رجلًا يرعاهم.

قال «أنس» ليُخفف عنه:

- نساء «العنادل» ثابتات كالجبال، و«هلال» يرعى الغلمان، يُذكّرني بـ«هائد»، كما أنّ المُزارعين وزوجاتهم يُساعدونهم، حتّى أنّهم أعاروهم من ثيابهم.

ثُمّ التفت نـحو «زهراء» وقال لها:

- يبدو أنّك أحسنتِ معاملة هؤلاء المُزارعين يا سيّدة «زهراء».

أجابته بدموعها فأردف قائلًا:

- داركم عامرة بالخيرات، لقد تولّت أمّ «سُبُحات» الأمور هناك، وقالت إنّك لو كُنت هناك ما منعتِ حبّة قمح عنهم.

قالت «زهراء» بصوت مرتعش:

- صدقَتْ.. واللهِ صدقَتْ.

التفّ الجميع حول «أنس»، وبدأ حوار طويل يدور بينهم.

****

عادت «مرجانة» للقصر الأبيض في جزيرة الضّباب، كانت أُمّها تنتظرها، فقد غابت كعادتها! صاحت عليها فور دخولها:

- أين كنت يا «مرجانة»؟

- في بيت «النَّطَاسِيّ».

شهقت أختاها في آن واحد. قالت «كُركُمانة»:

-كيف تمكّنتِ من الدّخول؟ صحيح أننا نُجيد إخفاء أنفسنا بمهارة شديدة وحتّى باقي عشائر الجنّ لا تكشف سترنا، ولكن مهما تخفّيتِ يا «مرجانة» فولوج بيوت «العنادل» مُستحيل!

شخصت «ريحانة» بعينيها وقالت هي ترفع حاجبيها:

- صِرت حتمًا من «العنادل»! أليس كذلك؟

همست «مرجانة» بخفوت:

- بلى.

ثُمّ أضافت وهي ترنو لأمّها:

- صرتُ من «العنادل» منذ وصول «وِجدان» و«رهف» لجزيرتنا.

- ماذا!

تلعثمت وهي تضيف:

- وأنا من دفعت مركبهما إلى شاطئ جزيرتنا عندما رأيتهما وهما يهربان من «سُقُطْرى».

ران عليهنّ صمت مُطبق، طالعتها أُمّها بعينين متذبذبتين، ظنّت الفتيات أنّ أُمّهن ستنفجر غاضبة كعادتها وتمسك بشعورهن وتطوّحهن في الهواء، لكنّها لم تصرخ، ولم تفعل، بل قالت بصوت هادئ خافت:

- حدّثينا عن «العنادل» يا «مرجانة».

تهلل وجه «مرجانة» وازدادت وجنتاها احمرارًا، وطفقت تُخبرهن بكلّ ما تعرفه عن الله الواحد الأحد، وعن التّسابيح، ورددت عليهن الابتهالات والمناجاة الّتي تعلّمتها عندما كانت تتسلل وتنصت لـ «وِجدان» و«رهف» وهما يُرددانها على الشَّاطئ، ثُمّ كيف عادت وسألتهما عن معناها، وعن كلّ ما يتعلّق بـ«العنادل»، فأجاباها وترفّقا بها، وبعد عدّة لقاءات وأحاديث طويلة لها معهما، أخبرتهما أنّها صارت من «العنادل» كأبيها، وطلبت منهما ألّا يُخبرا أمّها، فقد كانت تخشى غضبها.

كانت «حبّوبة» تُنصت إليها في صمت، أمّا «ريحانة» و«كُركُمانة» فكان الفضول ينهشهما نهشًا، وأكثرن من السؤال، فأجابتهنّ وأخبرتهنّ أيضًا عن كلّ ما سمعته من حوار «أنس» مع رفاقه بدار «النَّطَاسِيّ» في جزيرة «سُقُطْرى».

****

جلس «النَّطَاسِيّ» على رأس الطّاولة، وحوله ضيوفه جميعًا، وكانت «سَرْوَة» تربط الرّضيع على صدرها وتعمل على ضيافتهم، كانت سعيدة بحضورهم، كانت تُخبرهم من آن لآخر بأنّ «أصحاب القلانيس الزّرقاء» سعداء لحضورهم جميعًا هُنا، كان «أنس» أكبرهم عُمرًا، فـ «النَّطَاسِيّ» و«سَقّنْقُور» في الخامسة والثّلاثين، و«ميسرة» في الثّلاثين، والشباب في العشرينيات، حتّى السيّدة «زهراء» تصغره بعامين. أطرق «أنس» قليلًا ثُمّ قال بجديّة شديدة بعد أن انتهى كلّ منهم من سرد حكايته وما مرّ به في رحلته:

- نحن هنا لسبب مُحدد ومهم، صرنا نحمل ميراث أربعة من أبناء «خَنْدَريس» ماتوا أمام أعيننا، لم يكن التقام البيت لنا معًا أمرًا عشوائيًّا، ولو كان معنا باقي أفراد العائلة لالتقمنا جميعًا.

سأله «خالد»:

- كيف هذا يا أبي؟

- لقد شعر البيت بـ «فرح»، وسمع حوارنا، ولهذا اختارنا.

قال «ميسرة» مُعقبًا:

- بل شعر بها من قبل ذلك عن طريق بيت «أبادول»، وأدرك حساسيّتها فالبيوت تتصل ببعضها بطريقة ما، ولم يترك لها المجال لتتطوّع بل أُجبرت على هذا على صغر سنّها لحكمة ما. وعلى العموم.. ليس لتلك البيوت حماقات، اعتدت دومًا على تعليل لكلّ حدث مررت به خلال جولاتي في عوالمها.

ثُمّ أردف وهو يُشير إليهم:

- من لُطف الله أنّكم عائلة مُترابطة، وعائلة «أبادول» بالذّات، فتلك المواريث لأفراد عائلة كان بينهم نزاع من أجل هذا الميراث، نزاع وصل للقتل، ولن تفعلوا هذا أبدًا، فأنتم أحفاد «أبادول»!

أجابه «أنس» وعيناه تتذبذبان في قلق:

- أفديهم بنفسي وروحي.

كان «النَّطَاسِيّ» وضيوفه من أهل «سُقُطرى» الّذين قدّموا المساعدة لأحفاد «أبادول» يُتابعون حوارهم بشغفٍ شديد، وكانوا صامتين، حتّى الرّضيع سكن في حضن «سَرْوَة»، لم ينبس أحدهم ببنت شفة، قال «أنس» بعد صمت خفيف:

- قوّة العقل والتّحكم بالآخرين لدرجة قد تدفعهم للقتل، قوّة الجسد الخارقة، حاسّة العنكبوت، الملكات «التليباثيّة»[1]، قراءة الأفكار

---

(1) التخاطر أو (التلباثي) بالإنجليزية مصطلح يشير إلى المقدرة على التواصل ونقل المعلومات من عقل إنسان لآخر، أي أنه يعني القدرة على اكتساب معلومات من أي كائن واعٍ آخر، وقد تكون هذه المعلومات أفكارًا أو مشاعرَ أو غير ذلك، وقد استخدمت الكلمة في الماضي لتعبر عن انتقال المعلومة.

أو الذّكريات، نــحن لا نــحملها فقط لحماية الآخرين كأطفال «العنادل» وابن «وجدان» الرّضيع، أو لننقلها لأبنائهم كابنة «طَرْجَهارة»، وابن «طَرْخُون»، بل هُناك سرٌ آخر، ودور مهمّ سنقوم به.

أضاف «أنس» وهو يجول بعينيه في المكان:

- لا بدّ أن نعرف ما كان مكتوبًا في سجلّات المُعلّم النّبيل.. أودّ أن أطّلع عليها، لا بدّ أنّ فيها شيئًا عن أبناء «خَنْدَريس».

قال «النَّطَاسِيّ»:

- موسوعة جامعة بها معلومات في كل ميادين المعرفة، مرتبةً ترتيبًا هجائيًّا، وبها الكثير من أسرار «سُقُطْرى»، ما حفظته منها لا يتعلّق بأبناء «خَنْدَريس»، لكنّ «هائدًا» أخبرني أنّ هناك جزءًا مهمًا منها ووعدني أن يزورني ليُطلعني عليه، وكما أخبرتنا أنت، لم يبقَ أحد ممن يحفظونها، ماتوا جميعًا، ومن بقي منهم لا يحفظ إلّا القليل.

- وددت لو أعرف لماذا اجتمع كلّ هؤلاء حول «عُرقوب»؟ وما قصّة العُشبة الّتي يتناولونها فتُخدّرهم وتُذهب عقولهم لينساقوا خلفه بتلك الطّريقة.

قال «النَّطَاسِيّ»:

- اللفاح أو تُفّاح المجانين، وهو نبات يُسكر ويُخدّر، جذوره تُشبه جسد الإنسان، يحوي خصائص آدمية، وإذا اقتلعه شخص من الأرض يُصدر صوتًا عاليًا، كل من يسمع هذا الصوت يُصاب بالجنون يستخدمونه في الوصفات السحرية.

قال «خالد» وكان قد قرأ عنه من قبل:

- ذلك نبات «الماندراجور» يا أبي يستخدم في التّخدير، ويُذكر دائمًا في الروايات الخيالية.

ران عليهم صمت طويل قطعته «سَروة» بقولها:

- لدينا من تلك النّبتة بحديقتنا، أسمع صوت صراخها عندما يكون الخطر وشيكًا!

تبادلوا النّظرات في صمت، قطع «خالد» صمتهم بسؤاله:

- ما خطوتنا القادمة يا أبي؟

قال «أنس»:

- لا بدّ ألّا نفترق، ولا تتنازلوا عن المواريث أبدًا مهما حدث.

التفت «ميسرة» نــحو «فرح» ونظر في عينيها طويلًا، أدركتْ أنّه سيُخبرها بشيء مهم، فاستنفرت كلّ حواسها، وأنصتت إليه باهتمام شديد، أحنى رأسه وهو يقول:

- وددتُ أن أُخبرك بشيء مهم، نــحن المستكشفون نختلف عن المحاربين.

- كيف؟

- سلاحنا هنا.

وأشار إلى رأسه ثُمّ أضاف:

- ستمرّ بك لحظات صعبة، وستكونين وحدك، وحدك تمامًا، بلا أيّ مساعدة من أيّ مخلوق.

- حتّى أبي؟

- نعم.

جفّ حلقها وشعرت بدوار خفيف، وضع «أنس» يده على كتفها وقال يُطمئنها:

- لا تعلّقي قلبك بأحد من البشر يا بنتي، اطلبي العون من الله وحده، وستكونين عندها أقوى من الجميع، وأقدر على مواجهة مخاوفك.

- ولو فشلت يا أبي؟

- لن يفشل أبدًا من وكّل أمره لله!

هزّت رأسها موافقة، فأومأ برأسه. أكمل «ميسرة» قائلًا:

- عند تلك اللحظة سيختفي كلّ من هم حولك، وسيظهر البيت الّذي التقمنا مرّة أخرى، ستكونين هناك، أمام صندوق الكنز، وحدك ستفكّرين، ووحدك ستُرتبين ما مررتِ به هنا، وستضعين الأُمور في نصابها الصّحيح، وقد تنكشف لك الحقيقة عندما يصفو ذهنك، وسيشعر البيت بك وقتها، وسيُعيدك في الحال إلى «سُقُطْرى»، عندها ستكونين سببًا في إنجلاء حقيقة ما، وقد تصلين لطرف الخيط.

- أيّ خيط؟

- حلّ أُحجية هذا الشّعب المنسيّ.

- متى سيحدث هذا؟

- عندما تضيق، وتَدْلَهِمُّ وكأنّه الهلاك، ويشتدّ الصّراع، ويكون الخطر وشيكًا، وكأنّ بصيص الأمل الأخير يتسلل من بين أصابعك، لا تنسي وقتها أنّنا هنا لأداء رسالة. قد يكون جميع المستكشفين السّابقين تطوّعوا بإرادتهم، وربّما أنت الوحيدة الّتي أجبرها بيت من تلك البُيوت على استكشافه، لكنني على يقين أنّه التقمنا معك لسبب ما، فكوني قويّة، فأنت حفيدة «أبادول»!

أمسكت «فرح» بيده، لم تتمكّن من كبح جماح فضولها، ودّت حينها أن ترى أيّ شيء قد مرّ به من قبل، أدركَ هذا فاستحضر إلى ذهنه لحظات انتصاره وفرحه وحماسه، تحليق الصّقور، وعودته لبيته، حتّى لحظات احتفاء المستكشفين الآخرين به، رَأت وجوههم، شَعرتْ بما شَعر به من قبل، سارع بسحب يده من بين كفّي «فرح» عندما مرّت زوجته بذاكرته.

لاحظ «أنس» ما حدث، فاقترب محاولًا شغل ابنته ليُخفف عنها، وطلب منها أن تُمسك يده، وأغمض عينيه ليستعيد في رأسه تلك اللحظة الّتي رسم له فيها الخادم الأبكم الّذي كان مع القافلة كلمة على الأرض من أربعة حروف، وكان يعلم أنّ ابنته تعلّمت الحروف من «سَرْوَة»، رأت «فرح» تلك الذّكرى وقرأت الكلمة بوضوح وفتحت عينيها وقالت:

- اهرب!

أدرك «أنس» أنّ ذلك الخادم كان يُحذّره، وكانت تلك هي نفس الكلمة الّتي كتبها لـ «ميسرة» عندما التقى به أيضًا، فقد كان يشعر أنّ ابنه قد قُتل غدرًا، وكان يخشى عليهما.

أطلّت «بنات وَردَان» فجأة، فانتفضوا جميعًا حتّى أنّهم تركوا مقاعدهم، إلّا «فرح» الّتي قالت وعلى وجهها ابتسامة:

- «بنات وَردَان»!

انطلقت الفتيات يتحدّثن بسرعة شديدة:

- نحن «بنات وَردَان».

- ألا تعرفوننا؟

- لقد التقينا بـ «فرح».

- أنا التقيت بـ «سُليمان».

- أُمّي أنقذت «خالدًا».

- أنا «مرجانة».

- أنا «ريحانة».

- أنا «كُركُمانة».

أطلّت أُمّهن فجأة وسطهن وقالت على استحياء:

- وأنا «حبّوبة».

صاح «أقمر» بعصبيّة شديدة وكان هذا على العكس من طبيعته الهادئة:

- توقّفن عن الثّرثرة!

قال «خالد» ليُطمئن الجميع:

- هؤلاء «بنات وَردَان» اللاتي كُنّ يعشن مع «وِجدان» و«رهف» في جزيرة «الضّباب».

قالت السيّدة «زهراء» وهي تنقل عينيها بينهنّ:

- ما دمتنّ هنا تحت سقف هذا البيت فأنتنّ حتمًا من «العنادل».

هزّ «النَّطَاسِيّ» رأسه قائلًا:

- صحيح!

قال «سُليمان»:

- هؤلاء هنّ من أرَدنَ حملي إلى الدّار هنا يا خالي، رأيتهنّ أمام الكهف في الجبل.

التفتت «فرح» تجاههن وسألتهن بعفوية:

- كُنتنّ تُطعمن «طرجهارة» أليس كذلك؟

أجابتها «مرجانة»:

- أشفقنا عليها، فقد كانت تضعف يومًا بعد يوم.

قالت «حبّوبة» وهي تبتسم بحبور:

- هكذا هنّ بناتي! رقيقات القلب مثلي تمامًا.

كان لــ «بنات وَردَان» حضور لطيف، بدأ أهل الدّار يألفونهنّ، أخذن يراقبن الرّضيع من بعيد وتحدّثن عن والديه بحزن وإشفاق، فابتسمت «سَروة» ودعتهن للاقتراب منها. عاد الجميع لمقاعدهم، والتفّت «بنات وَردَان» حول «سَروة» وهي تحمل الرّضيع، وبدأن يُداعبنه ويضحكن، كانت ضحكاتهنّ تُضايق «أقمر»، وكان يتأفف كلّما سمعها، فأخذ أهل الدّار يضحكون من تعابير وجهه.

سألهنّ «خالد» بفضول:

- من أنقذتني منكنّ ومتى؟

قالت «حبّوبة»:

- أنا.

وبدأت تروي له عن تلك العفريتة بارعة الجمال صاحبة التّاج المرمريّ الّتي حاولت قتله وهو يحمل الرّضيع، وأخبرتهم «ريحانة» أنّها نفس العفريتة الّتي كانت تُطارد «سُليمان».

شحب وجه «ميسرة»، أدرك أنّها «سَندَروسة»، لكنّه لم ينبس ببنت شفة، وجلس يُنصت إليهنّ بتركيز شديد. أقبلت «سَروة» تُحدّثهنّ عن «أصحاب القلانيس الزّرقاء»، وسألهنّ «النَّطَاسِيّ» هل يرونهم أم لا؟ فأجبنه أنّهن لا يرين شيئًا، واغرورقت عينا «سَروة» عندما لاحظته وهو يسأل باهتمام، فأسرع قائلًا:

- لا بُدّ أنّهم يُخفون أنفسهم عنكم، فــ «سَروة» تراهم!

ابتسمت «سَروة» عندما شعرت أنّ زوجها يُصدّقها، قالت والدّموع تتلألأ في عينيها:

- كيف أُضيّفكن؟

قالت «كُركُمانة»:

- نُريد أرزًا بالحليب.

حدّجتها أُمّها بنظراتها، فجلست وهي تتخبّط في خجل.

وضعت «سَروة» الصّغير بين يدي السيّدة «زهراء»، وأسرعت نحو المطبخ لتُعدّه فسألتهنّ «فرح» بفضول:

- كيف ستأكلنه!

- نحن نأكل كما تأكلون، لكنّ صحن الأرز لن ينقص أمامكم، حتّى عظام الدّجاج الّتي تُلقونها بعد فراغكم من الطّعام، يكسوها لنا الله مرّة أُخرى ونأكل حتّى نشبع.

ابتسمت «مرجانة» عندما وجدت أنّ أُختها قد بدأت تتحدّث عن الله، طافت السّعادة بها، وجلست تُراقب الرّضيع في سكون.

بدأ «خالد» يقلق! همس لـ «أقمر» قائلًا:

- ربّما هنّ «الحيزبونات الثّلاث»!

- سأسألهن.

قبض «خالد» على ذراعه وقال بتوسّل:

- أرجوك لا تفعل، فـ «وجدان» أخبرني أنّهنّ ثرثارات.

- يبدو هذا واضحًا.

- لنُراقبهن ونرى!

تنحنح «أنس» وخاطب أُمّهن بوتيرة مهذّبة مما أسعدها وسألها:

- خبّرينا عن جزيرة «الضّباب» يا سيّدة «حبّوبة»، ولماذا هي محجوبة؟ وكيف تخرجون منها بينما لا يستطيع أحد الوصول إليها؟

ابتسمت «حبّوبة»، وبدأت تحكي قصّة زوجها الغيور «وَردَان»، وعبق المكان برائحة الشّوق لذلك الزّوج الغائب، وبرائحة الأرز بالحليب.

****

مرّ الوقت سريعًا، كان لا بدّ من خروج «خالد» للقاء خصمه من «البواشق» في حلبة المُصارعة، قرر «أنس» أن تبقى «فرح» بدار «النَّطَاسِيّ»، وترك معها «ميسرة»، و«أَقْمَر» لحمايتها. خرج الزّوجان «شُرْشُمانة» و«سَقَنْقُور» للقاء عشيرتهم بالجبل، ودّ «سُليمان» الذّهاب معهما ليبحث عن «الكومودو»، لكنّ «أنس» أصرّ على ذهابه معه، لعلّه يُعاون «خالدًا» في معركته.

أمّا «جُندب»، و«البراء»، فكانا في صدر الموكب الّذي كان يسير خلف «خالد» لتشجيعه، وكان معهما الكثيرون من أهل «سُقُطْرى» من أحبائهما جاءوا لدعم «خالد»، كان قلب «أنس» ينتفض وهو يُمسك بذراع «خالد»، ويقبض بقوّة على كفّ «سُليمان» الّتي كانت لا تزال جراحها لم تلتئم بعد من شدّة انفعاله، فطلب منه «سُليمان» أن يُخفف من قبضته، فأشفق عليه واعتذر له، وصلوا أخيرًا لوادي الموت، الّذي شهد الكثير من المعارك، كانت نهايتها مقتل أحد شباب «سُقُطْرى»، حتّى في المرّات الّتي فاز فيها أحدهم، كان يُقتل غدرًا بعد ذلك، فلا سُلطان هُنا إلّا للبواشق فقط!

تحلّق الجميع حول الخصمين، كان الحضور كثيفًا مما جعل «أنس» يرزح تحت ضغط كبير بسبب حواسّه المتّقده، أُشْعِلَتْ نارٌ عظيمة، وأُضيئت منها الشّعل، وتوزّعت في أركان الوادي. كان الشّاب الأسمر

يقف بين «خالد» و«يعبوب»، بدأ الحضور بالمُكاء والتّصدية، فهذا ديدن «البواشق»، وبدأ شباب «سُقُطْرى» يفعلون هذا أيضًا لدعم «خالد» ليُشعلوا حماسه، حتّى أنّهم هتفوا باسمه.

انعكست أضواء الشّعل على وجه وعضلات «يعبوب» البارزة، لاحظ «خالد» أنّه دهن صدره وذراعيه بالزّيت فأدرك أنّه فعل هذا ليصعب على «خالد» الإمساك به، رفع الشّاب الأسمر يده إيذانًا ببدء القتال، فهجم «يعبوب» على «خالد» وضربه على صدره بقوّة، فتلقّى «خالد» الضّربة وقبض على ذراعه، لكنّها انزلقت من بين يديه، فسقط على الأرض وضحك «البواشق». وثب في مكانه قائمًا، وأخذ يدور حول «يعبوب»، ضيّق الجمهور الدّائرة حولهما قاصدين لإزعاج «خالد»، فلاحظ «أنس»، فهمس لـ «سُليمان»، فبدأ «سُليمان» بالتخاطر مع أقرب الرّجال له، وحرّكه لدفع الجمهور للوراء، فكان يدفعهم بقوّة فتراجعوا، وسار «سُليمان» مع خاله «أنس» واقترب من الثّاني والثّالث والرّابع وكرر ما فعله، فاتّسعت الدّائرة، بدأ «خالد» يضرب «يعبوبًا» في ساقيه ليُسقطه على الأرض، وفعل، فأخذ يُمرّغه في التّراب، ليُذهب أثر الزّيت عن جسده، وقبع فوق صدره وأخذ يكيل إليه الضّربات المتتالية، عندما دفعه «يعبوب»، لم يسقط أرضًا هذه المرّة، بل ثبت كالفهد أمامه، وانقضّ عليه وأحاط خصره بذراعه فاستطاع أن يحمله على ضخامة جسده، وألقاه تجاه رفاقه، فسقط فوقهم، فهاجوا وماجوا، فقام «يعبوب» وقد دسّ أحدهم خنجرًا في يده، وانقضّ على «خالد» فأصابه بجرح بليغ في ذراعه، سالت الدّماء، فصاح أحد الحضور:

- دماؤه حمراء!

تعالت الأصوات في دهشة، فصاح «البراء» قائلًا ليُشوّش عليهم:

- تلك نفحة من نفحات شجرة «دم الأخوين».

ران عليهم صمت مهيب، كانوا جميعًا يعرفون أن أشجار «دم الأخوين» تُفرز زيتًا صمغيًا أحمر عندما تُشقّ ساقها، ويعتبرونه سائلًا مُقدّسًا، فهم يعتقدون أنّه دم لأخٍ من أخوين تشاجرا هنا يومًا ما، وتلك دماء من مات منهما، ويظنون أنّه سيعود يومًا للانتقام، وتلك كانت خُرافة يُروج لها السّحرة بالجزيرة لبثّ الرّعب في نفوس سُكّان الجزيرة، فقد كانوا يستخدمون هذا الرّاتنج في طقوس السّحر الأسود. أمّا «العنادل» فلا يعتقدون بهذا، ويتعاملون مع الرّاتنج كدواء وعلاج ويصنعون منه الحبر أيضًا!

حلّت الرّهبة في قلوب الحاضرين من «البواشق»، وصاروا الآن يُتابعون «خالدًا» بعيون أُخرى، يترقّبون كل التفاتة وحركة منه، وطفقوا يحدّجونه بنظراتهم المُلتهبة، وعيونهم تكاد تطفر من محاجرها، فتقدّموا للأمام رغمًا عنهم، وضاقت الحلقة، فأقبل «سُليمان» يدفعهم للخلف بطريقته، أخذ يتناولهم رجلًا تلو الآخر، كانت بنات «وَردَان» حاضرات، رآهن «سُليمان»، فأومأ لـ «ريحانة» برأسه، ولوّحن له وضحكن بزقزقة كالعادة، وأخفين أنفسهن عن عينيه مرّة أخرى. الآن صار الغلام أقوى من ذي قبل، لم يعد يخاف كما كان في أوّل رحلته، لم يَرَ جِنٌّ «البواشق» بناتِ «وَردَان»، فقد علّمتهنّ أُمّهن كيف يُخفين أنفسهنّ عن عشائر الجنّ الأُخرى، وبرعن في هذا، كنّ كلّما رأين «سُليمان» حرَّكَ أحدَهم من مكانه بدأن بمشاكسة جنّ «البواشق» حتّى لا يلتفتوا لـ «سُليمان» وما يفعله، ولقد نجحن في هذا.

وصلت «سَندَروسة»، كانت تعلم أنّ «ميسرة» بدار «النَّطَاسِيّ»، أرادت القضاء على «خالد» بمساعدة «يعبوب» في معركته معه، وكانت «بنات وَردَان» يعرفنها من تاجها المرمري، فأقبلن عليها، ودارت معركة خفيّة وشرسة في الهواء، مُزّق فيها رداؤها الخلّاب، وضُربت من بنات جنسها فآلمتها الضّربات، حتّى تاجها خلعنه عن رأسها، لم تظهر تلك المعركة للحضور، لكنّها كانت معركة طاحنة، جذبت الفتيات «سَندَروسة» بعيدًا عن الوادي، وانطلقن وهنّ يلاحقنها بحمم الغضب واللعنات.

اقترب «أنس» بعد أن شقّ كمّ قميصه وضمّد جرح ولده وهمس له:

- لا تقتله مهما حدث.

- ماذا سأفعل يا أبي؟

تركه «أنس» وعاد ليقف بجوار «سُليمان» الّذي راق له تحريك الآخرين، فأخذ يتلاعب بهم دون أن يلتفت أحد إليه، أراد أن يؤثّر على «يعبوب» خصم «خالد»، لكنّه لم يتمكّن، فأدرك أنّه يحمل ميراثًا من مواريث «خَنْدَريس» ولهذا هو مُحصّن، فهمس بهذا لخاله «أنس»، الّذي شحب وجهه عندما علم بهذا الأمر. كان «يعبوب» في تلك اللحظة يُحاول الهجوم على «خالد» ليُصيبه مرّة أخرى بخنجره، من آن لآخر كان «خالد» يتوقّف عن الحركة للحظات وكأنّه أُصيب بالشلل، فشعر أنس» بانقباض في صدره، قرر «سُليمان» دون أن يرجع لخاله أن يُحرّك أحد رفاق «يعبوب» ليقتلع الخنجر من يده، وفعل رفيقه هذا تحت سيطرة «سُليمان» وسط دهشة الآخرين، فضربه «يعبوب» على رأسه ضربة أفقدته وعيه، فقد غضب لأنّه سلبه خنجره، فانتقل «سُليمان» في الحال لرجل آخر ليدفعه لحمل الخنجر والهروب به كالمجنون، لاحظ «أنس» ما يفعله «سُليمان» فأعجب بذكائه، توقّف «خالد» مرّتين، وتكرر الأمر، رغم تشوّشه من الزّحام وتداخل الأصوات كان «أنس» يتابع حركات «يعبوب»، وكلّ خلجة من خلجات جسده كان يراها بدقّة، حتّى أنّه كان يُتابع عينيه وهما ترمشان، لاحظ تغيّر عين «يعبوب» للّون الأبيض في كلّ مرّة يتوقّف فيها «خالد» عن الحركة، فصاح «أنس»:

- كُن مثلما كان «سَاهور»[1] يا «خالد».

---

(1) ساهور من شخصيّات رواية أمانوس، وكان ضريرًا.

تلجلج «خالد»، والتفت نــحو أبيه، فرأى «سُليمان» بجواره يحرّك كتفيه، فأخذ يُفكّر سريعًا.. «ساهور» كان ضريرًا، لا يرى، ويرتفع في الهواء لنقائه، وهو لا يملك أن يطير في الهواء مثله! وأدرك أنّ «سُليمان» لا يقدر على اقتحام عقله ورفعه في الهواء لأنّه من أبناء «خَنْدَريس» أيضًا، إذًا يقصد العينين، فطِن «خالد» لما يرمي إليه أبوه، وأدرك أنّ خصمه يستطيع التّأثير على من أمامه بعينيه فيشلّ حركته، فأعرض عنهما، ولم ينظر إليهما مرّة أخرى، بدأ «خالد» الهجوم، توالت الضربات المتبادلة، والركلات العنيفة، أقبل «يعبوب» أكثر من مرّة على خنقه وكان «خالد» يتخلّص من قبضته، كسر كلاهما أنف الآخر، وأُصيبت عين «خالد»، أحاط «يعبوب» جذعه بذراعيه وكاد يكسر أضلاعه، لولا أنّه انــحنى وضربه بكوعه ضربة أجبرته على تحريره من بين ذراعيه، تعالى الهتاف، كانوا يُشجّعون «يعبوبًا» على قتله، أدرك «خالد» أنّه سيقتله لا محالة، فقرر أن يعيقه عن إكمال مُخططه، فاستدار فجأة وانطلق نــحوه كوحش كاسر وانقضّ على ذراعه واقتنصها ثُمّ لواها وكسر عظامها، فطفق «يعبوب» يصرخ صرخات مدوّية من شدّة الألم والحضور في ذهول، ثُمّ وجّه ركلة سريعة لساقه اليسرى بكلّ ما أوتي من قوّة فكسر عظامها حتّى أنّه سمع صوت تحطُّمِها، ولطمه على صدغيه بكلتا يديه ليُنهي كلّ هذا فارتج رأسه، ثُمّ وجه لصدره ضربة بقبضته أطاحت به للخلف قبل أن يسقط على الأرض وهو يصرخ صراخًا تردد صداه بالوادي كما لم يحدث من قبل! تعالى الهتاف:

- اقتله.. اقتله.. اقتله.

صرخ «خالد» صرخة مجلجلة وقال:

- لن أقتله.

أخذوا يُهددونه ويتوعّدونه بالقتل، حتّى «يعبوب» كان يسبّه ويلعنه ويصرخ على الرّغم من إصابته، كان «خالد» قد وصل لذروة الغضب، هرول نحو صخرة عملاقة بركن الوادي وحملها، فشخصت الأبصار نــحوه، وتعالت صيحات الدّهشة مما رأوه منه، رفعها للأعلى بذراعيه، ثُمّ دكها في الأرض فتحطّمت، وكان هذا ليُخيفهم، وليردعم ليتوقّفوا عن تحفيزه لقتله، صاح بصوت مجلجل وقد انتفخت أوداجه:

- لا قتال بعد اليوم!

ران عليهم صمت مهيب، وكأن الحجارة سقطت على رؤوسهم وليس على أرض الوادي، كان صدى صوت «خالد» يتردد في الأجواء، هتف «جُندب» بحماس وتبعه أخوه «البراء» وأقبل شباب «سُقُطْرى» على «خالد» وحملوه، كان «جُندب» يرقص فرحًا، والتمعت عينا «البراء»، فقد تحقق أوّل هدف كان يرمي إليه عندما علم بقوّة «خالد» والميراث الّذي يحمله، ساروا في موكب نــحو بيت «النَّطَاسِيّ»، وكان «أنس» يسير خلفهم مع «سُليمان»، فلاحظ أنّ خاله متعب ومشوّش، من كثرة ما سمعه من أصوات، ورآه من حركات، أمسك بيده وسار معه نــحو بيت «النَّطَاسِيّ»، كان الثّلاثة في حاجة للرّاحة، فقد أُصيب «أنس» بدوار شديد، وكان وجه «خالد» متورّمًا وخاصّة عينه اليُمنى، أمّا «سُليمان» فقد شحب وجهه، وقبض على صدره، وانطوى على نفسه، وأخذ يصرخ، أقبل «ميسرة» وحمل «سُليمان» للفراش ليقوم «النَّطَاسِيّ» بتفحّصه همست «سَرْوَة» :

- دُمية التّواتارا![1]

لكنّهم لم يسمعوها.

****

---

(1) التواتارا نوع من السّحالي.

لا يزال شطر عائلة «أبادول» ينتظر بذلك البيت العجيب، في غرفة واحدة حيث تتكئ أرواحهم القلقة على بعضها بعضًا. هبّت الرّياح العاتية ففُتحت نافذة الغرفة الّتي كانوا يجتمعون فيها فجأة، كان هناك لوحة مُعلّقة تتأرجح مُصدرة طبلًا جنائزيًّا مما دفع «يُوسف» للسير نــحوها بعصبيّة لينزعها عن الحائط، فهم ليسوا في حاجة للمزيد من الحُزن. فبعدما حدث اليوم لــ «حمزة» جميعهم يرزحون تحت موجة شديدة من الخوف والترقّب..

فمنذ ساعة كان «حمزة» يتحدّث مع «يُوسف» عن بعض الصّور والأوراق الّتي عثروا عليها، فقد قضيا النّهار وهما يُفتّشان في الكتب العتيقة التي موهها التّراب على الرّفوف، صرخ «حمزة» فجأة وتقوّس بجذعه وأمسك ببطنه مُتألّمًا، ثُمّ عاد يصرخ وأمسك بذراعه، ثُمّ سقط على الأرض وساقه توجعه بشدّة، ثُمّ وثب واقفًا ودقّات قلبه تتسارع بشدّة، بدا وكأنّه يُصارع شبحًا، بيد أنّه لم يكن يُصارع أيّ كائن، وإنّما هو أخوه «خالد» يخوض قتالًا هناك، وها هو يتألّم معه في نفس اللحظة، ويُصاب في نفس الأماكن، حتّى أنّه جُرح بذراعه في نفس المكان الّذي جُرِحَ فيه أخوه، وسالت دماؤه، انخلع قلب «مرام» وهي تحتضنه قائلة:

- أخوك يخوض قِتالًا هُناك، دائمًا كُنتما تشعران ببعضكما!

هرول «يُوسف» نــحوه ليُضمّد الجرح، وبعد قليل سمعوا جميعًا صوت «أنس» وهو يصيح قائلًا:

- كُن مثلما كَان «سَاهور» يا «خالد»!

خرّت «مرام» على ركبتيها عندما سمعت صوت زوجها وقالت بخفوت:

- «أنس»!

قال «أبادول» وهو يقترب من «حمزة»:

- إنّهم قريبون جدًّا.. قريبون للغاية.

قال «حمزة» بصوت مُتقطّع:

- لماذا «ساهور» بالذّات!

****

مدّ الليل رواقه المُعتم وأرسل غيومه كطلائع الجيش الزّاحف، جلس «أبو بريص» وهو يحمل الدّمية الّتي صنعها من ثياب «سُليمان» الّتي عثر عليها هو وأتباعه ببيت «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة»، بدأ يقرأ طلاسمه عليها، كانت دمية «التّواتارا» هي مجسّم يستخدمه «المشّاؤون» لأغراض سحرية، وهي ترمز لكائن حي، ويوضع فيها شيء من متعلقات هذا الكائن كشعره أو أظفاره، تستخدم غالبًا لإلحاق الأذى بالخصوم .. حيث يزعم السّحرة أن كل ما يصيب الدمية من ضرر، سيصيب الإنسان أو الكائن الذي ترمز إليه، فعلى سبيل المثال، لو احترقت يد الدمية فستحترق يد الإنسان المقصود، وكان هذا هو أخطر أنواع السّحر الأسود الّتي يُمارسها السّحرة في تلك الجزر، وقد استطاع «أبو بُريص» وأعوانه الحصول على شعيرات لـ «سُليمان» من ملابسه الّتي عثروا عليها.

بدأ «أبو بُريص» يضع شوكة في بطن الدّمية، ثُمّ يلوي ذراعها، ثُمّ يُقرّبها من النّار تارة، ويُبعدها فيضربها في الأرض ضربًا متواليًا. ظلّ يفعل أفاعيله، وعلى الجانب الآخر كان «سُليمان» يصرخ ويئنّ من الألم، وترتفع حرارته، ويشعر بحرقة في أطرافه، ثُمّ يشكو من ألم بذراعه، سقاه «النَّطَاسِيّ» دواء أعدّه بنفسه لعلاج آلام البطن، كان الوقت قد تأخّر، وكان «خالد» يكابد الألم من إصابات وجهه، سقاه «النَّطَاسِيّ» دواء مُسكنًا ومنوّمًا، وغَفت «فرح» بجوار أخيها، أمّا «ميسرة» فخرج خلسة للقاء «سَندَروسة»، وبقي «أنس» مُستيقظًا بجوار «سُليمان» وهو ينتفض، طُرق الباب طرقات واهنة، فقام ليرى من بباب غرفتهم، كان

«النَّطَاسِيّ» يقف وهو يحمل شمعة، ومعه «سَرْوة» الّتي كانت تعقد يديها على صدرها وكأنّها تعتذر عن طرق باب غرفتهم في ذلك الوقت، أرادت أن تُخبره بشيء مهمّ همس به «أصحاب القلانيس الزّرقاء» في أُذنها، وكان زوجها يعلم يقيناً أنّها لن تنام إلّا بعد إخبار «أنس» بهذا فتوجّه معها لغرفته ليُريحها، حدّثته عن دُمية «التّواتارا» وما تفعله بالمسحور، فأدرك «أنس» أنّ «أبا بُريص» الّذي أخبره «سُليمان» عنه قد سَحر له، فشكرهما وأغلق الباب، وتوضّأ من قدح فخّاري كان فيه القليل من الماء، وجلس يرقي ابن أُخته المسكين بآيات القرآن حتّى انبلج الفجر، عندها تعرّق جبين «سُليمان» وغطّ في نوم عميق، فاحتواه خاله في حضنه، ونام بجواره.

استيقظ «أنس» فجأة، تناهى إلى مسامعه صوت حوار بين «ميسرة» وفتاة ما! كان واثقًا أنّه صوته، وكان الحوار حوار عاشقين، مما جعل «أنس» يشخص بعينيه في ذهول! وأخذ يتساءل في نفسه مُتشككًا: هل هذا صوت «ميسرة» حقًا؟ وكيف هذا؟ ومع من؟ وأين؟ أخذ يهزّ رأسه في تخبّط، تغيّرت طريقة الحوار وكأن شجارًا دبّ بين «ميسرة» والفتاة الّتي يتحاور معها، لم يتمكّن «أنس» من تفسير كلامهما فقد أرسل «أبو بُريص» نفرًا من الجنّ وكانوا يطوفون بدار «النَّطَاسِيّ» في محاولة جديدة للمساس بـ «سُليمان»، فشوّشوا على الأصوات، وعندما انتهوا وعادوا خائبين كان صوت «ميسرة» قد اختفى، فأغلق «أنس» عينيه وغرق في نوم عميق من شدّة الإرهاق.

في بقعة أخرى، صرخ «أبو بريص» في كهفه بجزيرة «المشّائين» عندما اشتعلت دُمية «التواتارا» أمام عينيه دون أن تمسّها النّار حتّى أنّها أحرقت أصبعه، فهدر غاضبًا:

- احترقت «التواتارا»، وهذا لم يحدث معي من قبل!

التفّ حوله كبار «المشّائين الّذين لجأوا إليه ليقضي على «سُليمان»، واتخذوا قرارًا حاسمًا بالرّحيل إلى «سُقُطْرى» لقتله، فلا ينبغي لميراث «طَرْخُون» أن يستمرّ مهما كانت الأسباب، فلقد أحرق قلوبهم على فلذات أكبادهم.

***

كان صباحًا مُختلفًا، فقد استيقظوا جميعًا ولم يذُق أيّ منهم طعم الرّاحة، حتّى «فرح» كانت تُعاني من الكوابيس، كان وجه «خالد» مُحتقنًا وقد زاد تورّم عينه، ولا يزال أنفه يؤلمه، أمّا «سُليمان» فكان وجهه مصفرًّا، وكان يبدو عليه الهوان والضّعف، اجتمعوا حول مائدة «سَرْوة» الّتي كانت سعيدة لأنّ زوجها ولأوّل مرّة منذ وقت طويل قد عاونها في إعداد الطّعام، وانضمّت إليهما «زهراء» عندما أيقظها بكاء الرّضيع فهبّت إليهم لتُساعدهم، فحملته وانزوت به في ركن وأخذت تتأمّله، وتُفكّر.. متى ستحمل أبناء «أَقْمَر»؟

دلفت «بنات وَردَان» وهن غاضبات، طُفن بـ«ميسرة»، وتلقّفنه بينهن، وشاركتهنّ أُمّهن الّتي بدأت قائلة:

- كاذب.

- مُخادع.

- حقير.

- خائن.

وظللن على هذا الحال حتّى صاح «أنس» قائلًا:

- ماذا حدث؟ ولماذا تفعلون به هذا؟

- عشيق «سَندَروسة»، صاحبة التّاج المرمريّ والأريج السّاحر، العفريتة الّتي تحاول قتلكم بأمرٍ من أبيها، لقد تتبعناها فقد حاولت إيذاء «خالد» خلال معركته وعرفنا كلّ شيء.

التفت «أنس» نحو «ميسرة» ورشقه بنظرة ناريّة، أسرع «أقمر» قائلًا:

- انتبه يا سيّد «أنس» فالجنّ يكذبون.

ثارت «بنات وَردان» وطفن به يزمجرن في غضب، لم يلتفت «أنس» لما يفعلنه بل ظلّ يُحدّج «ميسرة» بنظراته، فرمش «ميسرة» بعينيه وهزّ رأسه وكأنّه يعترف له، لكنّه لم يفتح فمه، كانت نظرات «أنس» له تحمل لومًا وعتابًا وخيبة أملٍ، تيقّن الآن أنّ الأصوات الّتي كان يسمعها كانت له بالفعل، وهو يتحدّث مع عشيقته، أمسك «خالد» بتلابيبه وكاد يوسعه ضربًا، لكنّ «أنس» استوقفه وصاح في غضب، فسكن كلّ من بالبيت، فها هو السيّد الوقور الهادئ يهدر غاضبًا أمامهم، وكانت يداه ترتجفان من فرط الانفعال، عاد يُحدّج «ميسرة» بنظراته الغاضبة وقال له:

- لماذا كذبت؟

شعثه الأسى والحرج وهو يقول:

- لم أعرف الحقيقة إلّا بعد ظهور بنات «وَردَان»، أُقسم لك يا سيّد «أنس»، فهي لم تدخل لجزيرة «النّور» لأنّ الجنّ لا يدخلونها، والتقيت بها لأوّل مرّة في الجزيرة الخضراء عندما كُنت أنت غارقًا في النّوم، ولم تُخبرني بأنّها مأمورة بقتلكم، وفور أن علمت اختلفت معها وأغضبني ما تفعله، ولن أسمح لها بإيذاء أي واحد منكم.

- ما الّذي بينك وبينها.

تلفّت في حرج، لكنّه لم يجد مناصًا من المُصارحة فقال:

- أعشقها.

شهقت «بنات وَردَان»، فأشار لهنّ «أقمر» ليصمتن، وعاد الصّمت الحذر ليُطبق على الحضور. ثقبه «أنس» بنظراته فقال له «ميسرة»:

- أرجوك لا تنظر إليّ هكذا، فأنا لا أملك أن أُخرجها من قلبي، فُتنتُ بها منذ رؤيتها، وملكت قلبي، ساعدتني في أداء مهامّي مرتين. عندما عُدت لحياتي الطبيعيّة شعرت بأنني غريب مسافر على متن قطار، وبيتي مجرد محطة من محطات قطاري.

- وزوجتك!

عاوده ما يُكابده من إحساس بالدّناءة وهو يقول:

- ما عاد قلبي ينبض بالحبّ لها، وكأنني وضعت كلّ الحبّ الّذي حملته لها في الجليد. أشعر أنني أحتاج لاكتراء قلب جديد من أحدهم لأحبها به، نفد وقود عواطفي.

- الأمور ليست بهذا السوء أنت فقط متعب.

- عشت أسوأ اللحظات بمفردي، لست ممنونًا لأحد، ولا أحتاجها!

- بل أنت تهرب منها ولا ترغب في الانتماء لها، تستلذ ألم الوحدة! ليس من العيب يا بني أن ينتمي الزوج لزوجته ويأوي لحضنها كالطفل، اترك لروحك العنان ولا تخجل من احتياجك لها.

- لن تتقبل زوجتي غيابي في دروب عوالم «المستكشفين».

قال «خالد» غاضبًا:

- كيف تُقدم على هدفٍ نبيل ومهمّة شريفة تؤديها وتُلوّث نفسك في ذات الوقت؟

استوقفه «أنس» قائلًا:

- كلّ البشر عُرضة لذلك، لكلّ منّا لحظة ضعف وسقطة يا بنيّ، أنسيت «رَيْهُقانة» وما فعلته بأخيك؟

- لكنّه يا أبي..

- «خالد»! لو أراد «ميسرة» قتلي لفعلها، فقد لازمني لفترة طويلة وكُنّا وحدنا.

التفت «أنس» تجاه «ميسرة» وسأله:

- هل تُطاردك «سَندَروسة» هناك؟

- لا.. فهي لا تظهر لي إلّا هنا، التقيت بها منذ رحلتين فقط! في عوالم تلك الشّعوب المنسيّة، فهي تتسلل إليها من الممرّات.

- أيّ ممرّات؟ لو كان هذا مُتاحًا حقًا لتسلل المغاتير، والمُحاربون، والصّقور وينتهي الأمر.

- لا يا سيّد «أنس»، هي تتسلل من «مملكة الدّيجور».

- ماذا!

وقفوا جميعًا يسمعون منه قصّة مملكة لم يسمعوا عنها من قبل، حتّى من «أبادول»، و«حُرّاس المكتبة»، وأدركوا حينها أنّ أهل تلك المملكة هم وراء ما يحدث للكتب من اختفاء أحبارها، ومن نشر الخرافات والأكاذيب بمملكة البلاغة، وأنّ كتاب «القَلْقَديس»، وكتاب «القلقطار»، كانا يخصّان الملك والملكة هناك، وأدركوا أنّ هؤلاء القوم هم وراء حصار تلك الشّعوب المنسيّة، وسدّ الفجوات، وغلق الممرّات، وبناء السّدود حتّى لا ينفذ نور المعرفة إليهم، وحتّى تظلّ العقول قابعة في جماجمها المُعتمة، فيسهل السيطرة عليها، لمزيد من بسط النّفوذ والسيطرة، عملًا لتوسيع رُقعة مملكة «الدّيجور» على مراحل متتابعة.

الآن أدرك «أنس» أنّ الخطر قد تضاعف، وأنّ مملكة البلاغة في خطر، وهناك جيشان سيلتقيان قريبًا، ولا بدّ أن يثبت هنا، فهناك من يرغب في قتله وأهل بيته، وهناك من يُريد اختطافهم أحياء لينتزع منهم المواريث ثُمّ يقتلهم بكلّ رعونة.

انتهى «ميسرة» من سرد تفاصيل قصّته مع «سَندَروسة»، وما وراءها من أسرار قد باحت له بها في آخر لقاء لهما، وكان الجميع يُطالعونه بنظرات قاتمة، فشعر بضيق شديد، وغادر دار «النَّطَاسِيّ»، وظلّ يركض حتّى تقطّعت أنفاسه، وجلس تحت شجرة من أشجار دم الأخوين، وأمسك رأسه، وكان صدره ضيّقًا وكأنّه يصَّعَّدُ في السّماء.

بينما كان «أنس» يُخاطب كلّ من حوله بدار «النَّطَاسِيّ» قائلًا:

- لو أراد قتل واحد منّا لفعل فقد انفرد بكلّ منّا أكثر من مرّة، «ميسرة» يحتاجنا، وهو شاب صالح، ومحارب شُجاع، وله في عوالم المستكشفين صولات وجولات فقد أخبرني عن قصص أوّل رحلاته بنفسه، لكنّها لوثةُ قلبٍ أصابته، ولكلّ جواد كبوة! ولعلّها عثرة وسينهض قبل السّقوط، فلنُعِنْهُ على شيطانه.

*****

كانت «سَندَروسة» تُراقب «عِشرقة» من طرف خفيّ، ذُهلت من جمالها، وقصرها، وعرشها، وثيابها، وحتّى من زوجها «جُلجُلان» فاشتعل قلبها غَيرة منها.

ظلّت تراقبهما، ودلفت القصر مرارًا، وأقسمت على أن تنزع ذلك التّاج عن رأس «عِشرقة»، وأن تملك قلب زوجها.

تبعته وهو يسير مختالًا، ويرفل في أبهى ثيابه حول قصره، تمهّلت حتّى صار وحيدًا، فبرزت له بجمالها الأخّاذ، أجفل في البداية وتراجع،

لكنّه سريعًا ما وقع في شباك عينيها، فقد كان لديه نظرات نهمة تلمس كلّ شيء حوله بفضول. طافت به وأحاطته بطيفها، وحملته فوق قصره، ورآه لأوّل مرّة من أعلاه، ثُمّ هبطت به تحت أشجار السّنديان، وصبّت في أُذنيه الهمس والغناء حتّى أسكرت عقله، سألها ونظراته تطير في جمالها طيرًا:

- من أنتِ؟

- «سَندَروسة».

- من أين أتيتِ؟

ضحكت وهي تبتعد، وتركته يتلفّت باحثًا عنها كالمجنون، بقي في الحديقة لساعات، وعندما انتبهت «عِشرقة» لغيابه، أرسلت حراسها فأحضروه، فنظر إليها نظرة أخرستها من شدّة قتامتها، وانصرف لغرفته وجلس وحيدًا، يتساءل كيف الوصول إلى «سَندَروسة»!

بينما كان «ميسرة» يبحث عنها، وكانت تختبئ منه، فما عاد يُحرّك لواعج قلبها، بل ملّت منه وأبغضته! لكنّها مضطرّة للتواصل معه لتقتل أحفاد «أبادول»، وربّما تقتله أيضًا، فما عادت في حاجة لوجوده.

كان أبوها يفطن لخبيئتها، ويعرف هذا عنها منذ صغرها، فهي ستملّ من عشيقها وتدعسه، عندما تلتفت لغيره فيسحرها، أدرك هذا فقط لأنّها ورثت عنه هذا الطّبع الدّنيء، وهي تُشبهه في أنانيّتها المفرطة وفي خِسّة الطّباع، فهو أدرى بما يعتمل في صدرها لأنّه كذلك.

برزت «سَندَروسة» لـ «ميسرة» أخيرًا عندما أكثر من النّداء عليها، وعندما رآها أخيرًا سألها بتلهّف:

- أين كنتِ؟

- لماذا؟ ماذا تُريد منّي في تلك السّاعة!

تعجّب من برود ردّها، كان وجهها يبدو وكأنّها ترتدي قناعًا وثنيًا جامد الملامح، فقال وكان الهمّ باديًا على وجهه:

- لقد علم أحفاد «أبادول» بعلاقتنا.

- فليكُن!

- وعلموا أنّك ترغبين بقتلهم.

- «بنات وَردَان» أخبروهم، أليس كذلك؟

- بلى.

- ماذا ستفعل؟

- سأعود لهم، وسأُساعدهم، فأنا لم أر منهم إلّا كلّ خير، هم لا يستحقّون القتل، دعينا لا نُدخل مملكة «الدّيجور» بيننا فأنا أُحبّك.

استدارت غاضبة وهي تقول بنزق:

- لا نُدخل مملكة «الدّيجور» ولكن نُدخل مملكة «البلاغة»، أليس كذلك؟

أضافت بحُرقة:

- إن لم يقتل أحفاد «أبادول»، سيقتلونني أنا وأبي!

لزم الصّمت، كان هناك صراع شديد يعتمل في صدره، بين مبادئه وما يعتقد به، وبين ضعفه أمام «سَندَروسة»، شعر أنّه يعيش على أحاسيس وعواطف مُزيّفة مُستعارة، لم يتخيّل قط أن يكون بهذا الهوان أمامها، فالهوى الجارف يُهيمن عليه في حضورها وينمحي عقله. أطرق للحظات وهو يسترجع ما يفعله، وكأنّه مُدمن يتناول جرعات من مادّة مُخدّرة فينتشي بها للحظات ويعود لحياته بنفس منكسرة وروح متعبة عاطلة عن ممارسة حياتها الطّبيعيّة في سلام، خسر زوجته، وها هو يركض خلف جرعة من جرعات الحبّ الخياليّ السّاحر لجنّية من مملكة

مظلمة مُدلهمّة بعيدة عن حياته الواقعية، حتّى أنّه لا يمسكها بين يديه، بل هو الشّعور الّذي يُداهمه في حضورها واللّذة فقط، وتلك الأحاسيس الّتي تبعثها في نفسه وروحه ووجدانه وأوصاله، صرخت في وجهه ليفيق من شروده، فرفع عينيه الكليلتين نحوها، وكان مُتعبًا، فقالت له:

- ساعدني لكي أتمكّن من قتلهم فحياتي وحياة أبي في خطر.
- لا أستطيع.
- ابق معنا وسأطلب من الملك «غُدفان» أن يُعطيك الأمان.
- لماذا لا يدخل هو وجنوده من الممرات لقتلهم؟
- هناك خطرٌ عظيمٌ يُهدد «مملكة الدّيجور»، والملك «غُدفان» وجيشه في حالة استنفار للحفاظ عليها. كما أنّه لا يتدخّل بتلك الطريقة، فهو يُفضّل أن يكون بعيدًا، ولا أخفي عليك، لقد شعرت أنّ أبي..
- ماذا؟
- يخشاكم! ولكنّه لم يُصرّح، ما دام هذا شعوره، وهو الّذي يُوصف بأنّه سيّد ملوك الجنّ، فهناك سرٌّ يُخفيه عنّي.
- أيّ سرّ؟
- ربّما فيكم، وفي عزائمكم، وثباتكم، وقوّتكم، وشجاعتكم واقتحامكم تلك العوالم وحدكم! وعجزنا عن وَسمكم ودلوف أجسادكم، فقد حاولت معك كثيرًا وعجزت! لولا حُبّك لي ما عدت مرّة أخرى.
- بل كُنت سأعود، فانضمامي للمستكشفين لم يكن بسببك، لقد أتيت عدّة مرّات، هذه قضيّة لن تفهميها يا «سَندَروسة»، عشقي لمملكة البلاغة عصيّ على الشّرح.

شعرت «سَندَروسة» بالضّيق من كلماته الأخيرة، ولم يرض هذا غرورها، أضاف وهو يُحدّق في الأرض أمامه:

- يرغب سيّدك في بسط نفوذه على تلك الشعوب بشكل تدريجيّ، لهذا يُفرّقهم، ويُحاصرهم، ويُغلق عليهم، فيغرقون في جهلهم وعتمتهم، ثُمّ يُحرك الآخرين كالدّمى بأطراف أصابعه، وقد يقتل دون أن يلوث يده بالدماء... أنتِ دُمية في يده، أمّا أنا فلن أكون!

- وأنا؟ وأبي؟

- هذا ليس شأني.. سأؤدّي مهمّتي وأُساعدهم وأعود لدياري.

- بل ستبقى معي، وستعيش كالأمير بيننا.

- لا أقدر على ترك عالمي.

- عالمك لا يُبكى عليه، ليس لك أحد هناك، أنت وحيد! لا أمّ، ولا أبّ، ولا أخّ، وأنت تكره زوجتك!

- توقّفي عن تكرار تلك الكلمة! وحيد.. وحيد..!

- أليست تلك الحقيقة؟

- كيف لي أن أعيش في مملكة غريبة كتلك!

- كما يعيش حُرّاس المكتبة!

شخص قليلًا، بدأ يضعف، وبدأت تتدلل وتتمايل، وترقق من صوتها لتؤثّر عليه، حتّى أنّها حملته وطافت به جزيرة «سُقُطْرى» فرآها لأوّل مرّة من الأعلى، كان يبدو وكأنّه مُنوّم، ظلّت تُحلّق به حتّى دارت رأسه، وأعادته لدار «النَّطَاسِيّ» وتركته أمام الباب بعد أن همست في أُذنيه قائلة:

- اقتلهم، وسأجعلك ملكًا من ملوك مملكة «الدّيجور»، وسأكون حبيبتك للأبد.

انصرفت وتركته يتخبّط في حيرة، ظلّ مكانه كتمثال من زجاج، لا يدري هل يطرق الباب أم لا، وبعد تردد طرقه على استحياء، ففتح له «النَّطَاسِيّ» ودعاه للدّخول.

دلف «ميسرة» وكانوا ينتظرونه بترقّب، فقد نقلت لهم «بنات وَردَان» كلمات «سَندَروسة»، استقبله «أنس» وقال له:

- «ميسرة»، لا تترك نفسك فريسة لتلك الخائنة يا بنيّ.

زفر «ميسرة» بحرقة، كان يشعر بالحرج الشّديد، كان خاويًا ومهترئًا وكأنّ روحه سُحبت على الأشواك فمزّقتها تمزيقًا، قال يائسًا:

- ليتني أموت، لن يشعر أحد بغيابي، فليس لديّ أهل ليبحثوا عنّي.

- بل لديك أنا، سأكون لك بمنزلة الأب يا بنيّ.

- لن تَصدُق.

- جرّبني!

أضاف «أنس» بصوت متهدّج:

- يا بنيّ، زوجتك تُحبّك، وأنت تشتاق إليها، أنسيت حديثنا بالمركب؟ سيعود الحبّ عندما يزول أثر «سَندَروسة»، صدّقني، كانت زلّة فتجاوز واثبت.

- لا أستطيع، لن أجرؤ على مواجهتها مرّه أخرى، أنا لا أستحقّها، وهي تستحقّ زوجًا شريفًا مُخلصًا، وأنا...

- الجروح تبرأ، والأخطاء تُصلح، والكسور تُجبر، والحزن يَزول، والحبّ يُحيي القلوب يا بنيّ.

- روحي مُتعبة.

- أرواحنا لن تستكين إلّا في الصّدور الطّاهرة.

- لماذا يحدث لي هذا؟!

- فضولك واندفاعك لتجربة كلّ شيء بلا تفكير أوقعك في هذا الخطأ، ليس من الضروري أن ننبش عن كلّ شيء، الجهل أحيانًا نعمة، فقد تمرّ الفتنة من أمام عينيك وأنت زاهدٌ فيها!

- صدري مليء بالأقذار.

- اغسله بتوبة، وابدأ من جديد، هل تظنّ أنّنا جميعًا معصومون؟ لا والله، إنّما هو ستر الله، كلّنا نخطئ، كلّنا مثلك، ونـحتاج فقط لفرص جديدة، وها هي فرصتك الجديدة، فأقبل يا بنيّ.

فتح «أنس» ذراعيه له وكأنّه يفتح حضنه لطفل صغير، فأقبل «ميسرة» يهرول نـحوه وألقى بنفسه في حضنه، وبكى ما شاء الله له أن يبكي، حتّى غسل صدره من أوجاعه.

كانوا يُراقبونه بإشفاق، أقبل «خالد» ووضع يده على ظهره، وكذلك فعل «سُليمان، و«أقمر»، و«جندب»، و«البراء»، و«سقنقور»، حتّى «النَّطَاسِيّ» أقبل ووضع يده على رأسه، كان يشعر بكلّ كفّ على ظهره، جلسوا يواسونه، وبقيت «سَروة» تراقبهم في سكون، كانت تشعر باقتراب الخطر!

******

وصل «كمال» و«دولت» وانضمّا لباقي أفراد العائلة في البيت المهجور، بعد أن سلّما المال لـ «ليلى»، وتمّ توقيع الأوراق اللّازمة لإثبات ملكيّة البيت لأفراد عائلة «أبادول». دلفا البيت مع «حمزة» وهما يتهافتان على خبر من أخبار الغائبين، كان «حمزة» قد أخبرهما في الطّريق بما حدث، وكيف أنّهم يسمعون أصواتهم أحيانًا، تبادل «كمال» النّظرات مع أبيه، كان بينهما ذلك الحوار الصّامت المتفهّم الّذي لا يحتاج إلى الكلمات، قام «كمال» ليجرّ مقعدًا ويُقرّبه من «أبادول»، فأسرع

«حمزة» يُعاونه، عندما استقرّ «كمال» بجوار أبيه، أسند «أبادول» رأسه على كتفه وأغمض عينيه، كان مُثقلًا بالهموم ذلك الحدّ الّذي سلبه النّوم حتّى أنّ رأسه كان يسقط فيعود ويمسح وجهه وينتظر، وعندما وصل «كمال» انهار على كتفه. دثّرهما صمت حميميّ دافئ، حتّى أنّ «حبيبة» أحضرت لهما غطاء صوفيًا ودثّرتهما به، وجلس «يُوسف» أمام المدفأة يُقلّب الأغصان الّتي كانت حيّة في حديقة هذا البيت يومًا ما، وها هم يستعملونها الآن للتدفئة، كانت الأرض الخشبيّة تُصدر أزيزًا كلّما ساروا عليها، قال «حمزة» وهو ينظر في مرآة عتيقة إطارها مموّه بالصّدأ كان قد عثر عليها ووضعها فوق المدفأة:

- أشعر أنّ عيني تورّمت قليلًا، وفكّي يؤلمني بشدّة!

في نفس اللحظة، وفي بيت «النَّطَاسِيّ» في «سُقُطْرى» وأمام عيني أخيه، مرّ وجه «حمزة» في مرآة العُلبة الّتي كان «خالد» يُمسكها ويتفحّصها بعد أن استيقظ على أثر كابوس مُزعج، فأخذ يُحدّق بها حتّى اختفى وجهه من أمامه، فانتفض «خالد» ووثب في مكانه، وأيقظ والده الّذي كان قد نام بعد أن اطمأنّ على «سُليمان»، وأخذ يُردد:

- «حمزة».. رأيت «حمزة» في المرآة!

سأله «أنس»:

- هل أنت مُتأكّد!

- لماذا تتعجّب يا أبي؟

أغمض «أنس» عينيه مرّة أخرى وقال له:

- أنت تنظر إلى وجهه طوال الوقت! أنسيت أنّكما توأمان مُتطابقان؟

توقّف «خالد» للحظات، بدأ يتشكك في الأمر، همس لنفسه قائلًا:

- بل كان هو «حمزة»، وملابسه زرقاء.

- وقميصك أيضًا أزرق!

عاد «خالد» يُردد:

- هو «حمزة» والله! أنا أعرف أنف أخي!

ابتسم «أنس» قائلًا:

- وكأنّه ليس أنفك!

تمدد «خالد» بجوار أبيه بعد أن غادرته نوبة الانفعال الّتي راودته عندما رأى وجه أخيه في المرآة، وهمس قائلًا:

- أبي.

- ماذا؟

- رأيت كابوسًا مزعجًا و.. شعرت بالخوف.

- هوّن على نفسك، كلّنا نشعر بالخوف بعد تلك الكوابيس، انفض عن رأسك ما رأيته.

كانت الغرفة تسبح في صمت مهيب، عاد يهمس لأبيه:

- لماذا نخاف يا أبي؟ لماذا نخاف من الظّلام؟ ومن الليل، من الصّمت المُطبق، ومن الغرفات الخالية، ومن الخزانات المُغلقة، وحتى من النّظر تحت الأسرّة بعد خلود الجميع للنوم؟ نتوقّع دائمًا خروج الأشباح من خلف النّجود المُسدلة، ومن فرجة الأبواب التي تحدث أزيزًا عندما نحركها، وخلف الستائر التي يرعشها الهواء فجأة، ونحن على يقين أنّ الأشباح لا تحتاج للاختباء خلف سترٍ من قماش، كيف تهوي قلوبنا في صدورنا عندما يدقّ جرس الباب ونحن وحدنا بالبيت؟ لمجرّد أننا وحدنا هناك! ونحن على يقين أن الباب مغلق بالمفاتيح والأقفال، نتخيل أنه لص سيقتحم الباب فنقترب ونحن نسير على أطراف أصابعنا لنتحقق من

هويته، ولماذا نتلفّت كثيرًا عندما ينحرف بنا الطّريق لشارع هادئ ونبحث عمّن يتتبعنا ليقتلنا؟ لماذا نخاف من فأر ضئيل وقد نقف أمامه ونرتجف؟ حتى الصرصار على حقارته يدفعنا للقفز وللصراخ، ما أضعفنا!

ننظر بريبة لسائق سيّارة الأُجرة ونتوقّع أنّه سيخطفنا، نخاف من المتسوّلين لا لشيء إلّا لأنّ أسمالهم دبقة وبالية، ترهبنا الكهوف المهجورة، والآبار العميقة، والشرفات العالية، حتى أننا نهاب ونخشى الشعور بالخوف نفسه! دائمًا تنقطع أصواتنا في الأحلام عندما نُريد أن نصرخ حين يُطاردنا كيان مجهول بكابوس مزعج، عجيب خوفنا هذا.. عجيب!

ما السر في الأمان المرتبط بظهور النور؟ لماذا ينقشع الخوف الذي يلتصق بأفئدتنا خلال الليل بمجرّد بزوغ نور الفجر الحاني؟ لماذا تنكسر وحدتنا بصوت المذياع والتلفاز ونحن نعلم أنّها أصوات مستعارة؟ ونطمئن بأصوات الغرباء الآتية من الشوارع والأزقة عندما نقترب من الشرفات المفتوحة؟ أليسوا هم الغرباء أنفسهم الذين أرعبنا حضورهم في لحظات أخرى؟ على الرغم من كونهم غرباء لا يأبهون بنا ولا يعرفون وجوهنا نأنس بأصواتهم وحسب! كيف يحدث هذا؟ لماذا حضن الأُمّ مُعجزة؟

- لأنها القادرة على احتواء ولدها الأربعيني ومسح الخوف والقلق عن جبينه بكل بساطة يا «خالد».

تقوقع «خالد» في حضن أبيه واستمرّ يطرح الأسئلة:

- لماذا يعود طفلًا في تلك اللحظة بالذات؟ ما السرّ في حضور الأب الوقور ليُدثّر ابنه الشّاب مفتول العضلات بعباءة الطمأنينة في ليلة رماه الخوف فيها برمح اخترق حجاب قلبه؟ لماذا يطمئنّ

الرّضيع على صدر أُمّه ويسكن؟ لماذا تهدأ الأنفاس المتسارعة جزعًا عند رؤية شخص بعينه، حتّى لو كان قبيحًا في عيون الآخرين، فهذا النّاظر يرى الجمال كله والسكينة في ملامحه، لماذا لا يخاف أحدهم الموت وقد يقذف بنفسه في أُتون فجوة قاتمة للولوج لعالم عجيب وغريب وحده للقاء ما لا يعلم كنهه؟ ولماذا يُقدم الجنود على اقتحام ساحات الحُروب بجسارة؟ لماذا يبتسم بعضهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ ما السر الغامض خلف تلك النظرة المطمئنة لبعض من يموتون في أَسِرّتهم ويفتحون أفواههم كالزّنابق ليخرجوا آخر نفحات الهواء من صدورهم؟ وما السرّ الغامض الذي يضحك الرضّع خلال نومهم بينما تتسارع أنفاسهم فتهتز صدورهم الضئيلة فنغرق في حيرة ونحن نراقبهم؟ أبحث دائمًا عن إجابات لتلك الأسئلة، هناك صوت يصرخ في داخلي على الدوام ألا أخاف، لهذا أحاول أن أسحق الخوف سحقًا، أقفز في أتون ظلمة أفكاري لأبددها، سأطمئن رغم أنف كل المخاوف، فنفسي تتوق للأمان والسكينة كما تتوق النحلة لرحيق الزّهر يا أبي.

- هكذا نحن البشر، فينا ضعف، نأنس ببعضنا بعضًا، وبآبائنا وأمّهاتنا، وبالنّور، وكلّها رحمات الله، رفقًا بنفسك يا بنيّ، اذكر الله وحاول أن تنام، «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

احتواه «أنس» في حضنه، ودثّره بعباءة الطمأنينة فنام أخيرًا بعد أن بعثر أسئلته في الهواء.

****

4

أصحاب القلانيس الزّرقاء

كان الجميع يجلسون حول المائدة لتناول الإفطار الشهيّ الّذي أعدّته «سَروة»، كاد «ميسرة» ينضمّ إليهم، ولكن فجأة! أقبلت «بنات وَردَان» ووقفن أمامه، قالت «ريحانة» وهي تُحدّق تجاهه:

- هل تُريد أن ترى ماذا تفعل عشيقتك الآن؟

- لا.. اغربن عن وجهي!

صاحت «كُركُمانة»:

- إنّها تخونك مع الملك «جُلجُلان».

انتفض واحتقن وجهه، وقال وهو يكزّ على أسنانه:

- كاذبات، الجنّ هكذا يكذبون.

قالت «مرجانة» وهي تقترب منه:

- سننقلك لتراها بنفسك، وسنخفيك عنها.

- كاذبات، انصرفن من أمامي.. حالًا.

التقت نظرات الفتيات الثّلاث، هززن رأسهن في آن واحد، وقمن بحمله رغمًا عنه، وحلّقن به نـحو قصر «عشرقة». وصلن به إلى هناك، وكنّ

يضربن حوله حجابًا يمنع النّاس عن رؤيته، لكنّه كان يرى ما يحدث بين «سَندَروسة» و«جُلجُلان» بوضوح ويسمعهما، استشاط غضبًا وكاد ينقضّ عليهما، لكنّ «بنات وَردَان» منعنه، وأعدنه لدار «النَّطَاسِيّ»، كان يتميّز من الغيظ، تركنه وانصرفن، فجلس وهو يتآكل حزنًا ويأسًا وغضبًا، كان يحتقر نفسه، شعر أنّه ملوّث وملطّخ، أراد أن يغتسل من الدّاخل والخارج معًا ليُزيل أدران نفسه ويُطهّر روحه المتعبة. توجّه في صمت للجلوس بجوار «أنس»، وظلّ ساكنًا ولم يمسّ الطعام.

الآن بدأ يفيق، كان هذا حاله خلال هذا الشّهر، مفتونًا بـ «سَندَروسة»، يقضي معها وقتًا في لهو وعبث وانتشاء، لكنّ الشّعور بالذّنب لا يُغادره، فهو يعلم في قرار نفسه أنّ ما يفعله خطأ، وأنّه قد ظلم زوجته، فتلك خيانة، كما أنّ استقراره مع «سَندَروسة» مستحيل! فكيف يترك نفسه أسيرًا لإدمان علاقة تدور في الهواء، في فقاعة، مجرّد حالة شعورية لا تنفك تُغادره وتتركه للواقع يلطمه بقسوة، كيف أصبح ضعيفًا هكذا! لماذا كان قويًّا في كلّ شيء ما عدا الصّبر على فتنة «سَندَروسة» الّتي رآها سابقًا تنفح رقّة وجمالًا.. ويراها الآن حقيرة ويزدريها!

تأتي علينا لحظات نُدرك فيها أنّ ما كُنا نتمنّاه كان رخيصًا رغم سعينا باجتهاد لنناله، وأنّ ما كان لدينا كان غاليًا رغم أنّنا لم نُرهق أنفسنا لنـحصل عليه، وأنّ هُناك كنوزًا لدينا، ونحن محظوظون بها، لكنّنا غافلون عنها، حتّى أننا لم نشعر بها وهي بين كفينا، سيأتي يوم ونُدرك أنّنا كنّا أثرياء، وعلى الرّغم من هذا كنا أسرى لفقراء النّفوس.

ثرثرت «بنات وَردَان» بما حدث وهُن يلتقطن من الطّعام ويأكلن دون أن ينقص شيء، لم يُعلّق أحد من الجالسين، فقد التزموا بما نصحهم به «أنس»، ولن يتخلّوا عن «ميسرة»، حتّى أنّهم دفعوه ليُشاركهم الطّعام. شعر «أنس» بطنين في أُذنيه، أغمض عينيه فجأة، تناهى إلى مسامعه

أصوات مُتداخلة، هناك الكثير من الأصوات تُردد اسم ابنته، رائحة غبار نعالهم تُداعب أنفه، حرارة أنفاسهم أحاطت به من كلّ حدب وصوب، قال وهو يضع يده على صدره:

- لقد أتوا من أجل «فرح»!

كان تلاميذ «عُرقوب» قد عادوا غاضبين لمقتل شيخهم، وعلموا من العطّارين بوصول رجلين أدركوا من وصفهما أنّهما كانا الخادمين اللّذين صاحبا «هائدًا» الّذي قتل «عُرقوب»، وكان جنود «البواشق» يبحثون عنه أيضًا، أمّا «المشّاؤون» فقد خرجوا من جزيرتهم للبحث عن «سُليمان».

تعالت الأصوات حول دار «النَّطَاسِيّ»، كان أهل الجزيرة قد سمعوا من العطّارين بوصول فتاة مُباركة استطاعت الخروج من «سراديب الخُطى الضّائعة» وهي تحمل الآن ميراث «طرجهارة»، وانتقلت من الجزيرة الخضراء إلى «سُقُطْرى»، فأتوا في موكب كبير ليروها، جاء الحوذيّون[1]، وباعة الحليب، والعطّارون، والخبّازون، وحملة الماء، والنّجّارون ومعهم زوجاتهم وأولادهم، وطرقوا الباب وسألوا «النَّطَاسِيّ» عنها، فخرجت «فرح» مع أبيها، وفور أن خرجت، تعالت الشّهقات، الصّيحات، وران صمت خفيف قبل أن ينحني أوّل رجلٍ منهم أمامها بخشوع، فقلّده العامّة وانحنوا جميعًا في مشهد مهيب أمام «فرح».

صاح أحد العطّارين:

- هذا أبوها لقد أخبرني أحد المزارعين بالجزيرة الخضراء أنّه أتى ليبحث عنها.

(1) الحوذيّون: الحوذيّ هو الّذي يسوق عربة خشبيّة تجرّها الخيول.

ارتفعت الأصوات تدريجيًّا وهم يُمجّدونها، ويطلبون منها العون، ويمدّون أياديهم لتُمسك بكفوفهم كما كانت تفعل «طرجهارة»، مما أثار غضب «أنس»، الّذي صاح وهو يكاد يثب في مكانه:

- هراء، كلّ هذا خطلٌ وهُراء، أنتم تُقدّسون فتاة يافعة! تطلبون العون من فقيرة لا تملك لنفسها شيئًا، ولا تعلم عن الغيب مثقال ذرّة.

قال أحدهم:

- كيف هذا وهي تحمل ميراث «طرجهارة» الّتي كانت تقرأ الغيب.
- كانت «طرجهارة» تخدعكم، تقرأ ما برأسكم من الذّكريات، الماضي! تكشف عقولكم وما تخزّنه، وعيونكم وما تحمله، وما تشتاقون إليه، فتُسكركم بالكلمات.
- من أنت حتّى تُنكر فضل بنت من بنات «خَنْدَريس»!
- أنا لا شيء! وكذلك «خَنْدَريس»، مجرّد مخلوق ضعيف من مخلوقات الله، أخبروني أنتم أين «خَنْدَريس» الآن؟ وأين «طَرْخُون»؟ وأين «طرجهارة»؟ وأين.. وأين؟ كلهم ماتوا!
- لكنّ ابنتك تحمل ميراثًا من مواريثهم.
- وهي تعبد الله الواحد الأحد على الرّغم من حملها لهذا الميراث، كما يعبده «العنادل» الّذين تطردونهم من بينكم، لقد قتل «عُرقوب» وأعوانه رجالهم وشبابهم لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم يحفظون ما كُتب بسجلّات المُعلّم النبيل.

جمجم الحاضرون، صاح أحد تلاميذ «عُرقوب»:

- لقد قتل أحد «العنادل» شيخنا «عُرقوب» وأنت كُنت تُساعده وتُشعل النّار بعصاك، أنت ساحر!

تعالت الأصوات، أخذ تلاميذ «عُرقوب» يروون لهم ما حدث، ويطمسون الحقيقة بكذبهم، بل وأشاعوا أنّهم يعملون على تدوين السّجلات الّتي جمعوها خلال رحلتهم العلميّة! ولم يُخبروهم أنّهم كانوا يُحطّمونها.

قال أحد شباب «سُقُطْرى» وهو يشقّ الصفوف تجاه «أنس»:

- كلّ ما دُوّن في تلك السّجلّات عن تاريخ أبناء «خَنْدَريس» وأفضالهم، هذا ما رأيناه بأعيننا، لقد اطلعتُ على بعض السّجلات بمدرسة الحكمة اليوم.
- كذب وتزوير، هذا ما كتبوه في سجلّاتهم الجديدة، بعد تحطيم السّجلّات القديمة.

تذكّر «أنس» الألقاب الّتي أخبره «خالد» و«سُليمان»، و«فرح» أنّ الآخرين أجابوا عن أسئلتهم بها، وذلك عندما حكوا له ما حدث قبل لقائهم به، فهزّ رأسه في أسى وقال:

- «الّذين يعرفون كلّ شيء»، و«الّذين يجهلون كلّ شيء»، و«الّذين يفعلون كلّ شيء»، «والّذين لا يفعلون أيّ شيء»، و«الّذين لا يُصدّقون أيّ شيء»! من أين أتيتم بتلك الأوصاف؟ ولم تلقّبون بعضكم بها؟ جعلتم أنفسكم كالقوارير الفارغة، وسمحتم لأولياء «خَنْدَريس» بملئها بما يشاءون من أكاذيب، كيف تفعلون هذا بأنفسكم!
- أين الحقيقة؟
- سنبحث عنها، ولكن دعوا ابنتي وشأنها الآن!

لم يُعجبهم كلام «أنس»، وتدافعوا نـحوه وكادوا يحملون «فرح» لولا أنّ «خالدًا» حملها وأسرع إلى داخل الدّار، تبعه «أنس» والبقيّة، وغلّقوا الأبواب خلفهم، أخذ النّاس يطرقون الأبواب، فصاح «البراء»:

- لا تؤذوا «النَّطَاسِيّ» فلم نر منه إلّا كلّ الخير.

قال «جُندب»:

- لا يقربنّ أحدكم دار «النَّطَاسِيّ»، أنسيتم فضله علينا؟

تراجع الحشد، وكان الشّقيقان يدفعان النّاس ويردّونهم، فاستجابوا لهما، فقد كان «النَّطَاسِيّ» رجلًا خيّرًا، كريمًا، ما قصده أحد في عتمة الليل، ولا في أطراف النّهار إلّا وفكّ كُربته وأعانه، كان شابًا لكنّهم كانوا يوقّرونه وقار الكهول، لعلمه وخلقه وشرف أرومته وفضله عليهم في سداده لديون الكثيرين منهم كي لا يُعدموا بساحة قصر «عِشْرِقة»، توقفوا عن طرق الأبواب والنّوافذ، لكنّهم لم يرحلوا جميعًا، بل بقي الكثيرون منهم يجلسون حول الدّار، يطلبون عون «فرح»، يُريدونها أن تُخبرهم متى سيعود الغائب؟ وكيف سيشفى المريض؟ وهل فلانة ستُنجب أم لا؟ ولماذا فلان يعشق فلانة؟ وأين الغلام الّذي اختطف منذ شهور؟ وأين ذهب المال؟

متى.. وكيف.. وهل.. ولماذا.. وأين..

اضطرب كلّ من بالدّار، حتّى «سَرْوة» كانت يداها ترتجفان، فأقبل زوجها وأمسك بيديها وأخذ يُطمئنها، فهدأت وحملت الرّضيع ودلفت إلى غرفتها فتبعتها «زهراء» فقد أشفقت عليها.

جلسوا يُنصتون لهتافات أهل «سُقُطْرى» وهم يُطالبون «فرح» بالخروج إليهم، لجأت لحضن أبيها، فاحتواها بين ذراعيه، وأخذ يُطمئنها، ثُمّ عاد الطّنين لرأسه، راوده شعور غريب بأنّه سيفترق عن «فرح»، ضمّها بشدّة لصدره وقال لها:

- اثبتي ولا تخافي فقد نفترق الآن!

اهتزّت خريطتها الّتي كانت تطويها وتحملها في جيبها باستمرار، فمدّت يدها وقبضت عليها

في تلك اللحظة، اختفت «فرح» من حضن أبيها فجأة وكأنّها تبخّرت في الهواء، أجفل «أنس» وارتجّ كيانه، التفت نـحو «خالد» الّذي شحب وجهه هو الآخر، وقفا شاخصين عندما اكتشفا غياب شخص آخر معها!

****

الجُذمور

اختفت «فرح»، واختفى «ميسرة» بعدها بثوانٍ معدودة! كانا ينزلقان بسرعة شديد في هوّة عميقة، بينما صراخ «فرح» يُدوّي في أُذني «ميسرة»، حاول أن يُناديها ليُطمئنها بينما يسقطان لكنّها لم تسمعه، دهاليز تدور بهما تضيق أحيانًا ثُمّ تتسع بعدها لتقذف بهما في كوّات يحفّها الغموض ، تُظلم تارة ثُمّ تومض بضوء ساطع تارة أخرى، سقطا على حفنة من الوشائج الّتي بدت كالأذرع السّوداء تموج في بعضها كالثّعابين العملاقة، وقفا بصعوبة، كان «ميسرة» مذهولًا، فتلك هي المرّة الأولى الّتي يصل فيها إلى قاع البيت المهجور بتلك الطريقة، كان دومًا يختفي ثُمّ يظهر دون التفافات كتلك، لم يمرّ بتلك الدّهاليز من قبل! قال وهو يجوس بعينيه في المكان:

- الجُذمور!

فسألته «فرح» بصوت تقطعه أنفاسها المتلاحقة:

- ما هو الجُذمور[1]؟

---

(1) الجُذْمورُ: أصْلُ الشيءِ وأوَّله.

كان «ميسرة» قد سمع من كبار المستكشفين عن جذمور كلّ بيت من تلك البيوت المهجورة، لكنّه لم يصل في صراعاته قطّ إلى هذا الحدّ، فتلك المرحلة أقصى خطورة مما مرّ به من قبل، يبدو أنّ قلوب البيوت الّتي دلفها سابقًا كانت أقلّ قتامة من ذلك البيت المعتم. ها هو يرى «الجُذمور» للمرّة الأولى، هنا أصل البيت وأوّله، وقلبه الّذي يتقلّب كما تتقلّب قلوب البشر، والمواجهة هنا ستكون أكثر شراسة، فالبيت الّذي يلتقم المستكشف وهو في طريقه لالتقاط أوّل خيط من خيوط الوصول إلى الحقيقة ويُلقي به في أُتون جذموره بيت عنيد، صمد طويلًا أمام أهوال الحياة وضرباتها القاسية، هناك الكثير من الصّراعات الّتي دارت بين أهله وسُكّانه فأتعبته وأنهكت كيانه، أسرار سُترت تحت سقفه، حقائق أُخفيت خلف أبواب غُرفاته، نفوس غادرت بوابة الحيّاة هنا وتركت خلفها أثرًا تُرْوَى فيه ذكرياتها. تعلّقت «فرح» بذراعه وسألته:

- أين نــحن؟

- قلب البيت، سيدور صراع الآن، علينا أن نواجهه.

- نواجه من؟

- الجانب المُظلم.. الشّيطان الّذي يختبئ في كلّ ركن.

- كيف سنُواجهه؟

- بالأسلحة الّتي استخدمناها من قبل في رحلاتنا كمحاربين، هنا فقط نستطيع استدعاءها، أمّا في «سُقُطْرى» فلن نستطيع، هكذا أخبرني كبير المُستكشفين.

تذكّرت «فرح» مطرقتها فقالت:

- المطرقة! ماذا سأفعل بها؟

انتفضت الأذرع السّوداء فجأة، الهدير الصّادر من أحشاء الأرض كان مُرعبًا، تعالى صوت غريب يُشبه أنفاس ذئب يترقّب سقوط فريسته ليلتهمها، أخذت الأذرع تتمدد والتقطت «فرح» ورفعتها في الهواء، أحاطت جذعها، فذراعيها، ثُمّ ساقيها، وحتّى عنقها، وعندما التفّت على جبينها لتُثبّتها في الجدار شخصت «فرح» بعينيها وفغرت فاها وأصدرت صرخة ارتياع مزّقت قلب «ميسرة»، وبدت وكأنّها قد خُدّرت أو جُمّدت مكانها.

وثب في مكانه ليُخلّصها فانتزعته الأذرع السّوداء وألقت به للخلف، استلّ خنجره وتخلّص منها بعد صراع معها أنهك قواه حتّى أنّها مزّقت قميصه فصار عاري الكتفين، اعتدل واقفًا واستعاد رباطة جأشه، أدرك حينها أنّه هنا من أجل «فرح»، فهي لم تكن في الأصل مُحاربة ليكون لها أسلحة لتستدعيها الآن في معاركها، حتّى مطرقتها لن تُساعدها بالقدر الكافي، كما أنّها صغيرة!

كان يعلم أنّ تلك الأرواح السّوداء الّتي وصفوها له ستظهر تباعًا، وكما أخبره كبار المُستكشفين كان عليه فقط أن يستجمع قوى عقله ويُفكّر في أسلحته الّتي استخدمها من قبل كمحارب لتظهر له الآن، رفع عينيه تجاه «فرح» ينتظر منها نظرة تنبض بالحياة لتُطمئنه، حرّكت مقلتيها تجاهه والخوف والفزع يُطلّان منهما، كان حاجباها يرتعشان، رأى الدّموع تسيل من عينيها فأومأ برأسه لها، ثُمّ وقف ثابتًا كالوتد، باعد بين ساقيه، شدّد قبضتي يديه، أغمض عينيه، تنفّس بعمق، ثُمّ رفع يديه وكأنّه سيلتقط بهما شيئًا من الهواء، فبرز في يده اليُمنى سيف مزدوج النّصل له بريق كاللجين، كان هذا سيفه الخاصّ؛ «سيف

عَضَارِس»[1]، وأما «قوس المِشقص»[2] الّذي رشق به ألدّ أعدائه قبل أن يسترد كلمات كتابه كمحارب فقد ظهر في يده اليسرى، وسقطت كنانة السّهام أمامه، فحملها على ظهره وعلّق القوس على كتفه، ووقف مُتأهّبًا وهو يعصر مقبض سيفه عصرًا بيديه..

فوجئ بحفنة من الشّموع السّوداء تطوف حوله، ولهبها يميل في اتجاه واحد وكأنّ هناك أيادِيَ خفيّةً تمسكها وتدور بها، رفع رأسه وحرّك «سيف عَضَارِس» باحترافيّة وسرعة خاطفة فقطعها جميعًا بضربة واحدة فسقطت مقسومة على الأرض في آن واحد، ليُفاجأ بالأذرع السّوداء تتشكل في هيئات رجال بعدد تلك الشّموع، وجوههم محتقنة وكأنّهم خرجوا للتوّ من تنّور لفح جلودهم بناره الموقدة، بدأ «ميسرة» يُجندل بسيفه يمينًا ويسارًا في جسارة، غرز السّيف في صدر أوّلهم فانقشع مُخلّفًا دخانًا أسود، فثاروا وأضاءت عيونهم كجمرات مُشتعلة، أخذوا يتقدّمون نـــحوه وهم يُطلقون أصواتًا مريعة كانت كافية لتدفع «فرح» للبكاء بنشيج مسموع حتّى أنّ أضلاعها كانت ترتجف، لمعت حبّات العرق على ذراع «ميسرة» المجدول، وغمرت جبينه بغزارة، ظلّ يبارزهم بسيفه البتّار ذي النّصل البارد كالزّمهرير، انقشع آخرهم فبدأت الأذرع تضيق على عنق «فرح»، تأوّهت وازرقّ وجهها فصاح «ميسرة» بجنون واستلّ سهمًا ووضعه في كبد قوسه ورشقه فوق رأسها فتوقّفت الأذرع عن التمدد، أعاد الكرّة وثبّت الأذرع السّوداء حولها، لكنّه لم يجرؤ على توجيه سهامه بجوار عنقها، وكانت تصرخ في كلّ مرة يصل فيها أحد سهامه لمرماه، انطلق نـــحوها وتسلّق الجدار المغمور بتلك الأذرع الأخطبوطيّة بخفّة ومهارة كما كان يتسلّق

---

(1) عَضارِس: جمع عُضرَس وهو الثلج والبَرد.

(2) المِشْقَص: سَهْمٌ ذو نَصْل عريضٍ.

الجبال من قبل، وبدأ يقطع الأذرع الملتفّة حول عنق «فرح» بخنجره، ارتخت قليلًا من حول عنقها فشهقت «فرح» أخيرًا واندفع الهواء إلى رئتيها، كاد يُخلّصها تمامًا لكنّ الأمور ساءت ورُفعت «فرح» لمكان أعلى وسقط هو على الأرض، التفّت الأذرع حول ساقيه وظلت تدور في مسار حلزوني حول جسده من الأسفل إلى الأعلى حتّى غطّته تمامًا ولم يبق منه إلّا عيناه التي كان يُرسل منهما نظرة جامدة نــحو «فرح»، انزلقت الأذرع مرّة أخرى وتركته وكانت تدور حول نفسها لتُجسّد كيانًا ما، فوجئ «ميسرة» بخصم ظهر له فجأة!

كان هو نفسه!

«ميسرة» آخر يقف أمامه!

وكأنّه يُطالع نفسه في المرآة، لكنّ نظرات هذا الخصم كانت تطفح حقدًا وبغضًا وخبثًا..

نفس الملامح، النظرات العنيدة، العضلات البارزة، وانــحناءة الأنف، والفم الصّارم، جف حلقه وتخشّب لسانه، أخذ يدور حوله، بنفس حركاته، كلّما رفع ذراعًا أو حرّك ساقًا كان يفعل مثله، وحتّى عندما يبدأ هو بمهاجمته كان يتحرّك مثله تمامًا! هلعت «فرح» مما رأته فهمست بخفوت:

- «ميسرة»!

التفتا تجاهها في آن واحدٍ فأجفلت! دارت بين الشّبيهين مبارزة بسيفيهما التّوءمين، صارت «فرح» لا تُميّز بينهما، لم يُفلح أحدهما في قهر الآخر، فالقوّة مُتعادلة وبنفس القدر، حتى صيحة الحماس الّتي كان «ميسرة» قد اعتاد على تشجيع نفسه بها كان الآخر يردّدها! أرهق «ميسرة»، فتراجع خطوة للوراء، تراءت له الآن الحقيقة، وكلّ منّا يُدرك

في أعماق نفسه حقيقته بلا أقنعة، مرّت بخاطره فكرة كالبرق فأطاح بسيفه فقلّده الخصم، وثب نحوه وانقضّ عليه كالنّمر واشتبكا في قتال شرس..

كان «ميسرة» يُصارع نفسه، يضربها، يُقاتلها، يُسدد إليها الضربات تترى، يُعاقبها على كلّ مرّة أخطأت فيها، على كلّ ضعف، وسقطة شائنة، وشهوة فارغة، كلّ إساءة بدرت منه في حقّ روحه المتعبة، كانت نفسه المتمثّلة في خصمه تعلوه تارة، فكان يستأسد لتعود له الغَلبة، أسقط خصمه أرضًا، حينها عصرت الأذرع عنق «فرح»، ازرق وجهها وسال الزّبد من فمها وصدر منها صوت غريب، سمعها «ميسرة» فأسرع ووثب متسلّقًا الأذرع السّوداء مرّة أخرى، وتبعه خصمه وهو يُقلّده، حتّى أنّه مزّق الأذرع من حول جسد «فرح» كما فعل هو، نجح «ميسرة» في تحرير «فرح» وهو يصرخ صراخًا مُدويًّا، فانزلقت من بين تلك الأذرع أخيرًا، وانزلق معها للأسفل وبجواره شبيهه، خانته قواه لوهلة فضربه خصمه على حين غفلة منه على جرح رأسه ففتح التّقطيب الجراحيّ مرّة أخرى وسالت منه الدّماء، ثُمّ ضربه على ساقه فسقط «ميسرة» على الأرض، صرخت «فرح» في هلع عندما رأت الدّماء الحمراء تسيل من جرح «ميسرة»، وكان هذا هو الشّيء الوحيد الّذي استطاعت التفريق به بينهما، فقد فُتح جرح خصمه أيضًا في نفس اللحظة! لكنّ دماءه كانت سوداء، تحامل واستجمع قواه وانقضّ عليه، واستطاع أخيرًا أن يثبّت ذراعي هذا الخصم على الأرض وأطلق صيحة من أعماقه خلعت عن نفسه أدرانها، ضرب جبهته بجبهته يدقّها دقًا فأُصيب كلاهما بالدّوار، ظلّ على حاله وهو يثبّته ورنا لـ «فرح»، ثُمّ لسيفه، فأدركت مُراده ومدّت إليه سيفه بيد مُرتعشة فاختطفه وغرزه في صدر خصمه فانقشع مُخلّفًا دخانًا أسود، انسحبت الأذرع السّوداء بسرعة شديدة، تلاشت من حولهم،

اختفت من كلّ ركن، غمرهما ضوء قويّ، خرّ «ميسرة» على ركبتيه وكان مُرهقًا مُتعبًا، شعر بروحه تنسحب من بين جنبيه فهمس لها:

- خنجر «أبادول»!

تلاشى «ميسرة» من أمام «فرح»، فانتفضت، كان المكان لا يزال مغمورًا بنفس الضّوء القويّ، مرّت عليها لحظات وهي مجمّدة في مكانها ورأسها كالعلبة الفارغة، وقد حفّها الصّمت المطبق، تلفّتت باحثة عن خريطتها والتقطتها عن الأرض، أغمضت عينيها وفعلت تمامًا كما فعل «ميسرة»، كانت تُفكّر في شيء واحد.. خنجر جدّها «أبادول»، مضت لحظات قصيرة لتُفاجأ به بين يديها، تسارعت أنفاسها، وأخذت تُحرّكه في الهواء كما وصف لها أبوها، فقد روى لها كيف أن «أبادول» أخبره أنّ ذلك الخنجر عجيب وسيقطع به مسافات طويلة، انبثقت فجوة ملوّنة تموج في الهواء أمامها، أرادت أن تُردد اسم المكان الّذي ترغب في الانتقال إليه، شعرت أنّ عقلها قد توقّف تمامًا عن التفكير، تمتمت بتلعثم:

- عند.. أُمّي!

دلفت «فرح» الفجوة بخطوات مترددة، بينما ظهر «ميسرة» فجأة وسط دار «النَّطَاسِيّ»، فسقط قلب «أنس» بين أضلاعه عندما لم يجد «فرح» معه، وارتعدت فرائصه عندما وجد جرح رأسه ينزف وقد خُلع عنه قميصه، وكانت الخدوش وآثار الضربات تغطي وجهه، هرول نحوه، لكنّه فقد وعيه بين يديه، فمدده على الأرض بمساعدة «النَّطَاسِيّ».

*****

خرجت «فرح» من الفجوة بوجه شاحب وعينين متعبتين، كانت دموعها قد اختلطت بالتراب والعفار الّذي علق بوجنتيها فبدا وجهها ملطّخًا بشبحات سوداء وكأنّها خرجت للتوّ من مدخنة، تناثرت خصلات

شعرها بعد أن شعثتها الأذرع السّوداء عندما علقت بها، عادت للبيت الّذي التقمهم في البداية، كانت ترتجف، رأت أمّها فصاحت بانفعال وركضت نـحوها لكنّها اكتشفت أنّها لا تراها، كانت تبكي فحاولت مسح دموعها لكنّها لم تتمكّن. رأت «أبادول» يجلس أمام المدفأة وقد سقط رأسه على صدره، أجفلت! اقتربت لتتنصّت على أنفاسه، وعندما رأت صدره يرتفع وينخفض اطمأنّ قلبها، يبدو أنها غفوة قصيرة غشيته وهو جالس في سكون، وقفت قبالته وأخذت تُنادي عليه، لكنّه لم يسمعها ولم يفق من غفوته! كان «حمزة» هناك يتحدّث مع «يُوسف». اقتربت منهما وحاولت أن تتحدّث إليهما لكنّهما لم يشعرا بها، تراجعت للخلف ووقفت تتأمّل وجوههم، فجأة لم تتمكّن من تحريك قدميها، كأنّهما التصقتا بالأرضيّة الخشبية، كانت أشعة الشّمس الشّاحبة تتسلل من زجاج النّوافذ، مرّت دقائق قبل أن تتمكن من استعادة رباطة جأشها، حسنًا، لن تتحرّك وستظلّ ثابتة كالوتد، لكنّها تستطيع أن تُفكّر بهدوء.

تنفّست بعمق كما علّمها «ميسرة»، أغمضت عينيها، واجترّت كلّ كلمة سمعتها من أبيها، ومن «خالد»، ومن «سُليمان»، لماذا اجتمعوا الآن؟ ولماذا في بيت «النَّطَاسِيّ» بالذّات؟ هل من أجله؟ أم من أجل «سَرْوَة»؟ أم من أجل الرّضيع؟ لماذا هي المُستكشفة، وليس أباها، ولا أخاها، ولا «سُليمان» رغم ما يحملونه الآن من قُدُرات؟ كانت تقبض على خريطتها بقوّة شديدة حتّى أنّ أناملها ابيضّت من شدّة الضّغط عليها وهربت منها الدّماء، انتبهت إليها ففتحتها، فوجئت بتغّير الخطوط على الرّقعة الجلديّة، لم تكن الخطوط لطريق، ولا لسراديب، ولا لجزيرة، بل لملامح وجه، هو وجه جميل تعرفه.. إنّه وجه «سَرْوَة»، تذكّرت آخر حديث دار بينهما عن «أصحاب القلانيس الزّرقاء»، وتلك الحروف الّتي تعلّمتها للخطّ المُسند الحميريّ، فابتسمت، الآن تعرف ماذا ستفعل،

حرّكت خنجر «أبادول» في الهواء مرّة أُخرى، انبثقت فجوة جديدة وأخذت تتلاعب أمامها في الهواء، قالت بخفوت:

- دار «النَّطَاسِيّ».

اهتزّت ساقاها، حرّكتهما وهي تخشى السّقوط، خطت خطوتها الأولى للأمام ودلفت الفجوة، وجدت نفسها أمام أبيها مرّة أخرى، اختفى خنجر «أبادول» كما اختفى سيف «ميسرة» وقوسه بعد أن انتهى من استخدامهما في مهمّته.

كان «أنس» في هلع على ابنته، فُجع عندما رآها بهيئتها المزرية وقد انطفأ بريق عينيها وغمرها العفار والتراب من شعر رأسها لأخمص قدميها، ولطّخ صفحة وجهها البريء، لاحظ الخطوط السّوداء على عنقها، والدّموع الّتي جفّت على وجنتيها بعد أن علق بها التّراب القاتم، ضمّها إلى صدره، هربت دمعة من عينه وهو يشمّ رأسها ويُقبّله، كانت واهنة فنضح وجهها بالماء، نفض ملابسها قدر استطاعته، سقتها «سَروة» حليبًا مُحلّى بالعسل، أمسك «أنس» وجهها بين كفّيه وسألها:

- ماذا بكِ يا «فرح»؟

كان «ميسرة» لا يزال فاقدًا لوعيه، فنظرت إليه وقالت بخفوت:

- كدت أموت، لقد أنقذني «ميسرة».

التفت الحضور نحو «ميسرة» ثُمّ عادوا سريعًا لوجهها ينتظرون منها المزيد من التّوضيح، وصفت لهم باختصار معركة «ميسرة» في «جُذمور» البيت، وكيف استدعى أسلحته وحررها قبل أن تختنق، سألها أبوها عن سبب تأخّرها في العودة بعد «ميسرة» قالت وهي تعقد حاجبيها:

- كُنت داخل البيت المهجور، كُلّهم هناك، لكنّهم لم يروني، وكأنني شبح خفيّ! حتّى جدّي «أبادول» هُناك، لكنّه كان نائمًا على مقعده، كلّهم ينتظرون عودتنا.

- الحمد لله أنّهم بخير.

أفاق «ميسرة»، تنفّس الصّعداء عندما رأى «فرح» أمامه، توجّه «أنس» نـحوه وعانقه في تأثّر، كان مُتعبًا ولم يقْوَ على الكلام، جلب له «النَّطَاسِيّ»» قميصًا من قمصانه، وأسرع يُقطّب جرح رأسه من جديد، أمّا «أنس» فكانت الأسئلة تدور في رأسه كطواحين الهواء، عندما شعر أنّ «فرح» قد هدأت قليلًا سألها:

- عندما كُنت بالبيت، هل حدث شيء غريب؟ أو مرّ بخاطرك فكرة ما؟

- نعم.

- ماذا حدث؟

- «سَرْوَة»!

التفتوا جميعًا تجاه «سَرْوة»، كانت تحمل الرّضيع وتُهدهده، توجّهت «فرح» نـحوها، وحملت الرّضيع من بين يديها وأعطته للسيّدة «زهراء»، جلست أمامها وقالت لها:

- تذكرين ما أخبرتني به عن أصحاب القلانيس الزّرقاء؟

- نعم.

- هاتِ يدك يا خالة «سَرْوة»، أُريد أن أرى وجوههم، وأسمع أصواتهم.

سلّمت «سَرْوة» يدها لـ «فرح» فقبضت عليها بكفّيها الرّقيقتين، وأغمضت عينيها، بدأت صور شتّى تتوافد على رأسها، سمعت همساتهم، رأت وجوههم، ورأت «سَرْوَة» وهي تخطّ بيدها الرّموز على رمال الشَّاطئ، كانت تكتب ما يُملونه عليها، ثُمّ تمحوه بكفّها عندما ينتهون من همساتهم، ويختفون تحت الماء، فتذوب قلانيسهم الزّرقاء في زُرقة

ماء المُحيط، ازدحم رأس «فرح» بالأصوات، بالرّموز، بالهمسات، فتحت عينيها أخيرًا وقالت لها:

- كان هؤلاء أطفال «أصحاب القلانيس الزّرقاء» يا خالة، وقد أخبروك مرارًا بهذا، كانوا يقرأون عليكِ سجلات المُعلّم النبيل باستمرار، وكُنتِ تكتبينها على الرّمال، ثُم تمحين أثرها بيديك وتنسينها!

قاطعها «النَّطَاسِيّ» وقال وهو يقترب:

- «سَرْوَة» لا تعرف عن تلك السّجلات وما فيها يا «فرح»، حتّى لو سمعت منهم، لن تتمكّن من سردها علينا.

رنت «فرح» إليه، ووثبت نـحو القنانيّ الممتلئة بالراتنج الأحمر الّذي جمعته «سَرْوَة» من أشجار «دم الأخوين»، وغمست أصبعها فيها، بدأت تكتب على الجدار بالخطّ المُسند الحميري، تمامًا كما كانت «سَرْوَة» تكتب على الرّمال، بطريقة المِحراث، تروح تارة، وتجيء في السّطر التّالي، كان اتجاه كتابتها في أوّل سطر من اليمين إلى اليسار وفي السّطر الّذي يليه من اليسار إلى اليمين ولهذا كانت تقلب اتجاه بعض الحروف ليوافق اتجاه الكتابة، كانت أنظار الجميع موجهة نـحوها، استمرّت تكتب حتّى امتلأ الجدار، واصطبغت أصابع يدها اليمنى كلّها باللون الأحمر، وكأنّها غمستها في الدّماء، وتلطّخ ثوبها، وبعد أن انتهت، تراجعت خطوة للخلف وقالت:

- هذه هي السّجلات الثّلاث الأولى، دوّن المعلّم النّبيل أيضًا قصّة «وِجْدان» و«رَيْدانة»، وهذا مما همس به أطفال «أصحاب القلانيس الزّرقاء» لـ «سَرْوَة»، كانوا يعرفون أنّ «عُرقوب» يُحطّم سجلّات المُعلّم النبيل في كلّ جزيرة يمرّ بها، وكانوا يقصّون عليها قصص أجدادهم من الجنّ كما رواها آباؤهم للمعلّم النّبيل من قبل، ولأنّ آباءهم مُسجّرون في قاع المُحيط كانوا يُرسلون أطفالهم لعلّ

أحدًا يراهم ويتحدّث إليهم، وكانت الخالة «سَرْوة»، فأرادوا منها أن تُدوّنها مرّة أخرى كما دوّنها، فهي الوحيدة الّتي استطاعت رؤيتهم مثله، لكِنْ لم يُصدّقها أحد! ولم تتمكّن هي من سردها بطريقة صحيحة.

ثُمّ نظرت لأبيها نظرة طويلة تشي بالكثير وقالت له:

- لقد أخبروها عنّا وعن وصولنا، وعمّا نـحمله، الخريطة الّتي معي كانت تخصّ «وِجْدان»، رسمها بدقّة عندما كان يبحث عن أبنائه ليجمعهم ويتحدّث إليهم، لعلّهم يرجعون عن ضلالهم، السّجلات تحوي مخططًا للجزر كلّها، والخريطة كانت تدلّني على كلّ مكان أنتقل إليه، كانت سببًا في خروجي من «سراديب الخُطى الضّائعة» الّتي قام «أصحاب القلانيس الزّرقاء» ببنائها قديمًا ليحبسوا فيها عشيرة «البواشق» من الجنّ، لكنّ «خَنْدَريس» حبس عشيرة «أصحاب القلانيس الزّرقاء» وأخفاهم تحت ماء المُحيط منذ عهد قديم لعداوة قديمة، فما عاد يُسمع لهم صوت، ولم يرهم قديمًا من أهل الجزيرة إلّا المُعلّم النبيل لشفافيته، كذلك الخالة «سَرْوة» فهي تُشبهه، وقد رأت أطفالهم، فالطّلاسم لم تحبس الأطفال، ولم يكن هناك صاحب نفسٍ نقيّة شفّافة يُضاهي المُعلّم النّبيل لفترة طويلة ليتمكّن من رؤيتهم، حتّى رأتهم الخالة «سَرْوة».

ثُمّ لمست عصا «أنس» وقالت:

- تلك العصا كانت لـ «وِجْدان» أيضًا، والبوق كان يخصّه، كان يُسبّح الله ويُناجيه، ثُمّ ينفخ فيه فينقل البوق صوته وتحمله الرّياح فتطرب طيور الجزيرة وتُقبل عليه وتُحلّق حوله، أمّا العلبة فكان يحفظ فيها رسائل «رَيْدَانة» الّتي كانت تُرسلها له، صنعها بيديه،

وكان لديها علبة تُشبهها تمامًا تحفظ فيها رسائله الّتي كتبها لها، لقد كانا زوجين صالحين مُتحابّين، لقد لوّث «خَنْدَريس» نسلهما.

ثُمّ أشارت لأبيها بسبابتها ونظرت في عينيه نظرة جادة وقالت:

- قوم «سبأ» يا أبي! حضارة «حِمْيَر»[1] الّتي أخبرتني عنها الصّيف الماضي.

- ما بها!

بدأت «فرح» تقرأ السّجلّات الّتي دوّنتها على الجدران، ففغر «أنس» فاه، كانت ابنته تقرأ قصة قوم «سبأ»، لقد كان «أصحاب القلانيس الزّرقاء» يروون قصّتهم للمعلّم النّبيل ليحذّر أهل «سُقُطْرى» من ترك عبادة الله، ويُحذّرهم من مصير كمصير قوم «سبأ»، كان ينقش القصص على الأحجار واللخاف والكرانيف بالجزيرة، حتّى طرده أهلها منها، ودمروا كتاباته وطمسوها وألقوا الأحجار بماء المحيط، فلجأ لجزيرة أخرى حتّى وصل لجزيرة «النّور» وأقام مع «العنادل»، وكانوا بفطرتهم يوحّدون الله، فأعاد كتابة السّجلّات هناك، وعاش بينهم حتّى مات بهدوء في ليلة قمراء من ليالي الشّتاء.

ران صمت مهيب عليهم، بدأوا يتحدّثون جميعًا في آن واحد، ضجّ رأس «أنس» بالأفكار الّتي تناطحت وتشابكت، ومن شدّة ولوجه في أتون صراعه الدّاخلي صار لا يرى ولا يسمع أحدًا منهم، وكأنّ حواسّه الخمس الّتي كانت في ذروة نشاطها قد عطلت وتوقّفت، لم يُخرجه من

(1) مملكة حمير: هي مملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في المرتفعات والتهائم أو مملكة حِمْيَر، مملكة يمنيّة قديمة نشأت في وسط اليمن واستطاعت القضاء على ممالك اليمن القديم الأربع وضمها وقبائلها في مملكة واحدة، هي آخر مملكة يمنية قبل الإسلام وكانت لهم علاقة وثيقة بمملكة كِندة عن طريق تحالف بينهم يعود للقرن الثاني ق.م.

عزلته تلك إلّا «فرح» وهي تُمسك بوجهه بين يديها، حتّى أنّها لطّخته بالحبر الأحمر، عندها عاد للواقع حوله، وتركها تنظّف خدّه وهو يرنو إليها بنظرة تشي بالكثير، كان فخورًا بها، لكنّ خوفه عليها كان في أوجه، حتّى أنّ دقّات قلبه كانت قويّة وظاهرة لتهزّ قميصه، قبّل رأسها وخرج من باب دار «النَّطَاسِيّ»، فأقبل النّاس عليه، ووقف أمام جموع النّاس وأخذ يتأمّلهم ويقلّب ناظريه في وجوههم، مرّت دقيقة صمت كان يطلب فيها العون من الله بكلّ جوارحه، صار أكثر ثباتًا من ذي قبل، حتّى أنّه أصبح يُسيطر بشكل أكبر على حواسّه ويملك زمام أمرها كما كان «هائد» يفعل، قال بصوت هادئ ومنضبط:

- كانت السّجلات تحكي قصّة «سبأ»، رواها «أصحاب القلانيس الزرقاء» عن آبائهم وأجدادهم من الجنّ للمعلّم النبيل.

صاح الّذي كذّبه سابقًا من تلاميذ «عُرقوب» وكان لا يزال يقف هناك:

- كذب، لا وجود لأصحاب القلانيس الزّرقاء، فَقَد المعلّم النبيل عقله في آخر أيّامه، وكان مخبولًا!
- بل كان يراهم، وكانوا يخرجون من مساكنهم تحت ماء المحيط ليقصّوا عليه قصص «سبأ» وملوك الجنّ من أجدادهم، وصدق المُعلّم النّبيل فيما قاله، كما صدقت «سَرْوة» عندما أخبرتكم أنّها تراهم وتتحدّث إليهم، وكان المعلّم النبيل يدوّن ما يسمعه، ويُحذّر أهل «سُقُطْرى» حتّى لا ينالهم ما نال أهل «سبأ».

سأله أحدهم:

- ما هو «سبأ»؟ أرجل أم امرأة أم أرض؟

اقترب منه «أنس» ورفع صوته بإجابته ليُسمع الجميع:

- رجل من ملوك اليمن كان له عشرة أولاد، هؤلاء العشرة هم أصل القبائل كلّها، سُمّيت الأرض باسمه، وأهل «سبأ» هم قومه[1]. هنا عاشوا، على أرضكم، وأنتم أقيال[2] اليمن!

خيّم الصّمت عليهم، كان جميع من يسكنون دار «النَّطَاسِيّ» قد خرجوا ووقفوا خلف «أنس»، وكانت «فرح» تقف بين أبيها وأخيها، أكمل «أنس» قائلًا:

- كان «سبأ»[3] سيدًا وملكًا، تتبع له الكثير من القبائل وكانوا يعيشون في نعم عظيمة، وأرزاق واسعة، وثمار، وزروع كثيرة، وكانوا يعبدون الله الواحد الأحد، كانت المياه تجري من بين جبلين عظيمين، فقاموا بإنشاء سدّ بين الجبلين حتى ارتفع الماء إلى أعلى الجبل، وسمي «سد مأرب».

(1) سأل رجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله وما سبأ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة سكنوا في اليمن، وتشاءم منهم أربعة يعني سكنوا في الشام، فأما الذين تشاءموا في الشام: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار. (رواه الترمذي).

(2) أقيال: جمع القَيْلُ وحسب النقوش اليمنية القديمة هو ما دون الملك الأعظم في اليمن في الجاهليّة وكل من أتوا بعده.

(3) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة سبأ 15: 21]

تعالت الصّيحات:

- نعم..نعم..

- سمعنا عنه..

أكمل «أنس» قائلًا:

- غرسوا البساتين والأشجار المثمرة على جانبي السد وامتداده. فكانت بساتينهم ومزارعهم كالجِنان وكانوا في عيش رغيد وأيام طيبة حتى أن المرأة كانت تسير بالمكتل على رأسها دون أن تفعل شيئًا فيمتلئ من الثمار المتساقطة فيه من كثرته ونضجه. لم يكن في بلادهم شيء من الحشرات، ولا العقارب، ولا الأفاعي، ولا الفئران، لصحة هوائهم وطيب عيشهم.

كان الحضور ساكنين وكأنّ على رؤوسهم الطّير، أكمل قائلًا:

لكنّهم لم يشكروا الله! كفروا به! وكفروا بالنّعمة! بل وتوجهوا لتقديس وعبادة غيره، عبدوا الشّمس، فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته سُلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة والعيش الرّغيد بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد، فأرسل الله الجرذان لتنقر السدّ وتحفره، فلما بدأت الجرذان تحفر في أصل السد سقط وانهار، داهمهم سيلٌ جارف حطّم البيوت وأغرق كلّ شيء، وبادت تلك الزروع والأشجار، وتبدّلوا بعدها برديء الأشجار والثمار. فعاقب الله من كفر به وكذب رسله وخالف أمره وانتهك محارمه بهذه العقوبة الشديدة، ولما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا في البلاد.

كان أهل «سُقُطْرى» ينصتون إليه في وجل، كان هذا تاريخ أجدادهم، لكنّ هناك من أنساهم وألهاهم عنه، وأسكَرَ عقولهم بخمرٍ عتيقة، فنسوا كلّ شيء، كانوا يشعرون أنّ ما يُخبرهم به يسكن ذاكرتهم، لكنّه في قاعها، في رُكن بعيد وقد علاه ما غطّى عليه فطمسه. أردف «أنس» قائلًا:

- كان المُعلّم النّبيل يقرأ عليكم قصّة «سبأ» تمامًا كما سمعها من «أصحاب القلانيس الزّرقاء»، أراد أن يُحذّركم من تقديس وعبادة أبناء «خَنْدَريس»، لكنّكم لم تسمعوا له.

ثُمّ رفع «أنس» صوته وكانت تشوبه نبرة تحذير:

- ها هو «عُرقوب» دمر سجلّاته، لتستمرّوا في عبادة «خَنْدَريس»، أفيقوا يا أهل الجزيرة، فهم ليسوا أبناء «خَنْدَريس»، بل هم أبناء «وِجدان»، و«رَيْدَانة»، أتذكرونهما؟

هاج النّاس وماجوا، كان اسم «وِجدان» و«رَيدانة» كافيًا لكي تنقشع الضّبابيّة عن عقولهم، فبدأوا يتهامسون، لقد سمعوا عن أخبارهما، وقف «أنس» يُراقبهم وهم يتخبّطون في حيرة، لاحظ إقبال وفد من «المشّائين»، لاحظ أيضًا وصولَ جنودٍ، عَلِمَ أنّهم من جنود الملكة «عشرقة»، شعر بأنّ الخطر يشتدّ، وأراد أن يكون حاسمًا وواضحًا، فقال بثقة وثبات:

- لن يُقدّس مخلوق هنا بعد اليوم، لهذا لن نردّ لكم ميراث أبناء «خَنْدَريس»، سنرحل به من هنا أنا وأولادي.

هاج النّاس وماجوا، كادوا يُلحقون الأذى بـ«أنس»، بدأ «خالد» يدفعهم، واقترب «ميسرة» يُعاونه، فخرج «أَقْمَر» وأشار لـ «أنس» ومن معه ليُغمضوا أعينهم، رفع يده وأطلق ومضات من الضّوء القويّ وكأنّها كرات ثلج يقذفها تجاه الحشد، كان يستهدف أكثرهم قوّة ليُعرقله، ثُمّ فتح ذراعيه فنشر مظلّة كبيرة من الضّوء السّاطع اللامع القويّ أحاطت بالبيت، وأعمت أبصارهم، فركضوا مُبتعدين وهم يتخبّطون، بعد أن أصابهم العمى المؤقّت من شدّة الضّوء، دخل «أقمر» وكانوا قد سبقوه جميعًا بالدّخول فأغلق الباب خلفه بإحكام، وقد أحاط بهم الخطر من كلّ حدبٍ وصوب، فها هم «المشّاؤون» يُريدون قتل «سُليمان»، وتلاميذ «عُرقوب» يُريدون قتل «أنس» و«ميسرة»، وجنود الملك «قلمّس» يُريدون

اعتقال «فرح»، و«البواشق» يُريدون قتل «خالد» لأنّه كان سببًا في هزيمة أقوى رجالهم وتحطيم عظامه حتّى صار عاجزًا عن الحركة. أمّا «عِشْرِقة» و«دردبيس» ومعهما «جُلجُلان» فكانوا يُريدون أفراد العائلة الأربعة وهم على قيد الحياة ليسلبوهم ميراثهم.

****

جلس كبير «البواشق»، مع كبير «المشّائين»، مع قائد جنود الملك «قلمّس»، قال قائد جُنود الملك «قلمّس»:

- لا بدّ من التّحالف، فلكلّ منّا هدفه ومُراده، ونــحن نواجه أربعة من عائلة واحدة، قوّتهم لا يُستهان بها، ويرفضون التخلّي عن مواريث «خَنْدَريس»، لن نستطيع التّغلّب عليهم ونــحن فُرادى.

قال كبير «المشّائين»:

- «سُليمان» لا يملك أن يؤثّر على عشيرتنا، فلنستدرجه أوّلًا، ونُبعده عن دار «النَّطَاسِيّ»، حتّى لا يُعيقكم، وعندما يخرج، تستدرجون أنتم «خالدًا» لقتال مفتعل لنُبعده عن أبيه، فـ «أنس» هذا هو العقل المدبّر، وكلّهم يُطيعونه، ثُمّ نستدرج «أَقْمَر» لنُبعده عن «فرح»، وبهذا نستطيع خطفها، ويبقى الأب «أنس» نقتله في الحال.

وافقه قائد جنود الملك «قَلَمّس» قائلًا:

- فليكُن هذا.

قال كبير «البواشق»:

- نتحالف على شرط واحد.

التفت كبير «المشّائين» نــحوه وفتح فمه الواسع فبرزت أسنانه الرّفيعة ولسانه الطّويل وهو يسأله:

- ما هو هذا الشّرط؟

- ألّا تقتلوا «سُليمان، فإن كانت لكم عداوة مع «طَرْخُون»، فالملك «جلجلان» يُريد استرداد حقّه في ميراث أبيه من الغلام.

ضرب كبير «المشّائين» على الطّاولة بقبضته وقال:

- كان «طَرْخُون» سببًا في قتل أولادنا، إن كنتم نسيتم المذبحة فنحن لم ننسها! «سُليمان» لنا، ومن حقّنا قتله أو الحصول على الميراث الّذي يحمله.

عقد كبير «البواشق» ذراعيه وقال ببرود:

- تعرض عليكم الملكة «عِشْرِقة» العودة للجزيرة، ولكم نصفها، ستوقّع معكم مُعاهدة تُثبت أحقّيتكم بهذا، ولكم أن تُجبروا الأبّ على التّنازل عن الميراث الّذي يحمله، وتستطيعون قتله بعدها.

سأله قائد جنود الملك «قلمّس»:

- وميراث «فرح»؟

- الملكة «عشْرَقة» ترغب في الحصول على ميراث «طرجهارة» بأيّ ثمن.

هدر قائد جنود الملك «قلمّس» غاضبًا:

- كانت «طرجهارة» سببًا في فتنة عظيمة بيننا، ولن نترك تلك الفتاة لتعيش بهذا الميراث الملعون، ما فعلته ينمّ عن ذكاءٍ شديد، فقد استطاعت وحدها الخروج من «سراديب الخطى الضّائعة»، هي رأس للشّر ولا يُستهان بذكائها وستعيد الكرّة، سنثأر من «طرجهارة» الّتي تعيش فيها!

- لماذا لم تقتلوا «طرجهارة» عندما ألقيتم القبض عليها؟

- هربت منّا ودلفت «سراديب الخطى الضّائعة» بنفسها، فأشعنا عن قَصد أنّ الملك أمر بحبسها هُناك ليهدأ شعب الجزيرة، ولم تفلح

في الخروج أبدًا، ولم يجرؤ أحد على اقتحام هذا المكان المُقفر، قُلنا ستموت بعد أيّام، لكن العجيب أنّها عاشت!

- كيف بنيتموه إذًا؟

- لم نقم ببنائه! بل بناه الجنّ!

ران عليهم صمت كثيف مطبق، تململوا خلاله، وأظهروا ضجرهم، وعرض كلّ منهم رغباته، اتفقوا في النّهاية على خطة استدراجهم أفراد عائلة أبادول واحدًا تلو الآخر، وبقي ميراث «خالد» مطمعًا للثلاثة، فكلّ منهم يرغب في القوّة المفرطة الّتي فرّ بها «وجدان» لجزيرة الضّباب الّتي لا يصل إليها أحد، لأنّه كان يعلم أنّ هذا الميراث فتنة له، ولغيره.

****

كان أوّل ما فعله المشّاؤون هو الصّعود للجبل حيث كان من تبقّى من عشيرتهم ولم يرحل يسكن هُناك، طرقوا أبواب الكهوف الّتي صُنِعَتْ لها أبوابٌ من خشب البلّوط والسّنديان، خرج إليهم أهل الكهوف، والتقوا بكبار عشيرة «المشّائين» وقد فوجئوا بوجودهم على جزيرة «سُقُطْرى»، أخبرهم الزّعيم بظهور «طَرْخُون»، وعن «سُليمان» وما فعله معه، وكيف يحمل ميراثه الآن، وعن عزمهم على استدراجه من وسط عائلته، فلا بدّ من الثّأر من «طَرْخُون» المتمثّل فيه.

كانت العجوز الّتي زارها «سُليمان» مع الزّوجين «شُرْشُمانة» و«سَقَنْقُور» بين جمهور الحاضرين. تقدّمت للأمام وأخبرتهم عن «الكومودو»، وكيف أنّه كان يحمله على صدره، وأنّه تركه في كهف مهجور بالجبل، صار الآن أكبر حجمًا من ذي قبل، هاج المشّاؤون وماجوا، صعدوا الجبل بشكل همجي ليقتلوا «الكومودو»، فصاح زعيمهم بصوته الأجشّ:

- لا تقتلوه الآن، دعونا نستدرج الغلام به أوّلًا.

***

داهم حُرّاس الملك «قلمّس» بستان «أَقْمَر»، وأخرجوا نساء «العنادل» من دار «زهراء»، دفعوا الغلمان أمامهم دفعًا وأخرجوهم من مخزن الحبوب، وأوقفوهم صفوفًا، كان «هلال» يصيح عليهم، ويُذكّرهم بالعهد بين «العنادل» وبين الملك «قَلَمّس»، لكنّهم لم يلتفتوا لصياحه، لطمه قائد الحرس على وجهه وقال له:

- اذهب لـ «سُقُطْرى» وأخبر «أَقْمَر» إن لم يَعُد في الحال سنُلقي بمن بقي على قيد الحياة من «العنادل» في «سراديب الخُطى الضّائعة».

غاص قلب «هِلال» في أحشائه، وتبادل النّظرات مع شقيقه، التفت نحو النّساء فأخذن يشجّعنه على الذّهاب، صاحت «سُبُحات» من بينهن:

- أسرع يا «هِلال».. لن يُخيّبنا الله أبدًا!

ركب هلال جناحي نعامة، وانطلق يركض نـحو الشّاطئ، كان يسقط ويثب واقفًا ليركض مرّة أخرى، حتّى أنّه أُصيب في ركبتيه وذراعه، لم ينتبه لنزف جراحه إلّا عندما استقرّ في مركب متوجّه إلى «سُقُطْرى»، كان قلبه يخفق بين أضلعه وكأنّه يدقّ طبول حرب وشيكة، بكى لأوّل مرّة منذ وفاة «هائد» الّذي كان يعدّه بمنزلة والده، فقد حُبست دموعه من هول ما رآه وكان يأبى أن يترك لها العنان وكان يتصنّع الجلد أمام أخيه وباقي الغلمان، فقد تولّى «هائد» رعايته منذ صغره، جلس يردد التّسابيح الّتي علّمها له، وينظر إلى جزيرة «سُقُطْرى» الّتي لاحت من بعيد، كان يتعجّل صاحب المركب، تُرى ماذا سيفعل لو أدخلوهم «سراديب الخُطى الضّائعة» قبل أن يعود؟

****

كان جميع من بدار «النَّطَاسِيّ» يتحلّقون حول «أنس» ويُنصتون إليه بإجلال وهو يُحدّثهم ويبحث معهم عن الخطوة القّادمة، فقد وصل إلى مسامعه بعض جمل الحوار الّذي دار بين المُتآمرين عليهم، لكنّه لم يتمكّن من سماعه بالكامل فحدّة صوت «المشّائين» كانت تُعيقه، وكانت أصواتهم أحيانًا تختفي تمامًا. لكنّه فطن لتدبيرهم ومُخططهم الهادف لتفريقهم، أسرّها في نفسه حتّى لا يُخيف من حوله، خاصّة «فرح» و«سُليمان»، وظلّ يؤكد على أهميّة عدم افتراقهم مهما حدث. لكنّ بنات «وَردَان» ظهرن فجأة وأخذن يُثرثرن وهنّ يسردن تفاصيل مُخطط الزّعماء الثّلاثة بتفاصيله، فضجّت الدّار وأصابهم القلق الشّديد، وكلّ ما كان «أنس» يُحاول الحفاظ عليه من ثبات وهدوء بَعثرته الفتيات الثّلاث، وعندما انتهين كان يستقرّ على وجهه تعبير غريب وهو يتصنّع الابتسام وينظر إليهنّ، كان يعلم أنّهن طيّبات القلب ولم يقصدن ويحرصن على مُساعدتهم، لكنّهن أخفن «فرح» و«سُليمان» بما فعلنه، سألته «ريحانة» بفضول:

- ما بك يا سيّد «أنس»؟

- لا شيء.. لا شيء يا «ريحانة».. فقط أرغب في بعض الهدوء و...

توقّف «أنس» عن الكلام فجأة، توافدت الأصوات على أُذنيه، رائحة «المشّائين» الّتي حفظها بعد ملازمة «سَقَنْقُور» لهم تتزايد، أدرك أنّ رتلا منهم يحومون حول الدّار، طرقت العجوز باب دار «النَّطَاسِيّ» وانتظرت لكي يُجيبها أحدهم، أخفت «بنات وَردَان» أنفسهنّ، قام «جُندب» ليفتح الباب، فأطلّت العجوز بوجهها الغريب وبشرتها الممتلئة بالحراشف، فعرفها «سُليمان» ونادى «سَقَنْقُور» فقام ليستقبلها، دلفت وجلست بجوار «شُرْشُمانة»، ثُمّ قالت وهي تتمعّن في وجه «سُليمان»:

- «الكومودو».

صاح «سُليمان» بتلهّف:

- ما به؟ هل هو بخير؟ وأين عثرتِ عليه؟

- عاد للكهف الّذي كنتم فيه، وهو الآن مريض، لم أتمكّن من إحضاره إليكم، فقد تضاعف حجمه، وسيُكشف أمري لو أخرجته من الكهف.

التفت «سُليمان» تجاه خاله «أنس» -الّذي كان يتابع لغة جسد العجوز وأدرك أنّها تكذب- وقال بتلهّف:

- لا بدّ أن أذهب لرؤيته، أرجوك يا خالي، أرجوك.

- لن أُعرّضك للخطر مهما حدث يا «سُليمان»، أنت تعرف مدى أهمّية ألّا نفترق الآن يا بنيّ.

ثُمّ سألها «أنس»:

- لماذا يقتل «المشّاؤون» الكومودو؟

- يقولون إنّه شيطان غدّار، وهو وجه شؤم، لا بدّ من قتله قبل أن يبلغ من العمر ثلاثة أيّام.

- لماذا لم تقتلوه بعد رحيل «سُليمان»؟

- لا يعرف أحد بوجوده، لقد رأيته مُصادفة، وهرب لداخل الكهف فور أن رأى وجهي، إنّه كائن جبان.

انزوى «سُليمان» حزينًا وغاضبًا، رفض «أنس» خروج ابن أخته من دار «النَّطَاسِيّ»، فرحلت العجوز وخرج معها الزّوجان على وعدٍ لـ «سليمان» بأنّهما سيطمئنّان على «الكومودو» ويأتيانه بخبره. كانا يتعجّبان من حضورها رغم موقفها السّابق من وجود «الكومودو»، وكان الشّك يتنامى في صدر «سَقَنْقُور»، خرج مع «شُرْشُمانة» الّتي تعلّقت كثيرًا بـ «سُليمان» وأرادت أن تُسعده وتريح قلبه. كانت «سَرْوة» في ضيق منذ دخول تلك

العجوز للبيت، همست لـ «زهراء» بما تشعر به تجاهها، وانصرفت وعلى وجهها علامات الضّيق الشديد، تبعتها «فرح» وسألتها:

- خالة «سَرْوة»، هل رأيتِ «الكومودو» من قبل؟

- يقولون إنّه وحش، لم أره بعيني، لكنني رأيت وحشًا آخرَ، هل تُريدين أن أُريك إيّاه؟

هزّت «فرح» رأسها موافقة، خلعت قُفّازها وأمسكت بيد «سَرْوَة»، وأغلقت عينيها، كانت تلك ذكرى من ذكريات «سَرْوَة» وهي صغيرة، كانت قد ضلّت وسط الأشجار كعادتها وهي تبحث عن أزهار الأُقحوان، عندما لمحت امرأتين تسيران معا، كانت إحداهما فاتنة بشكل لافت للنّظر، أمّا الأُخرى فبدت وكأنّها ترتدي قناعًا جامدًا، فملامحها ميّتة لا روح فيها، فاختبأت «سَرْوَة» خلف شجرة ووقفت تتأمّل ثيابهما، وزينتهما، ظلّت المرأتان تتحدّثان، اتّضح أنّهما صديقتان مُقرّبتان، كان معهما طفلة صغيرة تحمل دمية قماشيّة أعجبت «سَرْوة»، وهي ابنة تلك المرأة الفاتنة، فقد نادتها بأمّي، وكان على جبينها شامة كبيرة لاحظتها «سَرْوة»، سِرن فتبعتهنّ «سَرْوَة» في صمت، ظلّت تختبئ خلف الأشجار، وعينها على الدّمية، تلفّتت إحدى المرأتين ثُمّ حملت حجرًا وشجّت به رأس رفيقتها الفاتنة حتّى سالت منها الدّماء، وظلّت تضربها وتضربها حتّى هشّمت عظام رأسها أمام ابنتها الصّغيرة الّتي أخرستها الصّدمة ثُمّ انفجرت باكية في حرقة وكانت خائفة، جلست القاتلة أمامها وقالت:

- أتذكرين كلّ ما رأيتني أفعله بأمّك الآن؟

هزّت الصّغيرة رأسها إيجابًا، فوضعت القاتلة أصبعيها السّبابة والوسطى على جبينها ولمسته لهُنيهة ثُمّ أزاحتهما تجاه اليمين، فجلست الصّغيرة تحدق إلى جثّة أُمّها المخضّبة بالدماء، وصارت تبكي في نشيج مسموع، حينها بدأت القاتلة تصرخ في هستيريّة فأقبل النّاس من كلّ

حدبٍ وصوبٍ أخبرتهم أنّ هناك رجلًا ملثّمًا قتل رفيقتها أمام عيني ابنتها، فظلّت «سَرْوة» تتراجع للخلف بين الأشجار من هول صدمتها حتّى سقطت على ظهرها وتدحرجت على الأرض فغمرها التُرابُ المُبلل والدبال وفقدت الوعي، أفاقت لتجد نفسها بين أُمّها وأبيها، أخبرتهما بتلعثم وبكلماتها البسيطة عمّا رأته، لكنّهما ظنّا أنّها مشوّشة بعد سماع خبر الجريمة الّذي شاع بالجزيرة، ولم يكترثا لكلماتها المبعثرة.

سحبت «سَرْوة» يدها من بين كفّي «فرح» وقالت لها:

- هذه هي.

- من؟

- «طرجهارة» يا «فرح»!

أدركت «فرح» أنّها تقصد المرأة الّتي قتلت صديقتها، سألتها:

- ماذا فعلت بأصبعيها في جبين الصّغيرة؟

- أنستها ما رأته.. تذكّري هذا جيّدًا، فقد تحتاجينه يومًا ما!

افترش الحزن ملامح «فرح»، وضاق صدرها، كانت تُعاني في كلّ مرّة ترى ذكريات أحدهم، فهي تعيش نفس خوفه، وفزعه، وحُزنه، وآلامه. ارتدتْ قُفّازها وعادت لتجلس بجوار «سُليمان» لعلّها تُخفف عنه، في تلك اللحظة خرج «البراء» من الدّار، وقرر إحضار جدّته ليحميها، فقد أصبحوا مُستهدفين من أهل «سُقُطْرى» بعد انتصار «خالد» على «يعبوب»، وكان يخشى عليها.

***

وصل «هِلال» للجزيرة، وأسرع لدار «النَّطَاسِيّ»، كان يطرق الباب بكلتا يديه، وكان النّاس يراقبونه في هلع، فُتح باب الدّار فاندفع إلى الدّاخل وهو يرتجف، وطفق يروي ما حدث لـ «أَقْمَر»، كان ظمآنَ

فأحضرت له «فرح» قدحًا فيه ماء بارد، أمسكت بيده وهو يتحدّث عن شيخه «هائد»، ومرّت برأسها ذكرى له معه لكنّها لم تفهمها، رأته يركض وطيف أحمر يلاحقه، كان خائفًا حتّى أنّها سمعت صوت أنفاسه وهمهماته وهو مُرتعب، ثُمّ ظهر رجلٌ وضّاء الوجه وقع في نفسها أنّه الشّيخ «هائد»، فقد سمعت صوتًا مخيفًا لذلك الطّيف الأحمر وهو يناديه باسمه، اختبأ «هِلال» خلف «هائد» وهو يُجادل ذلك الطّيف الّذي انعكس لونه الأحمر على ثيابهما البيضاء، وأخذ يُهدده ويُحذّره من المساس بـ«هلال»! سمعت الطّيف وهو يتوعّد لهما بالعودة لإبادة «العنادل» جميعًا، وأخبره أنّه يرعى اثنين من أبناء «خَنْدَريس»، ويدّخر ميراثه فيهما، وسيعود يومًا لملاحقته هو وتلميذه البائس «هِلال»، وسيبيدهم جميعًا، ثُمّ سطع برق أحمر معقرب في السّماء، فحدث شيء لـ «هائد» جعل عينيه تسودّان، وكأنّ هناك من حشاهما بحجرين أسودين لامعين، صار لا يرى شيئًا أمامه، مدّ ذراعه خلفه وكأنّه يُريد حماية «هِلال»، ثُمّ وقف بثبات وفتح فمه وصرخ فخرجت منه موجات دائريّة صوتها مدوٍّ، دفعت ذلك الطّيف فانقشع وتبدد في الهواء، فشهقت «فرح» وتركت يده.

فانتبه «أنس» لها، فأسرع إليها، فروت له ما حدث بأنفاس مُتقطّعة، وسمعتهما «سَرْوة» فهمست:

- عفريت البرق الأحمر!

خرج «أَقْمَر» مع «هِلال» دون كلمة واحدة، وهرولت خالته خلفه، أجفل «أنس»، كان يعلم أنّ هناك شيئًا غريبًا يُدبّر في الخفاء، لكنّه يعلم أيضًا أنّ هناك عهدًا بين الملك «قَلمّس» والعنادل، وملوك اليمن لا ينقضون عهودهم، فما الّذي دعاهم لفعل هذا؟ كما أنّ إبعاد «أَقْمَر»

سيضرّهم، فقد كان يحمي «فرح»، أدرك أنّهم يسعون إليها، فالتفت نــحوها، وانخلع قلبه، الآن لم يبق إلّا «خالد» ليحميها بقوّته.

أسرعت «ريحانة» ولاحقت «أقمر» وقالت له:

- لا تذهب يا «أقمر»، إنّها خُدعة.

لم يلتفت نــحوها ولم يُصدّقها، استمرّ في طريقه، فعادت وقطعت عليه الطّريق وكررتها:

- إنّهم يخدعونك، يُريدون استدراجك للجزيرة هناك لتتركهم هنا.

- كاذبة، الجنّ يكذبون، ويكرهون «العنادل».

قالت غاضبة:

- كيف تصفني بهذا؟

- اغربي عن وجهي!

قالت «زهراء» لها وهي تتعجلها:

- انصرفي واتركينا، فلطالما آذانا الجنّ بأفاعيلهم.

اختفت من أمامهم ونثرت فوق رأس «أقمر» غُبارها الأخضر، فتلطّخ وجهه وعلق الغبار برموشه وبثوبه الأبيض، فأخذ ينفض الغُبار بعصبيّة وهو يقول:

- يا لكِ من عفريتة عنيدة!

مرّت دقائق كان الوجوم يخيّم على من بقي ببيت النَّطَاسِيّ، تصاعد صوت الصّياح من الخارج، كان «البواشق» يتحرّشون بــ«البراء»، وبدأوا يضربونه، استغاث بــ «خالد» فخرج له، واشتبك مع رهط من «البواشق» وازدحم النّاس أمام الدّار، فخرج «أنس» و«ميسرة» ليمنعا «خالدًا» من

الانخراط في معاركهم، فقد تيقّن «أنس» من أنّها خدعة، وأنّهم يتأمرون عليه لاستدراجه..

فجأة! استوقف «سُليمان» «جُندب»، وسيطر على أفكاره، ومنعه من اللحاق بأخيه، نظر في عينيه طويلًا، ودار بينهما حوار لا يُسمع، التفت نـحو «النَّطَاسِيّ» وزوجته ودفعهما للجلوس ساكنين بجوار بعضهما، وكان الرّضيع بينهما، قام «جُنْدب» طائعًا وخرج مع «سُليمان» نـحو الجبل، فقد كان يرغب في رؤية «الكومودو» ليطمئنّ عليه، استطاع تسخير «جُندب» ليصحبه إلى الجبل، كان قراره خاطئًا، لكنّه غلام غلبته عاطفته، دفعه حبّه الشّديد للكومودو والّذي لم يتمكّن «أنس» من تفسيره، فسار للخطر بقدميه.

لم يتوقّف «البواشق» عن مهاجمة «خالد»، كانوا يتزايدون عددًا، وكان يُقاتلهم بوجه متورّم حتّى أنّه أصبح لا يرى بعين من عينيه، استغلّوا إصاباته وضربوه على عينه وأنفه وجرح ذراعه الّذي كان «النَّطَاسِيّ» قد قطّبه بالأمس، لكنّه لم يضعف ولم يكلّ ولم يتوقّف عن إلحاق الأضرار بهم واحدًا تلو الآخر، فثار كالأسد القضاقض[1]، بدأ يضرب ليكسر العظام، ويلوي الأذرع ليخلعها، فقد أصبح وسط خصوم لا يعرفون الشّرف في القتال، حتّى أهلكهم وأنهكهم بصموده وقوّته الّتي تعادل قواهم جميعًا، تصاعدت وتيرة القتال، أخذ «خالد» يحملهم ويلقيهم على بعضهم ويدفعهم بعيدًا، توافد المزيد منهم، ففقد «أنس» أعصابه وصرخ لأوّل مرّة منذ وصوله لهذا المكان، كانت «كُركُمانة» تتابع ما يحدث، فانتفضت عندما صرخ «أنس»، وكانت تُجلّه وتحترمه، فقررت التّدخّل. دارت كالزوبعة وسحبت ذيلها الذّهبيّ وهي تطوف بهم ولسعتهم واحدًا

(1) القَضاقِضُ هو الأسدُ يكسِر عِظامَ فريسته، وقَضْقَضَ الْعَظْمُ أي أَحْدَثَ صوتًا عند كسره.

تلو الآخر على ظهورهم بكلاليب من نار كانت تبرز من ذيل ردائها، فأخذوا يتواثبون كالقرود، ويبتعدون وثيابهم تدخّن، تعملقت بكيانها الأصفر ثُمّ أظهرت نفسها لهم وفتحت فمها وصرخت صرخة بحنجرتها الغليظة فركضوا كالفئران، وتبعتهم وصوتها يدوّي كصافرة الإنذار وهي تبصق دُخّانًا أصفر في سحابات ثخينة فاقشعرّت أبدانهم. سحب «أنس» «خالدًا» من ذراعه، وتوجّه به نحو الدار، ثُمّ ضرب الأرض بعصاه الّتي لم تُفارق يده، فانطلقت النّار منها وسارت في خطّين وأحاطت بالدّار، توقّف القتال، وفرّ النّاس من أمام الدّار، عندما أغلقوا الباب عليهم، فوجئوا بسكون «النَّطَاسِيّ» وزوجته وكأنّهما منوّمين، حتّى أنّ «سَرْوة» تركت الرّضيع يبكي، زال عنهما ما غشيهما فجأة، وكان ذلك عندما ابتعد «سُليمان» بالقدر الكافي ليزول أثر سيطرته، وأسرعت «سَرْوة» تحمل الرّضيع، فوجئ الجميع باختفاء «سُليمان» فأدركوا ما فعله بهما، وأنّه أثّر على «جُندب»، همس «النَّطَاسِيّ» وهو يجول بعينيه في المكان:

- «سُليمان» فعلها بنا، أظنّه ذهب ليتفقّد «الكومودو»، لكنّه لن يتمكّن من السّيطرة على «المشّائين»، فـ «طَرْخُون» لم ينجح في التأثير عليهم قطّ، فطبيعتهم وأجسادهم تختلف عنّا، وهذا يعني أنّه في خطر!

قال «خالد» بتصميم:

- سأتبعه.

أمسك «أنس» بذراعه وقال في حيرة:

- كان «أَقْمَر» يدفعهم عنّا، ولو رحلت أنت سيسهل على أيّ شخص اقتحام الدّار هنا، وسيقومون بخطف «فرح».

- وهل سنترك «سُليمان» وحده يا أبي؟

- لا.. لا يا بنيّ.. ولكن! هل.. هل.. أذهب معك؟

ثُمّ أمسك رأسه وقال:

- أكاد أفقد عقلي.

قال «ميسرة»:

- «سُليمان» في خطر، وقد تؤذيه «سَندَروسة»، سألحق به في الحال مع «خالد».

قال «النَّطَاسِيّ»:

- «شُرْشُمانة» و«سَقَنْقُور» لن يتركاه.. وأنا أثق بهما.

بدأت يد «أنس» ترتجف من شدّة التّوتر، أغمض عينيه هنيهة وقال لـ «خالد»:

- لن يكون «سُليمان» أحبّ إلى «سقنقور» و«شُرشُمانة» منّا، اذهب مع «ميسرة» يا «خالد» واحم ابن عمّتك وذُدْ عنه وعُد به سالمًا.

سأله «ميسرة» وكان الهمّ معقودًا بين عينيه:

- هل ستكون في أمان أنت و«فرح» يا سيّد «أنس»؟

رنا إلى ابنته وقال:

- تبخّرت من حضني مرّتين، في البيت الّذي التقمنا، وهنا في الدار، وحفظها الله وردّها إلى حضني سالمة في المرّتين، غابت عن عيني ولم تغب عن عين الله!

ثُمّ أردف في تأثّر:

- حتّى وهي في حضني، عناية الله وحده تحميها.

خرج «خالد» و«ميسرة» من الدّار، سبقهما «أنس» وضرب الأرض بعصاه مرّة أُخرى فانطفأت حلقة النّار، كان «البراء» مع جدّته يقفان في دهشة وارتباك ويُراقبان النّار المُحيطة بالدّار، دلفت الجدّة، وسار حفيدها «البراء» مع «خالد» و«ميسرة» ليدلّهما على الطريق إلى الجبل، عندها ضرب «أنس» الأرض مرّة أخرى بعصاه، وأحاطت النّار بدار «النَّطَاسِيّ» مرّة أُخرى.

*****

وصل «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة» مع العجوز للجبل، وفوجئا بحضور كبار «المشّائين»، أحاطوهما في الحال وأخذوا يدفعونهما دفعًا:

- كيف تُساعدان هذا الغلام على الهرب وأنتما تعلمان أنّه يحمل ميراث «طَرْخُون»؟

- ما ذنب الغلام؟

- «طَرْخُون» يعيش فيه!

قال «سَقَنْقُور»:

- «طَرْخُون» مات، لقد قتلته بيدي.

- لماذا لم تُشركنا معك الخبر لنـحتفل!

- خشيت على الغلام، وكُنت أعلم أنّكم لن تتركوه إلّا جثّة هامدة.

قال زعيمهم بنبرة ساخرة:

- كُنت دومًا أشعر أنّك من «العنادل»، تعبد إلههم، وتُخفي الأمر عنّا.

لم يُجبه «سَقَنْقُور»، ولزم الصّمت، فأردف كبير «المشّائين» قائلًا:

- ما الّذي بينك وبين «النَّطَاسِيّ»؟

- صديق عزيز أثق به كما يثق به أهل الجزيرة هنا، بل والجزر الأُخرى كلّها، وهو أعلم من فيها.

- تعرف ما أقصده.. فأجب عن السّؤال.
- ما الّذي تظنّ أنّه بيننا؟
- تحلم بزعامة عشيرتنا، وتحلم باليوم الّذي يتحوّل فيه أفراد عشيرتنا لعبادة ربّك، أليس كذلك؟
- وددتُ أن تتركوني وزوجتي وحسب! نعبد الله الواحد الأحد.
- و «خَنْدريس»؟
- أظنّكم سمعتم بما قاله «أنس» عن سجلّات المُعلّم النّبيل.. نــحن لا نعبد «خَنْدَريس»، ولا نقدّس أبناءه.
- سُحقًا لك!

وثب كبير المشّائين على «سَقَنْقُور» ونشبت بينهما معركة شرسة، كان المشّاؤون يراقبونهما في مشهد مهيب، كان الزّعيم قويًّا، وكذلك «سَقَنْقُور» كان يُضاهيه في قوّته وبأسه، تدحرجا على الأرض في عناق مؤلم وكلاهما يعصر الآخر عصرًا، ويغرز مخالبه في عنق خصمه، توقّفا عن الشّجار عندما سمعا صرخة مدوّية صدرت من «شُرْشُمانة» عندما رأت «سُليمان» وهو يقترب مع «جُندب»، كانت تُحذّره ليهرب، هرول المشّاؤون تجاه «سُليمان»، وألقوا القبض عليه، وسلّموه لزعيمهم الّذي قبض على عنقه ورفعه بذراعه في الهواء، انقضّت عليه «شُرْشُمانة» وضربته على عينه وحاولت جذب «سُليمان» من بين يديه، فلطمها على وجهها بقسوة، وأطاح بها فتدحرجت واصطدمت بصخرة وشُجّت رأسها، وبدأت تنزف، حاول «سَقَنْقُور» إنقاذه فلم يتمكّن هو الآخر، أبعده الآخرون عن الزّعيم الّذي كاد يقتل «سُليمان»، لولا أنّ الأرض ارتجّت تحت قدميه، وظهر «دردبيس»، لم يتمكّن من لمس «سُليمان»، فهؤلاء الّذين يحملون ميراث «خَنْدريس» لا يضرّهم الجنّ ولا يتخللونهم

ولا يلمسونهم أبدًا، كان يكره أباه «خَنْدريس» في تلك اللحظة كما لم يكرهه من قبل، فهو السّبب في كلّ هذا، لكنّه لم يُبْدِ هذا لمن حوله، وقد امتلأ المكان بأفراد عشيرته من جنّ «البواشق»، قام الجنّ برفع أطفال المشّائين في الهواء، فتعالت صرخات أمّهاتهم، كان هذا تهديدًا لرجالهم ليطيعوا الزّعيم «دردبيس»، الّذي صاح بصوته الأجشّ:

- لا تقتلوا الغلام، وأحيطوه برجالكم في نطاق يحجبه عن تفعيل قُدُراته، ولينتقل إلى قصر الملكة «عِشْرِقة» في الحال، فالملك «جُلجُلان» ينتظركم هناك.

حرر زعيم «المشّائين» «سُليمان» فصرخ وأخذ يبكي، فترك الجنّ الأطفال فسقطوا تباعًا على الأرض، حملت الرّيح صوت بكاء «سُليمان» فسمع «الكومودو» صوته وخرج من كهفه ليُطلّ عليه من فوق الجبل، فرآه «سُليمان» وصاح مُناديًا عليه بانفعالٍ شديد، لكنّ «الكومودو» لم يجرؤ على الاقتراب، فقد آذوه كثيرًا منذ أن علموا بوجوده، ووخزوه بحرابهم في كلّ شبرٍ من جسده، وما أخرهم عن قتله إلّا أمر زعيمهم بإبقائه على قيد الحياة ليستدرجوا به «سُليمان».

انتظم المشّاؤون في صفوف، وحملوا الحراب، وأحاطوا بـ «سُليمان» في دائرتين، وساروا تجاه قصر الملكة «عِشْرِقة»، كان يسير بينهم وهو يبكي ويرتجف، أفاق «جُندب» من سكْرته عندما ابتعد «سُليمان» عنه بالقدر الكّافي ليزول أثر قدراته، كادوا يقتلونه لولا «سَقَنْقُور» وزوجته، فرغم إصاباتهما دافعا عنه، سارا معه نحو بيت «النَّطَاسِيّ»، وكان جُرح «شُرشُمانة» ينزف.

****

وصل «خالد» مع «ميسرة» و«البراء» بعد انتهاء هذا الحدث المهيب، فرأوا المشّائين وهم يُحيطون بـ «سُليمان»، كان عددهم كبيرًا، كانوا

يحملون الحراب وأنصالها تضوي، أراد «خالد» أن ينقضّ عليهم، فأمسك «البراء» بذراعه، وقال له:

- يجيدون القتال بالحراب، مهما بلغت قوّتك قد تنشغل بالشّجار مع أحدهم فيرميك الآخر بحربته فتخترق جسدك في لحظة.

قال «ميسرة»:

- نعم، فالكثرة تغلب الشّجاعة، فلنتبعهم ونُراقبهم من بعيد.

- لو أرادوا قتله لقتلوه، أظنّهم يقودونه لقصر «عِشْرِقة».

- لا ريب أنّهم يُريدون ميراث «طَرْخُون».

تبعوهم نــحو القصر، وفي تلك اللحظات، كان هناك فيلق من جنود «عِشْرِقة» يقتحمون بيت «النَّطَاسِيّ» أمام الجميع، فقد ظلّت حلقة النّار الّتي ضربها «أنس» حول الدّار تضعف وتخفت حتّى انطفأت وحدها وتمكّنوا من الدّخول، وقف رهط من أهل الجزيرة أمام «النَّطَاسِيّ» وزوجته، وصاح أحدهم:

- لا تلمسوهما خذوا من شئتم إلّا «النَّطَاسِيّ» وزوجته.

وتعالت الصّيحات تُدافع عن «النَّطَاسِيّ» و«سَرْوَة»، فتركوهما على مضض، وتركوا العجوز زهدًا فيها، فقد كانت هرمة ضعيفة درداء، وكان الرّضيع في حجرها، وألقوا القبض على «أنس» و«فرح»، واقتادوهما نــحو قصر «عشْرِقة».

****

وصل «أَقْمَر» الجزيرة، وركض مع «هِلال» نــحو البستان، لم تتمكن «زهراء» من مجاراتهما في سرعتهما، أجفل «أَقْمَر»، فقد كان غلمان «العنادل» يركضون في البُستان، وكانت النّساء هادئات وكأنّ شيئًا لم يكُن، التفت نــحو «هلال» وسأله:

- أين الجنود؟

- لا أدري!

سأل النّساء فأخبرنه أنّ الجنود تركوهم عندما تأكّدوا من رحيل «هلال»، فأدرك أنّها خدعة، وأنّهم أبعدوه عن أحفاد «أبادول» ليستدرجوهم فُرادى، وصلت «زهراء»، وكانت متعبة، جلست على أرض البُستان تلتقط أنفاسها، فأقبلت النّساء عليها يقبّلن رأسها ويُرحّبن بها، فَطِنت هي الأُخرى لما حدث، فقالت لـ «أَقْمَر»:

- عُد يا بُنيّ فآل «أبادول» في خطر!

انصرف في عُجالة، وكان قلبه يهفو، تلفّت باحثًا عن «سُبُحات» بعينيه، فلاحظت خالته، فعادت تتعجله ليرحل لنجدة أحفاد «أبادول»، فمضى وقلبه يتدحرج على الطّريق خلفه، وظلّ يلوي عنقه كلّما خطا خطوتين باحثًا عنها، وسار بظهره وهو يبتعد، استدار فجأة فاصطدم بها، فرجف قلبه، وقفا أمام بعضهما وكأنّهما عُزلا عن العالم في فُقاعة شفّافة، بدت كالسّحاب الرّهو وهي تقف أمامه من فرط رقّتها، ارتعشت على شفتيه ابتسامة لطيفة، وتلعثم ، أمّا هي فكانت تسير كالطّائر الجريح، لا يزال الحزن على أبيها يُمزّق نياط قلبها، دمعت عيناها، ثُمّ طالعته بنظرة طفلة تبحث عن الأمان، كانت تشعر بالرّغبة في إلقاء رأسها على كتفه والبكاء، وفي نفس اللحظة كانت تشعر بالرّغبة في الفرار منه، كادت تهرب، قالت بتلعثم وقد كستها حُمرة الخجل:

- مرحبًا بعودتك يا «أَقْمَر».

- رحم الله أباك، ليتني كُنت..

قاطعته وهي تعقد على عبراتها حتّى لا تسيل أمامه قائلة:

- لن يغيب عن قلبي وعقلي ولساني.. لكنّ رضوض روحي لن تُشفى أبدًا!

اتخذ صوته نبرة مشوبة بالعاطفة وهو يسألها:

- هل أنتِ بخير؟

شعرت لوهلة بالضعف وكادت تفقد رُشدها وتنهار باكية بين يديه، لكنّها تماسكت، قالت والدّموع عالقة بأهدابها:

- لستُ بخير يا «أقمر»، لكنني أُعافر.

- أعدُك يا «سُبُحات» أنني سأعود، ولن أتركِكِ أبدًا.. أقصد لن أترككم أبدًا!

تلفّتت في خجل وقالت متجاهلة عبارته الأخيرة:

- انصرف الجنود بعد رحيل «هلال»، أشفقتُ عليه فقد كان خائفًا، أخبرني كيف هو السيّد «أنس»؟ وهل عثر على «فرح»؟

- نعم عثر عليها وعلى باقي أفراد عائلته، لكنّني أظنّهم في خطر، فقد خُدعت من قبل جنود الملك «قَلمّس» لأبتعد عنهم، وقد قرر السيّد «أنس» وباقي أفراد عائلته عدم التنازل عن مواريث «خَنْدَريس» الّتي يحملونها.

- كان أبي يثق به، وعلم أنّه سيفعل هذا.

- هل تحفظين شيئًا من سجلّات المعلّم النّبيل؟

- القليل منها فقط، فقد كان أبي يعمل على تحفيظها لنا.

- لقد أخبرتنا «فرح» عن محتواها، ستخبركم خالتي «زهراء» بما حدث، لا بدّ أن أرحل الآن، فالأمور في «سُقُطْرى» صارت مُعقّدة، ظهر «المشّاؤون» مرّة أُخرى هناك. والسيّد «أنس» وعائلته في خطر.

برزت «ريحانة» لـ «أقمر» و«سُبُحات» فجأة، قالت له متنمّرة:

- ألم أُخبرك أنّها خُدعة!

صاحت «سُبُحات» في فزع:

- من هذه الخضراء؟

قال «أقمر» بعصبيّة:

- إنّها من بنات «وَردَان».. هذه «ريحانة»

- من هنّ بنات «وَردَان»؟

- بنات الجنّ.

قالت «ريحانة» وهي تتأمّل «سُبُحات»:

- إنّها جميلة.. حقًا جميلة!

ثُمّ همست لها:

- دقّات قلبه تسارعت فور أن رأى عينيك! وكانت يداه ترتجفان، و..

قاطعها «أقمر» قائلًا:

- توقّفي عن الثّرثرة!

- أستطيع نقلك للجزيرة في الحال، دعني أحملك.

- لن أسمح للجنّ بلمسي أبدًا! سأعود كما أتيت، اغربي عن وجهي.

اختفت «ريحانة» فجأة فأجفلت «سُبُحات» وهي تراقب الغبار الأخضر الّذي خلّفته خلفها. قال «أقمر»:

- سأعود الآن، اعتني بنفسك.

- في أمان الله.

مضى «أقمر» في طريقه، وعادت للبُستان وقلبها يهفو إليه، تذكّرت لقاءهما عندما كانت تنتظر أباها على الشّاطئ ورأته هناك من طرف

خفيّ وكيف أجفل عندما اكتشف أنّها هناك، وكيف تخبّطا في خجل وحيرة ولم يتبادلا كلمة واحدة، لكنّهما افترقا وكأنّ حوارًا طويلًا قد دار بينهما. رآها «هِلال» تقترب فهرول نـــحوها وقال:

- الجنّ يملؤون طُرقات جزيرة «سُقُطْرى»، ويُحيطون ببيوت «العنادل» هناك، لكنّهم بالتّأكيد لن يتمكّنوا من دخولها.

- كم عدد تلك البُيوت؟

تلفّت حوله، ثُمّ قال وهو يُخفض صوته:

- كثيرة! لكن يبدو أنّهم يُخفُون الأمر خوفًا من «البواشق»، هكذا فهمت من حوار الخالة «زهراء» مع «أَقْمَر» عندما كُنّا على مَتن المركب ونــحن في طريقنا إلى هنا.

عادا للبُستان، فوجدا الخالة «زهراء» تروي لهم عن «أصحاب القلانيس الزّرقاء»، وما أخبرتهم به «فرح»، وكان «العنادل» يجلسون حولها في سكون. فوجئت «سُبُحات» بفتاة أُخرى لها كيان أثيريّ يُشبه كيان «ريحانة» لكنّه أحمر، نادتها «زهراء» وقالت لها:

- لا تقلقي يا «سُبُحات»، هذه «مرجانة»، من بنات «وَردَان».

جلست «سُبُحات» وهي تتأمّلها مع باقي أطفال العنادل في فضول، كانت «مرجانة» سعيدة بوجودها بينهنّ، وتصدر ضحكاتها الّتي تُشبه الزّقزقة، نثرت فوق رؤوسهم غبارًا ملوّنًا فأخذوا يُحرّكون كفوفهم في الهواء، واستمرّت «زهراء» في حديثها.

****

كان الطّقس شديد البرودة بالفيّوم، شقّ البرق صفحة السّماء، دوّى الرّعد في الأجواء، وبدأ المطر يهطل بغزارة، هبّت رياح شديدة وكان صوت صفيرها يخلع القلوب، فُتح باب البيت فجأة، وفُتحت بعده النّوافذ

كلّها تباعًا وكأنّها مأمورة أن تُفتح بالتّرتيب، أطاحت الرّياح بالكُتب الّتي كانت مصفوفة على الرّفوف، فتبعثرت أوراقها المهترئة في كلّ مكان، وطارت حولهم، كانوا يقفون وهم في حيرة، وكأنّهم على ظهر سفينة ضربها إعصار شديد، حاول «يُوسف» و«حمزة» إغلاق الباب، وكانا معًا لا يقويان على تحريكه، وكأنّ هناك قوًى خفيّةً تُعاندهم وتُثبّته، سار «أبادول» ببطء وهو يقاوم الرّياح الشديدة الّتي شعثت شعر رأسه ولحيته البيضاء، وصل بصعوبة نـحوهما، ومدّ يده للباب وهدر بصوت قويّ انتزعه من أعماق قلبه قائلًا «اللهم قُوّة!»

أمسك بمقبض الباب معهما، فلَان المقبض وتحرّك معهم وأغلقوه، وقف «حمزة» خلف الباب وهو يستند عليه بظهره وصاح قائلًا:

- هذا البيت غريب!

قال «أبادول» وهو يُشير إليهما ليُغلقا النّوافذ مع «كمال»:

- البيوت حيّة، ولهذا البيت عقلٌ ولكنّه ليس كعقولنا، وقلبٌ ولكنّه ليس كقلوبنا، وروح ليست كأرواحنا.. لكنّها روحٌ مُتعبة.

قال «يُوسف» وهو يرفع عينيه نـحو السّقف:

- وكأنّه يُعاني من صراع داخليّ، ويتألّم لاطلاعنا على خباياه، وكأنّه مريض عليل!

قال «حمزة» ساخرًا وهو ينظر لثيابه الّتي أغرقتها مياه السيول الّتي اقتحمت النّوافذ وبللته وهو يُغلق النّوافذ:

- ربّما يحتاج لقُبلة الحياة، أو لإنعاش قلبه الميّت.

رنا إليه «أبادول» قائلًا:

- لا تمزح يا «حمزة»، فهذا البيت بالفعل سقيم، ويحتاج لكلّ ما ذكرته. أنسيت أنّ جذع الشّجرة حنّ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم

عندما تركه واتخذ منبرًا وقد سُمع صوته فأتاه النّبي وواساه، وأنّ الحصى سبّح بين يديه!

- عليه الصّلاة والسّلام. لكن يا جدّي.. ما دورنا الآن؟
- نُعينه على النّكتة السّوداء الّتي نكتت قلبه، ونقوّيه.
- تتحدّث يا جدّي وكأننا نتحدث عن إنسان وعن نفسه الأمارة بالسّوء!
- هو هذا يا بنيّ.. هو هذا!

أخذ «حمزة» يتجوّل في البيت وقال بإصرار:

- لنــحدد أوّلًا أين عقله، وأين قلبه، وأين حتّى معدته!

اقتربوا جميعًا من المدفأة يلتمسون منها الدّفء فقد بلل المطر الأجواء، ران عليهم صمت طويل، عاد «حمزة» من جولته السّريعة بالبيت وقال:

- بدأ الماء يتسلل من بعض الشّقوق في سقف البيت، وكأن البيت يبكي! أو لعلّه كان يتوضّأ!

تعانقت نظراته مع نظرات «أبادول» لوهلة، لم يكن «حمزة» ساخرًا هذا المرّة، لكنّه أراد أن يلفت أنظارهم لشيء مهم على استحياء. وقف «أبادول» فجأة واستند على عصاه وابتسم لحفيده وسار نــحوه ومسح خدّه بكفّه الحانية وقال لهم:

- سنُصلّي!
- لنتوزّع في أركان هذا البيت، كلّ واحد منّا في غرفة ونُصلّي.
- ثُمّ نجتمع ونُصلّي معًا.

فَزِع كلّ من بالبيت للصلاة، كان لا بدّ من اللجوء لله وحده لتنكشف تلك الغمّة، فلا مناص منها إلّا بقدرته، وكانوا على يقين من هذا. ملأ

صوت «أبادول» وهو يُرتّل القرآن أركان البيت، وقفوا خلفه وقلوبهم المنكسرة تهمس بالدّعاء، هدأت الرّياح، وخفّ المطر لكنّه لم يتوقّف، أضاءت جنبات البيت بنور قناديل من نوع آخر لا يُشبه نور المصابيح المألوفة، لكنّه نور يُقذف في البيوت المطمئنّة، نور يمسح على القلوب والوجوه، ويملّس على الأوجاع، حطّت السّكينة رحالها على الأبواب، ودلفت مُستبشرة، وطافت بهم واحدًا تلو الآخر، فاطمأنّت قلوبهم بأنّ الله سيُنقذ أحبابهم كما يفعل في كلّ مرّة.

*****

وصل «أنس» و«فرح» لقصر الملكة «عِشْرِقة» قبل وصول «سُليمان»، كان جنود «عِشْرِقة» يعاملونهما بقسوة شديدة، كان «أنس» يُحاول الحفاظ على رباطة جأشه لكي تستمدّ ابنته منه الثّبات والهدوء، وكانت قد مرّت بما يكفي حتّى الآن، فجعلها الله أكثر جلدًا وصبرًا، لكنّه أبوها! فلم ترفع عينيها عن وجهه، كان يهزّ رأسه كلّما التفتت نـحوه ليُطمئنها، قادوهما لحديقة القصر وقيّدوهما على جذعي شجرتين من أشجار دم الأخوين المنتشرة بالحديقة، شدّدوا القيد حتّى صرخت «فرح» من الألم، فاعْتُصِرَ قلبُ أبيها الّذي كان عقله في أوج نشاطه، وكانت حواسّه مُشتعلة.

بكت «فرح»؛ لم يتبعها أحد من أهل الجزيرة ممن كانوا يقفون بباب دار «النَّطَاسِيّ» ليطلبوا عونها، تخلّوا عنها عندما ظهر سلطان الجُند والسّلاح، أقبلت «عِشْرِقة» وسارت أمامهما بخيلاء، وقفت أمام «فرح»، دُهشت «فرح» عندما رأت وجهها، وقالت وهي تحدق إلى الشّامة الّتي على وجهها:

- قتلت «طرجهارة» أُمّك في تلك الحديقة!

شهقت «عِشْرِقة» عندما سمعت منها تلك الكلمات وصرخت في وجهها:

- نعم أيّتها الحاذقة، لا ريب أنّك قرأتِ ذكرياتها قبل أن تفارق الحياة بين يديك.

- لا.. لم ألمسها وهي حيّة، لكنني رأيت هذا عندما لمست يد شاهدة من أهل «سُقُطْرى» رأت «طرجهارة» وهي ترتكب تلك الجريمة أمام عينيك، لكنّها مسحت عن جبينك ما حدث!

اغرورقت عينا «عِشْرِقة» بالدّموع، وتراجعت للخلف، تسللت عبرة من عبراتها فمسحتها بكبرياء، وعادت تخطو نــحو «فرح» وقبضت على شعرها وقالت وهي تكزّ على أسنانها:

- امنــحيني الميراث وإلّا سأقتلع قلبك وقلب أبيك بيديّ هاتين.

سألتها «فرح» وهي تكتم الأنين من الألم:

- هل عاودتك الذّكرى بعد أن محتها «طرجهارة» عن رأسك؟

ارتجفت شفتا «عِشْرِقة»، لم تتخيّل للحظة واحدة أن تقف هذا الموقف أمام فتاة يافعة تُحدّثها عن مقتل أُمّها، قالت وهي تضرب برأس «فرح» في جذع الشّجرة:

- بل اعترفتْ بجُرمها لعشيقها البائس.. أبي! وقد أخبرني بهذا وهو في مرض موته.

توجّعت «فرح» من ضرب «عِشْرِقة» لرأسها بجذع الشّجرة، وكان «أنس» يصيح على «عِشْرِقة» لتتوقّف، فبدأ الجنود يكيلون إليه الضربات في صدره وبطنه ليتوقّف عن الصّياح عليها، قالت «فرح» وهي تُحدّق إلى عينيها:

- أين ابنة «طرجهارة»؟

صفعتها «عِشْرِقة» على وجهها وقالت بنبرة آمرة:

- امنــحيني ميراث «طرجهارة» وإلّا ستفقدين أباك.

وأشارت بيدها فبدأ أحد جنودها بخنق «أنس»، فصرخت «فرح» قائلة:

- سأفعل.. اتركوه.. اتركوا أبي.

أشارت «عِشْرِقة» للجنديّ فتوقّف، كان وجه «أنس» مُحتقنًا، وقد سال الزّبد من فمه، شهق شهقة عميقة، وتسارعت أنفاسه، فأجهشت «فرح» بالبكاء، أخذت «عِشْرِقة» تنقرها في صدرها بسبّابتها وهي تتعجلها، فقالت «فرح»:

- حلّوا وثاقي، لا بدّ أن تجلسي أمامي، ونضع كفوفنا بالطّريقة الّتي فعلتها «طرجهارة» وهي تمنــحني الميراث.

ترددت «عِشْرِقة» في البداية، لكنّها أمرتهم بحلّ وثاقها، كان «أنس» في تلك اللحظات غارقًا في دوّامات أدارت رأسه، سمع أصوات «المشّائين»، وأحسّ باقترابهم، وتكاثفت الأجواء حوله، فقد حضر الجنّ بالمكان، وصار صدره ضيّقًا بحضورهم، أنفاس ابنته الخائفة كانت تطغى عليه، لكنّه مُقيّد، لا يملك أن يحميها، وهذا ما أوجعه، كاد ينشطر من الخوف عليها إلى نصفين، أوشك الجنود أن يحلّوا وثاق «فرح»، لكنّ أصوات «المشّائين» وهمهماتهم أربكتهم، فأسرعوا يصطفّون أمام القصر لحمايته، فالثّقة بين الفريقين كانت مُنعدمة، لمحتهم «عِشْرقة» وهم يُحيطون بـ «سُليمان»، فأسرعت تلوذ بقصرها وخرج لهم «جُلجُلان».

****

أقبل «المشّاؤون» في مجموعتين، أحاطت بـ «سُليمان» المجموعة الأولى، ثُمّ تلتها مجموعة أخرى، فأصبحت قُدُراته مُقيّدة، فهو فقط يستطيع التّأثير خلال نطاق مُحدد لا يتعدّاه، ولا يوجد أحد بالقرب منه ليُحرّكه، و«المشّاؤون» لا يتأثّرون، وقف في حيرة، كان يرى خاله «أنس»، و«فرح»، وهما مُقيّدان على جذعي شجرتين من أشجار «دم

الأخوين» بحديقة قصر «عِشْرِقة»، خاطبه «جُلجُلان» من خلف نطاق «المشّائين» قائلًا:

- امنــحني ميراث أبي، وإلّا سأقتلهما.

صاح «أنس» مُخاطبًا «سُليمان»:

- لا تفعل، ولن يقتلونا، فهم في حاجة لمواريث «خَنْدَريس» الّتي نــحملها.

شدّد الجنديّ الّذي كان يقف بجوار «فرح» القيد على معصميها فصرخت، وبدأ يصفعها، فالتفت «أنس» تجاهها وهو يتألّم، أرادوا أن يُكمموا فمه ويمنعوه من توجيه الحديث لهما، هدر «جُلجُلان» قائلًا:

- «سُليمان».. إمّا ميراث أبي، أو حياتهما!

كانت «فرح» تصرخ، فلم يتمالك «سُليمان» نفسه، صرخ بهم ليتوقّفوا عن تعذيبهما، وأخبر «جُلجُلان» أنّه سيمنــحه ميراث «طَرْخُون»، فاقترب «جُلجُلان» بخطوات وئيدة، تسارعت أنفاس «سُليمان» وهو يسمع صوت «فرح» وهي تتألّم عندما بدأوا بضرب رأسها بجذع الشّجرة، وصوت خاله «أنس» وهو يئنّ من الضّربات المتوالية الّتي يوجهها له أحد الجنود، وكان «أنس» يُحاول كتم صوته قدر استطاعته، خضع «سُليمان» لابتزاز «جُلجُلان» عندما رأى الدّماء تسيل من فم خاله، ألصق جبهته بجبهة «جُلجُلان» بعد أن ركع الأخير أمامه ليُقرّب رأسه من رأسه، بعد أن وصف له «سُليمان» كيف منــحه «طَرْخُون» الميراث، لمعت شرارة ضوء بين رأسيهما، شعر كلاهما بجمجمته وكأنّها من جليد، ومرّت لحظات ثقيلة، أدرك خلالها «سُليمان» أنّه نقل ميراث «طَرْخُون» لابنه «جُلجُلان»، فوقف أمامه مُستسلمًا وقال بخفوت:

- أطلق سراح خالي وابنته أرجوك.

قهقه «جُلجُلان» وفتح ذراعيه ونظر للسّماء، حصل أخيرًا على ميراث أبيه، الآن يستطيع فعل ما يحلو له بمن يحيطون به، حتّى أنّه يستطيع تحطيم هذا القصر، رشق «سُليمان» بنظرة ناريّة، وكان أقرب من يستطيع تجربة قواه عليه، رفعه في الهواء، وأداره حتّى شعر الغلام أنّه قد تلاشى من سرعة الدّوران، ثُمّ تركه مُعلّقًا في الهواء وكان «سُليمان» يبكي، برز زعيم «المشّائين» من بين صفوف جنوده فجأة وقال:

- لم نقتل الغلام كما طلبتم، وها قد حصلت على ميراث أبيك، فأين «عِشْرِقة» لتثبت لنا حقّنا في مُلك نصف جزيرة «سُقُطْرى»؟

قال «جُلجُلان» باستخفاف:

- ليس قبل أن تحصل هي على ميراث «طرجهارة»!
- ها هي الفتاة أسيرة لديكم.. فانتزعوه منها.
- دعني أذهب إليها لأتعجّلها.
- لن تخرج من وسط الحلقة حتّى توقّع «عِشْرقة» على ما يُثبت حقّنا.

أدرك «جُلجُلان» أنّه مُحاصر تماما كما فعلوا بـ «سُليمان»، هدر غاضبًا:

- أيّها المسخ المُخادع!
- صفني بما تشاء، نريد إثبات حقّنا أوّلًا.

كانت «فرح» تبكي، وتصرخ منادية على «خالد» وهي لا تعرف أين هو الآن، تذكّر زعيم «المشّائين» «خالدًا» والميراث الّذي يحمله عندما سمعها تُناديه، فأصدر أمرًا بتأجيل قتل «سُليمان» لعلّه يستخدمه في ابتزازه، وسار نحو «فرح» و«أنس» ليُهددهما بقتل «سُليمان» إن لم يمنحاه ميراثهما.

كان «أنس» حينها يسمع طنينًا مُستمرًّا ينخر رأسه، وكان ينظر تجاه «سُليمان» وهو مُعلّق في الهواء وقلبه مُعلّق معه، فرأى بريقًا

يضوي على البوق الّذي كان «سُليمان» يُعلّقه في رقبته، وكان في تلك اللحظة يتدلّى من عنقه وهو مفتوح الذّراعين ووجهه تجاه الأرض، مرّ الضّوء على الكلمات المنقوشة على البوق مضيئًا كلمة «صوت الرّيح»، رآها «أنس» لكنّه لم يفكّ شفراتها، فهو لم يُحسن قراءة خطّ المُسند بعد، لكنّه كان يعلم كما علموا جميعًا أنّها تعني صوت الرّيح، فصاح مناديًا عليه:

- «سُليمان».. صوت الرّيح!

انتبه «سُليمان»، ورأى الوميض، كان يستطيع تحريك أطرافه الأربعة على الرّغم من كونه مُعلّقًا في الهواء، فالتقم البوق في الحال ونفخ فيه نفخة استجمع فيها بقايا أنفاسه المُتعبة، كان يرتجّ من شدّة الخوف، حملت الرّياح صوته، بما يكتنفه من خوف، وبما يحتويه صدره من خلجات، بكلّ ذرّة هواء تلجلجت بين أضلاعه من هول ما مرّ به، فسمعها «الكومودو» في كهفه بأعلى الجبل، وصاح صيحة زلزلت الجزيرة، انتفض جذعه، وتحرّكت أضلاعه، ونبت من تحت جلده جناحان أسودان عظيمان، فخرج من الكهف، وبسطهما في الهواء وألقى بنفسه من فوق قمّة الجبل فحملته الرّياح، وارتقى لأعلى، وحلّق بين السّحاب بهما.

بدأ زعيم «المشّائين» يضغط على «فرح»، كان يسألها عن «خالد»، فقد تعملقت رغبته في الحوز على قواه، أرسلت «عِشْرِقة» جنودها ليحولوا بينه وبين «فرح»، ظلّ يُجادلهم ويُطالب بخروجها للقائه، كان هذا الوقت كافيًا ليظهر «الكومودو» الّذي أقبل يخفق بجناحيه المهيبين فوقهم، كان حجمه قد تضاعف مرّة ثالثة، فصار مجنّحًا قويًّا مهيبًا مُخيفًا، كان قد تعرّف على صوت «سُليمان»، وأقبل نحو صديقه الّذي حمله على صدره، حتّى أنّه حفظ نبرة صوته، ورائحة جسده، ودقّات قلبه، رأى «سُليمان» وهو مُعلّق في الهواء، ورأى «جُلجُلان» وهو يقف تحته ويدير يده

ويتلاعب به وكان ينوي إطاحة جسده على زعيم «المشّائين» الّذي ظنّ أنّه يحتجز «جُلجُلان» في نطاقٍ يحجب تأثيره عنه، وغفل عن قُدرته على التّحكم بـ «سُليمان» القريب منه داخل نطاقه، انتبه زعيم «المشّائين» لما يفعله فصاح بصوته الجهوري آمرًا أفراد عشيرته:

- اقتلوا الغلام.

وجّه «المشّاؤون» حرابهم نحو «سُليمان»، فأطلق «الكومودو» صيحة غاضبة رجّت القصر وأجواءه وأرضه رجًا، وفَتح فمه فأخرج نارًا التهمت حلقتي «المشّائين»، فركضوا في الاتجاهات الأربعة والنّار عالقة بثيابهم وأجسادهم، واحترق بعضهم بأكمله، وكان حريصًا ألّا تصل النّار لـ «سُليمان».

هرب «جُلجُلان» الّذي ترك «سُليمان» ليهوي على الأرض لداخل قصره واحتمى بجنوده، لكنّ «الكومودو» هبط بسرعة شديدة وأحنى عنقه والتقط «سُليمان» قبل أن يصطدم بالأرض، فتعلّق «سُليمان» بعُنقه، وانطلق يُحلّق به في سماء «سُقُطْرى».

بينما ألقى جنود «عِشْرِقة» القبض على زعيم «المشّائين» الّذي بات وحيدًا بينهم، ضَمِنت «عِشْرِقة» الآن ثبات مُلكها بأكمله، بقي أن تحصل على مواريث «خَنْدَريس»، لكنّها وجنودها كانوا في ذهول من ذلك المُجنــح الّذي ظهر فجأة فأفسد عليهم خططهم.

****

كان الجنّ يجوبون في الطّرقات، يُرهبون أهل الجزيرة، ويفزعونهم كبارًا وصغارًا، فقد أطلقهم زعيمهم «دردبيس» ليعيد إلى ذاكرتهم أجواء سيطرة أبيه عليهم، حتّى يردع من يُفكّر منهم في عصيان ملكه الّذي كان يُخطط لبسطه عليهم جميعًا. وصل «سَقَنْقُور» و«شُرْشُمانة» ومعهما

«جُندب» قرب دار «النَّطَاسِيّ»، الّذي كان بيتًا من بيوت «العنادل» المُحصّنة ضدّ دخول الجنّ لها، وكانوا في فزعٍ شديد، فـ «شُرْشُمانة» مُصابة في رأسها وتنزف، و«سَقَنْقُور» قد امتلأ جسده بالكدمات والطّعنات والخدوش إثر معركته مع زعيم «المشّائين»، أمّا «جُندب» فكان في هلع على أخيه وجدّته، مما جعل أمر اختراق أجسادهم سهلًا ويسيرًا على «البواشق»، فالخوف الشّديد والفزع الشّديد ثغرات لولوج الأجساد، ويسهل على الجنّ حينها الاستيلاء عليهم، فتناولوهم الثّلاثة، واحدًا تلو الآخر، فوقف «جُندب» ينادي على من بالبيت، فخرجوا له وحدث ما لم يكن في الحُسبان، غادروا الدّار، وساروا نحو القصر، لكنّهم لم يكونوا على ما يُرام!

أمّا «خالد» و«ميسرة» و«البراء» فقد ظهر أفراد عشيرة الجنّ أمامهم على أبواب القصر، تذكّر «خالد» كلمات جدّه «أبادول» وهم على أرض «كويكول» عندما قال له إنّ المُحارب عندما يعود لمملكة البلاغة للمرّة الثّانية لا يتمكّن أيّ كيان أثيري من احتلاله، وكأنّه اكتسب مناعة، قد تحمله وتنقله من مكان لآخر، أو تضربه وتؤلمه، لكنّها لن تستحوذ على جسده وعقله.. فاطمأنّ على حاله هو و«ميسرة»، فليست تلك أوّل زيارة لهما، أمّا «البراء» فسقط مغشيًّا عليه في الحال عندما رآهم أمامه.

ظهرت «سَندَروسة» وعادت لإغواء «ميسرة» قائلة:

- اقتله وستكون ملكًا من ملوك مملكة «الدّيجور» وسأكون حبيبتك للأبد.
- كاذبة، لقد رأيتك مع «جُلجُلان».
- لا تكن غبيًّا، وساعدني.
- اغربي عن وجهي أيّتها الخائنة!

- بل أنت الخائن لزوجتك أيّها الأرعن الأهوج.

احتقن وجه «ميسرة» وأخذ يلوّح بقبضته في الهواء، وكان ينتفض من شدّة الغضب، رفعته بإشارة من يدها وعلّقته في الهواء وضيّقت على عنقه لتخنقه فاسودّ وجهه، وارتخت أوصاله، برزت «بنات وَردَان» وحررنه من بين يديها، وطفن حولها في عراك شرس.

صرخت صرخة ارتجّت لها الأجواء، تملّصت من بينهنّ، وأوسعتهنّ جلدًا بكلاليب متوهّجة فتعالت صرخاتهنّ، كانت الأقوى والأشرس والأكثر بطشًا، تركتهن يتخبّطن في جزع، وأطاحت بـ«ميسرة» فاصطدم ظهره بسور القصر، وأقبلت على «خالد»، وطافت حوله صانعة دوّامة جعلت جسده يعلو سريعًا في الهواء، وبدأت تُضيّق عليه وتعصر صدره عصرًا فاحتقن وجهه وعندما رفعته بسرعة خاطفة لمسافة لتهوي به على الأرض، برزت «حبّوبة» ومددت جسدها الأثيريّ والتقطته قبل أن يسقط على الأرض، تعملقت أمام «سَندَروسة» وصاحت فخرج صوتها غليظًا كما لم تفعل من قبل:

- كيف تؤذين بناتي!

بدأت معركة لم يشهد «خالد» مثلها من قبل بين الجنّيتين، حتّى «بنات وَردَان» لم يتجرّأن على الاقتراب من أُمّهن وهي تواجه غريمتها، كان صوت صراخهما مهيبًا يخلع القلوب، وقد برزت كلتاهما في هيئة أُخرى بعيدة عن التّجمّل مما أصاب الشّابين «خالدًا» و«ميسرة» بالذّهول، شخصا تجاههما ولم ينطقا بكلمة واحدة، هبّ إعصار شديد تطايرت معه أغصان الأشجار ورشقت أوراقها الجّافّة وجهي الشّابين وكأنّها شفرات حادّة، كان هذا بسبب دوران «حبّوبة» حول «سَندَروسة»، ابتعدت بها عن المكان فجأة وخلّفت خلفها سديمًا أسود، وتساقط

الرّماد القاتم حولهم، اختفت «ريحانة» للحظات ثُمّ عادت وقالت وهي ترفع حاجبيها في ذهول:

- قتلتها أُمّي!

كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي ترى «بنات وَردَان» أُمّهن على تلك الهيئة، وفي تلك الحالة من الغضب، تلفّتن حولهنّ يبحثن عنها، وفور أن أطلّت أُمّهن وقد عادت لشكلها الّذي اعتدن عليه قالت وقد رققت صوتها:

- هل أنتنّ بخير يا حبيباتي؟

كان الجنّ من «البواشق» يُراقبون تلك المعركة بين الجنّيتين بأمرٍ من زعيمهم، الّذي كان يعلم أنّ هلاك «سَندَروسة» قد اقترب. كان الولوج للقصر مُستحيلًا، لكنّ أهل القصر وأولياءهم كانوا يُريدون «خالدًا»، فانصرف الجنّ ليسمحوا له بالدّخول وتبعه «ميسرة»، وظلّ «البراء» فاقدًا لوعيه على الأرض، أفاق «البراء» وكان مُتعبًا، فطلب منهما تركه والذّهاب، فقد كان الوقت يُداهمهما، فحملته «بنات وَردَان» لمكان آمن بجوار سور القصر على أن يعودوا جميعًا إليه لاحقًا.

كان «خالد» و«ميسرة» هناك عندما منـح «سُليمان» الميراث لــ «جُلجُلان»، وعندما وصل «الكومودو»، ورأياه وهو يحمل «سُليمان» ويبتعد به، أفزعهما هذا، فهما لا يعرفان شيئًا عن هذا الكائن العجيب، انطلقت «مرجانة» خلفه لتتبّعه، وبقيت شقيقتاها وأُمّها.

ركض «خالد» نحو أبيه وأخته، وكانا في أسوأ حالٍ رآهما عليها، بل لم يرَ والده هكذا من قبل! والدّماء تسيل من فمه، استطاع قطع حبال وثاقه بخنجر كان يحمله، فور أن برزت «حبّوبة» مع ابنتيها «ريحانة» و«كُركُمانة» كان هناك من يتربّص بهنّ وقام بسحبهنّ في الحال لبحيرة صغيرة كانت بين أشجار الحديقة وحبسهنّ في مائها وجمّد سطحه

فصار كلوح من زجاج، وظللن يصرخن ويضربنه بقوّة ولكن لم يسمعهن أحد، كان هذا «دردَبيس» الّذي كان يُراقب كلّ شيء من طرفٍ خفيّ.

صرخت «فرح» فأراد «خالد» أن يصل إليها فمنعه أحد الجنود فكسر «خالد» ذراعه بضربة واحدة، وأطاح بجسده فصاح «جُلجُلان»:

- ادّخر قوّتك! فقد تكون سببًا في قتلهما!

أمسك «جُلجُلان» برأس «فرح» وطرقها في جذع الشّجرة فصرخت وهي تبكي، ما عادت تدري كم عدد المرّات الّتي فعلوا هذا بها، كانت تشعر بتنميل في رأسها من الخلف، وصارت تبكي في نشيج مسموع وصدرها ينتفض، أشار «خالد» له ليتوقّف وقال وهو يثقبه بعينيه:

- ماذا تُريد؟

- ميراث «وجدان»!

قال «أنس» وهو يقترب منه:

- كيف أضمن سلامة ابني بعد أن يمنحه لك؟

- لا ضمان لك!

هزّ «أنس» رأسه وقال بثبات:

- سلامتهما أوّلًا!

ضحك «جُلجُلان» ساخرًا وقال بنَزَق:

- أنتم الأضعف، فلا مجال للتفاوض بيننا.

ثقبه «أنس» بنظراته وقال:

- سيطيعانني فأنا أبوهما، لن تحصل منهما على أيّ شيء، وسيمنحانني ميراثهما الآن.

- ستحمل ثلاثة مواريث جُملة واحدة!

- لن أتخلّى عن تلك المواريث الثّلاثة إلّا عندما تضمن لي خروجهما من الجزيرة في أمان، وليلحقا بالعنادل في جزيرة الملك «قَلَمّس».

قهقه «جُلجُلان» وقال:

- الملك «قَلَمّس» يُريد رأس ابنتك، ولن يقبل بدخولهما لأرضه.

- بل سيفعل، وما أظنّ خروج «أَقْمَر» من دار «النَّطَاسِيّ» إلّا بخدعة، فملوك اليمن لا ينقضون عهودهم!

أخذ «جُلجُلان» يقهقه، كان ثبات «أنس» يغيظه، أردف «أنس» وهو يثقبه بعينيه:

- كلّ واحدٍ منّا يحمل ميراثًا عظيمًا ومهمًّا لكما، ستخسران الكثير بفقده، ولن يكفيك ميراث «طَرْخُون» وحده! ستحتاج الميراث الّذي أحمله!

زفرت «عِشْرِقة» بحنق وقالت غاضبة:

- لا حاجة لنا بميراث «هائد»، فهذا يُهلك النّفس! وما أبقيتُك إلّا لتكون رهاني الرّابح، كادت ابنتك تمنــحني ميراثها لولا وصول «المشّائين».

التفتت تجاهها وسألتها:

- هل نحلّ وثاقك الآن؟

هزّت «فرح» رأسها موافقة، فبدأ الجنود يحلّون وثاقها، سقطت على الأرض فور أن تحررت منها، كادت تتهيّأ لمنــح الميراث لــ «عِشْرِقة»، صاح «أنس» فجأة:

- انتظري يا «فرح»!

هدر «جُلجُلان»:

- ماذا تُريد أيّها الأحمق؟
- سأمنــحك ميراثي أوّلًا.
- لا أُريده.
- كيف لا ترغب في حاسّة العنكبوت، حواسّي تضاعفت قواها خلال ساعات، أستطيع استنباط ما سيحدث من خلال المعطيات حولي، أرى على مسافات طويلة، وتحمل لي الرّياح الأصوات، كيف تتخلّى عن ميراث كهذا وأنت قائد وملك؟

اقتنع «جُلجُلان» بكلامه، وأمر جنوده بإبعاد «خالد»، وقال لــ «أنس»:

- هات ما عندك.

ومدّ يده له، استغلّ «خالد» انتباه الجنود لما سيفعله أبوه، وبدأ يهجم عليهم، كان يضرب ليكسر، ويقاتل بأقصى ما أوتي من قوّة، كذلك فعل «ميسرة» بيد أنّه لم يكن يجاريه في سرعته وقوّته، لكنّه استلّ سيفًا من أحد الجنود، وأخذ يُجندل به يمينًا ويسارًا، فقد كان ماهرًا في المبارزة بالسّيوف، ضرب «أنس» رأسه برأس «جُلجُلان»، لكنّ الأخير بدأ يُحرّك جنوده تجاههم، اتّجه إلى الأحجار حوله وصار يحملها ويُلقيها على «خالد» و«ميسرة» وهما يشتبكان بجنوده، أُصيب الكثير من جنوده بأحجاره نفسها، وكان هذا من حماقته، كان «خالد» يحمل الحجر ويلقيه ويرده عليه مرّة أخرى فهذا يسيرٌ عليه، كان جنوده عميان، حمقى، يُدافعون عنه وقد ألغوا عقولهم، وخمّروها وكأنّهم سَكِروا من خمرٍ عتيقة حتّى أذهبت عقولهم وجعلتهم بيادقَ يُحرّكها كيفما يشاء، لم يكن أبدًا في حاجة لميراث «طَرْخُون» ليتحكّم بهم، فها هم كالدّمى بين يديه، يفعلون له ما يشاء، ويقتلون له من يُريد، وينهبون له ما يطمع في الحصول عليه، جماجم صمّاء لا عقول حيّة فيها، وأجساد خاوية من الأرواح

الحرّة، تساقطوا ليس فقط بسبب حماقته وهو يُشاركهم المعركة، بل لأنّ معركتهم لم تكن بحماس يُضاهي حماس «خالد» الّذي كان يقاتل بقوّة عشرة من الرّجال، ولم تكن بحماس «ميسرة» شديد البأس والمُخلص لما يؤمن به، وكان يثق أيضًا في قُدراته الشّخصيّة بلا مواريث.

تلفّت «جُلجُلان» حوله باحثًا عمّا هو أكثر ضخامة ليُحرّكه، كانت الحديقة خالية من أحجار بحجم أكبر مما حمله وألقاه، التقط بعينيه الحراب الّتي كانت مع «المشّائين» فرفعها جملة واحدة، ووجهها نحو «خالد» و«ميسرة» و«أنس»، في تلك اللحظة كان «أَقْمَر» قد وصل، رفع يده فأغمض «أنس» و«خالد» و«ميسرة» أعينهم فهم يعرفون ما سيفعله، وضرب مظلّة ضوئيّة التقطت الحراب كلّها، وأسقطتها على الأرض، وبدأ يُطلق الأضواء الحارقة من يديه وأصاب الكثير من الجنود، ضرب نطاقًا بين «أنس» ومن معه وبين جنود «البواشق»، أُصيب «جُلجُلان» ومن معه بالعمى من الضّوء الّذي أطلقه «أَقْمَر» عليهم، وكان قد اقترب وسألهم عن «فرح»، كانت «عِشْرِقة» قد سحبتها وغاصت بها بين أشجار حديقتها لتفرّ بها.

***

ظهر نفر من الجنّ وتجلّوا لـ «أنس» فأقشعرّ عندما رآهم أمامه، فقد كانت وجوههم ظاهرة بكامل ملامحها، وليس كالمجاهيم الّذين التقى بهم من قبل، حلّقوا حوله، وتعالت وسوساتهم، فارتجّ رأسه، وازدحمت بالأصوات، فإن لم يتمكّنوا من اختراقه فهم يستطيعون دفعه لحافّة الجنون، كان يرزح تحت ضغط شديد، شعر بستار أسود يُرخى على عينيه لأيًا فلأيًا حتّى أظلمتا، ففتحهما وكان لا يرى أيّ شيء، غرق في عتمة سوداء، صاح في فزع:

- لقد عميت!

تذكّر للتوّ ما وصفته له «فرح» عن «هائد» عندما لمست يد «هِلال»، ففتح فمه وصرخ صرخة مدوّيّة قويّة خرجت كموجات دائريّة تموج في بعضها وتتسع وكلّما انتهت عادت لتنبثق من أوسطها موجة أخرى، ردعت من حوله من الجن فانقشعوا وتبددوا وتلاشوا من حوله، ثُمّ فقد وعيه وسقط على الأرض.

كان «خالد» يُقاتل بجوار «ميسرة» ومعهما «أَقْمَر» يُطلق ومضات الضّوء يمينًا ويسارًا ليصيب بها الجنود، التفت «خالد» نـحو أبيه فرآه قد فقد وعيه، فأسرع نحوه، ووضع أذنه على صدره ليتفقّد دقّات قلبه، فاطمأنّ أنّه لا يزال على قيد الحياة، أخذ يهزّه ليفيق، حتّى أنّ «أَقْمَر» قد اقترب وصعقه بومضة ضوء خفيفة لتُنبهه، فأفاق لتتوالى مصائب أُخرى، فقد وصل الزّوجين «شُرْشُمانة» و«سَقَنْقُور» ومعهما «جُندب»، كان الثّلاثة ملبوسين بالجنّ، وكانوا يقتادون أمامهم «النَّطَاسِيّ» وزوجته «سَرْوَة»، فقد استدرجوهما ونادوا عليهما فخرجا إليهم ظانّين أنّ «شُرْشُمانة» تحتاج للعون، حتّى «البراء» الّذي لقيهم على باب القصر كان أخوه «جُندب» يضع نصل الخنجر على رقبته، فقد التقى به على أبواب حديقة القصر وهدده بخنجره. وخلّفوا وراءهم الجدّة بالدّار، الّتي كانت على يقين أنّها تحت سقف بيت مُحصّن، وكانت تشعر بكثافة الجنّ في أجواء الجزيرة، فرفضت مغادرة الدّار، رأت عصا «أنس» فحملتها، وأطلّت برأسها من باب الدّار، كانت ترتجف من شدّة الخوف، فقررت أن تُجرّبها، وضربتها في الأرض فخرج منها خطّان من النّار وأحاطا بالبيت، أدخلت رأسها وأغلقت الباب، كانت «حبّوبة» من أشعلت لها النّار لتُشعرها بالأمان، فقد رأت كلّ شيء.

جلست الجدّة هناك وقد وقّع الماضي على روحها المُتعبة بعدد أنفاسها الّتي ترددت على تلك الجزيرة، تحمل في حضنها الرّضيع وقد

كان جبينه الوضّاء النديّ يحمل ألف قبلة من أحلام لم يبزغ فجرها بعد، وطفقت بالتّسبيح والدّعاء بأن يحفظ حفيديها ومن معهما، وكانت تنتظر عودة الجميع في قلق.

أدرك «أنس» عندما رأى «جُندب» يضع الخنجر على عنق أخيه «البراء»، أنّ الجنّ سيطروا عليهم، فسألهم وهو يعلم أنّ لسانهم لن ينطق بحالهم هم، بل بلسان جنّ «البواشق»:

- ماذا تُريدون؟

ظهر «دَرْدَبيس» أمامه فجأة ليُجيبه بنفسه، فاقشعرّ جلده عندما رآه بقبحه، وغلاظته، حال بينه وبينهم، ووقف أمامه مباشرة عينًا بعين، كان قد رأى ما فعله بنفر الجنّ الّذين كانوا حوله منذ دقائق بتلك الصّيحات الّتي أطلقها من فمه، فقال له:

- صيحاتك لن تصرف هؤلاء الثلاثة، فهم معقودون بأجساد أصدقائك، ولن تقتلني كما قتل صديقك «هائد» «عفريت البرق الأحمر» من قبل، وسأعود وأظلّ أنغّص عليك حياتك أنت وأبنائك.

ثُمّ التفت وقال:

- بإشارة منّي سيذبح أصدقاؤك الثّلاثة الآخرين في الحال، ثُمّ يذبحون أنفسهم، سيموت ستّة من أحبابك في لحظة! ولتعلم أنّ على رأس كلّ منهم ماردًا من مردة الجنّ ينتظر منّي الإشارة.

اقتربت «فرح» وكانت تركض في هلع، لصقت بذراع أخيها، وصاحت قائلة:

- «البواشق» قتلوا «عِشْرقة»، وقتلوا أيضًا زعيم «المشّائين». رشقها «دَردَبيس» بنظرة قاتمة، كان هو من دفع جنود الملكة لقتلهما أمام عينها، وأمرهم بتركها ليستمرّ في ضغطه على «أنس». زالت مظلّة الضّوء الّتي أطلقها «أَقْمَر» حول «جُلجُلان»، وقبل أن يطلق

مظلّة أخرى، كان «دَرْدَبيس» قد أمر «البواشق» ليغرزوا حرابهم في صدر «جُلجُلان» بمجرّد زوال الضّوء، فلفظ أنفاسه الأخيرة، فمات ومات معه ميراث «طَرْخُون».

أسرع «أَقْمَر» وصدّهم مرّة أُخرى وحجبهم بمظلّة جديدة، قال «أنس» بعد أن رأى ما فعله «دَرْدَبيس» وهو يُغمض عينيه حتى لا يعميه ضوء «أقمر»:

- قتلت أكبر أوليائك! وما دمت لم تقتلنا فأنت في حاجة إلينا، فأفصح عن مرادك.

ارتفع «دَرْدَبيس» في الهواء وتعملق كيانه، وقال بصوته الأجشّ:

- أُريدك أن تُنادي في أهل جزيرة «سُقُطْرى»، وتدعو أهلها لعبادتي وتقديسي، ستكونون من اليوم أبناء «دردبيس»، وسأضع كنوز الجزيرة كلّها بين أياديكم، حتّى ما دُفن في قاع المحيط.

صاح «أنس» غاضبًا:

- أيّها الحقير، كيف تظنّ أننا سنفعلها؟ هذا مُستحيل!

رفع «دَرْدَبيس» يده فحرّك الثّلاثة الملبوسين الخناجر على أعناق أسراهم الثّلاثة، أحدثوا شقًا رفيعا قصيرًا في عنق كلّ منهم، فبدأت الدّماء تسيل، كانت «مرجانة» قد عادت بعد أن ضلّت عن تتبع «الكومودو» وهو يحمل «سُليمان»، لم تُظهر نفسها، وحاولت منع الثّلاثة أو نزع الخناجر منهم فلم تستطع فقد كان «دردبيس» يُحكم سيطرته عليهم، تذبذبت عينا «أنس» وهو يراهم ينزفون، لكنّه استحضر كلمات «أبادول» كلّها، وترددت في أُذنيه جملته وهو يقضي على «حنطريرة»، فأغمض عينيه وقال بثبات:

- اقتلنا إن شئت، وليمت معنا ميراث أبيك الملعون، وسيظلّ الله الواحد الأحد يُعبد على تلك الجزيرة للأبد رغم أنفك.

- سألقي عليكم لعناتي وطلاسمي كما ألقاها أبي على أهل «سُقُطْرى» من قبل، وكما ألقاها على «أصحاب القلانيس الزّرقاء» وسلسلهم في قاع المُحيط.

رفع «أنس» رأسه قائلًا:

- «مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

سمعت «مرجانة» ما قاله «دردبيس» عن الجنّ المأسورين بقاع المُحيط، وسمعت ما ردده «أنس»، فارتج كيانها، فحملت صوته وصداه وطارت به نــحو المُحيط، مدّت كيانها فوق سطحه، ودفعت الصوت في الماء فتردد صوت «أنس» بنفس النّبرة وبنفس وتيرة أنفاسه، زُلزلت أرض الجزيرة، تساقط مطر خفيف يُشبه البُكاء، كان هتونًا ثُمّ زاد وفاض، ثُمّ أرعدت السّماء وشَقّ البرق صفحتها، وعلا موج المحيط، كان «أصحاب القلانيس الزّرقاء» قابعين بالقيود الّتي صُفّدوا بها في قاع المُحيط المُدْلَهِمّ وهي تتوهّج وتضيق عليهم حتّى ظنوا هلاكهم، وصلهم صوت «أنس» الّذي حملته «مرجانة» ليرجّ كل قطرة ماء حولهم رجًّا، وكلّ ذرّة من رمال استقرّت على القاع، ظلّ صوته يتردد وكأنّه يضع فمه على صفحة الماء، كان لدى «مرجانة» حَدسٌ يُنبئها بأنّ أباها هناك معهم، ملأ صوت «أنس» المحيط الرّحب ووصلهم هناك، سمعه زعيم «أصحاب القلانيس الزّرقاء» وحاول أن يُردد ما يسمعه، ثُمّ صاح عندما تحطّم قيده:

«سُبحانك، ما عبدناك حقّ عبادتك، فسلّطت علينا من لا يخافك بقُدرتك»

انتفض كلّ فرد من عشيرته فجأة، عندما سمعوا صوت زعيمهم يتردد في قاع المُحيط من جديد بعد أن حُجب ومُنع لسنوات، ثُمّ بدأت

أقفال القيود تزداد توهّجًا قبل أن يتحطّم كلّ منها تباعًا ليُحررهم واحدًا تلو الأُخر، ضجّ المحيط بالأصوات وفار ماؤه وكأنّه يغلي، وغطّى شواطئ «سُقُطْرى» حتّى ظنّوا أنّه سيُغرق الجزيرة، خرج «أصحاب القلانيس الزّرقاء» أمام أعين الجميع، بعد سنوات حُبسوا فيها، ومُنعوا عن حياتهم الّتي اعتادوا عليها، وشُلّت قواهم، كان أطفالهم فقط هم من يظهرون على الشّواطئ ليراهم أصحاب النّفوس النّقيّة هناك، كان المعلّم النبيل و«سَرْوة» من هؤلاء الأنقياء، رأى كلّ منهما أطفال «أصحاب القلانيس الزّرقاء» وتحدّثا إليهم، ولم يصدقهما أحد، برز زعيمهم «زُريق»[1] وكان على رأسه تاج عظيم من العقيق الأزرق، داهم «دَرْدَبيسَ» وضرب رأسه بصولجان من لُجينٍ برّاق طرفه من حجر عظيم من اللّازورد يضوي بزرقة ماء المُحيط فأحرقه، وتلاشى «دَرْدَبيس» على أثر الضّربة وتبعثر في الهواء وكأنّه مجرّد حفنة من الغبار، نشر «زُريق» أفراد عشيرته بالجزيرة ليُطهّروها من جنّ «البواشق»، فقد طال أسرهم وسجنهم في قاع المُحيط بعد أن ألقى عليهم «خَنْدَريس» طلاسمه في لحظة من لحظات فُرقتهم وضعفهم بعد أن خدعهم «عفريت البرق الأحمر» واستدرجهم وتسبب في هذا.

كانوا يحتاجون لقلبٍ كقلبِ «أنس»، ليُحطّم بيقينه قيودًا سلسلتهم فأزلّتهم، ويمحو طلاسمَ عُقِدَتْ على مساكنهم فحبستهم، وخنقت أرواحهم وأوجعتهم، قلبٍ يؤمن بأنّ الله هو القادر وحده على الإطاحة بهذا الضّلال، وهذا الأسر، وهذا الشّرك، وتلك الخُرافات الّتي أسكرت عقول النّاس وكأنّهم يتجرّعون خمرًا خَنْدريسًا حجبت عقولهم عن الفهم، وقلوبهم عن رؤية الحقّ بعين البصيرة. كانوا يحتاجون لمُحارب ثابت

(1) زُريق تصغير أزرق، وهو اسم طائرٍ صغيرٍ أَكْبَرَ مِنَ العُصْفورِ، لَهُ رِيشٌ أَسْمَرُ تَتَخَلَّلُهُ نِقاطٌ زَرْقاءُ.

على الحقّ، لديه يقين أنّ الله سيُنقذه وأهله كما أنقذهم دائمًا من كلّ كرب، وإدراك بأنّ القوّة ليست في البدن، وليست في الحواسّ، وليست في التّخاطر والتّحكّم في إرادة الآخرين، وليست في قراءة الذّكريات، وليست في نور القمر، ولا في أيّ ضوء مهما بلغت قوّته، وليست في زُرقة المُحيط الواسع، وليست في القصر والسّلطان والتّاج، ولا حتّى في علم العُلماء مهما بلغت عبقريّتهم، بل القوّة الحقّ في صدق اليقين بالله، وهذا ما كان يستقرّ في أعماق قلب «أنس»، وقلب أبيه، وقلب جدّه «أبادول»، ولهذا كان القرآن يخرج من سويداء قلبه قبل لسانه، فكشف الله الغُمّة عنه وعن كلّ من خلفه وحوله.

أرخى الثّلاثة الملبوسين أيديهم وحرروا أسراهم، فبكت «سَرْوة» واحتضنها زوجها ودموعه تجري، أمّا «جُنْدب» فقد أجهش بالبكاء عندما اكتشف أنّه أوشك على قتل أخيه «البراء»، فأخذ الأخير يمسح دموعه ويُخفف عنه، تناهى إلى مسامعهم صوت بديع لغلمان «العنادل»، الّذين أتوا في موكب نورانيّ لمساندتهم مع السّيدة «زهراء» وخلفهم أمهاتهم وبنات «العنادل»، وقد أقبلوا ويتقدّمهم «هلال» بوجهه الوضّاء وابتسامته المُشرقة وهو يُردد التّسابيح بصوته الشّجيّ، فتُردد الجَوْقةُ منهم خلفه كلمات مناجاة بديعة لله بترتيل عذبٍ جميل، تبعهم أهل «سُقُطْرى» ودموعهم تجري، الآن زالت الغشاوة عن أعينهم، وتنبّهت عقولهم، أدركوا ألا معبود بحقّ سوى الله الواحد الأحد، وأنّ كلَّ سُلطانٍ يزول إلّا سُلطانَه، انقشعت الغُمّة، وعادت «سُقُطْرى» لتكون جزيرة الهناء والسّعادة بحقّ، أرضٌ يُعبد عليها الله، ولا أحد سواه.

كان «وَردَان» أيضًا بين «أصحاب القلانيس الزّرقاء»، وقع في الأسر معهم، وها هو يتحرر معهم، كانت «مرجانة» تبحث عنه، وفور أن رأته

اندفعت نــحوه، كان لصوت بكائهما أثرٌ بليغ على من حولهم من أفراد عشيرة «أصحاب القلانيس الزّرقاء».

طاف «وَردَان» مع ابنته الجزيرة باحثًا عن زوجته وبنتيه، رأته «حبّوبة» من خلف لوح الماء المتجمّد وهو يُحلّق باحثًا عنهنّ فصرخت صرخة مدوّية فسمعها، عثر عليهنّ ورأى وجوههن تحت لوح الماء المتجمّد كالزجاج والّذي كان يُغطّي سطح البحيرة، فضربه ضربة شديدة حطّمته وتناثرت كرات الماء وتعلّقت في الهواء، اندفع يحتضن «حبّوبة» وابنتيه، وطفق يسألهنّ عن سبب حبسهن بتلك الطريقة، وكان لا يزال يتعرّف على الأحداث الّتي دارت قبل أن يتحرروا من أسرهم. توجهوا نحو «أنس»، وأشارت «حبّوبة» لــ «وَردَان» قائلة:

- جاء زوجي الحبيب ليُلقي عليك السّلام يا سيّد «أنس».

تبادل «أنس» معه التحيّة في إجلال، قال له «وَردَان» عندما سمع صوته:

- هو صوتك!

- ماذا؟

- الّذي تردد في قاع المُحيط قبل أن نتحرر الآن! كان صوتك!

قالت «مرجانة» على استحياء:

- عندما سمعت «دَردَبيس» وهو يتحدّث عمّا فعله أبوه «خَندريس» بــ «أصحاب القلانيس الزّرقاء» وكيف ألقى طلاسمه عليهم وسلسلهم، حملت صوتك يا سيّد «أنس» ودفعته ليتسرب لقاع المحيط ويجري فيه جريًا، فتلك الكلمات الّتي رددتها تُمجّد الله الواحد الأحد، ولا ريب أنّها قضت على تلك الطلاسم، فقد شعرت أنّك تنطقها من سويداء قلبك!

نظرت «حبّوبة» لابنتها بفخرٍ وقالت:

- تلك ابنتي.. ذكيّة مثلي!

ضحك «وَردَان» من قولها، لا تزال زوجته تعتزّ بنفسها، ولا يزال يغار عليها بشدّة. حملهن لقصره في جزيرة الضّباب بعيدًا عن ضجيج «سُقُطْرى».

بقي «سُليمان» غائبًا، فانطلقوا يبحثون عنه، وكانوا في هلع عليه، ضربت «شُرْشُمانة» صدرها عندما علمت أنّ «الكومودو» أطلق جناحيه وحمل «سُليمان» ورحل به، فأجفل «أنس» وسألها عن السبب فقالت:

- لم أتخيّل أنّه سيعيش ليتحوّل إلى مُجنـح، فقد سمعنا عن هذا قديمًا.

- ما سبب هلعك أنت و«سَقَنْقُور»؟

- لأن أجدادنا أخبرونا أنّه يُحبّ من يُحسن إليه بدرجة كبيرة.

- ما العيب في هذا؟

حدّقت إلى وجهه وقالت وهي ترتعش:

- يلتهمه من شدّة حبّه له!

انتفض «أنس»، وبدأت «فرح» تبكي، ووثب «خالد» في مكانه، وكان «ميسرة» يضرب رأسه بيديه يحاول استجماع عقله، قال «سَقَنْقُور» في حرج:

- لقد حذّرته من هذا.

قالت «شُرْشُمانة» وهي تلوم نفسها:

- أنا السّبب! فقد أشفقتُ عليه عندما طلب أن يقتني واحدا منه، وظننت أنّه سيُلقيه بعد قليل في ماء المحيط ونــحن بالمركب، لكنّه حمله وكان يلتصق بصدره حتّى أنّه نام وهو على صدره، نزعته عنه دون أن يشعر، وألقيته خارج الكهف، وظننته قد مات،

لكنّ العجوز فاجأتنا عندما زارتنا بأنّه لا يزال على قيد الحياة، فخرجت مع «سَقَنْقُور» لنقتله قبل أن يكبر أكثر، فقد كنّا نعلم أنّ «سُليمان» في خطر، لكننا لم نتمكّن وحدث ما حدث.

كاد «أنس» يفقد عقله، وكان في أوج غضبه وقلقه وانفعاله، قال «النَّطَاسِيّ»:

- ربّما «أبو بُريص» قد نال منه بعد أن تخلّى عن ميراث «طَرْخُون»!

التفت «أنس» نحو «زُريق» وطلب منه المساعدة، فأرسل «زُريق» ماردًا من مردة عشيرته ليأتيهم بالخبر، فتيقّن أنّ «أبا بُريص» لم ينل من «سُليمان»، فقضى المارد على هذا السّاحر في الحال وعاد في غضون دقائق، فوقفوا يتخبّطون في حيرة وخوف وهلع، وكلّ منهم يُفكّر في سبيل للوصول إليه، صاح «ميْسرة»:

- «فرح»...جَرّبي الخريطة!

أخرجت «فرح» خريطتها، وكان هناك دوّامة من الضّباب الأبيض تدور فوق جزيرة صغيرة مرسومة على رقعة الخريطة، تناول «خالد» الخريطة منها وقال:

- جزيرة الضّباب! لا بدّ أن نذهب إلى هناك حالًا.

أطلّت «مرجانة» فجأة بكيانها الأثيريّ الأحمر، وقالت:

- «سُليمان» هُناك في جزيرتنا ومعه «الكومودو»، وجدناه عندما وصلنا، وكُنت قد فقدت أثره في المرّة الأولى وعدت إليكم لكي...

قاطعتها «شُرشُمانة» وهي تبكي:

- «الكومودو» سيلتهمه.

- كيف هذا!

التقط «خالد» حربة من حراب «المشّائين» وقال:

- لا وقت للشّرح، احمليني إلى هناك في الحال.

- سأُجرّب، ولكن لتعلم أنّني لن أتمكّن من اختراق الضّباب ما دمت معي، فهذا ما حدث من قبل مع أيّ شيء حاولنا حمله إلى هناك في الهواء، لم أتمكّن من تمرير شيء سوى مركب «وجدان» و«رهف» عندما دفعته في الماء.

- فلنُجرّب.

جرّبت «مرجانة» أن تنقله، فُحُجبت عن ولوج نطاق جزيرة «الضّباب» وعادت به، وقفت معه أمام الحضور بعد لحظات وهي تقول:

- لم أتمكّن! سأذهب لإخبار أبي لعلّه يُساعدنا.

قال «زُريق» بجديّة شديدة:

- ألم تقولي منذ قليل إنّ «وجدان» و«رهف» وصلا عن طريق الماء؟

- بلى.

- أستطيع نقلهم بطريقة أسرع عن طريق الغوص في قلب المحيط، فأنا وعشيرتي نرى الجزر كلّها من تحت الماء، حتّى جزيرة «الضّباب».

صاح «خالد» يتعجّله:

- هيّا بسرعة.. احملني إلى هناك.

قال «أنس»:

- احملونا جميعًا، فقد أتينا معًا، ولن نفترق بعد الآن.

سبقتهم «مرجانة» إلى هناك، التقط كلّ منهم حربة من حراب «المشّائين»، وساروا نـحو الشّاطئ، اصطفّ أصحاب القلانيس الزّرقاء أمام البحر، والتحموا به فجأة، فصار الماء يموج ويتحرّك، ثُمّ أحاط بـ

«أنس» و«خالد» و«ميسرة» و«فرح»، وكأنّهم حبسوهم في بلّورة شفّافة من زُجاج، وتدحرجت بهم وغاصت في قلب المُحيط، فرأوا زُرقته، ثُمّ سواده المُدلهمّ، ثُمّ عاد ضوء الشّمس الشّحيح فجأة، فأدركوا أنّهم وصلوا إلى هناك، حيث الضّباب يكتنف كلّ شيء.

وقفت بنات «وَردان» مع أمّهن، والضّباب يتخلل كياناتهنّ في مشهد مهيب.

كان «سُليمان» يجلس أمام بيت وجدان بجزيرة الضّباب، و«الكومودو» بجواره يمدّ عنقه ليستند «سُليمان» عليها، أخذوا ينادونه، فسمعهم فأسرع نحوهم، فأدرك «الكومودو» أنّه سيرحل عنه، فظلّ يقترب منه وهو يُصدر حشرجة مخيفة، سال لعابه بغزارة، وبدأ ينوح نواحًا يُشبه صوت صيحات الحيتان، ظنّه «سُليمان» حزينًا فعاد ليمسح على رأسه، كاد يلتهمه لولا أنّ «ميسرة» ركض بأقصى ما أوتي من سُرعة، ووقف أمام «الكومودو» وسدد الرّمح تجاهه فرشقه في عنقه، ثُمّ ركض مبتعدًا عنه يُحاول أن يدور حوله، وكان «سُليمان» يصيح:

- لماذا فعلت هذا؟ إنّه صديقي! لقد أنقذني!

أخذت «مرجانة» تُلهي «الكومودو»، وحاولت الفتيات الثلاث حمله معًا ليُطحن به في قلب المُحيط ويُغرقنه، لكنّهن فشلن، فـ «الكومودو» له قوّة جبّارة، نفح تجاههن نارًا شتتت كياناتهنّ الأثيريّة حتّى ظنّت أُمّهن أنّهن هلكن فصرخت في فزع، لكنّهن انبثقن من حولها في أتون لحظات وثيابهنّ تُدخّن، كاد «الكومودو» يفتك بهنّ، لولا أنّ «كُركُمانة» دثّرت نفسها وشقيقتيها بذيل ردائها الأصفر.

كان «خالد» يتابع حركة «الكومودو»، اعتلى تلّة قريبة، وتحيّن اللحظة المناسبة وقفز فوق ظهره، وقبل أن يبسط «الكومودو» جناحيه ليطير بهما كان قد غرز الرّمح في ظهره ليخترقه ويثقب قلبه، فسقط

بعد أن حلّق لمسافة وجيزة، تدفّقت الدّماء من جرحه بغزارة، فأخذ «سُليمان» يمسح على رأسه ويبكي بحرقة، ونظر إلى «خالد»، صديقه الّذي يُحبه ويقتدي به وكان يتبعه كظلّه طوال الوقت في بيت «أبادول» وقال له:

- أكرهك بشدّة.. أكرهك للأبد..
- كان سيلتهمك!
- لقد قتلت صديقي! كُنت أُحبّه!

أخذ يبكي بحُرقة حتّى فقد وعيه، مرّت دقائق ثقيلة على قلوبهم جميعًا، أقبل «أصحاب القلانيس الزّرقاء» ليعيدوهم لـ «سُقُطْرى»، أفاق «سُليمان» وهم في طريقهم، ونظر للماء حولهم ففزع مما رآه، فقد كانت الحيتان تُحيط بهم من كلّ حدب وصوب، وفقد وعيه مرّة أُخرى، عندما دخلوا دار «النَّطَاسِيّ»، مسح «النَّطَاسِيّ» أنفه وجبينه بزيت حاد الرّائحة فأفاق وجلس محزونًا.

كان «النَّطَاسِيّ» قد انتهى من تقطيب جروح «سَرْوة» و«البراء»، واستعان بـ«ميسرة» الّذي أحبّ أن يُجرّب تقطيب جرح عنق «النَّطَاسِيّ» بنفسه، لم لا؟ فالحياة تجارب!

طقطقت عُلبة «خالد» ففتحها ليقرأ ما أرسل إليه:

«أن تُحبّ أحدًا حتّى يبلغ بك الحبّ أن تلتهمه! أن تتعملق فيك رغبة التّملّك فتتحوّل إلى وحشٍ يُطارد فريسته، ويستعذب إيلامها، أن تلتقمه خشية أن يكون لغيرك فتُخفيه، وتضيق عليه حتّى يختنق وتُحبس أنفاسه، فيتغيّر! ولا يكون حاله كما كان قبل أن يلقاك! فتبهت صورته، ويذبل، ولا يكون له حضور، أو بصمات، أو رغبات، أن يكون أسيرًا بلا قيد، فتحرمه من كلّ شيء، وتزعم أنّ هذا لأنّك تُحبّه وتعشقه بجنون،

حينها تكون قد التهمته، وقد قتلته وهو لا يزال على قيد الحياة بجوفك المعتم، فيموت ويموت الحبّ معه!»

اقتربت «فرح» من «سُليمان» فقد كانت تعلم كيف يُحبّ «الكومودو»، وتذكّرت حينما ترك يده لها لترى ما يحدث له وهو يحمله ويحتضنه، جلست أمامه على الأرض، ونظرت في عينيه وقالت له:

- هل تذكر ما حدث على جزيرة الضّباب، عندما وصلنا هناك، وكيف قتل «خالد» «الكومودو» وحين بكيت بحرقة؟

- لن أنسى أبدًا ولا يزال صدري يؤلمني.

وضعت سبّابتها والوسطى على جبينه، وانتظرت هنيهة، ثُمّ أزاحتهما جهة اليمين، وعادت تنظر في عينيه، كان هادئًا، ساكنًا، وكانت عيناه تائهتين للحظة، وثب في مكانه وكأنّه نشط من عَقال! وركض نحو «خالد» الّذي يُحبّه وكان دائمًا يتبعه كظلّه طوال العام الماضي وقال له:

- لو كُنت رأيت كيف حملني «الكومودو» وأحرق «المشّائين» ليُنقذني!

ثُمّ أطرق للحظات وسأله:

- لا أدري أين اختفى «الكومودو»؟ كنّا معًا على جزيرة يكتنفها الضّباب من كلّ صوب، ثُمّ...لا أذكر!

اقترب «أنس» وكان قد رأى ما فعلته ابنته وقال وهو يمسح على رأسه:

- دلّنا «أصحاب القلانيس الزّرقاء» على مكانك، كُنت فاقدًا لوعيك هناك، وعُدنا معًا، ألا تتذكّر؟

- لا أذكر.. لكن أين «الكومودو»؟

- لا تسأل، فنحن في مملكة البلاغة!

ابتسم «أنس» لابنته، كان فخورًا بها، أخذ يتأمّلها طويلًا حتّى أنّ «خالدًا» اقترب وفرقع بأصابعه أمام عينيه وقال له:

- ما بك يا أبي؟

- «فرح»!

- ما بها؟

- نضجت كثيرًا!

- لقد مرّت بالكثير يا أبي.

- وجميعنا يا بنيّ، لقد مررنا بالكثير.

أقبلت «بنات وَردَان» يُثرثرن مع «أنس»، فأغمض عينيه وتسلل من بينهنّ، فتوجّهن لمشاكسة «أقمر» و«سُبُحات»، فقد كانا بالدّار مع السيّدة «زهراء». كان «سُليمان» في تلك اللحظة يتبع «النَّطَاسِيّ»، ويسأله عمّا يفعله، صار لديه شغفٌ بكونه عالمًا وطبيبًا، وكأنّه قد اكتشف هذا للتوّ، تاهت نظرة من نظراته في وجهه وقال له:

- عندما أكبر سأكون طبيبًا مثلك بإذن الله.

انشغل «ميسرة» بتجربة عصا «أنس»، فقد أخبرتهم الجدّة أنّها استطاعت إشعال النّار بها لحماية الدّار، وأثار هذا غيرته، فهو لم يُفلح عندما جرّبها من قبل! فعل كلّ شيء بالعصا، قلبها وأدارها وطرقها والجميع يراقبونه ويضحكون، فجأة! أَشعَل النّار دون قصد في غطاء المائدة القماشيّ عندما طرقها بالعصا، فأسرع «أنس» وسكب عليه الماء في الحال، وقبض بيديه على القماش المبتلّ بالماء، ثُمّ حدّج «ميسرة» بنظرات يلومه فيها، فأسرع «ميسرة» يقول له وهو يرفع كفّه مُعتذرًا:

- سأُفكّر قبل أن أُجرّب في المرّة القادمة يا سيّد «أنس»!

ابتسمت «حبّوبة»، فقد كانت هي من فعلتها للمرّة الثّانية لتُسعد «ميسرة»، لكنّها أفسدت الأمر قليلًا هذه المرّة.

أخذ «النَّطَاسِيّ» يُضاحكهم ليُخفف من حرج «ميسرة»، وحمل الرّضيع وهو سعيد.

احتفل أهل «سُقُطْرى» بهم، وسهروا أمام الدّار طوال اللّيل، كان «العنادل» يُعَوِّلون عليهم أن يكونوا لهم عِزوة وسندًا، وما بقي من «البواشق» من الإنس ينتظرون ليروا؛ هل يُطلقون ألسنتهم؟ أم يخرسونها ويرضخون للحقيقة؟ وهذا ما حدث، فقد ظهر الحقّ أخيرًا. أراد أهل الجزيرة أن يكون «النَّطَاسِيّ ملكًا لـ «سُقُطْرى»، لكنّه قال ببساطة:

- لن أستطيع أن أكون ملكا كما تريدون!

كان يعنيها بحقّ، فهو لم يطمع في الملك قط. طفقوا يثنون عليه وتعالت أصواتهم حوله، فهو على الرّغم من علمه ومكانته كان شديد التواضع، وكلّ سلوك يسلكه يشير إلى أنّه رجلٌ شريف الأرومة بحق، كما أنّه قويّ الظّهر(1)، طاهر الثّوب(2)، حسن القميص(3)، وما رأوا منه إلّا الخير، وهو أهل لهذا الملك، فرجوه بألّا يردّهم خائبين.

تخبّط النَّطَاسِيّ في حيرة، فهو يكره الإطراء، طأطأ رأسه في خجل عندما بدأ كلّ منهم يُذكّره بلحظة عونه له، وكيف أغاثه. دفعوه بإلحاحهم لقبول هذا الأمر لفترة وجيزة. قبل على مضض وأخبرهم أنّه منصب مؤقت حتّى يختاروا ملكًا لهم، فهو يفضّل أن يُكمل أبحاثه

(1) قويّ الظّهر: أي كثُر مناصروه ومحبّوه.

(2) طاهر الثّوب: أي منزّه عن ظاهر السّيئات.

(3) حسن القميص: أي بريء من العيوب وسوء الخلق، وكلّها من ألفاظ الكناية عند العرب.

ودراساته، فقرروا إسناد ترشيح الملك الجديد له، فهم يثقون باختياره، فاقترح عليهم أن يكون «أَقْمَر» ملكًا لهم، وكانوا يعرفون أبويه، فتعالت الصّيحات تأييدًا لاختيار «النَّطَاسِيّ»، لكنّهم اشترطوا عليه أن يُزوّجه قبل أن تُقام مراسم تتويجه، رنا «النَّطَاسِيّ» لـ «أقمر» وأومأ له برأسه، فهرول «أَقْمَر» تجاه خالته «زهراء»، الّتي دنت معه من أمّ «سُبُحات»، فوقف أمامها راجيًا أن توافق، وطلب الزّواج من «سُبُحات» الّتي اختبأت خلف ظهر أمّها وهي تتخبّط في حياء، فسالت دموع أُمّها وهي تهزّ رأسها موافقة ومتمتمة بالدّعاء لهما، فأعلنت «زهراء» أنّ زفافه على ابنة الشيّخ «هائد» سيكون قريبًا، فعلا الهُتاف، طلب «النَّطَاسِيّ» من أهل «سُقُطْرى» فتح ديارهم واستضافة «العنادل» فيها حتّى يقوموا ببناء بيوت جديدة لهم.

في آخر الليل، خلدوا جميعًا للنّوم، وكانت ليلة لطيفة على تلك الدّار المباركة، والعامرة بالحبّ.

*****

كان ضوء الفجر حلوًا وعامرًا بالضّياء، استيقظ «خالد» بعد ساعة من نومه، فقد أصابه الأرق، كان الطّيف الّذي يُراسله قد توقف عن الكتابة، وكان يشعر بالفضول لمعرفة ما وراء تلك الرّسائل، كما كان يشعر بانجذاب لتلك الفتاة الّتي ظهرت في المرآة، كانت صورتها عالقة بذهنه، وكأنّه مسحور، فتح العُلبة فوجد فيها عودًا من الرّيحان! أمسكه وقرّبه من أنفه، تضوّع بعطره، أغلق العلبة فأصدرت طقطقه، ففتحها ووجد ورقة البرديّ هناك، وكان فيها:

- لم أرغب يومًا أن أكون قويةً بهذا الشّكل، أكره أن ينظر إليّ الآخرون بعين الإعجاب، وأنا أعلم منّهم بحالي، أُريد أن أتخلّص

من هذا التميّز الّذي يُثقل كاهلي، لكنني لا أستطيع، أُريد أن أعود كما كُنت، لكنني لا أقدر.

همس «خالد» بعد أن قرأ الرّسالة الّتي عبّرت عن حاله فهو يودّ التخلّص من تميّزه بهذا الميراث أيضًا:

- وكأنني أقف أمام مرآة تعكس نفسي! أو ربّما نــحن في عالمين متضادّين! تُرى من أنتِ؟ وأين أنتِ الآن؟

توقّفت الرّسائل، وانقطعت الكلمات، وعلق في فضوله.

أطلّت «بنات وَردَان» حوله فجأة فأجفل وقال:

- لماذا لا تُحدثن صوتًا قبل ظهوركن هكذا فجأة مثل فرقع لوز!

ضحكن مُزقزقاتٍ ثُمّ قالت «مرجانة»:

- هل ظهرت الفتاة مرّة أُخرى؟

كان قد أخبرهن عن العُلبة والمرآة وما حدث، ولم يجد لديهن إجابات شافية، قال يائسًا:

- لا!

قالت «مرجانة»:

- كنت تظننا «الحيزبونات الثّلاث» أليس كذلك؟

- بلى، ظننت هذا في البداية، لكنني تيقّنت أنّكن لا تعرفن شيئًا عن عالمنا، وتلك الفتاة من هناك.

- لقد بحثتُ عنها في كلّ مكان.

- أنت لا تعرفين شكلها ولا اسمها أصلًا.

- بل أعرف شكلها وملامحها، وهي جميلة.. جميلة للغاية!

فغر «خالد» فاه وسألها:

- كيف تعرفين شكلها؟

- بصراحة..

- ماذا؟

- بعدما التقينا بـ«فرح» أوّل مرّة، وبعد أن أخبرتنا أُمّي عنك وعن ابن «وجدان» الرّضيع، أحببت الاطمئنان عليه، فانتظرت حتّى نامت أُمّي وشقيقتاي، وذهبت خلسة إلى دار «النَّطَاسِيّ»، كنت أستطيع الولوج لأنني من «العنادل» منذ وقت طويل وكُنت أُخفي الأمر عن أمّي، رأيتك وأنت تتفحّص المرآة، ورأيتُ وجه الفتاة، لكنني لم أتمكّن من قراءة الرّسائل معك فأنت كُنت تقرأها في صمت ولا أعرف تلك الحروف، ولاحظت فزعك عندما سقطت العُلبة وتحطّمت المرآة منك، فقمت بإصلاحها لك!

- يا إلهي! كُنت تتجسسين عليّ!

طأطأت رأسها في خجل وتوهّجت خجلًا وقالت:

- آسفة!

ثُمّ أضافت لتُخفف عنه:

- حاولت كثيرًا البحث عن سرّ تلك العُلبة مع شقيقتي، لكننا لم نتمكّن من حلّ تلك الأُحجية الغريبة، وددت أن أُساعدك حقًا.

- لا عليك يا «مرجانة».

تلفتت «بنات وَردَان» وكُن يُشفقن عليه، فتح العُلبة وطالع وجهه في المرآة، فأقبلت «بنات» وَردَان ينظرن من خلفه، أوشكن على بدء الثّرثرة، فقال لهنّ بلطف:

- أرغب أن أكون وحيدًا الآن.. أرجوكن.

انصرفن عنه، وبقي وحيدًا كما يرغب.

فتح «خالد» باب الدّار ووقف أمام بابه، وطفق يُراقب السّماء، أقبل «ميسرة» وهو يمسح وجهه بيديه ليزيل آثار النّوم وانضمّ له، فقال «خالد»:

- لم تظهر الصّقور حتّى الآن.

- نعم، وهذا غريب!

اقترب «أنس» وكان يراقبهما وهما يتحاوران أمام الدّار، قال موجهًا كلامه لـ «ميسرة»:

- البيت الّذي التقمنا كان يسمعك يا «ميسرة»، عندما قُلت إنّه لم يزر مملكة البلاغة في إطار المُحاربين من الأطفال سوى «فرح» و«سليمان»، ولم تنتقل عائلة بأكملها إلى هناك إلّا عائلتنا، ولم ينتقل بيت بأكمله لمملكة البلاغة إلّا بيتنا، وأننا تصدّرنا الأحداث الفريدة الّتي لم تدُر على أرض المملكة من قبل، وأنّ هُناك رابطًا خفيًّا بيننا وبين مملكة البلاغة، لهذا لم يسمح لنا بالخروج والتقمك معنا، كُنت مُحاربًا بارعًا، ومُستكشفًا حاذقًا، وأظنّك ترقيت لمرتبة أعلى بعد وصولك لـ «الجذمور»، لقد أحسنت مُساعدتنا، كنت داعمًا لي في أشدّ لحظاتي ضعفًا، وسأظلّ مدينًا لك للأبد فقد أنقذت ابنتي من الموت، كنت بجوار «خالد» في معاركه، وعلى الرّغم من علمك بقوّته الخارقة كُنت حريصًا ألّا يُصاب بالأذى، كما أنّك أنقذت «سُليمان» قبل أن يلتهمه «الكومودو» وهيّأت الفرصة لـ «خالد» ليقتنصه، كُنت رائعًا يا بنيّ.

انعقد لسان «ميسرة»، تمنّى حينها أن لو كان ابنًا من أبنائه، التفت «أنس» نحوه عندما وجده صامتًا وعانقه وربّت على ظهره، وأضاف وهو يتأمّل صفحة السّماء:

- عليك أن تتقبّلني في حياتك من اليوم، فأنا والدك!

أردف «خالد»:

- وأنا أخوك!

دمعت عينا «ميسرة»، وكان «خالد» أيضًا يحمل الكثير من الامتنان لـ «ميسرة».

أضاف «أنس» وهو يقترب منه:

- أرأيت كيف يُعامل «النَّطَاسِيّ» زوجته؟ وكيف يُراعي اللياقة في تعامله معها، وكيف يلجأ أحيانًا لبعض الخداع المقدّس الّذي تُحتّمه الحياة ليحتويها.

هزّ «ميسرة» رأسه بالإيجاب، كان بالفعل قد لاحظ، وشعر بالتقصير نحو زوجته، ربّت «أنس» على كتفه قائلًا:

- عندما تعود، كُن هكذا لزوجتك.

ثُمّ قال يتعجّلهما:

- لدينا عمل كثير اليوم، سنخرج الآن إلى مدرسة الحكمة، فاستعدا.

انزعج «خالد» فقد أراد العودة للنوم وسأله:

- الآن؟ فجرًا؟

- نعم.

خرجوا في موكب مهيب وكانت «فرح» بينهم، وصلوا لمدرسة الحكمة وكانت على مقربة من دار «النَّطَاسِيّ»، دلف «أنس» وبجواره ابنته، أجلسها في مكان المعلّم «عُرقوب» الّذي عَلِم أنّه كان يجلس فيه لينشر أكاذيبه، ويُشوّه تاريخ «سُقُطْرى»، ويطمس الحقيقة، وقال لها:

- الآن يا «فرح».

أقبل طلّاب المُعلّم النبيل من الشّيوخ وكبار السنّ من أرجاء «سُقُطْرى» وباقي الجزر، فقد انتشر شباب «سُقُطْرى» وبلّغوهم بما حدث، وضربوا لهم موعدًا ليجتمعوا في الحال، كانوا يجلسون أمام «فرح» ويُسلّمونها كفوفهم، وكانت تقرأ ما علق بذاكرتهم من سجلّات المُعلّم النّبيل، حتّى أنّها أمسكت كفّ أبيها لترى السّجلات الثّلاث الّتي رآها بعينيه على الأحجار المُضيئة قبل أن يُحطّمها تلاميذ «عُرقوب»، كانت تُرددها بصوت مسموع، وكان هناك رهطٌ من شباب «سُقُطرى» يجلسون أمامها ويدوّنون ما تخبرهم به في أوراق البرديّ بحبر شجرة «دم الأخوين» الأحمر، وبالخطّ المُسند الحميريّ، كان «البراء» و«جُندب» و«هِلال» وأخوه بينهم، وكانوا سُعداء بما يفعلونه، قضت النّهار بطوله حتى ظهر على وجهها الإرهاق الشّديد، وصار صوتها أكثر بطئًا، كان لا بدّ من هذا، فلا يكفي ما رواه «أصحاب القلانيس الزّرقاء» عن سبأ فقط، بل هناك تاريخ خاصّ بـ «سُقُطْرى».

****

مرّ يومان، وكان هذا هو اليوم الثّالث، بددت أشعة الشّمس الضّباب، وأزاحت النّدى في زبد رقيق أبيض شفّاف. كانت «سُبُحات» في دار «النَّطَاسِيّ» مع السيّدة «زهراء»، وخرجت لتسقي النّباتات بحديقة «سَروة»، اقترب «أقمر» منها، وسار بجوارها في حالة صمت ملائكيّ، ثُمّ قطف ساقًا طريّة من نبتة بجواره ومصّ نَسغها وهو يقول:

- متى سنتزوّج؟

اصطبغت وجنتاها بحُمرة الخجل، فهرولت مُبتعدة عنه، وظلّ يلوك ساق النّبات في فمه وهو يبتسم ويتبعها بنظراته الحالمة، أجفل عندما انبثقت «بنات وَردَان» أمام عينيه فجأة، وطفقن يُزقزقن ضاحكات، فانصرف عنهن وهو يطرق الأرض في عصبيّة ويصيح:

- ثرثارات!

كانت «فرح» قد انتهت أخيرًا من قراءة السّجلّات كاملة عليهم، فقد كان المعلّم النبيل يدوّن كلّ صغيرة وكبيرة تحدث على الجزيرة، أدركوا الحقيقة كاملة، وعلموا بالجرم الّذي ألحقه «خَنْدَريس» بأهل الجزيرة، وعلموا بالجرائم الّتي حدثت، وأسماء المجرمين والقتلة، ونَسب بعضهم الّذي أخفي عنهم، وأحقّية الكثيرين بخيرات حرموا منها، في نهاية اليوم كانت «فرح» مُتعبة وجائعة وظمأى، واشتاقت لأمّها فهمست لأبيها فرقّ قلبه، وحملها «أنس» فنامت على كتفه، وسار بها وكلّ ذرّة في كيانه تفخر بها، كان يتساءل أين ابنة «طرجهارة» ولماذا لم تُطالبها بميراثها حتّى الآن!

*****

كان «يُوسف» يستند إلى الجدار، ويقف خلف كرسيّ «أبادول» ويفرك ذقنه في حيرة، اقترب «حمزة» منه وسأله:

- ما بك يا عمّاه؟

جذبه «يُوسف» من ذراعه وخرجا ليتحدّثا في الحديقة بعيدًا عن الجميع، قال «يُوسف» والغموض يسكن عينيه:

- «أبادول»!

- ما به؟

- شاخصٌ ببصره طوال الوقت، وعندما يُحدّثه السيّد «كمال» لا يُجيبه! حاولت «حبيبة» أن تُطعمه فرفض.

- لاحظت هذا، يبدو عليه الإرهاق الشّديد، عيناه زائغتان، كما أنّه لا يُغادر مقعده، ويغفو عليه.

- عندما تسقط رأسه ينتفض ويمسح وجهه، ويعود فيسند ذقنه على عصاه، جدّك ليس بخير يا «حمزة»!

-أخشى أن...

- لا تقلها أرجوك يا بنيّ!

ران عليهما صمت قصير لكنّه ثقيل، أطرق «حمزة» قائلًا:

- ربّما يشعر بالذّنب بعدما حدث، فلو لم يُرسل «ميسرة» إلى غُرفة الأشباح ما علمنا بأمر هذا البيت.

- هذا تدبير الله، فمعرفتنا بأمور المستكشفين أنقذت البيت من «ليلى» وأخيها، من أين كنّا سنأتي بهذا المبلغ من المال؟

تنهّد «حمزة» في أسى وقال:

- لا قيمة للبيت دونهم.

غمر الحزن وجه «يُوسف»، كان قلبه يتمزّق قلقًا على ولده «سُليمان»، وعليهم جميعًا، أراد أن يُخفف عن «حمزة» فوضع يده على كتفه وقال بحنان بليغ:

- سيعودون يا «حمزة» بإذن الله، مررنا بأكثر من هذا!

ثُمّ أضاف بجديّة:

- لنُراقب «أبادول» أخشى أن يتعرّض لأزمة ما، فهو في سنٍ حرجة.

- سأُراقبه طوال الوقت يا عمّاه.

عادا للدّاخل، وتناوبا على مراقبة «أبادول»، وكانت «حبيبة» لا ترفع عينيها عن وجهه، فقد لاحظت ما لاحظاه، وكانت تشعر أنّ جدّها ليس بخير.

****

اقترب وقت الغروب، لم تظهر الصّقور حتّى الآن رغم مرور ثلاثة أيّام على هلاك الطّغاة، وقد عاد أهل «سُقُطْرى» لرُشدهم، وتحرر «أصحاب

القلانيس الزّرقاء»، فبدأ «أنس» يقلق، التفت تجاه «ميسرة» و«خالد» وقال لهما:

- انتهت مهمّتنا ولم تظهر الصّقور!

قال «خالد»:

- ربّما لم تنتهِ بعد.

قال «ميسرة»:

- يبدو أننا لا بدّ أن نترك مواريث «خَنْدَريس» هنا لكي نتمكّن من الرّحيل.

- حسنًا، فلنفعل إذًا.

كان «النَّطَاسِيّ» يُتابع حوارهم، فسأله «أنس»:

- لمن سيُمنـح ميراث «هائد»؟ ولمن سيُمنـح ميراث «وجدان»؟ ولمن ستَمنـح ابنتي ميراث «طرجهارة»؟

- ظننتكم سترحلون بها.

قال «أنس»:

- أرهقتني «حاسّة العنكبوت»، أودّ أن تعود حواسّي لطبيعتها.

ضحك «النَّطَاسِيّ» وقال له:

- لاحظت هذا، كما لاحظت كيف تعاني ابنتك المسكينة.

- ما رأيك أن أعطيه لك.

رفع «النَّطَاسِيّ» يديه وقال:

- لا.. لا.

ثُمّ رفع حاجبيه وقال:

- حسنًا فلنسأل «سُبُحات»، فهي سرّ أبيها.

كانت «سُبُحات» حاضرة هي و«أَقْمَر»، وكانا ساكنين، كلّ منهما في ركن بعيد عن الآخر، لكنّ روحيهما تتعانقان، ويحصيان أنفاس بعضهما، ويتلفّتان في خجل، ينتظران تلك اللحظة الّتي سيجتمعان فيها تحت سقف بيت واحد، ابتسم «أنس» وناداها، فاقتربت، وأقبل «أَقْمَر» سريعًا ووقف بجوارها، قال «أنس»:

- لمن أمنــح ميراث أبيك؟

أجابته دون تفكير:

- «هِلال»، فقد كان يُرافقه كظلّه، ويعرف عنه ما لا أعرفه وأنا القريبة المؤنسة الّتي نعمت بودّه وحبّه طوال عُمري، حتّى أنّه شهد قتله لــ «عفريت البرق الأحمر»!

- نعم، أخبرتني «فرح» أنّها رأت تلك الذّكرى عندما أمسكت بيده، ولكن هل هو أهلٌ لهذا؟

أجابته «سُبُحات» بثقة:

- نعم هو أهلٌ لهذا يا سيّدي، وعلاقته بأخيه رائعة، وهو يحتاج لأخ يشدّ عضده ويقوّيه لكي يتحمّل ثقل هذا الميراث.

وافقها «أَقْمَر» وخالته، ووافقتها أمّها الّتي كانت حاضرة، فطلب «أنس» من «أَقْمَر» أن ينادي «هِلالًا»، الّذي أقبل مع أخيه، وقفا بوجهيهما المضيئين بجوار بعضهما، كان «هلال» يعلم مدى ثقل تلك المسئوليّة، فقَبل وفاء لشيخه ومعلّمه، ومنــحه «أنس» ميراث «هائد»، وعانقه كما عانقه «هائد» من قبل، شحب وجهه، ومرّ بما مرّ به «أنس»، فأسنده شقيقه وجلس يُمسك رأسه ويُخفف عنه، شعر «أنس» بزوال حملٍ ثقيلٍ عن صدره، ابتسم أخيرًا فقال «خالد»:

- وأخيرًا أبي يبتسم.

مسح «أنس» على خدّه وقال:

- وجهك مليء بالإصابات، سيُزعج هذا أُمّك عندما نعود.

- لكن يا أبي...

- ما بك؟

- العُلبة، وتلك الرّسائل الّتي تصلني من هذا الطّيف الغريب، لدي فضول شديد لمعرفة كينونة هذا الطّيف، أشعر أنّ صاحبته تكتب عمّا يجول بخاطري، وكأنّها تراني وتسمعني وتشعر بي، والفتاة الّتي ظهرت في المرآة هناك شيء يجذبني إليها كالمغناطيس، ولا أستطيع محو صورتها من ذاكرتي.

- تجاوز الأمر يا بنيّ.

- لا أستطيع.

- أتدري؟ ذلك يُشبه رسالة من فتاة مجهولة على الإنترنت.

- ربّما..! لكنني أصبحت أتخيّلها و...

وضع «أنس» يده على كتفه وقال له:

- أُقدّر معاناتك، لكنّك لا تدري ما خلف تلك العُلبة! الغموض هو ما جعلك تنجذب لما لا تعرفه، ومن كثرة الانشغال بهذا الأمر قد تربط دون قصدٍ بين الفتاة الّتي رأيتها والرّسائل، وربّما لا تكون هناك أيّ علاقة بينهما!

هزّ «خالد» رأسه، لقد فهمه أبوه بكلّ بساطة، أضاف «أنس»:

- وضعتها في قالب لتُكمل أجزاء الأُحجية النّاقصة، ولا ريب أنّك شكّلت في خواطرك صورة ذهنيّة لشخصيّتها، غامضة، جميلة، أنيقة، فاتنة، وقد يدفعك خيالك لاختلاق حوارات معها، وتعيش حياة موازية هنا في رأسك، وعندما تفيق وتعقل الأمر ستكتشف

أنّها رسائل مجهولة، قد تكون قناعا لوجه قبيح كـ «رَيْهُقانة» مثلًا، وستُراجع نفسك فتجد أنّ كل ما أعجبك كان من نسج خيالك أنت، سيهون الأمر، وستنساه.

- ماذا لو كانت تلك الفتاة الّتي ظهرت في المرآة في خطر؟
- لا أدري يا بنيّ! لكننا سنبحث هذا الأمر مع «أبادول» عندما نعود للمكتبة العُظمى بإذن الله.

ثُمّ ابتسم قائلًا وهو يُحاول إدارة دفّة الحديث لشيء آخر عندما لاحظ تشتت ولده:

- والآن، لمن ستمنــح ميراث «وِجْدان»؟

التفتا نحو «النَّطَاسِيّ» وذهبا ليسألاه، فقال بعد أن أطرق هُنيهة:

- لــ «سَقَنْقُور»، فعشيرة المشّائين في حاجة لزعيم جديد يجيد إدارتها، وخاصّة أنّهم سيعودون للجزيرة.

وافقه الجميع، وانتظروا قدومه، وعندما أقبل إليهم منــحه «خالد» الميراث، وبقيت «فرح»، والكلّ يتساءل، لمن ستمنــح الميراث؟ رفضت «سُبُحات»، ورفضت «زهراء»، ورفضت «شُرْشُمانة» فقد علمت أنّها حبلى، وتخشى من آثار هذا الميراث على جنينها، وعلى صحّتها النّفسية والعقليّة، ركض «سُليمان» نــحو «شُرشُمانة» واحتضنها، كان سعيدًا بهذا الخبر، فهمست له:

- لو أنجبت ذكرًا سأُسمّيه على اسمك، ولو كانت فتاة سأُسمّيها «فرح».

رفض «النَّطَاسِيّ» أن يُمنــح الميراث لزوجته، بل ورفضه الجميع، لا أحد يرغب في حمل ميراث كهذا، تساءلوا أين ابنة «طرجهارة»؟ وأتاهم الرّد سريعًا، فقد كان هناك رجل يقف أمام دار النَّطَاسِيّ مع زوجته وهي تحمل ابنتها، اجتمع النّاس حوله عندما أخذ يُنادي على «فرح» وأبيها، وقف أمام الجميع وقال وهو يرفع صوته:

- هذه ابنة «طرجهارة».

وقفت «فرح» أمامهم وأطال الجميع النّظر إليها، وتحلّق بعض من أهل «سُقُطْرى» ليروا ماذا سيحدث، قال الرّجل وهو يُشير لـ «فرح»:

- رُدّي لها حقّها في ميراث أُمّها «طرجهارة».

التفتت «فرح» لأبيها، وكانت عيناها عامرتين بالحيرة، أضاف الرّجل بهدوء ورويّة:

- ها هي يدي، اقرئي الحقيقة، تستطيعين رؤية كلّ شيء، نحن لا نخدعكم، وما أتيت إلّا عندما علمتُ أنّكم بدأتم تتخلّون عن المواريث الأربعة.

تقدّم الرّجل بثباتٍ، وترك كفّه بين يديها، رأته «فرح» وهو صغير، كان يسير مع أبيه وهما عائدين من رحلة صيد، رأت أباه وهو يتحدّث إلى «طرجهارة»، وسمعت حوارهما، رأتها وهي تعطيه صُرّة مُمتلئة بالمال، ويحمل ابنتها ليُربيها مع أبنائه، فقد كانت تخشى عليها من بطش زوجة الملك، وكان هذا قبل أن تقتلها، لم تتمكّن من استرداد ابنتها، فقد رحلت من الجزيرة مرغمة بعد خلافها مع الملك. رأته «فرح» في ذكرى أُخرى وهو أكبر، وكيف عشق ابنة «طرجهارة» الّتي تربّت في بيتهم، وكيف تزوّجا، تركت يده والتفتت لأبيها وقالت:

- هي يا أبي.. هي ابنتها.

كانت ابنة «طرجهارة» فتاة بسيطة وطيّبة، على عكس أُمّها، لم يتعرّف عليها إلّا القليل من الحضور، أخذوا يتفحّصون ثيابها بتعجّب، وتساءلوا كيف تكون تلك ابنة «طرجهارة! وكانت من «العنادل» كباقي أفراد العائلة الّتي ربّتها، لكنّها كانت تبدو في حالة مزرية، فثوبها يتنمّر من الفقر والضّنك والتّقشّف وكذلك ثياب زوجها وابنتها، وربّما هذا الّذي

دعاهما للحضور، فهما يبحثان عن بعض الوقار الّذي ربّما سيُكنّه لهما أهل الجزيرة إن علما بحملها الميراث. عرفتها جدّة «البراء» و«جُندب»، وأقبلت تحثّ «فرح» على منــحها الميراث، فهزّ «أنس» رأسه فسارت «فرح» ببطء نــحوها، حمل الرّجل ابنته من بين يدي زوجته، جلست فرح» على الأرض، وجلست أمامها ابنة «طرجهارة»، وهي تُلملم أطراف ثوبها المهترئ، سألتها «فرح» بعفويّة عن اسمها فهمست بعد تردد:

- ينادونني «مُروج»، لكنّه ليس اسمي الحقيقي.

مدّت يدها لــ «فرح»، فأمسكتها وكانت تتعجّل التخلّص من هذا الميراث، وقبل أن تضع كلّ منهما يدها الثانية على خدّ الأُخرى، انتزعت الشّابة يدها من يد «فرح» ووثبت وكأنّها أُصيبت بصاعقة كهربائيّة، وقالت في فزع:

- لا أُريده، لا أُريد أن أعرف ما يفكّر به الآخرون، لا أُريد أن أطّلع على أسرارهم، وأحزانهم، وآلامهم، زوجي وأهله دفعوني لهذا.. لكنني لا أُريد!

أقبل «أنس» قائلًا:

- ولكن هذا ميراث أُمّك!
- لا أرغب في أن أكون مثلها.

قال بتوتّر عندما لمح عيني ابنته الدّامعتين:

- ما ذنب ابنتي؟
- وما ذنبي أنا؟ لقد تخلّت أمّي عنّي!
- أرجوكِ يا بنتي، فــ «فرح» طفلة ويكفي ما مرّت به.
- لا أُريده.. لا أُريده.

ركضت نــحو زوجها، وأسرعا بالرّحيل، بقيت «فرح» تطلب ممن حولها أن يقبل أيّ منهم هذا الميراث، وكأنّها تتسوّل، حتّى نساء العنادل رفضن، فلا أحد يرغب في حمل آلام الآخرين، بكت «فرح» بحُرقة وخرّت على ركبتيها، انــحنى أبوها وأخوها عليها واحتضناها، اقترب «ميسرة» و«سُليمان» ليُخففا عنها، وفي تلك اللحظة، انقشعت الغيوم في السّماء، وحلّقت الصّقور بكثافة، كان «الرّمادي» هناك وكذلك «قطرة الدّمع»، سألت «فرح» أباها بصوت يشوبه القلق:

- كيف سنرحل وأنا أحمل هذا الميراث يا أبي.

- لا أدري يا بنتي.. لا أدري!

أشفق «أنس» على ابنته الّتي سترحل عن تلك الجزيرة وفي الرّوح جروح، أقبل أهل «سُقُطْرى» يُودّعونهم بعد أن علموا أنّهم سيرحلون، بكت «سَرْوة» بجنون حتّى أبكت الجميع، شاركتها «سُبُحات» البُكاء، وطال عناق «سُليمان» و«شُرْشُمانة» وكانت عبراتها تسيل حتّى أنّه ظلّ يمسحها بقميصه، حتّى «النَّطَاسِيّ» سالت عبراته، واستدار «سَقنْقُور» وهو يصيح:

- أكره لحظات الوداع!

وقف «أقمر» محزونًا، فأقبل «جُندب» يدعوهم لعناق جماعي، فالتفّ الشّباب حول «خالد» و«ميسرة»، وهمس «البراء»:

- ستظلّ قلوبنا على وصال، ولن ننساكم في الدّعاء.

حمل «خالد» الرّضيع، وتذكّر وصيّة أبيه، نظر في عينيه البريئتين طويلًا، ثُمّ لثمه على جبينه الغضّ، ووضعه بين يدي «النَّطَاسِيّ» وهو يقول له:

- أعلم أنّك ستعتني به جيّدًا.

همس «النَّطَاسِيّ» بتأثّر:

- اسمه «وِجدان»!

لمعت دمعة في عيني «خالد» وقال:

- نعم هو كذلك، وعندما يكبر، أخبره أن يُطلق نفس الاسم على ولده، حتّى لا ينسى النّاس قصّة «وِجدان» و«رَيدانة».

تصفّح «أنس» وجوه أهل اليمن قبل أن يُغادر، سُكّان جزيرة «سُقُطْرى» النّبلاء: «النَّطَاسِيّ» الّذي كان غيثًا لهم عندما طرقوا باب داره طلبًا للأمان، كما كان غيثًا لزوجته من قبل، وغيثًا لكلّ من يلجأ إليه في حاجة، و«سَروة» اليمنيّة الأصيلة نقيّة القلب الّتي استضافتهم في بيتها وأحسنت الضّيافة، و«أقمر» بضياء وجهه، و«البراء» بعقله الواعي، و«جُندب» بفصاحته، و«هلال» برقّة قلبه وشفافية روحه، والجدّة بحنانها الفيّاض، و«سُبُحات» بحيائها، و«زهراء» بحكمتها، وحتّى «سقنقور» و«شُرشُمانة» بما يحملانه في قلبيهما من الحبّ وجمال الرّوح. اغرورقت عينا «أنس» بالدّموع عندما تذكّر وجه «هائد»، فأخذ يُتمتم بالدّعاء لذلك الصّديق الّذي علق بقلبه وجوارحه، ودّ لو كان هنا الآن ليُعانقه، وأمّا «بنات وَردَان» فرفع عينيه تجاههن وتذكّر ثرثراتهنّ وضحكاتهن الّتي تُشبه الزّقزقة فابتسم بعفويّة وسط دموعه!

لم يتحرر أهل «سُقُطْرى» من أسرهم بجهود «المحاربين» ولا بذكاء «المستكشفين»! بل بفضل الله عندما سخّرهم لهذا، ثُمّ بثبات وإيمان رجالات اليمن، ونسائه، وأبنائه من «العنادل» وغيرهم من أصحاب القلوب النقيّة التّقيّة.

بكت «بنات وَردَان» وكان صوت بكائهن يملأ الأجواء، غمزت إليهنّ أُمّهن فارتقين فوق الجمع وبدأن ينثرن الغُبار المُلوّن فوقهم، وتعالت

الصّيحات، أطلق «أَقمر» هالاتِ الضّوءِ فحلّقت وهي تومض فوق رؤوسهم جميعًا، وصاح الحضور احتفاء بأحفاد «أبادول».

وقف أهل «سُقُطْرى» وعيونهم مُعلّقة بالسّماء، يُراقبون الصّقور وهي تحملهم، وخرج هذا الشّعب أخيرًا من طيّ النّسيان.

*****

أضاءت جنبات البيت المهجور وكأنّه يتنفّس الضوء ويسحبه من النّوافذ المفتوحة، وقف «أبادول» فجأة وكأنّه نشط من عقال وتهلل وجهه، ثّم طرق الأرض بعصاه وصاح بانفعال:

- أخيرًا!

أقبل جميع من بالبيت نــحوه، سأله «حمزة» بفضول:

- ماذا حدث يا جدّي؟

صاح مبتهجًا وكأنّه عاد لشبابه فجأة:

- نجحت مهمّتهم والحمد لله، والآن تحملهم الصّقور إلى المكتبة العُظمى، وجميعهم بخير.

تلفتوا في فرحة وسألوه بتلهّف عمّا حدث في آن واحد فاختلطت أصواتهم، وقف «حمزة» أمامه مُباشرة ورفع صوته وهو يسأله:

- كيف عرفت يا جدي؟

ألقى الصّمت عباءته عليهم، فرفع «أبادول» عصاه فوق كتف «حمزة» وأشار للمرآة العتيقة الّتي وضعها «حمزة» فوق المدفأة وقال له:

- كُنت أراهم هنا!

استدارت رؤوسهم جميعًا نحو المرآة في آن واحد، أدركوا الآن أنّه لم يكن يحدق إلى لهب المدفأة بل في المرآة الّتي فوقها، ولم يكن شاردًا أو

مريضًا! عادوا يُطالعون وجهه، بعضهم يلومه بنظراته لأنّه لم يُخبرهم، وبعضهم يندهش من غموضه وصمته، فأسرع يُبرر موقفه في حرج:

- خشيت أن أُخبركم، أشفقت عليكم، فلن تتحملوا، فما رأيته كان مُخيفًا، الكثير مما مرّوا به شَهِدته ورأيته وكانت أصواتهم تُصبّ في أُذني صبًّا.

ثُمّ رفع رأسه وكأنّه يُحدّث البيت وقال:

- حقًا أنت بيت رائع!

ثُمّ أضاف قائلًا لهم:

- بعض الأحداث للأسف غابت عنّي، لكنني كُنت أطمئنّ عندما أراهم بعد ذلك بخير.

ثُمّ تململ في تردد وقال:

- تقريبًا بخير!

حدّقت «حبيبة» إلى وجهه وقالت:

- جدّي! أقسمت عليك أن تُخبرنا.. هل هم جميعًا بخير؟

- بخير يا بنتي صدّقيني.

- و «سُليمان»؟

صاح بانفعال:

- أنقذه «الكومودو» قبل أن يقتل بالرّماح، وحلّق به في الهواء!

صرخت «حبيبة» وسأله «يُوسف» وقد امتقع وجهه:

- وما هو «الكومودو»؟

- تنين مُجنـح!

صرخت «حبيبة» مرّة أخرى، فعاد يُطمئنها:

- «سُليمان» بخير وهو مع خاله «أنس».

دمدمت «حبيبة» بين الضحك والبكاء فاحتضنها «يُوسف»، كاد يُخبرهم أنّ «خالدًا» قد قتل «الكومودو»، لكنّه تذكّر أنّ «فرح» محت عن جبين «سُليمان» أمر قتل «خالد» للتنين، فخشي أن يُخبروه عندما يلتقون به، فامتنع عن إخبارهم.

تنحنح «أبادول» وأضاف وهو ينظر لـ «مرام»:

- خاض «خالد» معاركَ عنيفةً، ووجهه مليء بالكدمات.

اغرورقت عيناها بالدموع وسألته:

- و «أنس»؟

تنهّد «أبادول» بعمق، فقد عانى ليُخفي عنهم ما كان يراه وتحمّل الكثير، كان يُشبه البالون الممتلئ فوق احتماله ويوشك على الانفجار، ويودّ تفريغ ما بقلبه ليتنفّس، لكنّه لا يستطيع الانهيار أمامهم، قال بهدوء:

- كان «أنس» ثابتًا كالطود، هذا هو حفيدي الغالي، هناك بعض الخدوش والكدمات، اعتدنا على هذا يا «مرام»!

سأله «كمال» بتوجّس:

- و«فرح»؟

وقفوا جميعًا ينتظرون إجابته، فقد صمت فجأة عندما سمع اسمها، اغتصب ابتسامة سريعة ليُخفي ما يعتمل في صدره من قلق عليها وقال:

- رائعة.. «فرح» رائعة! و«أنس» فخور بها، وأنا أيضًا فخورٌ بحفيدتي.

ثُمّ أسرع يقول بحماسٍ:

- ارتدوا معاطفكم، ولنصعد لسقف هذا البيت، فالصّقور ستحملنا الآن للمكتبة العظمى للقائهم.

أسرع كلّ منهم لارتداء ملابسَ مُناسبةٍ، وسأله «حمزة» وهو يرتدي سُترته وينظر إليه بطرف عينه:

- جدّي.. من أخبرك أنّ الصّقور ستأتي الآن؟

رفع «أبادول» حاجبيه، وحدق إلى عينيه قائلًا:

- هذا سرّ من أسرار مملكة البلاغة.

هزّ «حمزة» رأسه، واقترب من المرآة، ووضع كفّه عليها وأخذ يتحسس سطحها في تعجّب، وهمس قائلًا:

- حتّى متى ستظلّ غامضًا هكذا يا جدّي!

***

الزّاجل الأزرق

على الحدود بين المملكتين، مملكة تشعّ نورًا وعلمًا، ومملكة تنفح ظلامًا وجهلًا، وحيث يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحقّ، برز الخُمَيس[1] بفرسانه وهم يُقبلون على ظهور خيولهم، وعلى رأسهم «الزّاجل الأزرق» تُجلله الهيبة، فشاع الخبر في أجواء «مملكة الدّيجور»، وبدأ جنود الملك «غُدفان» يُغلّقون الحصون، ويهرولون تجاه الحدود في جماعات.

زمجرت أرض «الدّيجور»، وثارت البراكين بحنق هناك وبصقت نارها، فسالت منها الحمم، وطفق الرّماد السّاخن يهمي على الدّسَاكر[2] القريبة من البُركان، صهلت الخيول وأخذت تعدو، رُفعت راية جيش «المغاتير»، فرفع جيش الظّلام رايته. اصطفّت الخيول على التّوازي، وانتظمت الصّفوف في أرتال تباعًا.

(1) الخُميسُ: الجَيشُ الجَرَّارُ؛ سُمِّي بذلك لَأنه خَمْسُ فِرَق: المُقَدِّمَةُ، والقلبُ، والمَيْمَنةُ، والمَيْسَرَةُ، والساقَةُ.

(2) الدَّسَاكِر: جمع الدَّسْكَرَة وهي الأرضُ المستويةُ.

برز «غُدفان» على فرسه الأدهم، بنظرة متكبرة وعنيفة كانت تطل من وجهه الجامد، كان لديه هيئة مُتحذلقة، وتقدّم «الزّاجل الأزرق» وفي عينيه تسكن نظرة متّقدة تنم عن عبقرية وذكاء، تُضاهي نظرات الصّقور الّتي كانت تُحلّق فوقهم في السّماء، قال «الزّاجل الأزرق» بصوت جهوري مزلزل:

- فشل أعوانك، ونجح أحفاد «أبادول».

- سحقا لــ «أبادول» وأحفاده.

- أيحرق «أبادول» قلبك لهذه الدّرجة؟ ولكن أعذرك، فهلاك «القَلقَدِيس» و«القُلقْطَار» كان ثقيلًا عليك.

زأر «غُدفان» قائلًا:

- اخرس!

ثُمّ أردف والزّبد يتطاير من فمه:

- سأثأر لأبي وأمّي، وسأذبح «أبادول» وأحفاده، وسأشقّ صدرك أنت وحُرّاس المكتبة اللعينة بيدي.

كان يتكلّم بنزق ويجرّ كلماته جرًّا، أمّا «الزّاجل الأزرق» فاكتفى بمطالعته وهو يتكلّم بعناد أخرس مما زاده حنقًا عليه، أخذا يدوران بفرسيهما حول بعضهما، والحنق يزيد بينهما، وكأنّهما وحشان يتنمّران ببعضهما يتحيّن كلّ منهما اللحظة الفارقة لينقضّ على غريمه،

دار «الزّاجل الأزرق» بفرسه سريعًا وصفعه بقوّة وأرسل ضربة أسقطته عن فرسه ودحرجته على الأرض، وترجّل عن فرسه واستلّ سيفه ووقف أمامه في جسارة، وثب «غُدفان» وحمل سيفه هو الآخر ليواجهه، كانت الرّياح تجلد وجهيهما وتلسعهما بزمهريرها، بدأ النِّزال بينهما، وكان لصليل السّيوف وقعٌ مهيبٌ على قلوب الجنود، فتعلّقت

أبصارهم بالقائدين، ينتظرون إشارة من أيّ منهما ليتلاحموا، وفور أن أشار القائدان بدأت الملحمة.

كان «المغاتير» يُجندلون بسيوفهم، ويُسقطون جنود «غُدفان» واحدًا تلو الآخر، بدأت الصّقور تُشارك في المعركة، وانقضّت تغرز مخالبها في عيون غربان مملكة «الدّيجور»، وانقضّوا على جنود «غُدفان» ينقرون رؤوسهم ثأرًا لكلّ نفس زهقت على أياديهم ظلمًا وقهرًا في ربوع المملكة.

كان «غُدفان» فارسًا بارعًا، وخصمًا عنيدًا شديد البنية، و«الزّاجل الأزرق» يُضاهيه في القوّة والمهارة، بيد أنّه أكثر منه جرأةً وإقدامًا، ظلّ يتقدّم وهو يجندل بسيفه، حتّى استطاع أن يطيح بسيف «غُدفان»، وسدد إليه ضربتين شديدتين بقبضته فكسر أسنانه الأماميّة، ففتح «غُدفان» فمه وبصق أسنانه، وسال خيط من اللعاب الدّامي من فمه، ألقى إليه أحد جنوده بسيف آخر فانقض به على «الزّاجل الأزرق»، وضربه به على كتفه اليسرى فجرحه جرحًا بليغًا فانبثقت الدّماء منها وتدفّقت وأغرقت صدره، فشدّ كلّ عضلاته، ووتّر أعصابه، وركّز طاقته، واستمرّ في نزاله مع خصمه، وتحيّن فرصة أخرى كان السيفان يتقاطعان فيها وكلاهما يدفع بصدره تجاه الآخر فضرب جبهته بجبهة «غُدفان»، ودفعه بعيدًا عنه ليعودا للنزال، أطاح «الزّاجل الأزرق» بسيفه مرّة أُخرى، وسدد إليه ضربة انبثق على أثرها الدّم من منخاريه، بدأ جيش «غُدفان» يتقهقر، وتراجعوا عندما رأوه ينهزم أمام «الزّاجل الأزرق»، وألقوا بأسلحتهم على الأرض، تخلوا عن ملكهم الظّالم الّذي هددهم بقتل أبنائهم إن لم يُدافعوا عن مُلكه، وكان هذا هو الفارق بين الجيشين، جيش جُنوده يقاتلون خوفًا وذُلًّا، وآخر جُنوده يُقاتلون حبًا وكرامة، أمسك «غُدفان» بقائد جيشه من كتفيه وهزّه كشجرة توت وصاح قائلًا:

- لماذا؟

لم يُجبه قائد جيشه، فقد ملّ من ظُلمه وظُلمته، صرخ «غُدفان» صرخة مُجلجلة هزّت أرجاء المملكتين، كان الغضب يُضيء أحشاءه، تعالى صياحه، فثارت البراكين وبصقت نارا وتصاعدت حلقات الدّخان منها، وانحنى ليبرز جناحين أسودين من ظهره، وكانت عيناه تشتعلان كجمرتين عندما بسط هذين الجناحين، كان مهيبًا ومخيفًا وغاضبًا، قال بصوت غليظ كان له صدى في الأجواء:

- سأعود!

بسط جناحيه، وحلّق مُبتعدًا، وتبعته الغربان السّود في مشهد مهيب، اهتزّت الأرض وزُلزلت تحت أقدامهم، وأحدثت أخدودًا عميقًا بين الجيشين، وكأنّها تأبى أن يلتحم الشّعبين! سقطت راية مملكة «الدّيجور» في ذلك الأخدود وابتلعها جوف الأرض بعتمته.

لا تزال هناك قلوبٌ سوداءُ شديدة القتامة على أرض مملكة «الدّيجور»، وسيستمرّ الصّراع بين الحقّ والباطل، ولن ينقطع المُحاربون عن مملكة البلاغة للأبد.

عاد «الزّاجل الأزرق» مُنتصرًا بجيشه النّبيل، وبجرح دامٍ شديد الخطورة.

******

مملكة البلاغة

حملت الصّقور المُستكشفين الخمسة إلى رحاب مملكة البلاغة، توالت البِقاع الّتي زاروها من قبل من تحتهم وهم يُحلّقون مع الصّقور، وكلّ بقعة منها قد طبعت على حنايا قلوبهم الكثير من المواقف والذّكريات..

«الغابة المسحورة»، كوخ «ناردين»، «الجبل الأحمر»، قصر «الحوراء»، قصر «كمشاق»، «النّهر الأخضر»، بستان «حيزوم»، مدينة «ديرينكويو»، قرية «الدّحنون»، قلعة «الدّيجور»، جبل «أمانوس»، مدينة «وراشين»، بحر «حندس»، قرية «أوركا»، معبد «سَاهور»، غابة «البيلسان»، قرية «كروسكو»، وادي «الفراديس»، مدينة «كويكول»، أرض «الكنهور»، «جبال الخُرافة»، «غابة الأطياف السّوداء»، وادي «الهماليل»، «براكين طرمساء»، قرية «شيليا»، وأخيرًا لاحت أسوار «المكتبة العُظمى» من بعيد.

تعالت صيحات «المغاتير» عندما رأوهم يُقبلون عليهم، وكانوا جميعًا هُناك، حتّى حُرّاس المكتبة كانوا يصطفّون أمام بوابة المكتبة يُجللهم الوقار وقد أضاءت وجوههم لحاهم البيضاء الطّويلة وعلى رأسهم «حيدرة»، فقد كانوا جميعًا يترقّبون تلك اللحظة، ويتفحّصون كتاب «القُدْموس» كلّ دقيقة، والقلق ينهش رؤوسهم، ليطمئنوا على ظهور تلك الفجوة الّتي ستنفرج وتُفتح في السّماء فوق هذا البيت المهجور، ليُضيء مكانها على خرائط «القُدْموس»، ويصل للصّقور أبعاد مكان ذلك الشّعب المنسيّ، فيُحلّقون مباشرة نـحو هذا المكان، وكأنّ كلًّا منهم يحمل بوصلة بين عينيه، ليلتقطوا المُستكشف الّذي أدّى مهمّته، كان البيت هذه المرّة قد التقم خمسة بينهم طفلين، فكان حُرّاس المكتبة في حالة استنفار، حتّى أنّهم استدعوا «المغاتير» و«الزّاجل الأزرق» و«بيادق الظّلام»، وكانوا يجوبون المملكة من شرقها لغربها بحثًا عن منفذٍ أو ممرٍّ يُمكّنهم من إنقاذ أفراد عائلة «أبادول»، ولمّا أُغلقت الطّرق، زحف جيش «مملكة البلاغة» للقاء جيش «مملكة الدّيجور» حيث أرسل «غُدفان» يتوعّدهم ويُهددهم، طلب حُرّاس المكتبة العُظمى من كلّ أحباب عائلة «أبادول» أن يجتمعوا بقصر «الحوراء» ليدثّروهم بالدّعاء،

هم وكلّ أفراد جيش «المغاتير» الشّريف بقائده «الزّاجل الأزرق»، وحدث بالفعل واجتمعوا في رحاب قصرها. لم يكن عنادل اليمن فقط هم من يلهجون بالدّعاء، ولم يكن «أبادول» وأفراد عائلته فقط هم من يُصلّون، بل كان هنا على أرض المملكة أيضًا قلوبٌ تهمس وتُلقي بسهام الليل، وقد أصابت سهامهم، ونجّى الله «أنسًا» ومن معه، لهذا أرسلت إليهم «الحوراء» ليستقبلوهم أمام «المكتبة العُظمى»، وليحتفلوا جميعًا بانتصار جيش «مملكة البلاغة» على جيش «مملكة الدّيجور».

وصل «أبادول» ومن معه مع فيلق آخر من صقور مملكة البلاغة، ازدادت صيحات الفرحة، وتوالى العناق؛ عناق بين أفراد عائلة «أبادول» وقد استرد كلّ أصل فروعه، وقد هرع كلّ واحد من الأحفاد لأُمّه يختبئ في حضنها، وعناق آخر بين الأصدقاء من العالمين، الّذين افترقوا يوما على أرض تلك المملكة العجيبة.

كان «الزّاجل الأزرق» على رأس من استقبلهم، فقد عاد من «البيمارستان» بعد أن قام الطبيب «عطيّة الله» بتقطيب وتضميد جرح كتفه وعلّق ذراعه في عنقه برباط. كانت زوجته «زُمُرّد» تقف بجواره وتُطالعه بفخر واعتزازٍ وهي ترفل في ثوبها الأنيق وحولها يقف أبناؤهما كالكواكب، وكلّ فارس منهم يُنافس أخاه في وسامته وقوّته وهيبته، كيف لا وأبوهم «الزّاجل الأزرق»! وقفوا يُطالعون عائلة «أبادول» الّتي سمعوا عنها كثيرًا بعيون يملؤها الفضول. كان «موراي» يقف على رأس جيش «المغاتير»، وبالقرب كانت زوجته «لؤلؤة» تُفتّش عن «حبيبة» بعينيها وهي تقبض على ذراع ابنها الّذي أصرّ «مُوراي» على تسميته بـ «يُوسف» تيمّنًا بصديقه الّذي كان يفتقده، وفور أن رأتها صرخت في حماس فأقبلت كلّ منهما تُعانق الأُخرى، وكأنّهما موجتان من أمواج ذلك البحر الّذي وقفتا أمامه يومًا ما وهما تتهامسان.

ركض «مُوراي» نـحو «يُوسف» الّذي هرع إليه عندما رآه مقبلًا وقال بصوت مُتهدّج:

- «مُوراي»!

طال العناق وأغرق كلّ منهما كتف الآخر بعبراته، قاطعهما صوت أنثوي لامرأة كانت تحمل الكثير من التقدير لـ «يُوسف»، قالت بصوتها الحاني من خلف ظهره:

- مرحبًا يا سيّد الكلمات.

وقف أمامها وغمرته نفس المشاعر الّتي كان يشعر بها عندما كانت تُحفّزه على الكتابة بينما كانت «حبيبة» مُحتجزة في مدينة «ديرينكويو»، مزيج من السّعادة، والامتنان، والتّقدير لذاتها الوقورة، قال وهو يرنو إليها في حبور:

- سيّدة «مَيْسان»!

كانت عيونهم جميعًا تتنقّل من وجه لوجه آخر في سعادة مفرطة، وانشغلوا بأحاديثهم مع أصدقائهم من سُكّان مملكة البلاغة، انطلق أحد «بيادق الظّلام» في مهمّة خاصّة لإحضار «كلودة»، الّذي عجز عن النّطق عندما رأى «أنس»، لكنّ ضحكاته الّتي قطعت عبراته كانت كافية لتُخبره بالكثير، أمّا «أشريا» فقد انفردت بـ«مرام» وكان بينهما حديث خاصّ.

أقبل «عُبيدة» في موكب ووقف أمام «يُوسف» وقال بصوت تخنقه العبرات:

- كيف أنت يا أخا العرب؟

اخترقت تلك الجُملة قلب «يُوسف» قبل أن تخترق مسامعه، وقد كان «عُبيدة» يُكررها في كلّ مرّة يراه فيها عندما كان بينهم، وكانت آخر جملة رددها «يُوسف» قبل أن يفترقا.. وداعًا «يا أخا العرب»!

ارتوى قلب ذلك الفارس العربي أخيرًا برؤيته، وكان معه خيوله؛ خيول «الكحيلان» الّتي انطلقت تُهملج في حديقة المكتبة العُظمى وهي تصهل مُحدثة جلبة حلوة، اقتربت «التّرياق» من «حبيبة»، فبكت «حبيبة» عندما رأتها من شدّة الفرح. لا تزال «الشّقراء» فاتنة كما هي، ولا يزال «أشقر» يُراقبها طوال الوقت! ولا يزال «حيزوم» أكثرهم وقارًا وحكمة.. ستظلّ تلك الخيول جميلة على الدّوام.

كانت الأميرة «جلاديولس» قد تبعت «عُبيدة» مع بناتها الأميرات الخمس، ألقت التّحيّة بأناقة على «يُوسف»، وعانقت «حبيبة»، ثُمّ أشارت لبناتها لتُقدّمهن واحدة تلو الأخرى والفخر يفيض من عينيها، التفتت الأنظار تجاههن، وكانت أكبرهنّ في عمر «سارة»، وكانت «سارة» رغم غيابها حاضرة في قلوب أفراد عائلتها الحبيبة.

وصل الأمير «كرشاب» مع زوجته الأميرة «هيدرانجيا»، وضجّت الحديقة بأناقة الأُمراء، وجمال الأميرات، وهيبة الفرسان، ووقار الشّيوخ، وبأصوات الخيول، وغقغقات الصّقور، والكثير من الضّحكات.

أجفل الجميع فجأة عندما ظهرت «شفق» وعشيرتها، وامتلأت الحديقة بقطط «الماو»، سعدت «مرام» برؤيتها، لكنّها لم تتمكّن قط من مُعانقتها! وهذا ضايقها كثيرًا فقد اشتاقت لها.

جلست «الحوراء» وهم يتتابعون عليها لتحيّتها، وبومتها «الشّهباء» لا تُفارق كتفها، هرمت الملكة الجميلة، وهزلت حتّى صار هيكلها ضئيلًا، وهرمت بومتها معها، لكنّ نظراتها لم تذبل، ولا تزال تحمل نفس الشّغف وهي تُطالع وجه «أنس» بعيني بومتها، كما كانت تُطالعه أوّل مرّة بعينيها هي عندما التقت به في قصرها، كان «الحزاورة» حولها، فقد أحسنت رعايتهم وكانت لهم أُمًّا حنونًا بحقّ.

كانت «مرام» تتفحّص وجه «خالد» كلّما مرّ جوارها، وتتحسس جروحه وندباته بإشفاق، كان يُطمئنها وينطلق مع أخيه «حمزة» في

حماس، فتلك لحظات لن تُعوّض، كان يُقلقها شرود «فرح»، وظلّت تسألها وتسأل «أنس» عن السّبب، لكن ازدحام المكان منعهما من تفسير أمر الميراث الّذي تحمله ابنتها وتُعاني بسببه.

تلفّت «حمزة» ونادى على «خالد» وقال له:

- أين «ساهور» و«سنمّار»؟

- يبدو أنّ الحضور هنا ممن هم على تواصل بديوان الملكة «الحوراء» و«الزّاجل الأزرق» فقط.

صيحة غريبة قاطعتهما فرفعا رأسيهما للسّماء، كان «الدّيسق» هُناك، يُحلّق برشاقة ويُحدّج المكان بنظراته، يبدو أنّ «سَاهور» يعلم الآن بوجودهما!

سمعهما «ميثاق» وكان بالجوار، كما رأى «الدّيسق»، وكان فرحًا بلقائهما، فطالعهما بعينيه الزّرقاوين وقال:

- ما رأيكما في جوادين مُجنحين ونذهب معًا لقرية «أوركا»؟

قال «خالد» في حماس:

- و«كويكول»، أودّ أيضًا أن أرى «سيفاو» و«ماسيليا».

أضاف «حمزة»:

- ومدينة «وراشين»، أرغب في رؤية الأمير «أشهم» والأميرة «مَثابة»، وأودّ زيارة «غابة البيلسان» أيضًا لتحيّة «الآنسة الزّرقاء» و«مُورفو».

وضع «ميثاق» أصبعيه في فمه وأطلق صفيرًا فأقبلت الخيول المُجنحة في كوكبة، وانطلق التّوءمان «خالد» و«حمزة» مع «ميثاق» ليلتقيا بأحبابهما.

على شاطئ قرية «أُوركا»، ركض «حمزة» نحو «سَاهور»، وطال العناق كما طال الشّوق، سأله «خالد» بفضول وهو يراقب «الدّيسق» وهو على كتفه:

- أين «سنمّار»؟

اقترب حوت يمخر عباب البحر، أطلق صيحاته عندما رآهما، فهرول «خالد» نــحوه وهو يرفع صوته قائلًا:

- انتظر أرجوك! لا تتحوّل الآن!

خلع «خالد» قميصه وسبح في بحر «حِندس» حتّى وصل إليه، واعتلى ظهره ووقف عليه وصاح «قائلًا:

- الآن يا «سنمّار»!

أطلق «سنمّار» صيحة من صيحات حيتان الأُوركا فدوّت في الأرجاء، وانطلق و«خالد» يقف على ظهره كالشّراع وجاب به بحر «حِندس» من شرقه لغربه، وتعالت ضحكات «خالد» مُجلجلة، فتح ذراعيه ورفع وجهه للسّماء، وهمس قائلًا:

- أرجوك يا رب، أرح قلبي.

كان يرجو أن تكون تلك الفتاة الّتي رآها بالمرآة حقيقيّة، ودّ لو التقى بها، ودّ هذا كثيرًا.

أقبلت «مونارش» وهي تحمل صغيرها الرّضيع في حضنها، وضعته بين يدي «حمزة» وهي تبتسم، قال «سَاهُور» وهو يُحكم الغطاء عليه:

- أسميته «رَجْوان».. على اسم أبي.

أقبل باقي شعب أُوركا، ومعهم بنات الحدّاد الثلاث، فقد وصلهم الخبر.

كان «سُليمان» سعيدًا بلقاء غلمان من عُمره، فوقف يتحدّث مع أصغر أبناء «الزّاجل الأزرق»، وابن «مُوراي»، بينما ظلّت «فرح» بجوار أبيها، تلتصق بجذعه، وتسير معه خطوة بخطوة، وأُمّها تلاحقهما وقد

وقع في قلبها أنّ ابنتها ليست بخير، لكنّ «أنسًا» كان يُطمئنها عليها ويُعلل هذا بإرهاقها من رحلتهم الّتي سيُخبرها بتفاصيلها لاحقًا.

اقترب «أبادول» من «فرح» وعضلات وجهه ترتجف من فرط تأثّره، وفتح ذراعيه لها فهرولت نــحوه، احتضنها طويلًا، ثُمّ أمسك بوجهها بين كفّيه وقال لها هامسًا:

- أصابتك مملكة البلاغة بسهم يا صغيرتي، لكنّك قويّة كأبيك.

أرادت أن تضع يديها على كفّي «أبادول» بعفويّة، لكنّه تنبّه وأشفق عليها مما يحمله من أهوال وأسرار، فسحب يديه بسرعة وعقدهما خلف ظهره، وكان «أنس» بجوارهما فلاحظ ما حدث، فضايقه هذا ووقع في نفسه شيء ما، كان قد سمع «أبادول» وهو يهمس لها فسأله بعد أن تأكّد من أنّها في حضن أُمّها وقد انضمّتا لأمّه وأخته وسرن مع «أشريا»، وصارت الآن لا تسمعهما، وكان قلبه ينتفض:

- ماذا تقصد يا جدّي بما قلته لــ «فرح»؟

- الميراث

- ما به؟

- لن نستطيع تخليصها منه.

- كيف هذا؟ كيف ستعيش به، لقد عانت كثيرًا من تدفّق الذّكريات والمشاعر لرأسها، وهي لا تزال فتاة يافعة، لن تتحمّل! لماذا ظهرت الصّقور قبل أن تتخلّص ابنتي من ميراث «طرجهارة»؟ لماذا هذا الوقت بالذّات!

- الصّقور تتحرّك فور تلقّيها إشارة بالمكان من خرائط «القُدْمُوس»، وتحلّق فورًا لتحمل المُستكشف من تلك البقاع إلى هنا.

- فلنعد إذًا أنا وهي لجزيرة «سُقُطْرى» ونبحث عمّن يحمل عنها الميراث.

- للأسف لن تنجحا.

- لماذا؟

لزم «أبادول» الصّمت، وكان «أنس» يُطالعه بنظرة راجية أوجعت قلب جدّه، عاد «أنس» يقول:

- سأُجرّب! سأعود لدار «النَّطَاسِيّ» معها!

هزّ «أبادول» رأسه في أسى وقال:

- لم تكن الأولى يا بني.

- ماذا تقصد يا جدّي؟

غضّن «أبادول» حاجبيه، ووضع يده على كتف «أنس» وقال له:

- بعض المُستكشفين يعودون وهم يحملون همًّا من هموم تلك الشّعوب، وكأنّ سهمًا أصابهم بجرح وترك ندبة، ولم نتمكن من مُساعدتهم، جرّبنا إعادتهم أكثر من مرّة، وباءت كلّ محاولاتهم بالفشل، ويبقون كما هم، بتلك النّدبة، بذلك السّهم.. مثل «ميسرة»!

- ماذا؟!

- نعم؛ كانت «سَندَروسة» هي السّهم الّذي أصابه خلال رحلته أوّل هذا الشّهر، وعانى من أثر جرحه.

- هل كنتم تعلمون بعشقه لها؟

- لا! لأنّ الأحداث هناك كانت تغيب عنّا، وهو لم يُخبرنا عن تعلقه بها، فعلى الرّغم من كونه مُستكشفًا شجاعًا وجسورًا، كان حماسه الأخير للولوج إلى تلك البيوت خلال نفس الشّهر وتكرار التجربة

مرّتين متتاليتين هو ما أقلقني عليه، ولكن: لكلّ جوادٍ كبوة! وهو في النّهاية بشر، وقد كنتم سببًا في شفاء جُرحه، وربّما يأتي أحدهم ويكون سببًا في خلاص «فرح» من هذا الميراث.

- أخشى على «خالد»!

- بسبب طيف المرآة، أليس كذلك؟

- بلى.

- سنبحث في هذا الأمر، لا تقلق يا «أنس».

التفت «أنس» تجاه ابنته، امتقع وجهه، كان يشعر وكأنّ هناك خنجرًا ينخر في قلبه، قال متألّمًا:

- ماذا ستفعل المسكينة «فرح»، هي لم تتطوّع من البداية، بل أُجبرت على هذا! حتّى أنت يا جدّي سحبت كفّيك بعيدًا عنها عندما أرادت لمس يدك.. وهذا آلمني.

شعر «أبادول» بمزيج من الحرج والألم عندما أدرك أنّه لاحظ ما فعله فقال:

- أشفقتُ عليها، أحمل في رأسي الكثير من الأهوال والأسرار يا بنيّ، سامحني.

وقفا حزينين، وكان «أنس» يشعر بألمٍ في صدره، رفع رأسه وطالع «أبادول» بنظرة جامدة وقال له:

- لن تعود ابنتي لتلك المهمّات مرّة أخرى.

- اهدأ يا «أنس».

أشاح «أنس» بوجهه وكانت الدّموع تطفر من عينيه وهو يحاول إخفائها قبل أن تُلاحظ «مرام» الّتي كانت تتلفّت وتبحث عنه من آن لآخر، قال وفمه يرتجف:

- لماذا لم تُخبرنا عن سرّ البيت؟ وعن «المستكشفين»؟ وعن مملكة «الدّيجور»؟ حتّى «الحورائيّات» علمنا عنهم بعد لقاء «حمزة» بهم!

- لو ألقيت عليكم أسرار مملكة البلاغة الّتي أعرفها دفعة واحدة لن تتحملوها.

- كُنت تُخبرني على الأقل!

- الحِمل ثقيل يا ولدي، حتّى أنت لن تتحمل! أشفقتُ عليك.

- هل هناك المزيد من الأسرار؟

رفع «أبادول» حاجبيه وكان الغموض يسكن مقلتيه. فقال «أنس» بانفعال شديد:

- بعض الأشياء تُحجب عنّا ولا نعرف السّبب، وبعض الأسئلة لن نجد إجاباتها أبدًا ولن نعرف السّبب، وبعض الأُمور سيظلّ الغُموض يكتنفها على الدّوام! حتّام يا جدّي؟

- ليس من الضروريّ أن نعرف كلّ شيء يا بنيّ.

أطرق «أنس» قليلًا وقال بتصميم شديد:

- لا بدّ أن نـحمي «فرح».

- سأبذل قصارى جهدي هنا يا بنيّ، فقط هي تحتاجك لتتأقلم مع هذا الميراث الّذي علق بها.

- أقصد أن نـحميها من النّاس، حتّى من أفراد أسرتنا.

- ماذا تقصد؟

- سأُخبرك يا جدّي بما سأفعله.

نادى «أنس» على ابنته، وكانت المسكينة تحمل همّ الميراث، حتّى أنّها لم تبتسم منذ وصولهم، كانوا جميعًا سُعداء، أمّا هي فكانت تتألّم فكثرة مصافحتهم وملامستها لأياديهم بكفّها الرّقيق جعلت رأسها مزدحمًا بالأفكار، سألها أمام «أبادول»:

- كيف حال رأسك الآن يا حبّة القلب؟

- لا يزال يؤلمني، كان الطرق قاسيًا يا أبي.

وضع «أنس» يده على رأسها من الخلف، ومسّدها برفق ثُمّ قال لها وهو ينظر في عينيها بحنوّ بليغ:

- «فرح» هل تثقين بي؟

- طبعًا يا أبي!

- لو طلبت منك شيئًا قد يكون ثقيلًا عليك، هل ستفعلينه؟

- نعم بالتّأكيد.

تنهّد ومسح وجهه وقال لها:

- أرى أن عِلم أفراد العائلة بمَيزتك الّتي لا تزالين تحملينها سيُسبب لك الكثير من المشكلات، وقد لمستُ مدى مُعاناتك، ولا أُحبّ أن أرى أحدهم يسحب يده من بين يديك خوفًا من أن تقرئي ما يجول بخاطره، فهل تستطيعين محو هذه الذّكرى من رأس «خالد» و«سُليمان»، و«ميسرة»، وتحديدًا ما حدث أمام باب بيت النَّطَاسِيّ قبل وصول الصّقور عندما رفض الجميع قبول الميراث منك، وبهذا سيظلّ في ذاكرتهم أنّ ابنة «طرجهارة» أتت لتتسلّم ميراث أمّها وحَسب ثُمّ ظهور الصّقور.

- لكن يا أبي قد يتذكّرون حوارًا آخرَ عن هذا الأمر.. فيتشككون!

- لا ريب أنّ الأمر لن يكون بتلك السّهولة، سأُتابع معك خطوة بخطوة، ولو لاحظنا أيّ تشككٍ من أيّ أحدٍ منهم سأدلّك على ما تفعلينه، أمّا أنا.. فلتعلمي أنني لا أتضرر من أن تكوني أعلم بحالي منّي، ولا أخجل، ولا أخاف، فأنت ابنتي وقرّة عيني.

أرخى الصّمت عباءته عليهم، كان «أبادول» يراقبهما في صمت، وكانت «فرح» تنظر إلى عينيه وتنتظر منه إشارة، فقال وهو ينظر إليها بإشفاق:

- لا بدّ أن يظلّ أبوك على علم بكلّ شيء، فالطّريق أمامك طويل، وستحتاجين لمشورته من آن لآخر يا بنتي.

رمشت بعينيها في قلق، وسألت أباها بخفوت:

- حتّى أُمّي لن أُخبرها؟

أمسك «أنس» بكتفيها، كان يتفهّم حاجتها لإخبار أُمّها، فعلاقتها بـ «مرام» قويّة وعميقة، قال بعد تفكير سريع:

- لكِ أن تُجرّبي إخبارها ولكن ليس الآن، ولنرَ ما سيحدث، لو شقّ الأمر عليها وعليكِ تستطيعين معالجة الأمر بسهولة، وتمحين أمر إخبارها عن جبينها مرّة أخرى.

هزّ «أبادول» رأسه وهو يبتسم، ولم تدم حيرتها، فقد راق لها هذا وسيخفف الحمل عنها فقالت:

- سأفعل يا أبي ما طلبته منّي، سأبدأ بـ«ميسرة»، وها هو «سُليمان»، لا أظنّ أن أيًّا منهما قد أخبر باقي أفراد العائلة، وأُمّي لم تعرف بعد لكنّها تشعر أنّ بي خطبًا ما، و«سُليمان» يُثرثر مع هذا الغلام منذ وصولنا ولا أظنّه أخبر والديه.

- عندما يعود «خالد» سأسأله أوّلًا هل أخبر «حمزة» أم لا.. وسأُبلغك يا بنتي، أمّا الآن فلتُسرعي، فسنذهب أنا وأُمّك لزيارة الجدّة «ناردين»، وستأتين معنا.

كادت «فرح» تنصرف، لكنّها عادت وقالت بتلهّف:

- أبي.

أجابها بعينيه، وكانت نظرته كافية، فهي قُرّة عينه ومهجة قلبه، قالت بتأثّر:

- لن أستطيع محو سرّي عن جبينك، فأنا أحتاجك!

وألقت بنفسها في حضنه، فدمعت عيناه، كان يُشفق عليها مما تُعانيه، وصار هذا سرّهما منذ ذلك اليوم، ولم يعلم أحد به إلّا «أبادول».

اقتربت «حبيبة» وقالت لجدّها «أبادول»:

- جدّي، ما دُمنا في مملكة البلاغة، وأنت حارس من حرّاس المكتبة العظمى و..

- وماذا؟

- لي رجاء عندك!

- ما هو؟

- أُريد أن أرى ابنتي الآن! فهي ليست في حاجة لطائرة وتذكرة لكي تزورنا هنا.

ثُمّ عقدت ذراعيها في تصميم وقالت:

- لقد أوحشتني ابنتي كثيرًا.

تعالت ضحكاتهم، وتركهم «أبادول» لدقائق تواصل فيها مع صديقه «باديس» بالجزائر ليُعلمه ليستعدّا هناك في غُرفة تُشبه غرفة الأشباح

في بيته هناك، وانطلق الرّماديّ مع «قطرة الدّمع» إلى الجزائر، وجلبا «سارة» و«طارق»، كان لحضورها وقع لطيف، وطفق «طارق» بروحه المرحة يسألهم عمّا حدث، أمّا «سارة» فكان لديها خبر جميل، فبعد شهور سيصل حفيد جديد، من أحفاد «باديس» و«أبادول»، وربّما يكون لديه فضول شديد وقلب من حديد كوالده.

انتهت زيارة عائلة «أبادول»، وحان وقت العودة، قرر «أبادول» العودة معهم على أن يرجع لمملكة البلاغة لاحقًا، فوقف حُرّاس المكتبة يودّعونهم، وخلفهم كان يقف الأصدقاء من أهل المملكة، وعلى الجانبين كان «المغاتير» و«بيادق الظّلام» يصطفّون في نظام بخيولهم، زُلزلت الأرض فجأة تحت أقدام الجميع، وبرز «المجاهيم» من تحت الأرض، تقدّم زعيمهم ووضع يده على صدره وأحنى رأسه في وقار أمام «أبادول» وأحفاده، وتبعه أفراد عشيرته في مشهد مهيب، ثُمّ تلاشوا فجأة كما ظهروا فجأة، وتوالت الصّقور تحمل أفراد العائلة للبيت المهجور مرّة أُخرى، هكذا طلب «أبادول»، لقد أراد توديع البيت قبل أن ينتقل مع عائلته لبيته الكبير، وعندما وصلوا، همس «أبادول» في أُذن حفيدته «فرح»، وكان باقي العائلة مشغولين بجمع حقائبهم، فهزّت رأسها وانطلقت تتحسس جُدران البيت، و«أنس» يُراقبها وقلبه يهفو، أغمضت عينيها وألصقت رأسها بالجدار، وسكنت للحظات، ثُمّ التفتت لجدّها وأبيها وكانا يترقبان ما ستبوح به، قالت بصوت مُتهدّج ويدها ترتجف:

- كان هذا البيت لرجلٍ صالح، لكنّ أحفاده ضلّوا من بعده، وكرهوا هذا البيت لأنّه يُذكّرهم بالماضي، فهجروه طويلًا قبل أن يبيعوه.

قال «أنس»:

- كان يطفو هُنا مُتعبا بين البُيوت حوله، كما تطفو جزيرة «سُقُطْرى» هناك، وينتظر من يفكّ أسره.

وضعت كفّيها على الجدار وأضافت:

- كان ينقل أصواتنا ليُطمئنهم هنا علينا يا أبي، وليُثبّت نفسه، فثبات عائلتنا يعني له الكثير، وكان يحتاج هذا.

قال «أبادول»:

- كُنت أراكم في تلك المرآة.

التفتت «فرح» نــحو «أبادول» وقالت:

- هذا البيت يُحبّك يا جدّي! ولهذا أراد أن يُطمئن قلبك.

- وأنا أحببته!

احتضنهما «أبادول» معًا وقال:

- سيأتي أحدهم لشراء هذا البيت قريبًا، وسيقيم هُنا مُحارب جديد، ستحلّق الصّقور لتحمله، وسيسترد التّاريخ باسترداد الكُتب، لا تزال «سُقُطْرى» تحمل الكثير من الأسرار، التّاريخ يقبع هناك، في رؤوس «العنادل»، واليمن كُلّه خير، فالإيمانُ يَمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ[1].

انتهوا من جمع أغراضهم، وكانوا يستعدّون للخروج، قال «أنس» وهو يفتح الباب:

- وداعًا لــ «أبناء خَنْدَريس».

وقف «أبادول» وهو يتأمّل البيت وقال بعد صمت وقور:

- القُوّة ليست في البدن، ولا في العقل، ولا في القُدرة على التّحكم في الآخرين، وليست في المال والمُلك والقُصور المُشيّدة، ولا في الأبناء، فالذّريّة قد تصلح أو تفسد، ولا حتّى في العلم والذّكاء،

---

(1) قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «أتاكم أهلُ اليمنِ، هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوبًا، الإيمانُ يَمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ».

فالعلم يفنى وقد يُرفع، وحتّى الكتب لا تدوم وقد تزول أحبارها، وليست في أيّ ميراث فنــحن بشرٌ ولسنا أنبياء، وإنّما القُوّة الحقّ في روح المؤمن، ومُنتهى القُوّة في يقينه بالله.

****

في ليلتهم الأولى عندما عادوا لبيت «أبادول» بعد مرور سريع بالبيت المهجور أوّلًا، خلد الجميع للنوم فقد كانوا مُتعبين، وبقي «خالد» يُعاني من أرق لا هوادة فيه، لم ينس قط تلك الفتاة الّتي رأى صورتها في المرآة، ولم ينس عينيها الباكيتين، ولا ضحكاتها العفويّة البريئة، ولا صوتها.

كان قد وصف ملامحها لحُرّاس المكتبة عندما حملتهم الصّقور لهُناك، سألهم كثيرًا ولم يصل لإجابات، وبحث نصّ الرّسائل الّتي كانت تصله مع أخيه «حمزة» لعلّه يصل إلى أيّ تفسير أو علامة، فتح العُلبة وطالع المرآة عدّة مرّات لعلّه يرى وجهها مرّة أُخرى، وتحدّث إليها عشرات المرّات، كان يحدق إلى صورة وجهه كالمجنون، ويتساءل عمّا يفعله حتّى لا يظلّ عالقًا هكذا!

بقي لساعات يكتب الكثير من الرّسائل على الأوراق ووضعها في العُلبة وأغلقها، وتركها للصّباح لعلّها تختفي وتصل للطّيف الّذي كان يُراسله، لكنّه وجدها كما هي في اليوم التالي. استيقظ «أنس» مُبكّرًا وفوجئ به يجلس كما تركه بالأمس! فطلب منه أن يُعطيها له ليحفظها بعيدًا عن عينيه. فأعطاها له وطلب منه طلبًا أخيرًا على استحياء، وهو أن يصحبه لزيارة البيت المهجور مرّة أخرى ليبحث عن العُلبة الثّانية، لعلّه يعثر عليها هُناك، وكان «ميسرة» يبيت عندهم بالبيت تلك الليلة، فأخذا منه المفتاح وذهبا. كان «خالد» يتعلّق بالقشّة الأخيرة، جلس بجوار أبيه بالسيّارة والكثير من الأفكار تراوده، كان دخوله للبيت مرّة أُخرى له رهبة، أخذ يتجوّل فيه ويفحص كلّ شبرٍ منه لعلّه يعثر على أثر، ظلّت

فكرة أنّ تلك الفتاة قد ماتت تطرق رأسه وتنقره نقرًا مما جعله في حالة توتّر شديد، لم يعثر على شيء، وقرر الخروج في النّهاية مع والده الّذي كان يُقدّر معاناته، وقفا بالحديقة يتأمّلان البيت من الخارج، همس «خالد» للبيت وهو يقف أمامه:

- أخبرني هل هي على قيد الحياة أم لا؟ افعل أيّ إشارة.. اظهر أيّ علامة!

مرّت لحظات ثقيلة، وكان أبوه قد ركب السّيارة وأدار مُحرّكها وجلس ينتظره، استدار والهمّ يقبع على جبينه، أشفق والده عليه، حاول قطع شروده بحوار قصير لكنّه لم يفلح في التخفيف عنه، فقد كان رأسه مثقلًا بالهموم هو الآخر، فأمر ابنته وما حدث لها ينخر في قلبه، كما أنّه يفكّر في بيع شقّتهم بالإسكندرية، وحتّى السيّارة التي يقودها الآن سيبيعها بالإضافة للمشغولات الذّهبية الخاصّة بزوجته ليُسدد الدّين للمستكشفين على أقساط، ران عليهما صمت ثقيل، توجها عائدين نـحو بيت «أبادول»، وعندما وصلا وجد الفتاة تقف مع أبيها أمام الباب، فقفز من السيّارة، وتواثبت دقّات قلبه، وارتعشت يداه، فقال بصوت يرتجف في انفعال:

- أنتِ؟

أشرق وجهها بابتسامة لطيفة، مدّ أبوها يده ليُصافحه وكان «خالد» قد نسي أنّه موجود فشعر بالحرج، فقال له وهو يتمعّن في الكدمات على وجهه:

- مرحبا أيّها المُحارب! يبدو أنّك خُضت معركة عنيفة!

أقبل «أنس» ورحّب بهما بعد أن قدّم أبوها نفسه إليه بأنّه من المُحاربين، وكانت العُلبة في يد الفتاة ففَطِن «أنس» لكونها هي الّتي

كانت تظهر لابنه في المرآة، ودلفوا جميعًا لبيت «أبادول». كانت تلك هي «طيف»، وهذا هو اسمها، وهي ابنة مُحارب قديم من مُحاربي مملكة البلاغة، الّذي ترقّى منذ أعوام لرتبة «المُستكشفين»، وكانت قد قامت بشراء تلك العُلبة الغريبة من متجر للتُحف والمقتنيات القديمة، فهي مُغرمة بها، ويبدو أنّ أصحاب البيت المهجور السّابقين قد عثروا عليها وتخلّصوا منها لسبب ما، وباعها التّاجر لها وهو زاهد فيها. كانت «طيف» قد رأت وجه «خالد» بعد أن قام بإسقاط العُلبة حين تصدّعت المرآة وتفحّصها في الصّباح ليجدها قد عادت سليمة، فانقلبت الأمور، وصارت تراه من جهتها وتسمع صوته، وصوت رفاقه، رأت وجوههم وهم يتناقشون معه عنها، رأته وهو يتفحّص المرآة في حيرة، وسمعته وهو يهمس لحظة خروجه من «سُقُطْرى» ويُناديها أن تظهر مرّة أُخرى قبل رحيله مع الصّقور، كان أبوها يقف حينها بجوارها فقد أخبرته بما حدث، ورأى الصّقور في المرآة وهي تُحلّق فوق رأس «خالد»، وتعرّف على «الرّمادي»، فأدرك أنّه مُحارب، فتواصل مع السيّد «أحمد»، وكان يعرف الكثير عن عائلة «أبادول»، حتّى أنّه التقى به شخصيًّا في مملكة البلاغة، فدفعه الفضول للسعي للالتقاء بحفيده «أنس» الّذي يعشقه جدّه ويُردد دائمًا أنّه سيكون حارسًا من حُرّاس تلك المكتبة يومًا ما! فطلب من السيّد «أحمد» عنوان بيت «أبادول». أمّا «طيف» فقد سهرت للصّباح تُراقب «خالدًا» وهو يُحدّثها أمام مرآة العُلبة طوال الليل.

كانت هي صاحبة الرّسائل، وكانت هي الفتاة الّتي سرقت قلبه. كان البيت يعرفها، فقد دخلته من قبل، بعد أن كانت تسأل عن لوحة زيتيّة بطراز خاصّ في متجرٍ من متاجر التّحف والمقتنيات العتيقة، وقد حفظت صورتها على هاتفها وكانت تُريها لصاحب المتجر عندما أخبرها أنّه رأى لوحة زيتيّة من نفس ذلك الطراز الّذي سألته عنه، وعرض عليها

العُلبة الّتي عنده وأخبرها أنّه اشتراها مع الكثير من الأغراض الثّمينة من شابّة تسكن نفس هذا البيت، فطلبت العنوان، وأصرّت على الذّهاب للقاء صاحبة البيت، الّتي دعتها لتناول فنجان من الشّاي معها، وأخبرتها عن تلك العُلبة الّتي كانت «طيف» لا تزال تحملها، وكيف كانت جدّتها تحفظ فيها رسائل زوجها الّتي كان يُرسلها لها عندما اضطرّ للسّفر، وأخبرتها أنّ هناك عُلبة أُخرى مثلها، لكنّها لا تعرف مكانها، فبعد وفاة جدّتها أصبح البيت كئيبًا وهم يستعدّون لبيعه، أعطتها الشّابة تلك اللوحة الزّيتيّة هديّة، ورفضت أن تبيعها لها، فقد كانت زاهدة في بيت جدّتها وما فيه، كانت اللوحة لجزيرة جميلة، تطفو فوق زرقة الماء، وسعف النّخيل يتعانق فوقها وكأنّه سحاب أخضر، وهناك خيالان مشوّشان لحبيبين بين سيقان أشجارها، والطّيور والزّهور تكاد تطفر من صفحة اللوحة، حتّى أنّها تحسست بروزها بطرف أناملها وابتسمت، كانت تعشق التّحف، وتقع في المشكلات بسببها، وخاضت الكثير من المغامرات بسبب إدمانها لاحقًا، هنا وعلى أرض مملكة البلاغة.

قال «خالد» ضاحكًا:

- قُمقُم، قبر، جمجمتي، أجنحتي الخفيّة، سأتشرنق الآن، الحيزبونات الثّلاث، لقد ظننتك عفريتة من الجنّ!

ضجّ بيت «أبادول» بالضّحكات، قال أبوها وكان رجلًا خفيف الظلّ:

- عندما تغضب من أشقّائها تصف بيتنا بالقبر، وغرفتها بالقُمقُم.

- وما الحيزبونات الثلاث؟

احمرّ وجهها خجلًا وهمست:

- ثلاث بنات يُضايقنني، لم أتخيّل يومًا أنّ هناك من سَيطّلع على خواطري الخاصّة، كانت مُجرّد فضفضة!

كان هذا أوّل لقاء لهما، ولم يكن الأخير، كانا في حاجة للتعارف بشكلٍ أعمق، وتمّ بالفعل خلال السّنوات التّالية في نطاق العائلتين. اصطدما كثيرًا ببعضهما، واختلفا حتّى ظنّ كلاهما أنّه من المُستحيل أن يتزوّج من الآخر! وتناطحت أفكارهما وكأنّهما قطبين متضادين، نضجا معًا شيئًا فشيئًا، وعندما كان كلّ منهما أهلًا لتفهّم عيوب الآخر ثُمّ قبولها وسترها تزوّجا، وتآلفا في انسجامٍ كروح واحدة سُكبت في جسدين.

لا يوجد شخص رائع طوال الوقت، ولا يوجد شخص كامل فوق الوصف، بل هناك فراغٌ يُملأ، وألمٌ يُداوى، وعيب يُستر، وخطأ يُنسى، وهفوات يلزمها تغافل، ولحظات ضيق في صدر طرف يحتويها اتساع صدر الطّرف الآخر، قد يبدأ الحبّ بسهم من سهام العين يُلقى في الفؤاد، لكنّه لن يكتمل إلّا بالعقل.

طافت السّعادة بالبيت، وكما مرّت لحظات ثقيلة، مرّت تلك اللحظات خفيفة حلوة على بيت «أبادول»، ليست الكُتب فقط هي التي توصف بكونها حيّة وتتنفّس وتعيش وتشعر بنا، بل كذلك البُيوت، وكذلك المرايا، وبعض العُلب الممتلئة برسائل الحُبّ، كانت تلك العُلبة سلوانًا له فعلى الرّغم من أنّها كانت تُحيّره طوال الوقت، فقد كان يُعاني من قلقه على أبيه وأخته و«سُليمان» في أوّل رحلته، ثُمّ من حزنه على «وِجْدان»، ثُمّ من آلام جسده خلال قتاله الّذي أُجبر عليه، فكان انتظاره لرسالة منها يخفف عن نفسه وعن روحه المُتعبة، وذلك المُحارب كان في حاجة لروح تتآلف مع روحه، وقد عانى من قبل في قلب بحر من بحار تلك المملكة العجيبة، عندما كان يمخر عباب هذا البحر مع حيتان الأُوركا، وتلك كانت أجمل الهدايا الّتي منـحتها مملكة البلاغة لأحد مُحاربيها، وها هو قد التقى بطيفه الحاني.. «طيف»! واجتمعت صورتهما معًا، أمام مرآة من لُجين، يضوي فيها الحبّ ويبرق.

جاشت عواطف «مَيْسرة» وهو يرى كلّ هذا، ترنــحت أعطافه وتذكّر زوجته، وشعر بتَحنان تجاهها، وشوق جارف يجتاح قلبه، كان وقت انصرافه قد حان، فقد استضافوه تلك الليلة رغم إصراره على الذّهاب لبيته، لكنّ «أنس» لم يتركه، خرج بالملابس الّتي استعارها من «حمزة»، بعد أن حيّاهم جميعًا، صمم «أنس» على توصيله بسيّارته لبيت «سلمى»، وعندما وصلا ترجّل من السيّارة ووقف أمام «أنس» يسأله:

- هل السّترة تُناسبني؟ أشعر أنّ البنطال ضيّق بعض الشّيء!

تفحّصه «أنس» برويّة وقال له:

- أنت رائع!

أشار لوجهه وعاد يسأله:

- وتلك النّدبات؟

- زادتك وسامة أيّها المتهوّر.

رفع حاجبيه باندهاش وقال باسمًا:

- أنا متهوّر يا سيّد «أنس»؟

- نعم؛ توقّف عن إلقاء نفسك في أتون المجهول لمجرّد تجربته، حاول أن تُفكّر قبل أن تخطو أيّ خطوة جديدة، واحسبها جيّدًا، ولتمنــح نفسك إجازة من عالم المُستكشفين، فأنت في حاجة للاهتمام بحياتك الشّخصيّة، كوّن أُسرتك يا «ميسرة»!

هزّ «ميسرة» رأسه موافقًا لكلماته وقال:

- نعم؛ أحتاج هذا بشدّة، أشتاق لهذا الجوّ الأُسريّ الدّافئ.

- وتحتاج إلى الحبّ، كلّنا نــحتاج للحبّ يا بني، زوجتك تحتاجك.

- وأنا أحتاجها.

تلفّت باضطراب ثُمّ قال:

- أودّ أن أكون مثلك يا سيّد «أنس»، أبًا وصديقًا لأبنائه، وابنًا بارًّا لأبيه وأُمّه، وزوجًا تحبّه وتوقّره زوجته، حتّى «أبادول» يكنّ لك معزّة خاصّة! ليتني كُنت فردًا من عائلة «أبادول».

- صرت كذلك بالفعل.

عانقه «أنس» وأخذ يُربّت على ظهره، وانصرف وهو يتلفّت، ثُمّ استدار فجأة ورفع صوته قائلًا:

- سأحضر مع «سلمى» لزيارتكم قريبًا، لتسمع منكم بنفسها عن رحلتنا.

مضى «أنس» بسيّارته، واختفى «ميسرة» عن ناظريه، وهو لا يزال يجوب بقلبه، لقد أحبّه «أنس»، فقلبه الأنيق يتّسع للكثيرين، لكنّه الآن مطمئنّ عليه، فزوجته تُحبّه، وكانت تنتظره.

صعد «ميسرة» درج البناية، ووقف وقلبه يخفق بشدّة، طرق الباب، ففتحت أُمّ زوجته، دلف ورأى «سلمى» فاخترقت حجاب قلبه بوداعتها ورقّتها، كانت ترفع شعرها في كُعيكة غير منتظمة تفرّ منها خصلات شعرها المُتمرّد، كانت رقيقة كالتّنهّدات، الآن يشعر بحبّ جارف يكاد يطيح بكيانه، زالت الغشاوة عن عينيه وعقله وتحررت روحه من أسر تلك اللوثة الّتي كادت تهدم حياته هدمًا، صافحها واحتضن كفّها بيدين رطّبهما الخجل، بدأ يُقدّم اعتذاراته بقبلة على جبينها، لم يجرؤ على الإلحاح، ولم تقوَ هي على الكلام واللوم والعتاب، أو حتّى الهمس، فقد شبعا من الجدال والنّزاع سابقًا. بدأ يتلجلج في جُملٍ لا أوّل لها ولا آخر، أنصتت إليه حتّى انتهى، قرأت في عينيه أنّه أخيرًا قد عاد! كانت ترمضها فكرة أنّه سيُطلّقها أو سيتزوّج عليها، وقد أهلكتها الظّنون. أغمضت

عينيها لتنزلق عبرة من عبراتها في صمت، فالتقطها بأطراف أصابعه، فانهارت عندما لمس وجنتها، وألقت بنفسها في حضنه.

كانت قد وصلت إلى وداعة المرأة النّاضجة، حيث وجدت الهدوء في داخلها، لكنّه كان الزّوبعة الوحيدة وسط هذا السّلام الدّاخلي، ولم تتمكّن أبدًا من التملّص من حبّه، تغضّن فمه وارتجف وهو يهمس راجيًا:

- سامحيني!

قالت بخفوت:

- سامحتُك.

****

بيت «أبادول»

تثاءب «عمران» وكانت «فرح» قد انتهت من سرد قصّة «أبناء خَنْدَريس» عليه، فقد كان هو من طرق باب غُرفتها ليلًا، وكان الوحيد الّذي بقي مُستيقظًا ليسمع منها. كانت ابنة عمّتها «سارة» قد رُزقت من «طارق» بثلاثة من الصّبيان، أكبرهم «عمران» الّذي سهر طوال الليل يُنصت لقصّة أبناء «خَنْدَريس»، وكان في التّاسعة من عمره، لديه فضول شديد وقلب من حديد كأبيه، كان توّاقًا لمعرفة كلّ شيء يخصّ مملكة البلاغة، وهو شديد التعلّق بـ«فرح» الّتي كانت تُراسله باستمرار.

منذ أُسبوع كان يجلس في الطّائرة القادمة من الجزائر بجوار أُمّه، وكلّ حواسّه مشحوذة بقوّة، ودّ حينها لو استطاع الطيران مع الصّقور كما سمع من أبيه، وأن يقفز من مقعده ويخترق الغيوم ليصل إلى العمّة «فرح» بسرعة ويستمع منها للحكاية، هكذا كان يُناديها مثل البقيّة: «عمّتي فرح»، على الرّغم من أنّها ليست عمّته.

كان أخواها «خالد» و«حمزة» يترددان على الغرفة من آن لآخرٍ، ليحملا من نام من أبنائهما، فقد تبع الصّغار «عمران» لغرفة «فرح»، فنقلوهم تباعا لأسرّتهم، حتّى أنّهما حملا ابني «سارة» الأصغرين أيضًا، وبقي «عمران» معها، كانت تستلقي على ظهرها وهو بجوارها يُلصق رأسه برأسها وينصت باهتمام شديد، كبح تثاؤبًا وسألها:

- هل حملتكم الصّقور إلى المكتبة العظمى؟
- نعم.. والتقينا بحرّاس المكتبة، وهكذا تحرر هذا الشّعب المنسيّ من أسر «خَنْدَريس».
- هل أعادتكم الصّقور إلى غرفة الأشباح هنا؟ أم لذلك البيت الغريب المهجور؟
- عُدنا للبيت المهجور بالتّأكيد مع باقي أفراد العائلة، كُنّا جميعًا سُعداء، حتّى البيت كان يبدو سعيدًا مثلنا. رأينا النّقوش وهي تظهر على السّقوف والجُدران، حتّى الحديقة صارت أجمل، وكأنّ هُناك بُستانيًّا خفيًّا يزرعها، وامتلأت بالأزهار، واخضوضرت أرضها بعشب نديّ جميل، وعلّقوا أربع لوحات على جدران غرفة المعيشة الأربعة، كلّ واحدة منها تصف جزيرة من الجزر الّتي زُرناها، «سُقُطْرى»، جزيرة النّور، الجزيرة الخضراء، وحتّى جزيرة المشّائين.

سألها بفضول:

- ماذا فعلتم مع السيّدة «ليلى» الّتي أرادت بيع بيت الجدّ «أبادول» هنا؟

رفعت «فرح» حاجبيها وتنهّدت في ارتياح، وتذكّرت كيف عملت الأُسرة لتُسدد ثمن البيت لدار النّشر والمُستكشفين، حتّى أنّهم باعوا بالفعل بيوتهم الأُخرى، والسيّارتين، والمشغولات الذّهبيّة الّتي تخصّ

جدّتها وأمّها وعمّتها، وأصرّ والدها على تقسيط المبلغ الباقي واجتهد هو و«يُوسف» ليُسدداه، بعد سنوات صارا يدعمان المُستكشفين بالمال لِشراء البُيوت العتيقة، وأخيرًا استطاعا شراء سيّارتين جديدتين. قالت وقد قفزت صورة السيّدة «ليلى» لذهنها:

- منحها جدّي «كمال» مبلغًا كبيرًا من المال أسكتها.

وأخبرته أنّ «ليلى» عادت مرّة أُخرى لبيت «أبادول» بعد شهرين من عودتهم من «سُقُطْرى»، جاءت تتساءل من أين جمعوا هذا المبلغ الكبير من المال؟ وظلّت تُردد أنّهم يُخفون عنها إرثًا ما، وأحدثت جلبة بالبيت، طفح الكيل، وكانت «حبيبة» قد وصلت لذروة غضبها منها، فرفعت حاجبيها وقالت:

-ما بك يا «ليلى» تتراقصين على مقعدك كبندول السّاعة، أيّ مالٍ تسألين عنه؟

- ما دام جمع هذا المبلغ من المال يسير عليكم فحتما هناك الكثير غيره، كُنت على ثقة من وجود ميراث هنا أو هناك.

- أين هذا الهُنا والهُناك يا ملكة جمال الفيّوم؟

- أتسخرين منّي يا «حبيبة»؟ أنا أُطالب بحقّي!

- أيّ حقٍ يا ذات الرّداء الأحمر؟

- أكله اللصان المُخادعان.. أبوك الذّئب وابنه «أنس».

وثبت «حبيبة» من مقعدها ووقفت أمامها ونظرت في عينيها بحنق شديد ثُمّ صفعتها على وجهها صفعة قويّة أطاحت بالقرط من أذنها، فأخذت «ليلى» تصرخ كالدّجاجة المنكوبة، جذبتها من ذراعها نـحو الباب وهي تقول:

- إيّاك أن تعودي إلى هنا مرّة أُخرى وإلّا سأحتجزك في غُرفة الأشباح وسترينهم حقًا بعينيك هاتين أيّتها الجشعة.

لوّح السيّد «كمال» بقبضته في الهواء تحيّة لابنته، أمّا «يوسف» فداهمته نوبة من الضّحك، واحتضن «حبيبة» ليُهدئ من غضبها، كان لا بدّ من ردع تلك المرأة الجشعة، حتّى لا تُكرر الأمر. رحَلَت «ليلى» للأبد، ولم تجرؤ على زيارتهم مرّة أُخرى.

صفّق «عمران» بيديه، ثُمّ عقد ذراعيه ومال للأمام في جلسته، وسألها بفضول:

- وصندوق الكنز الّذي كان بالبيت الّذي التقمكم؟
- وجدناه عندما عُدنا إلى هناك، لكنّنا وجدناه خاليًا! كان «حمزة» قد ألقاه بالحديقة.
- وخريطتك، وبوق خالي «سُليمان»؟ وعصا جدّي «أنس»؟ وعلبة العمّ «خالد»؟
- ترك أبي عصاه لجدّة «البراء» و«جُندب»، فقد رأى أنّ هذا سيُسعدها، وترك «سُليمان» البوق لـ «شُرْشُمانة»، هديّة لطفلها الّذي ستُنجبه، أمّا «خالد» فلا تزال العُلبة معه.
- ماذا فعل بها؟

أخبرته «فرح» بقصّة العُلبتين، فابتسم «عُمران» عندما فكّ لغز العلبة الخشبية، تلك العُلبة الّتي كان «وِجْدان» و«رَيْدانة» يحفظان فيها رسائلهما، والّتي قذف هذا البيت الغريب بها لصدر «خالد»، فقد رآه الفارس المناسب لتلك الفتاة جميلة الرّوح الّتي تعشق التُّحف والمقتنيات العتيقة. سألها «عمران»:

- والعمّ «ميسرة» ماذا فعل بعد عودته؟
- عاد لعمله ولحياته وزوجته، كانت المسكينة قلقة عليه وتنتظره، وقد زارتنا بعد صُلحهما أكثر من مرّة، وعندما سمعت منّا عن

مملكة البلاغة صارت شغوفة بها، وتشتاق لزيارتها يومًا ما كما حدث مع جدّتي، لقد أصبحا من أعزّ أصدقاء عائلتنا.

ثُمّ أضافت «فرح» وهي تبتسم:

- رُزق منها بطفلة جميلة أسماها «فرح»، وبعدها بعامٍ رُزق بصبيّ وأسماه «أنس».

- حقًا!

هزّت «فرح» رأسها بلُطف، لمعت عينا «عمران» وهو يسألها مجددًا بفضول:

- ماذا حدث لخريطتك يا عمّتي؟

قالت «فرح» والشّغف يُطلّ من عينيها:

- خريطتي لا تزال معي!

وثب بحماس قائلًا:

- حقًا! أين هي؟

فتحت «فرح» خِزانتها وأخرجت الخريطة، كانت هذه المرّة ترسم تفاصيل وحدود بيت «أبادول»، بغرفه وردهاته وحتّى سردابه وحديقته، ابتسم «عمران» وأخذ يتأمّل تفاصيلها بعينيه النّابهتين، ران عليهما صمت لطيف، كان الشّغف يملأ صدره، عاد يسألها:

- وماذا أيضًا؟

رأت الفضول يُطلّ من عينيه، فابتسمت وأخذت تصف له كيف رأوا النّقوش تظهر على السقوف والجُدران بالبيت المهجور، وكأنّ يدًا خفيّة ترسمها، تماما كتلك النّقوش الغريبة المنتشرة في بيت «أبادول»، وأشارت للنّقوش المنتشرة في سقف وأركان غُرفتها، قال «عمران» بعد أن اعتدل جالسًا:

- هناك نقوش مثلها في بيت جدّي «باديس» بالجزائر.

ابتسمت «فرح» وهي تطوف حوله بنظراتها في وداعة، وقالت وهي نعسانة:

- هيّا لننام يا «عمران»، فلديّ عُرس والكثير من المهام.

- سأذهب الآن، تُصبحين على خير يا عمّتي «فرح».

أضاء وجهها بابتسامة عذبة، كان يحلو لها أن يُناديها مثلما يُناديها أبناء أخويها، استوقفته قبل خروجه من باب الغُرفة، ونظرت في عينيه وقالت له:

- هل تذكر ما أخبرتُك به عن رفض ابنة «طرجهارة» تسلّم الميراث منّي، وأنّني ظللتُ أحمله حتّى الآن؟

- نعم.

وضعت سبّابتها والوسطى على جبينه، وانتظرت هُنيهة، ثُمّ حرّكتهما يمينًا، وعادت تنظر إليه، ابتسم بلُطف وقال لها:

- تصبحين على خير.

كان هذا مما لم تُخبره به، عن قُدرتها على محو الذّكريات، فقد حجبت عنه ما أرته لها «سَرْوة» عن كيفية محو الذّكريات.

بدأت العلامة تتراقص على الخريطة أمام عيني «عمران»، وقفت «فرح» أعلى الدّرج تُراقبه وهو يُمسك خريطتها ويتبع خُطاه نحو غُرفة أُمّه بالطّابق السّفلي، وعندما اطمأنّت لدخوله، أغلقت باب غُرفتها، واستلقت على فراشها، وأخذت تراقب الثّريا وهي تتأرجح حتّى أخذ الكرى بمعاقد جفنيها، نامت العروس، ونامت معها الذّكريات.

*****

دقّت السّاعة العاشرة صباحًا، هبطت «فرح» على الدّرج في خفّة، وشعرها الطويل يموج خلف ظهرها كالوشاح، جميلة كما كانت وهي صغيرة، وباتت الآن فاتنة وهي ترشح رقّة وأنوثة بعد بلوغها الحادية والعشرين من عمرها، تبدو وكأنّها على حافّة التحوّل لوردة على الدوام، كان «سليمان» ينتظرها أسفل الدّرج ويترقّب استيقاظها بلهفة، وَجَف قلبه عشقًا وهو يراها تنــحدر على الدّرج كما ينــحدر قرص القمر في كبد السّماء، التقط كفّها الرّقيق وطبع قبلة في راحة يدها فقبضت عليها وضمّتها إلى صدرها وكأنّها تخشى أن تطير منها، هكذا كان يتمنى أن يفعل بكفّها الرّقيق منذ طرق فؤاده أوّل لاعج حبّ لها، والآن صار يفعل بعد عقد زواجهما في كلّ مرّة يراها فيها، وها هما يستعدّان للزّفاف، افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة، فبرقت عيناه وهو يتأمل مقلتيها الموسومتين بالبراءة، كانت تقرأه بوضوح، وكأنّه كتاب مفتوح أمام عينيها، وكان يعلم هذا جيّدًا، ويفتح أبواب نفسه بابًا بابًا بطواعية لتَنهل من روحه كما تُحب، ووقتما تُحبّ وكيفما تشاء. فُتنت «فرح» به منذ أن طرقت الأنوثة روحها الشفّافة، وزحف حبّها له رويدًا رويدًا تحت سقف هذا البيت، وكانت تتقوقع على نفسها وتعاني في صمت، لكنّ أباها كان يعرف خبيئتها، وكذلك شعرت أمّها بها منذ اللحظة الأولى، فتعهداها بالنّصح والمُراقبة، كانت تخفي هذا الميل تجاهه بالعبوس في وجهه ومشاكسته باستمرار بكلماتها الحادة، والاعتراض على رأيه مهما كان، حتّى أنّها بدت أحيانًا سخيفة وتافهة وهي تفعل هذا أمام أفراد العائلة، كان هذا عندما وصلا للمرحلة الثّانويّة، حيث كان جدالهما يمتدّ في فصاحة متبادلة تنهكهما، وكأنّهما ديكان يتصارعان، ويتّهم كلاهما الآخر بالحُمق، ثُمّ ينتهي الحوار بإيماءة اعتذار وكلمة «آسف» الّتي كان «سليمان» دومًا من يبادر بها، فقد كان يؤلمه أن تلمع الدموع في

عينيها من شدّة الانفعال، ويتوقف فورًا عن جدالها عندما يلمح ارتجاف مقلتيها، وتنصرف هي مغضّنة حاجبيها الرقيقين في غضب، فيبتسم ويهزّ كتفيه في حيرة، فهي من استفزّته أوّلًا، وهي الّتي بدأت الجدال! لكنّها استطاعت أن تُنسيه هذا كلّه بعد نضوجها، وبطريقتها الخاصّة. سار معها نـحو المطبخ، حيث كانت العائلة تجتمع حول مائدة الإفطار.

كان الجناح السفليّ يضمّ المطبخ وغرفة السيّد «كمال» وزوجته السيّدة «دولت»، وغرفة «حبيبة» وزوجها «يُوسف»، وغرفة ابنهما «سليمان» المطلّة على الحديقة، وغرفة المكتب الدّاخليّة الّتي كانت تخصّ «أبادول»، وغرفة المعيشة الواسعة الّتي كانت المدفأة في صدرها وأمامها الكرسي الخاصّ بـ «أبادول»، والّذي صار المكان المفضل لابنه «كمال»، الّذي فقد الكثير من وزنه، وصار قليل الكلام، ويجلس هادئًا وتغشى عينه اليُمنى سِحاءة[1] لبنيّة حرمته بعضًا من نور البصر بها، لكنّها لم تحرمه من عمق بصيرته في أمور الحياة، كان دائمًا الوتد الأكبر لثبات هذا البيت وتماسك تلك العائلة وخاصّة بعد غياب «أبادول» وانشغاله بمملكة البلاغة.

أمّا الجناح العلوي فقد أصبح خاصًّا بـ«أنس» و«مرام» وأولادهما، كانت أبواب الغرف تغطس في ممرّات قصيرة كالكُوّات يمتد كلّ منها لمتر واحدٍ، وجميعها تفتح على الممرّ الطويل الّذي تستقرّ غرفة الأشباح في نهايته.

تزوّج «خالد» من «طيف» بعد أن أنهى دراسته في كليّة العلوم، وكانت تحمل بين أضلاعها فؤادًا يهيم به، حتّى أنّها بكت كنبع فيّاض يوم الزّفاف، ورُزق منها بتوءمين سيحتفلان قريبًا ببلوغهما الرّابعة من عمرهما.

---

(1) سِحاءة: قِشرةٌ رَقيقة كالغيمة أو جِلْدٌ رَقيقٌ نَاعِمٌ، وسِحَاءةٌ مِنْ سَحَابٍ: أي غَيْمٌ رَقِيقٌ.

كما تزوّج «حمزة» قبله بعام من «نور»، بعد تخرّجه في كليّة الزّراعة، فقد كان يستعجل الزّواج منها ليضمّها لدفء العائلة، ورُزق منها ببنتين، إحداهما - وهي الحفيدة الأولى لـ «أنس»- في الخامسة من عمرها، والأخرى في الثّالثة.

كان جميع أفراد العائلة يميدون من فرحهم لأنّ حفل زفاف «فرح» و«سُليمان» اليوم. رشف «سليمان» رشفة أخيرة من فنجان القهوة الّتي صار يُدمنها بعد دراسته بكليّة الطبّ وحاجته للمنبهات ليسهر على دروسه، فهو يتوق للتخرّج فيها ليُمارس مهنة الطبّ الّتي أغرم بها بعد لقائه بـ «النَّطَاسِيّ»، وسيكون أصغر من يتزوّج من شباب العائلة، كانت نصيحة «أبادول» لأبيه ولـ «أنس» أن يُسرعا بإتمام زواجه من «فرح»، فهو يُدرك أنّ تلك الفتاة تحتاج لهذا الحبّ، ولتستمدّ منه الأمان وتنعم بالسّكينة.

وقف «سُليمان» ليرتدي سترته الجلدية قبل أن يخرج لاستقبال زوج أُخته «طارق» بمحطّة القطار، فقد تأخّر عن الحضور مع أسرته الصّغيرة أسبوعًا لانشغاله ببعض الأعمال بالجزائر، وصمم هو و«سارة» على عدم إخبارهم بموعد وصول الطّائرة حتّى لا يشق عليهم بالسّفر للقاهرة لاستقباله وهم اليوم مشغولون بالإعداد للزفاف، ولم يُهاتفهم إلّا بعد وصول الطائرة لمصر. تعانقت نظرات «سُليمان» مع نظرات عروسه في صمت، كان قد ورث البنية القويّة عن خاله «أنس»، حتى أنّه يُشبهه في شبابه، أمّا عيناه فتطابقان عيني أبيه الحالمتين، نفس اللون ونفس النظرة الشّاردة وكأنّه دومًا يفكّر في أمر مهم، بيد أنّه لا يؤلف الرّوايات مثل «يُوسف».

خلال الأعوام الماضية كان «أنس» يعمل بجد في شركته الخاصّة، وكان يجتهد ليجمع الكثير من المال، فقد أصبح المال مهمًّا ليس من أجل أولاده فقط، بل من أجل مملكة البلاغة!

لم يتخيّل قط أن يكون للمال دور في هذه المهام الّتي يتوارثونها جيلًا بعد جيل، ولم يتوقّع تلك المفاجآت الّتي باتت تظهر له من كلّ حدبٍ وصوب، كان «يُوسف» يُشاركه هذا الهمّ، فانكب على الكتابة والتّأليف، وكان يضع بين يديه كلّ ما يتحصّل عليه من مال، وكأنّهما كيان واحد، تقاربا كثيرًا، والتحمت روحيهما التحامًا شديدًا وعميقًا.

كان القلق ينهش رأس «أنس»، يقلقه أمر «فرح»، فهو الوحيد الّذي يعرف ما آلت إليه أمورها، كان يعاني لأنّه اضطر لإخفاء سرّها عن «مرام»! فهو لا يُخفي عنها شيئًا أبدًا، حتّى أدقّ الأمور، ودّ لو اكتشف تلك الماهيّة الغامضة الّتي باتت تسكن ابنته، والّتي ما تفتأ تزيد يومًا بعد يوم، أخذ يُطمئن نفسه بأنّها كانت دائمًا محميّة ومشمولة بعناية الله، وأنّه وحده سُبحانه يحفظها حتى وهي في حضنه، تساءل هل كان من الصّواب ما نصحها بفعله فأطاعته وهي طفلة في الحادية عشرة من عُمرها لا حول لها ولا قوّة؟ وهل كان من الضروري أن تحمل هذا الهمّ على عاتقها بشكل منفرد؟

هزّ رأسه وكأنّه ينفض الخوف والقلق عنه، وأخذ يُراقب أفراد العائلة في هدوء.

وصل «طارق»، وبعثر السّعادة هُنا وهُناك، وعندما حلّ المساء بالبيت، كان الضجيج المُبهج والضوضاء الحلوة قد حلّا بالمكان ومعهما الفرح اللطيف بحلّته الأنيقة، وكان الجوّ مفعمًا بحميميّة عائلية جميلة.

****

النّهاية

اصطفّت في طول الممر أكاليل الزّهور، وعبق المكان بأريجها الخلّاب، نوافذ البيت كلّها مفتوحة لأوّل مرّة، وأهل الحيّ يملؤون الشُّرُفات، يُطالعون البيت من نوافذ العمارات الفارهة بفضول، هناك ضجيج حلو اليوم!

دلف «أنس» غُرفة ابنته، الّتي كانت تقف بثوب زفافها بين يدي أُمّها كاليمامة البيضاء، تأمّلها بحب وحنان وكان فخورًا بها كما كان دائمًا يفعل، أقبلت «مرام» بعينين دامعتين ووقفت بجواره وهمست له:

- ما رأيك؟

- جميلة!

جميلة وكفى، وكانت جميلة لأنّها «فرح»، وكان هذا كافيًا لهما. اقترب بفيض من المشاعر لم يتمكّن من ترجمته بالكلمات، كانت نظرته الحانية لها تحمل الكثير من المعاني الّتي خطّها الكُتّاب في سطور، ونظمها الشُّعراء في القصائد، وجهر بها الأدباء في منتدياتهم وهم يتحدّثون عن الأب، وحنانه وحبّه لابنته المؤنسة الغالية، ومشاعره في تلك اللحظات. كانت الفرحة المُتراقصة في عينيها وهي ترنو إليه أكبر دليل على أنّ الأبّ هو الحب الأوّل للفتاة، انشغلت «مرام» عنهما، وكانت لا تزال تُخفي عنها سرّها، فقد أخبرتها بالحقيقة أكثر من مرّة، وكانت تُنصت لنصائحها بتركيز شديد، وتهدأ نفسها بمشاركتها العاطفيّة والوجدانية، وتستلذّ بحنانها الفيّاض، لكنّها كانت تعود فتمحو ما أخبرتها به إشفاقًا عليها، فهي أُمّ! والأُمّ بعاطفتها لا تتحمّل أن تكون ابنتها تحت هذا الضّغط، وكان هذا يؤلمها كثيرًا. أمسك «أنس» بيد «فرح» بين كفّيه وسألها:

- أرأيت يا بنيّتي؟

قبضت على يده، ولمست الذّكريات، كلّ الماضي، كلّ الحبّ، كلّ الخوف، كلّ خلجات نفسه، كلّ همهمات صدره، وكلّ الدّعوات!

كان لديها مع أبيها علائق مُدهشة، رأت كلّ اللحظات الحلوة الّتي مرّت به معها، ارتجاف صدره وهو يحملها وهي رضيعة، صوته وهو يُردد الأذان في أُذنها اليمنى، لهفته عليها وهي تناغيه قبل أن تنطق بكلماتها الأولى الّتي جعلته يصيح فرحًا، ثُمّ دهشته وهي تخطو خطوتها الأولى، وفزعته حين تعثّرت، ثُمّ رجفة قلبه الفرح وهو يصحبها للمدرسة في يومها الأوّل مع أُمّها، ثُمّ هلعه عندما التقفها وهي تهوي بين يديه ويهوي معها قلبه عندما كاد «حنطريرة» أن يقتلها في مدينة «كويكول»، وخوفه في كلّ مرّة كانت تختفي من حضنه، وحُرقة قلبه وقهره عندما كان «البواشق» يضربون رأسها في الشّجرة أمام عينيه وهو مُقيّد ولا يملك أن يصدّ عنها، ثُمّ فخره بها عندما جمعت سجلّات المُعلّم النبيل من رؤوس الشيوخ والعجائز وطلّاب العلم في «سُقُطْرى»، وأخيرًا الآن، الآن وهي أمام عينيه بثوب الزّفاف، عانقته وهي تتنقّل بين الضّحك والبكاء، همست في أُذنه:

- رأيت يا أبي.. رأيت!

كان رداؤها أبيض، وكان قلبها أبيض ، حتّى السّحاب الأبيض أقبل يحتضن البيت من كلّ صوب وملأ السّماء، كان حفل زفافهما نهارًا في حديقة بيت «أبادول»، وكانت العُيون مُعلّقة بـ«فرح» وهي تحمل باقة الزّهور بيد وتُعلّق الأُخرى في ذراع أبيها وهو يهبط الدّرج بها ليُسلّمها لزوجها، همست «فرح» لأبيها عندما اقتربا من «سُليمان»:

- لقد أخبرته يا أبي!

رفع «أنس» حاجبيه اندهاشًا وطالعها بنظرة تحمل الكثير من القلق، رنا إلى «سُليمان» الّذي كانت عيناه تبرقان وهو يتأرجح في مكانه من

فرط الانفعال وهو يرى عروسه تقترب، مال «أنس» برأسه وهمس يسأل ابنته:

- وماذا قال «سُليمان»؟

همست بخفوت:

- لا تقلق يا أبي.. سأكون بخير.

غمرتهم الفرحة، وامتلأ البيت بضجيج مُحبب للقلب، إنّه صخب الفرحة، وصوتها الرّنان المدويّ، ودفء العائلة، ودفقات الحبّ الّتي تغمر الجميع.

كانت «فرح» قد قررت أن تبوح بسرّها لـ «سُليمان» بعد عودته من محطّة القطار مع «طارق»، قالت لنفسها سأُجرّب وإن أزعجه الأمر سأمحو حوارنا عن جبينه، وكأنّه لم يكن! ففعلت هذا الصّباح بعد عودته للبيت وأخبرته، فصمت لوهلة، الآن يُدرك سبب ارتدائها للقفّازات طوال الوقت، القُطنيّة في الصّيف، والصّوفيّة في الشّتاء، كانت تبدو للجميع وكأنّها مصابة بحساسيّة في جلد يديها، أشفق عليها، أخذ ينظر في عينيها الرّائقتين وكأنّه يُبحر فيهما بلا هوادة، وعندما وصل بنظراته للعمق، خلع القُفّاز عن كفّيها، ووضع يديه بين يديها، وقال وعيناه تفيضان عشقًا وغرامًا:

- هأنذا بين يديك اقرئي ما شئت منّي، فأنتِ منّي، واستري عليّ ما ترينه من عيوبي.

هربت دمعة من عينيها وهمست له:

- ليتني أستطيع التّخلص من هذا الميراث.

- إن لم تكن لديك تلك المَيزة كُنت سأُخبرك بكلّ شيء عن نفسي، فأنت أقرب إليّ من نفسي.

مسح دموعها بيديه وسألها مازحًا:

- هل فعلتِها معي من قبل؟

- فعلتُ ماذا؟

- أنسيتني شيئًا من قبل ومحوتِه عن جبيني؟

ضحكتْ وأجابته:

- نعم.

- معقول!

- بعد عودتنا، كلّ مرّة كُنت قد فُزت عليّ بها سابقًا في لعبنا ونــحن صغار، كُنت أُذكّرك بها وأُنسيك لحظة الفوز.

ضحك وعاد يسألها وهو يتمعّن في عينيها المسروقتين من لون البُندق:

- وماذا أيضًا؟

ابتسمت في حرج وقالت:

- منعني أبي بعد هذا فقد اكتشف ما أفعله وذكّرني بالأمانة وشدّد عليّ، فتوقّفت.

-لقد أمسكتُ يديك كثيرًا منذ عقد زواجنا يا «فرح»، وأنتِ بالفعل تعرفين عنّي كلّ شيء!

قالت بحرج:

- كُنت أعلم أنّ هذا سيُزعجك، وستنفر منّي، و..

قاطعها هامسًا:

- لم يُزعجني يا «أنا»، وأنا على يقين أنّك لا تعرفين عنّي كلّ شيء، لكنّها مُجرّد ومضات!

- هي كذلك بالفعل.

ابتسم بلُطف وقال:

- على الرّغم من معرفتك لخباياي بحلوها وقُبحها ها أنتِ لم تتغيّري، اقرئيني ككتاب مفتوح بين يديك، وإن شئت امسحي عن جبيني معرفتي بهذا السرّ لترتاحي.

تعانقت نظراتهما، كادت ترفع أصبعيها لجبينه، لكنّه أضاف قائلًا:

- أُحبّك!

ألصق جبينه بجبينها، وحلّقا معًا في رحاب مملكة الحُبّ، وظلّ بيت «أبادول» عامرًا بأحفاده.

حلّقت الصّقور، فوقف أفراد العائلة يُراقبونها، كان «أبادول» على الرّغم من ضعفه الشّديد وكبر عمره لا يزال يُقيم في رحاب مملكة البلاغة، لكنّه عاد اليوم، ليشهد زفاف حفيدته الغالية، جلس يتمتم وهو يُراقب أحفاده، ولحيته البيضاء تُجلله في وقار:

«لن ينقطع المُحاربون عن مملكة البلاغة ما دامت الدنيا تهمس بالحكايا في الغابات، وتَصُبّ الرّياح همسًا في آذان البشر، وما دامت هناك حيوات تُدَوّن بين دَفّتي كتاب».

علا الضّجيج فجأة، ظنّ «أنس» لوهلة أنّ الميراث الّذي كان يحمله في «سُقُطرى» قد عاد، راوده شعور غريب، كانت كلّ الأصوات حادّة ومزعجة وهي تخترق أُذنيه، شعر بدوار خفيف، أمسك رأسه بيديه، أراد أن يفرّ من المدعوّين لينعم بلحظة هدوء ليستعيد فيها رباطة جأشه، رأى «عمران» يقف أمام بوّابة الحديقة كالصّنم وهو يُطالع الطريق بعينين مفتوحتين على وسعهما، هرول نحوه فانتبه الجميع إليه وهو يتسلل من بينهم ويُناديه بانفعال شديد، ألقى الصّمت عباءته على المكان

فجأة، والجميع يحدّقون تجاه «عمران»، ظلّ يسأله عمّا حدث، لم ينطق الصّبي، أمسكه من كتفيه وهزّه فلم ينبس ببنت شفة، أدرك أنّ هناك ما يحبسه عن الكلام، تسارعت دقّات قلب «أنس»، التفت نحو ابنته ففطنت لمُراده وأسرعت نحوهما وهي تحمل أطراف رداءها الأبيض حتّى تتمكّن من الهرولة، خلعت قفّازها، وأمسكت بيد «عمران»، ورأت ما أفزعها!

تمت

شكر وعرفان

شكر وتقدير وعرفان بالجميل لكلّ من كان لهم فضل ليَخرج هذا العمل إليكم بهذا الشّكل.

شكرا للأفاضل والفضليات:

- وسام محمد نبيل.
- لبنى محمد.
- إسراء الشقيري.
- ميّادة محمد.
- ياسمين قنديل.
- سناء يونس.
- بناز نريمان.
- سامية أحمد.
- نفحات الصّياد.
- أسماء محمد لبيب.
- أماني بهيّ الدّين.
- راينا كاريوني.
- يُوسف طارق.
- أحمد صلاح.
- إبراهيم الجاكي.
- د.أحمد السّعيد مُراد.
- د.محمد فؤاد.

عصير الكتب